أبو أوس إبراهيم الشمسان

كَلِمَات وَأَبْيَات، شَهَادَات وَقِرَاءَات

أَبْحَاث مُهْدَاة

إِعْدَاد

أَبْنَاء إِبْرَاهِيم الشَّمْسَان

١٤٤٣هـ/٢٠٢٢م

أبو أوس إبراهيم الشمسان

كلمات وأبيات، شهادات وقراءات

أبحاث مهداة

أبو أوس إبراهيم الشمسان

كلمات وأبيات، شهادات وقراءات

أبحاث مُهداة

إعداد

أبناء إبراهيم الشمسان

١٤٤٣هـ/٢٠٢٢م

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الشمسان، بدر إبرهيم سليمان
أبو أوس إبراهيم الشمسان. / بدر إبراهيم سليمان الشمسان.- الرياض، ١٤٤٣هـ
٥٥٢ص؛ ١٧×٢٤ سم
ردمك ٨-١٩٤١-٠٤-٦٠٣-٩٧٨
١- الشمسان، إبرهيم بن سليمان ٢- السعودية - تراجم أ - العنوان
ديوي ٩٢٨,١٥٣١ ١٤٤٣/١٢٥٩٣

رقم الإيداع: ١٤٤٣/١٢٥٩٣
ردمك: ٨-١٩٤١-٠٤-٦٠٣-٩٧٨

الطبعة الأولى
١٤٤٣هـ - ٢٠٢٢م

صممت الغلاف: بدور بنت إبراهيم الشمسان

بسم الله الرحمن الرحیم

المحتويات

الموضوع		الصفحة
مقدمة		١٣
السيرة الذاتيّة المختصرة		١٧
القسم الأول		
كلمات الأسرة		
الشمسان؛ ثلاثية العالم، الباحث، الإنسان	وسمية بنت عبدالمحسن المنصور	٢٥
أريد أن أغير اسمي	أوس بن إبراهيم الشمسان	٣٠
كل فتاة بأبيها معجبة	ديمة بنت إبراهيم الشمسان	٣٥
أبي العالم الإنسان	بدر بن إبراهيم الشمسان	٣٩
ابنة أبي	بُدور إبراهيم الشمسان	٤١
كلمات الأحباء		
الصامت الحكيم العالم إذا تحدث	د. جاسر عبدالله الحربش	٤٧
قلب إبراهيم	حنان بنت عبد العزيز	٤٩
سمع الأذن ورأي العين	د. راضي الرويلي	٥١
أخي إبراهيم أبو أوس	سارة بنت سليمان الشمسان	٥٢
يا شمس المعرفة	سجى عمر طعامنة	٥٤
جليس أبي أوس	أ.د. سعد عبد العزيز مصلوح	٥٥
حارس العربية مخلص لتخصصه	د. سعد بن عبدالله المحمود	٥٧
شكر لأبي أوس إبراهيم الشمسان	شمسة بنت عبد الله بن محمّد الشهرانيّ	٦٠
خالي المختلف	عبدالرحمن بن عبدالله الخميس	٦١
عمي أبوأوس	د. ليلى بنت عبدالله الشمسان	٦٣
أبو أوس الشمسان والدرس اللغوي	أ. د. محمود أحمد نحلة	٦٤
هكذا عرفتُ شمسه واستضأت بإشراقته	أ. مريم بنت محمد الوباري	٦٨
لا يُدرّسنا، بل يدرس معنا	د. نايف بن عبد اللطيف مبارك الهبوب	٧٢
أبـــيـــات		
سلام واحترام	أ.د. محمد حماسة عبداللطيف	٧٥
معارضة للحماسية	أوس إبراهيم الشمسان	٧٦

قصيدة الشكر	أحمد بن عبدالله العمير- الأحساء	٧٧
ماذا أقول؟	أيوب غالب علي الدَّهَّاق	٧٩
وفـاء	د. جياب الخضر صالح عوض	٨٠
شكر وعتاب	ذو الكنيتين عبدالله العويد	٨١
تهنئة بالعيد	محمد بن علي العمري	٨٢
لأنت العيد	محمد بن عبدالعزيز الموسى	٨٣
إلى شافعِيِّ النحو	محمد بن علي العمري	٨٤

شـهـادات

من سمات شخصية أبي أوس	د. إبراهيم بن سليمان اللاحم	٨٩
يوم يعادل أربعة عشر	أ.د. إبراهيم بن صالح الحندود	٩٢
المتدثرُ بجمال النفس	إبراهيم بن عبدالرحمن التركي	٩٦
سيبويه زمانه	المستشار أحمد بن علي آل مريع عسيري	٩٩
أبو أوس إبراهيم الشمسان الأستاذ الصامت البليغ	د. جاسر الحربش	١٠١
أستاذ الإنسانية والبحث العلمي	حسين المناصرة	١٠٣
شمسانِ من عِلمٍ ومن خُلُق	د. خالد بن عايش الحافي	١٠٦
علم ووفاء	أ.د. خالد عبد الكريم بسندي	١٠٩
الدكتور الشمسان الرمز اللغوي	د. خالد بن قاسم الجريّان	١١٢
عرفتُه قبل أن ألقاه	دغيثر بن مقبول بن محمد حكمي	١١٥
ذكريات لا تغيب	د. راضي الرويلي	١١٧
قاب قوسٍ من أبي أوس	د. زيدان عودة	١١٩
أبو أوسٍ الشمسان العالم الوقور	سامي محمد نعمان	١٢١
وقليلٌ مثلُ أبي أوس	أ.د. سعد عبد العزيز مصلوح	١٢٥
امتداد لمتقدمي النحاة	د. سعد بن عبدالله المحمود	١٢٨
مدرسة العلم والأخلاق	د. سعود بن أحمد المنيع	١٣١
الأستاذ الدكتور أبو أوس الشمسان العالم المتواضع والإنسان الوفيّ	د. سليمان يوسف خاطر	١٣٤
أستاذي أبو أوس	د. صالح بن محمد الصعب	١٤٢
حياة حافلة بالعلم والعمل	د. صالح بن عبد الله الخضيري	١٤٥
د. إبراهيم الشمسان .. عُلُوٌّ في علوم اللغة العربية	د. عايض بن بنية الردادي	١٤٧

حسبي من القلادة	أ.د.عبدالرحمن حسن العارف	١٤٩
أبو أوس. . . وأحقية الاحتفاء	د. عبد العزيز بن أحمد المنيع	١٥٣
أبو أوس	د. عبدالعزيز بن عبدالله الخراشي	١٥٥
ومضة عن أبي أوس	أ.د. عبد العزيز بن علي الحربي	١٥٨
سيبويه العصر	أ.د. عبدالعزيز بن ناصر المانع	١٦٠
عالم لغوي وقور	عبدالله بن حمد الحقيل	١٦٢
ماذا يفعل أبو أوس؟	د. عبدالله بن صالح الوشمي	١٦٤
علم وتواضع	د. عبد الله بن علي الشلال	١٦٩
أبو أوس . . العالم العَلَم	د. عبدالله العريني	١٧١
السفير النحوي	أ. د. علي بن إبراهيم السعود	١٧٢
الأناقة الساحرة	د. علي عبد الله إبراهيم	١٧٥
الأستاذ المثال	د. علي بن معيوف المعيوف	١٧٨
الإخلاص للعلم، والوفاء للتخصص	أ.د. فريد بن عبد العزيز الزامل السليم	١٨٢
عَلَم من أعلام العربيَّة في بلادنا (أبو أوس أ. د: إبراهيم الشَّمسان)	د. فهيد بن رباح بن فهيد الرَّباح	١٨٥
شهادة في حق أبي أوس	د. مباركة بنت البراء	١٨٩
أبو عمرو بن العلاء البصري (١٥٤هـ) وأبو أوس إبراهيم بن سليمان الشمسان	أ.د. محمد خير البقاعي	١٩٢
إبراهيم الشمسان [أبوأوس]الكشاف المضيء في دهاليز اللغة المظلمة!	محمد عبد الرزاق القشعمي	١٩٦
لماذا دمعت عينا «أبي أوس»؟	د.محمد بن عبدالله المشوح	٢٠٣
ورُبَّ أبٍ لكَ لم يلدك!	أ.د. محمد بن علي العمري	٢٠٩
المداخلات علم وعالم	د.محمد لطفي الزليطني	٢١٣
الشمسان: قيمة وقامة	أ.د. محمود أحمد نحلة	٢١٧
كيف لا أعرفه!	أ.د. محمود الربيعي	٢٢٢
عرفت الشمسان قبل أن أراه	أ.د. محي الدين محسب	٢٢٥
عن أبي أوس الشمسان	أ.د. مرزوق بن تنباك	٢٢٨
قراءة في سمات الشخصية العلميّة للدكتور أبي أوس الشمسان	أ. مريم محمد الوباري	٢٣١
شيخي أبوأوس	د.معاذ بن سليمان الدخيّل	٢٤٢

الشمسان معين البيان	معن بن حمد الجاسر	٢٤٥
الإنسانُ العالمُ	د. منذر ذيب كفافي	٢٤٧
الأبُ المُشْرِفُ	د. منصور صالح الوليدي	٢٥٠
مسيرة أزهرت علمًا	أ.د. نوال بنت إبراهيم الحلوة	٢٥٥
إضاءات من سيرة الشمسان	د. ياسر أحمد سيف قائد	٢٥٧
قراءات		
دروس في علم الصرف هل من جديد؟	أ.د. أحمد مطر العطية	٢٦٣
الشمسان وشجون اللغة	أ.د. أحمد مطر العطية	٢٧٠
الدكتور الشمسان وأقسام الكلام		
بين اللغويين العرب والأرقام digitals	د.سلطان بن ناصر المجيول	٢٧٦
كتاب الجملة الشرطية عند النحاة العرب،		
للأستاذ الدكتور أبي أوس الشمسان:		
عرض لجانب من العطاء المتفرد	د. سليمان يوسف خاطر	٢٨٣
القضايا اللغوية في كتاب شؤون لغوية	عرض د. صلاح الدين صالح حسنين	٢٩٤
مقالٌ وكتبٌ ورجال	أ.د. محمد بن محمود فجَّال	٣٠٩
معجم لا كالمعاجم معجم أسماء		
الناس في المملكة العربية السعودية	محمد بن ناصر العبودي	٣١٣
القسم الثاني		
أبحاث مهداة		
هجرة المخطوطات العربيةأنموذج		
من القرن السابع الهجري	أبو زكريا صالح الحِجِّي	٣٢١
التحقيب السياسي للعصور الأدبية		
نظرات ومراجعات	أ.د. عبدالله بن سليم الرشيد	٣٤٠
مِنْ قِيَم التَّعَايُشِ في المَثَلِ العَرَبِيّ	د.علي بن معيوف المعيوف	٣٨٨
قراءة نَصية لمعاني حروف الجرعند الشمسان	د.محمد عبدو فلفل	٤٠٨
الخوف في سياقات قصة موسى في		
القرآن الكريم مثيراته وتأثيراته	أ.د. وسمية عبد المحسن المنصور	٤٥١
المصادر والمراجع		٥٤٥

إهداء

يسرنا أن نهدي هذا العمل إلى:
أساتذته وزملائه وطلاب الدرس
بهذا يوصي وإلى ذلك يدعو
وكذلك نهديه لكل مجتهد ذي مبدأ
أضاء الدرب بنور لا يخبو
وبقول يصدر بالصدق من القلب
سليم النية إن كان مصيبًا أو أخطأ

مُقَدِّمَة

خير تكريم ما ينال المرءَ في حياته، هكذا سمعنا من والدنا غير مرة، وربما أتبع ذلك بحكاية يرويها عن والده جدنا (سليمان) رَحِمَهُ ٱللَّهُ، حكاية شاب قال لوالده، سأضع قربة، بعد وفاتك، سبيلاً لك لسقيا الناس ليدعوا لك، قال له والده: اسقني وأنا حيّ.

من أجل ذلك أثلج صدورنا وأبهج أنفسنا وسر خواطرنا أن احتفت به المجلة الثقافية الملحقة بصحيفة الجزيرة، إذ دعا الدكتور إبراهيم بن عبدالرحمن التركي رئيس تحريرها هو والفريق العامل في المجلة أحباب والدنا أساتذته وزملاءه وأبناءه طلاب العربية إلى الكتابة بما يرون عن والدنا، فجاءت الاستجابة الكريمة المعبرة عن عمق المحبة لوالدنا، إذ صدر العدد ٥٧٦ من المجلة الثقافية، الملحق بالعدد ١٦٦٣٤من صحيفة الجزيرة، الصادرة في الرياض يوم السبت ٢٨ رجب ١٤٣٩هـ/ الموافقه ١٤ أبريل (نيسان) ٢٠١٨م.

كانت الكتابات مدهشة، كشفت لنا نحن أبناءه عن جوانب لم نكن نتبينها لقربنا منه. لم تجتزئ الكتابات بالثناء بل تناولت بالبيان جوانب من شخصيته وتعامله وما اتصف به من قدرات علمية، كما وقفت القارئ على بعض أعماله مبينة أهميتها في الحقل العلمي وما فيها من إثراء معرفي ومن جوانب تجديد مهمة. كانت الكتابات عالية بمحتواها وبسبكها اللغوي، فهي جديرة بمعاودة القراءة مرة بعد مرة، سألنا والدنا عن تلقيه لما قرأه من كتابات عنه فابتسم ابتسامة رضًا نعرفها؛ ولكنه قال: إذا أنا قرأتها بعقلي أقول عن من يتحدثون؟ وإذا قرأتها بقلبي

عرفت من يتحدثون عنه.

كان ما ذكرناه آنفًا من شأن تلك الكتابات هو ما دعانا إلى التفكير في جمعها لتكون نواة كتاب نكرم به والدنا، ونعبر به عن شكرنا لمن احتفوا به بإعادة نشر ما كتبوه في حيز واحد، في كتاب يأخذ مكانه في المكتبة العربية.

من أجل تحقيق هذه الغاية جعلنا بريدًا خاصًّا لتلقي مشاركات جديدة لمن يرغب في المشاركة؛ إذ بلغنا عتاب غير واحد من الأحباب أن فاته أمر المشاركة في ملف المجلة الثقافية، وكان أن أعلنا في المُغَرَّد (تويتر) عن مشروع هذا الكتاب، وكان يمكن أن يصدر الكتاب قبل زمن ولكن حالت دون ذلك ظروف، ثم تفاجأنا بتكريم جديد لوالدنا؛ إذ دعت نشرة جسور التي يصدرها مركز حمد الجاسر الثقافي إلى الكتابة عن والدنا، وكان ذلك بتوجيه من أمناء المركز وفقهم الله، وهكذا وفق د. عبدالله العريني وفريقه إلى إعداد العدد الثامن والعشرين في رجب عام ١٤٤٣هـ وفيه ملف خاص عن والدنا في الصفحات (٢-٩). ضممنا ما تفضل به المشاركون مشكورين إلى ما كان لدينا من منشور في المجلة الثقافية أو في غيرها من الصحف أو ما تفضل به من استجاب لدعوتنا إلى إعداد هذا الكتاب.

يضم هذا الكتاب مقدمة وسيرة مختصرة عن والدنا والمشاركات التي صنفت على النحو الآتي: كلمات الأسرة، كلمات الأحباء، وأبيات، وشهادات، وقراءات، وأبحاث مهداة.

ضمت الكلمات ما كتبه أفراد الأسرة والأقرباء، ومنها ما كتبه بعض

الأساتذة ومنها ما كتبه بعض أبنائه طلاب العلم أو غيرهم، ورأينا أن من الأحباب من كتب مرتين مرة في (المجلة الثقافية) ومرة في (جسور)، ولذلك جعلنا إحدى الكتابتين في الكلمات والأخرى في الشهادات، وأما الأبيات فمنها ما نشر في المجلة الثقافية ومنها ما كان في وسائل التواصل الاجتماعي، ومنها ما تفضل أصحابها بإرساله في البريد الشبكي، وتضم الشهادات ما نشر في (المجلة الثقافية) وفي (جسور) وما وافنا به الأعزاء في البريد الشبكي، وأما القراءات فهي ما كتب عن بعض أعماله عرضًا وتحليلاً، منها ما سبق نشره، ومنها ما أرسل إلينا في البريد الشبكي، وأما الأبحاث فهي أبحاث تفضل بإهدائها أصحابها، منها ما هو جديد ينشر أول مرة ومنها ما سبق نشره، ومنها ما دار حول عمل من أعماله فهو كالقراءة ولكنه في حقيقته عمل بحثي معمق يرتفع عن مستوى القراءة إن في كمه أو نوعه، ولذلك جعلناه في الأبحاث المهداة.

التزمنا في ترتيب الكتابات الترتيب الهجائي سوى ما اقتضى خلاف ذلك.

وفي الختام نرجو أن يجد القارئ الكريم ما يمتعه وينفعه في هذه الكتابات المتنوعة والأبحاث الجادة.

ونتوجه بالشكر إلى كل من تفضل بالكتابة داعين له أن يجزيه الله عنا خير الجزاء، وندعو بالرحمة لمن توفي من المشاركين في الكتابة.

نود أن نخص بشكرنا والدتنا الحبيبة الأستاذة الدكتورة وسمية بنت عبدالمحسن المنصور لما بذلته من جهود عظيمة في الدعوة إلى الكتابة

ثم المشاركة في الكتابة في (جسور) وإهدائها بحثًا، كما نشكر الأستاذة الفاضلة نورة بنت عبدالله السحيباني لما بذلته من جهود مشكورة في الاتصال والتنسيق مع هيأة تحرير المجلة الثقافية.

أبناء إبراهيم الشمسان



السيرة الذاتيّة المختصرة



الاسم رباعيًّا: إبراهيم بن سليمان بن رشيد الشمسان

الكنية: أبوأوس

تاريخ الميلاد: ١/ ٧/ ١٣٦٦هـ - ٢١/ ٥/ ١٩٤٧م

محل الميلاد: محافظة المذنب، منطقة القصيم، المملكة العربية السعودية.

المؤهلات:

- تخرج في كلية الآداب - جامعة الملك سعود وحصل على البكالوريوس سنة١٣٩٣-١٩٧٣م
- حصل على درجة الماجستير في الآداب من كلية الآداب - جامعة القاهرة في ٢٨/ ٩/ ١٣٩٩-٢١/ ٨/ ١٩٧٩م.

  عنوان رسالة الماجستير: الجملة الشرطية عند النحاة العرب اسم المشرف على الرسالة: أ. د. محمود فهمي حجازي
- حصل على درجة الدكتوراه في الآداب من كلية الآداب - جامعة القاهرة في١٧/ ٦/ ١٤٠٥-٩/ ٣/ ١٩٨٥م.

  عنوان رسالة الدكتوراه: الفعل في القرءان الكريم تعديته ولزومه اسم المشرف على الرسالة: أ. د. يوسف عبدالقادر خليف.
- **التخصص العام**: الآداب
- **التخصص الدقيق**: النحو والصرف

التدرج الوظيفي

- عين معيدًا في قسم اللغة العربية: كلية الآداب - جامعة الملك سعود في ٩/ ٦/ ١٣٩٣-٩/ ٧/ ١٩٧٣م
- عين أستاذًا مساعدًا في قسم اللغة العربية: كلية الآداب - جامعة الملك سعود في٢/ ٧/ ١٤٠٥ -٢٣/ ٣/ ١٩٨٥م

- رقي إلى درجة أستاذ مشارك في ٦/ ٥/ ١٤١٢-١٢/ ١١/ ١٩٩١م.
- رقي إلى درجة أستاذ في ١٩/ ١٠/ ١٤٢١ الموافق ١٥/ ١/ ٢٠٠١م.
- يعمل أستاذًا غير متفرغ منذ ١/ ٧/ ١٤٢٦هـ.

الإنتاج العلمي:

كتب منشورة:

١. الجملة الشرطية عند النحاة العرب(مطبعة الدجوي/ القاهرة، ١٩٨١م).
٢. الفعل في القرآن الكريم: تعديته ولزومه (جامعة الكويت، ١٩٨٦م)
٣. قضايا التعدي واللزوم في الدرس النحوي (مطبعة المدني/ جدة ١٩٨٧م)
٤. أبنية الفعل: دلالاتها وعلاقاتها (مطبعة المدني/ جدة ١٩٨٧م)
٥. حروف الجر: دلالاتها وعلاقاتها (مطبعة المدني/ جدة ١٩٨٧م)
٦. أخطاء الطلاب في الميزان الصرفي (مركز البحوث - كلية الآداب - جامعة الملك سعود، ١٩٩٥م)
٧. دروس في علم الصرف (مكتبة الرشد - الرياض، ١٩٩٧م)
٨. جداول التدريبات الصرفية (مكتبة الرشد/ الرياض، ١٩٩٧م)
٩. مساحة لغوية (نادي المدينة الأدبي/ المدينة المنورة، ٢٠٠٠م)
١٠. الإبدال إلى الهمزة وأحرف العلة في ضوء كتاب سر صناعة الإعراب لابن جني (حوليات كلية الآداب ١٨٦- جامعة الكويت/ الكويت، ٢٠٠٢م)
١١. أسماء الناس في المملكة العربية السعودية (مكتبة الرشد/ الرياض، ٢٠٠٦م).
١٢. حصاد اليوم (نادي القصيم الأدبي/ بريدة، ٢٠٠٧م).
١٣. الشاذليات (جامعة الملك سعود/ الرياض، ٢٠٠٧م). [مشترك]
١٤. جدلية المحفوظ والملفوظ، مركز حمد الجاسر الثقافي/ الرياض، ٢٠٠٩م.

١٥. مقدمة في تاريخ النحو، مركز الملك فيصل للدراسات الإسلامية، الرياض، ١٤٣٢هـ.
١٦. دراسات لغوية، كرسي عبدالعزيز المانع لدراسات اللغة العربية وآدابها، ١٤٣٣هـ.
١٧. دروس في اللغة الإدارية (وزارة الثقافة والإعلام/ الرياض، ١٤٣٦هـ).
١٨. مداخلات لغوية (١) شهادات ومتابعات (د.ن./ الرياض، ١٤٣٦هـ).
١٩. مداخلات لغوية (١) مسائل نحوية (د.ن./ الرياض، ١٤٣٦هـ).
٢٠. مداخلات لغوية (١) مسائل لغوية (د.ن./ الرياض، ١٤٣٦هـ).
٢١. معجم أسماء الناس في المملكة العربية السعودية (ط١، مجمع اللغة العربية على الشبكة العالمية/ مكة المكرمة، ١٤٣٧هـ).
٢٢. مداخلات لغوية (٢) من شجون اللغة (نادي القصيم الأدبي/ بريدة، ١٤٣٨هـ.
٢٣. مداخلات لغوية(٣) شؤون لغوية (نادي الجوف الأدبي والثقافي/ سكاكا، ١٤٤٠هـ.
٢٤. مداخلات لغوية (٤) مقال وكتب ورجال (د.ن./ الرياض، ١٤٤٢هـ/ ٢٠٢٠م).

بحوث منشورة: نشر له ٣٧ بحثًا.

له مقالات ومراجعات ومشاركات إذاعية.

له مقالة سنوية في مجلة دوحة المذنب.

له مقالة سنوية في مجلة الشمسان.

له زاوية أسبوعية في المجلة الثقافية (صحيفة الجزيرة).

له عدد من المشاركات الإعلامية في الإذاعة والتلفزيون.

الحضور والمشاركة والإدارة في عدد من المؤتمرات السعودية والدولية والندوات وورش العمل والدورات حضورًا وإعدادًا.

له جملة من المشاركات العلمية منها:

- إعداد موسوعة السلطان قابوس لأسماء العرب.
- الموسوعة العربية العالمية.

- موسوعة الملك عبدالعزيز.
- إعداد برنامج تعليم الكبيرات والاشتراك في تأليف ثمانية كتب لتعليمهن.
- معجم الطلاب للمرحلة المتوسطة والثانوية (الإعداد ثم المراجعة).

الحكم على البحوث:

حكم على بحوث للنشر في دوريات سعودية وعربية.
الحكم على أبحاث الترقية لأساتذة في الجامعات السعودية والعربية.
مناقشة رسائل علمية في الجامعات السعودية والعربية.
الإشراف على رسائل طلاب الدراسات العليا في جامعة الملك سعود.

عضوية بعض الجمعيات واللجان:

عضوية التحرير في بعض الدوريات العلمية.
كتب تقديمًا لعدد من الكتب العلمية.
ناله عدد من الشهادات والدروع.

رسائل علمية:

أعدت عن جهوده اللغوية رسالتان وكتاب:

١- إسهامات إبراهيم الشمسان في الدرس اللغوي، إعداد: سجى عمر عبد الحفيظ طعامنة، جامعة آل البيت، الأردن، ٢٠١٨م.
٢- جهود إبراهيم الشمسان اللغوية: دراسة وصفية، إعداد: سامية علي موسى الحربي، جامعة القصيم، ١٤٤٢هـ/ ٢٠٢٠ م.
٣- المنهج الصرفي عند إبراهيم الشمسان (قراءة في كتابه دروس في علم الصرف)، كتبه: أ.د. محمد حسين علي زعيّن، وكرّار عبد المجيد عدنان، ١٤٤٣هـ/ ٢٠٢١م.

التكريم:

- تكريم من معهد العاصمة في الرياض ١٤٣٧هـ.
- تكريم من الثلوثية ١٤٣٧هـ.
- تكريم من طلاب الدراسات العليا.



القسـم الأول

- ◈ كلمات الأسرة
- ◈ كلمات الأحباء
- ◈ أبيات
- ◈ شهادات
- ◈ قراءات

كلمات الأسرة

الشمسان؛ ثلاثية العالم، الباحث، الإنسان(*)

وسمية بنت عبدالمحسن المنصور

عند الحديث عن أبي أوس أقف عند منظومة ثلاثية الأبعاد: العالم، الباحث، الإنسان.

قد يبدو غريبًا أنني أمايز بين الباحث والعالم، وعندي أن العلاقة بينهما علاقة خاصٍّ بعام؛ فكل عالم عندي باحث، ولكن ليس كل باحث عالمًا، فكثير من البحاث طالبي العلم والمعرفة باذلي الجهد العضلي هم قراء وجامعو نصوص، تشهد على ذلك قوائم طويلة لرسائل الماجستير والدكتوراه لبحاث ليسوا علماء. وكذلك كثير من المدونات كالكتب والبحوث المنشورة في الأوعية العلمية المعتمدة تشهد بجهد الباحث وليس فيها فكر العالم. فالعالم له صفة التفتيق والتحليل، وتوظيف ما صدر عن الآخر في تجلية غامض أو توليد فكرة جديدة. وللعالم موهبة الإبداع وأما الباحث فله جلد المجتهد وصبره.

أما الشمسان فقد جمع بين موهبة العالم وجهد الباحث.

الشمسان العالم

لست ممن يقيم هذا العالم الجليل فبحوثه وجهوده اللغوية الرصينة خير ما يشهد له. ولن آتي على ذكر مسرد مؤلفاته من كتب وبحوث ومناقشات. ويكفي أن أستشهد بدراسات وأعمال علمية أسست على رصد جهوده في خدمة اللغة وتوفرت على استقصاء إبداعاته وما جدده

(*) نشر في جسور، مركز حمد الجاسر الثقافي، ع٢٨، رجب ١٤٤٣هـ.

في البحث، وأضاءت إضافات امتاز بها، وناقشت آراءه التي تفرد بها؛ أعرض منها على سبيل المثال لا الحصر:

- إسهامات إبراهيم الشمسان في الدرس اللغوي، رسالة ماجستير من إعداد: سهى عمر عبدالحفيظ طعامنة، جامعة آل البيت- كلية الآداب والعلوم الإنسانية/ قسم اللغة العربية ٢٠١٨م.
- جهود إبراهيم الشمسان اللغوية - دراسة وصفية، رسالة ماجستير من إعداد: سامية علي موسى الحربي، جامعة القصيم - قسم اللغة العربية ١٤٤٢هـ/ ٢٠٢٠م.
- المنهج الصرفي عند إبراهيم الشمسان (قراءة في كتابه دروس في علم الصرف)، كتبه: أ.د. محمد حسين علي زعيّن، وكرّار عبد المجيد عدنان، ١٤٤٣هـ/ ٢٠٢١م.

وقراءات نافذة ناقدة لبعض دراساته منها:

"دروس في علم الصرف هل من جديد؟" كتبه أ.د. أحمد مطر العطية، نشر في المجلة الثقافية، صحيفة الجزيرة، السبت، ٢٨ رجب ١٤٣٩هـ/ ١٤/ ٠٤/ ٢٠١٨م.

"الشمسان وشجون اللغة" كتبه أ.د. أحمد مطر العطية، نشر في المجلة الثقافية، صحيفة الجزيرة، على جزأين الأول في السبت ١٧شعبان ١٤٣٨هـ -١٣/ ٠٥/ ٢٠١٧م، العدد ١٦٢٩٨، والآخر في السبت ٢٤ شعبان ١٤٣٨هـ - ٢٠/ ٠٥/ ٢٠١٧م، العدد ١٦٣٠٥.

"قراءة نصية لمعاني حروف الجر عند الشمسان" كتبه أ.د.محمد عبدو فلفل، نشر في مجلة العرب، دار اليمامة للبحث والنشر والتوزيع/ الرياض، ج٧/ ٨، س٥٦، محرم/ صفر ١٤٤٤هـ.

"مقالٌ وكتبٌ ورجال" كتبه أ.د. محمد بن محمود فجَّال، نشر في المجلة الثقافية، صحيفة الجزيرة، ع١٧٥٥٣، الجمعة/السبت ١٢/ ١٣ ربيع الآخر ١٤٤٢هـ، الموافقه ٢٧/ ١١/ ٢٠٢٠م.

"معجم لا كالمعاجم: معجم أسماء الناس في المملكة العربية السعودية" كتبه الشيخ العلامة محمد بن ناصر العبودي. نشر في صحيفة الجزيرة، في السبت ٠٧ رجب ١٤٣٩ه، العدد ١٦٦١٣.

وفي سياق جهود العالم لا نتجاوز ما يبذله الشمسان في التدريس والإشراف على الرسائل العلمية، وتحكيم البحوث والترقيات الأكاديمية، فله حواش عليها فيها فكر العالم ونظرة الناقد.

الشمسان الباحث

أخلص أبو أوس للبحث العلمي الجاد، فوهبه وقته وجهده وأنسه؛ فهو ممن لا يشده مجلس أنس أو صالة ترفيه؛ لأنه خاص مخلص لصحبه: سيبويه والفراء وابن جني والسهيلي وبقية القوائم الطويلة لأعلام الفكر اللغوي من القدماء والمعاصرين في مختلف حقول البحث اللغوي. فهو معنيٌّ باللغة مشغوفٌ بنحوها وصرفها، ومعجمها ولهجاتها، وتأصيلها وتغيراتها؛ فهذا هو شاغله ليله ونهاره في حله وترحاله.

الشمسان الإنسان

هذا الجانب تتحدث عنه صحبةٌ قاربت نصف قرن عرفت فيها الشمسان رجلاً صادقًا إذا وعد وفى، وإذا استُخبر في مسألة أجاب، عميق الإحساس، سريع التأثر بوهج المشاعر الإنسانية. يتأثر بنص في رواية نابضة بصراع العواطف، أو مشهد فني في فلم مرئي؛ تسيل دموعه

وهو صامت تخنقه العبرات. رجل هادئٌ غير صاخب، عفيف اللسان بعيد عن البذاءة حتى في أشد حالات الغضب. كتوم لا يتحدث عن أمر له ما لم يسأل عنه، ونادرًا ما يتحدث عن الآخرين في غير قضايا العلم، فهو كما يقول مشغول بما قاله العلماء وما جاء من تركيب لغوي غريب يخرج عن القاعدة وتغافل عنه العلماء والباحثون.

من صفات الشمسان الإنسان التواضع الجم فلم أقرأ أنه وقع ورقة أسئلة لاختبار طلبته أو نشرة توضيحية إلا صدر اسمه (معلم المقرر) فهو لا يصدر اسمه بلقب الدكتور وعندما ناقشته مرة في ذلك قال وماذا عن سيبويه والفراء وابن جني والجاحظ وغيرهم هل حملوا هذا اللقب.

ومن تواضعه أن عرف اسمه في ساحة المغردين في (تويتر) بقوله:

"طالب علم كلما قرأ أدرك كم هو جاهل".

ومن جوانبه الإنسانية علاقاته بطلابه. لن أقف على دوره العلمي، فأنا على ثقة أن كل معلم أو مشرف لا يتوانى في تقديم النصح والإرشاد؛ ولكني سألامس شأنًا خاصًا بالشمسان فهو أبٌ يتفقدهم ويسأل عن أحوالهم، وينهض دون تردد لمساعدتهم ما أمكن ذلك. ويتابعهم بعد تخرجهم في أماكن عملهم وإقامتهم. ومن حسن ثقته بهم خص غير طالب بتقديم أحد كتبه.

وأكثر ما يفرحه ويبهجه إنجازاتهم وتفوقهم وتوفيقهم كأنما أحد أبنائنا من نال شرف ذلك الإنجاز والتفوق، حتى إني صرت أعرفهم وأحرص عليهم كأبنائي.

ومن مواقفه الإنسانية الخاصة التي كنت شاهدة عليها موقفه من أهل

الكويت في محنة الغزو الصدامي، فهو ككل أفراد المجتمع السعودي الذي اتسم بالنبل وقف وقفة الأخوة المشعة بفروسية الخلق والوضوح الأبيض، ولن أعدد مواقف السعوديين فهي تاج يتحلى به الكويت، وأعذب معزوفة تنبض بها قلوبنا اليوم وكل يوم.

للشمسان مواقف كثيرة سأقف عند تصرفٍ خاص جدًا لم أعلمه إلا بعد سنوات من التحرير.

كنت قد انضممت إلى اللجنة التطوعية لخدمة المواطنين الكويتيين في السفارة الكويتية في الرياض وكان الشمسان يمدني أحيانًا بمبالغ نقدية ظننتها من متبرعين لمساعدة بعض الأسر.

لم أعرف مصدرها إلا بعد أواخر التسعينات، فقد عممت إدارة جامعة الملك سعود على الأساتذة المتمتعين بالسكن الجامعي رغبتها أن يخلي السكن من أقام عشر سنوات أو أكثر حتى يتاح تمكين هذا السكن للجيل الجديد من المتخرجين الشباب حملة الدكتوراه العائدين للوطن. فكان الشمسان من أوائل من استجاب وشرع في البحث عن سكن نتملكه، ولما كانت أسعار المساكن باهضة فقد اقترحت عليه أن يبيع أرضًا له كانت في القصيم لتعزيز ما يمكننا من شراء المنزل المناسب، فأخبرني أنه قد باعها أيام الغزو وثمنها ما كان يمدني به لمساعدة الكويتيين، فبكيت تأثرًا وأكبرت فيه هذا الموقف الإنساني عوضه ربي كل خير.

الحديث عن الشمسان الإنسان لا يقل عمقًا عن العالم والباحث ونكتفي بالقليل ليشير إلى الكثير.



أريد أن أغير اسمي*

أوس بن إبراهيم الشمسان

قلت هذا لوالدي (أبو أوس) بعد أن تواترت أسماء التلاميذ من فم المعلم (محمد / عبدالله / عبدالرحمن / أحمد / خالد) ولا (أوسَ) لغيري بينها. فأدركَتْ حكمتُه - دون أن أفصح - بأن ولده محرج من اسم لا يحسن أغلب المعلمين أو الأقارب نطقه، فيدعونه مرة (أَوَس) هكذا بفتح الواو، ومرة (أُوْس) بضم الهمزة وسكون الواو. فقال لي: عندما تكبر غيره إن شئت! فاطمأنت نفسي إلى ذلك وأخذت أتأمل أسماء الأطفال والكبار أتحيّنُ أجملها، فمرة أختار لنفسي اسم (محمد)، ومرة (خالد)، وأحيانا (تركي أو فيصل). وظللت على هذه الحال أنتحل أسماء وأنضوها، حتى جرت علي حادثة أيقنتُ بها أن اسمي قدرٌ لا انفكاك منه. وذلك أني سقطتُ عن ظهر ناقة خبَّت من فزعها، فكُسرت قدمي، ومكثتُ أسابيع في الجبس، أقضي سحابة يومي في غرفتي التي توارت جدرانها خلف أستار كتب لاجئة من مكتبة بيتنا الصغير آنذاك، فوقَعتْ يدي يومًا على كتاب خزانة الأدب للبغدادي، فوجدتُ في لبيد والشماخ وامرئ القيس ما سلوت به عن أولاد المدرسة، حتى بلغتُ شاهدًا استدعى قصة عن الشاعر الجاهلي أوس بن حَجَر - الذي كان والدي معجبًا بشعره وبه سُمّيت - ورد فيها: "فَبَيْنَمَا هُوَ يسير ظلامًا إِذْ جالت بِهِ نَاقَته فصرعته فاندقّت فَخذه فَبَاتَ مَكَانَهُ وَمَا زَالَ يقاسي كلّ

(*) المجلة الثقافية، العدد ٥٧٦ - صحيفة الجزيرة-الرياض، السبت ٢٨ رجب ١٤٣٩هـ/ ١٤ أبريل (نيسان) ٢٠١٨م العدد ١٦٦٣٤.

عَظِيم بِاللَّيْلِ ويستغيث فَلاَ يغاث حتّى إِذا أصبح إِذا جواري الحيّ يجتنين الكمأة وَغَيرهَا من نَبَات الأَرْض، وَالنَّاسُ فِي ربيع: فبينا هنّ كَذَلِك إِذْ بصُرن بناقته تجول وَقد علق زمامها بشجرة، وأبصرنه ملقًى ففزعن مِنْهُ فهرَبن، فَدَعَا جَارِيَةً منهنّ فَقَالَ لَهَا: من أَنْت؟ قَالَت: أَنا حليمةُ بنتُ فضَالة بن كَلَدة. وَكَانَت أصغرهنّ فَأَعْطَاهَا حجرًا وَقَالَ: اذهبي إِلَى أَبِيك فَقولِي لَهُ: ابْنُ هَذَا يُقْرِئك السَّلَام وَيَقُول لَك: أدركني فإنّي فِي حَالَة عَظِيمَة! فَأَتَت أَبَاهَا وقصّت عَلَيْهِ القصّة وأعطته الْحجر، فَقَالَ: يَا بنية لقد أتيت أَبَاك بمدح طَوِيل أَو هجاء طَوِيل. ثمّ احْتمل هُوَ وأَهله إِلَى الْموضع الَّذِي فِيهِ أوسٌ وَسَأَلَهُ عَن حَاله فَأخْبرهُ الْخَبَر، فَأَتَاهُ بِمن جبر كَسره، وَلم يزل مُقيما عِنْده وبنته تخدمه إِلَى أَن برأَ، فمدحه أَوْسٌ بقصائد عديدة ورثاه أَيْضًا بعد مَوته"(١). فآمنتُ بأنه سبحانه لا رادّ لقضائه، وحمدته أن لم يعجب الوالد بشعر الأعشى الذي ألقاه بعيره عن ظهره فكُسرت رقبته.

جعلتني قصة أوس بن حجر تلك أنفض أوهام الأسماء عنّي، بل إنها استنهضت فيّ حبّ الشعر وطموحًا لقوله، فأخذت أنهل من الدواوين المتناثرة على الرفوف الساكنة معي، فقرأت المعلقات وعيون الشعر العربي، وحفظت منها ما تبخر أغلبه اليوم، وكم تعثرتُ في كلمات يستغلق علي فهمها، فألجأ إلى والدي فيجيبني بمعانيها واشتقاقاتها وجذورها، حتى أفهم كيف اصطلح الناس عليها وتشعبت منها كلمات بمعان أخَر. ففهمتُ منه جوهر الاستعمال الوظيفي للغة،

---

(١) عبدالقادر البغدادي، خزانة الأدب ولبّ لباب لسان العرب، ٤: ٣٧٩-٣٨٠.

بما فيها كلمات من لغتنا المحكية، فيوردها في أمثال وأشعار شعبية ترسخ فهم المعنى. ودلني على العديد من التفاسير والكتب والمعاجم، فيها ما فيها من كنوز يغفل عنها أمثالي، منها الإفصاح في فقه اللغة الذي زوى كثيرًا مما دعته العرب من مخلوقات وأصوات وجمادات، وكتاب رد العامي إلى الفصيح للشيخ أحمد رضا، وهو قاموس لكلمات عامية فيها معنى الفصيح، وكان هذا شأنه مع كل سؤال لغوي، يختم جوابه بمرجع يرسو على أحد رفوف مكتبتنا، أبحر معه إلى سواحل شتى، ولا أدري أَدافعُه لهذا التأصيل والتفصيل مجرد رفع اللبس عن ولده، أم هو شغفه الأكاديمي الذي لا يخبو.

وكم أشفق عليه الآن حين أذكر كيف كنت أطلب منه قراءة خربشاتي الأدبية لنقدها وتصويبها، وكيف كان يوليها اهتمامًا ووقتًا لربما كان أنفع لنا وله لو قضاه فيما هو فيه من شغل وإنتاج علمي لا يتوقف، لكنها عاطفة الوالد، تُغالبهُ فيقرأ لي، ولا تَغلبُه فيجاملني، فلم يكن يثنيه شيء ولا أحد عن قول رأيه بصراحة لا تحجبها لباقته، ولا يواريها حياؤه المفضوح بصمته، ولا تجهضها عاطفته الجياشة التي قد تتسرب من ثنايا رصانته، كأنه رسول العربية وعلى الله أجره.

أتيح لي أن أشهد منهج الوالد في البحث والتأليف، ولا سيما كُتبه، فأراه يعتني بجمع مادتها، ويسهر على كتابتها، ويدقق في مراجعتها وكأنه يدخل بها امتحانًا، وإنما الممتحَنُ والممتحِنُ نفسه، فهو لا يرضى تمام الرضا عن عمله، ويسعى دائما إلى تجويده ويجد لذلك مساحة، ويقبل الرأي فيه ما دام علميًّا، ولا يجد في نفسه على منتقده شيئًا وكأنه

يتجرد من ذاته. ولا تقل عنايته بمادة كتبه عن مظهرها، فيُعمل حسه الفني فيها، وهو خطاط ورسام ماهر وإن ادعى غير ذلك، ويستكتب بعض زملائه الجميلة خطوطهم لكتابة عناوين كتبه، واسم المؤلف وعنوان المقدمة والخاتمة والمحتويات، وغيرها من كلمات تزين رؤوس الصفحات، منهم العم صالح الحجي ألبسه الله ثوب العافية، والدكتور عبدالعزيز الزير رحمه الله.

للوالد زهاء عشرين كتابًا، ولعل أقربها إلى قلبي هو معجم أسماء الناس في المملكة العربية السعودية الذي صدر العام الماضي، فقد نشأت وهذا الكتاب قبل الإنترنت والدش والجوال، ولا أزعم أني ملم بالنهج الذي سلكه الوالد في جمع مادته ولكن لك أن تتصور كيف يفعل المرء في الثمانينات الميلادية للحصول على أسماء سكان بلاد ما.

أذكر أنه استعان بقوائم طلاب الجامعات، ووزارة الداخلية، وأدلة هواتف المناطق الإدارية في المملكة، فكان يقرأ أسماء الناس في كل دليل، فيوثقها ويؤصلها ويضيفها إلى مشروعه، وأذكر اتصاله هاتفيا ببعضهم دون سابق معرفة، يستوضح منهم معاني أسمائهم وكيف تنطق في بيئاتهم.

ولأنه مشروع ضخم وحيوي - ولا سيما مع تسمي السعوديين بأسماء واردة عليهم - فقد امتد العمل فيه زهاء ثلاثين سنة.

عندما رأى المعجم النور، أسرعتُ إليه لأرى ماذا كُتبَ فيه تحت اسم (أوس) فوجدت التالي:

أوْس (ذ): [أ/ و/ س]

جاء في (الصحاح) "الأَوْسُ: العطاءُ... والأوْسُ: الذئبُ، وبه سمِّي الرجل".

العطاء يسبق اسمك، والذئب لأبيه نشأ، وأنت سيد الرجال ... شكرا على اسمي يا أبا أوس ..



كل فتاة بأبيها معجبة

ديمة بنت إبراهيم الشمسان

نعم كل فتاة بأبيها معجبة، ولكن كل من عرف أبا أوس أعجب به. ما سأذكره وأستحضره من ذكريات هي ليست مشاعر وإعجاب ابنة بأبيها إنما هي حقيقة لرجل عظيم، وكما ينعته أحد أعمامي بقوله: (أبوكِ آخر الرجال المحترمين).

من أصعب الأمور أن أتحدث عن أبي لعدة أسباب، فالمشاعر صعب أن تترجم بالكلمات، وإن كنت سأذكر أفضاله فأنا على يقين تام بأني سأظلمه وسأقع في القصور.

دائما أشعر بالفخر والنعمة أني خُلقت ابنة لهذا الرجل. علاقتي بأبي لها طابع خاص أشعر بها وهو أيضًا. فهو أبي وأنا أمّه كما أسمع منه دائما (أنتِ أمّنا).

يقصّ علي لحظة لقائنا الأول الذي لا أذكره؛ ولكن استشعرت جماله من وصفه لي. يقول عندما أتى لزيارة أمّي يوم ولادتي كنت حينها في غرفة الحضانة التي يوضع بها حديثو الولادة عادة. يقول لم أنتظر أن ترشدني الممرضات إليكِ؛ من بين جميع الأطفال كنت على يقين أن هذه أنتِ، ونظراتك إلي أعرفها، وقلت لهم هذه ابنتي. زخم هائل من الذكريات الجميلة التي نحتها أبي في نفسي وفي عقلي. فأذكر في أحد العطلات الصيفية ذهبنا أنا وأخي الأكبر أوس إلى أمريكا. لم تكن أمّي معنا في ذلك الصيف وبقيت مع إخوتي الصغار، وكنت حينها في بداية سنوات المراهقة، وكان يُعرض بالتلفاز إعلان ترويجي لمنتج لتصفيف

الشعر يشبه بشكله الملعقة المفرغة لتنغرس في ربطة الشعر ويدخل الشعر بها بشكل معين وتسحب ليبدو الشعر مبرومًا إلى الداخل بشكل جميل جدًا. لاحظ والدي إعجابي بالنتيجة وكنا نستعد للخروج، قام بتطويع سلك رفيع ليشبه بشكله هذا المنتج وتطبيق العملية ليظهر شعري بنفس الشكل الذي كنت أراه بهذا الإعلان. لا أنسى ذلك اليوم ولا أنسى إحساسه باحتياجات فتاته الصغيرة بهذا السن الحساس.

لم يقتصر دلال أبي لي أنا فقط، إنما نال أيضًا صديقات الطفولة. كنا نقطن في سكن جامعة الملك سعود سكن أعضاء هيئة التدريس. ويمتاز هذا السكن ببيوته المتلاصقة. فنشأنا هناك وكأنها قرية متحضرة. فاعتدنا نحن وأترابنا على أن نتزاور وترعرعنا معًا هناك.

كان آباؤنا جميعًا مشغولين بالبحوث العلمية والمسؤوليات التي تتطلبها طبيعة عملهم، إلا أن أبي كان دائمًا يخلق ويقتص الوقت ليلبي لنا طلباتنا جميعًا، لا أنسى مواقفه اللطيفة معي ومع صديقاتي، فقد كان يمتلك سيارة جمس يجوب بها شوارع السكن لنجمع صديقاتي من الشوارع المختلفة في السكن الجامعي ويذهب بنا لغايتنا، إما إلى النادي الجامعي أو إلى مطعم وينديز في شارع التخصصي، أو يقلنا لحي السفارات لساحة الكندي أو لمركز المناهل الاجتماعي. إلى هذه اللحظة وأنا أتشارك مع صديقاتي هذه الذكريات.

في مرحلة الدراسة الجامعية تعرضت لمرحلة صعبة ومؤلمة، فقد تعرضت لتنمر من بعض الزميلات. أذكر أني اتجهت لأبي وطلبت منه أن أوقف قيدي، فلا أستطيع الاستمرار بهذه الأجواء. لا أنسى ما قاله لي ذلك اليوم. فقد أمسك بيدي بحزم وقوة وعيناه تحتضناني بدفء

وحنان وقوة، وسألني: هل الكلام اللي يقولونه عنك صدق؟ أجبته طبعًا لا، وأنت تعرف. فقال: إذن تداومين ورأسك مرفوع وتشوفينهم كأنهم حشرات قدامك، انسحابك أو إيقاف قيدك هذا إثبات ودليل على ذنبك وضعفك. إن كنت لم تخطئي، وما يدّعونه عنك غير صحيح إذن تستمرّين بالحضور، وتركيزك على دراستك فقط. فعلاً كانت كلماته لي ودعمه قوة وأمانًا وسندًا. وهذا ما حدث لم أنسحب وتجاهلت جميع الضغط النفسي، وكان كل تركيزي على دراستي وفعلاً اجتزت المقررات بدراجات عالية، حتى ظهرت رأس الأفعى وانكشفت الأمور للجميع، من تجاوز عليّ ومن لم يتجاوز، وأتى من أتى ليقدم الاعتذار على ما بدر منهم طيلة الفصول الماضية، وأنهم كانوا في ضلال، سامحهم الله جميعًا، ولم تعد تعنيني هذه الحادثة إلا في جزئية دعم والدي لي فثقته بي وإمداده لي بالقوة جعلني ما أنا عليه الآن.

في يوم عقد قراني اتجهنا للمحكمة في حي المرسلات حيث إني كنت سأتزوج من شخص كويتي، فالعقد يكون هناك، كان أبي شديد التوتر، وكان ظاهرًا عليه، ولم يستطع أن يخفي هذا الشعور. لن أصادر شرح مشاعره التي أعرفها جيدًا ذلك اليوم، فكان ارتباطي بأبي وما زال مختلفًا عن بقية إخوتي، يحبنا جميعًا نفس المحبة ويهتم بنا نفس الاهتمام؛ ولكن هناك رابطًا لا أستطيع أن أصفه بيننا مختلفًا؛ ولكنه واضح للجميع. ولكني سأصف ما حدث أمام مكتب القاضي، جلس زوجي والشهود إلا أبي لم يستطع الجلوس فظل واقفًا. سأله القاضي أن يجلس على الكرسي أمامه فأبى بتلويحة من رأسه، كان الموقف صعبًا على كلينا، فقد كان يحاول أن يظهر متجلدًا؛ ولكني كنت أشعر بألمه

وخوفه وقلقه، وهو يقول: (زوجتك ابنتي)، كلمات تخرجني من تحت جناحة لأنتقل تحت سقف رجل غريب وإن كان حفيد أخته. كيف سأرحل لأعيش في بلد مختلفة بعيدة عن حبيبي الأول أبي الغالي. فكانت لحظات صعبة على كلينا. ويوم السفر ودعنا بعضنا بذرف الدموع، وكانت عيناه تقول ابقِي عندي، ولكنها سنّة الحياة.

أبي الغالي..

تقف الكلمات وتعجز المعاني وتتعطل الأفكار فكل وصف أو فكرة أراها لا تفي، صغيرة قليلة بل هي صفر عند ما أشعر به أو أراه فيك.

تعلمت منك العطاء بلا شروط، وغمرتني بحنانك الفياض، لم أرَ في حياتي أو أعاصر شخصًا بإيثارك للآخرين، لا أتذكر أنك قدمت نفسك على أي شخص في حياتك حتى لو بأبسط الأمور، بينما أنت تلبي لنا كل احتياجاتنا أنا وأخوتي وأمي وكل من يطلبك أو يسألك. حتى طلبتك كنت دائمًا لهم السند، حتى إن لم تظهره أو تحكي بمساعدتك لهم، لكننا نعلم نقاءك وطهارتك يا أبي الغالي. أبي علمتني الرضا على مر الحياة والسعادة بالرزق. حبيبي يا أبي رفعك الله بتواضعك وخلقك ونبلك. لم أسمع منك قط لفظًا مسيئًا بل أطربني دائمًا حلو حديثك وجمال تعبيرك. فأنت عيني التي أرى بها وظهري الذي أستند عليه. أبي الغالي شعور الفخر لا يقترن إلا بك ولا أفخر بنفسي إلى أني ابنتك. أعذرني يا أبي فصدق مشاعري لم يتوافق مع تنميق الكلام وبلاغة اللغة. وكأن الكلام والتعبير وقف وعجز فليس هناك ما يفي قدرك عندي.



أبي العالم الإنسان*

بدر بن إبراهيم الشمسان

الحديث عن الأب أمر ليس سهلا فكيف إن كان مثل والدي. حين نشأت في منزل تتدخل اللغة العربية في أدق تفاصيله: الكتب، السلوك، العادات؛ لم أتوقع قط أني سأميل للثقافة الغربية كل الميل بحكم هواياتي الشخصية، فتشربت تلك الثقافة الغربية واتقنت لغتها الإنجليزية.

وكما عودتنا وربيتنا في منزل يسوده الحنان ويطوقه الحزم لم تجبرني يا أبي على اختيار شخصيتي، ولم تنتقدني وأنت القيمة والقامة في اللغة العربية، كنت أتأملك وأنت تكتب وتقرأ وتدون، كنت أتأملك؛ لأنك ملهم بشكل لا يوصف، وبطريقة تبهرني، ما زلت أتذكر كيف علمتني الأوزان العربية بلطف (فَعَلَ يَفْعَلُ فهو فاعِل وذاك مَفْعول) وحفظتني الأناشيد المطلوبة، والسور المقررة، وخاطبتني بروح محبة.

وحين مرت السنون وأصبحت شابًا يافعًا وبدأت تتضح معالم شخصيتي وتنضج أدركت حينها الأرضية المشتركة التي تجمعني بك، وأني أنا فيّ شيء منك أنت.

كثيرة هي الصفات التي تجمعني بك: ملامح وجهي، تصرفاتي، صوتي، حُبي للمنزل، والمبيت باكرًا، اهتمامي بالعمل، وهي من أحب صفاتي التي تابعتك فيها، شرحت لي كيف أحب ثقافتي وكيف أتقن

(*) المجلة الثقافية، العدد ٥٧٦ - صحيفة الجزيرة - الرياض، السبت ٢٨ رجب ١٤٣٩هـ/ ١٤ أبريل (نيسان) ٢٠١٨م العدد ١٦٦٣٤.

العربية، وأنا البعيد عنها كل البعد بسلاسة وتناغم. أدرك الآن وأعي معنى شطر نزار حين قال: هنا جذوري هنا قلبي هنا لغتي.

وهنا في القلب أبي القيمة والقامة.



ابنة أبي

بُدور إبراهيم الشمسان

اسمي الذي لازمني وافتخر به منذ رأت عيناي النور.

اعتدت استخدام أوله وحملت الاسم الذي يليه في قلبي وعقلي بكل لحظة.

كنت أعلم جيدًا كيف اجتهد والدي باختيار أسمائنا التي حملت قصصًا كان لها أثرٌ في أنفسنا أنا وإخوتي.

ما زلت أتباهى وأتغنى عند كل من يعرفني بقصة تسميتي التي عرفت من والدي أنها جاءت بسبب شخصية (بدور شدّاد) في ثلاثية الكاتب العظيم نجيب محفوظ "السكرية وقصر الشوق وبين القصرين". فأبيت إلا أن أبقى في نظر والدي بدور الجميلة البريئة كما هي بدور شداد، وكان والدي الأب المحب، الذي دللني وما زال، فأنا في نظره ابنته الصغيرة المحببة التي ستظل كذلك في عينيه مهما كَبُرَت، وفي ذات الوقت علمني كيف أكون الفتاة الشامخة ذات المبدأ الراسخ التي تبني نفسها وتنطلق في الحياة.

في كثير من المواقف التي تطغى فيها شخصيتي المنفعلة، استرجع تلك الكلمات وأحاول تطبيق تلك المعادلة الصعبة التي زُرعت داخلي من هذا الأب العظيم، فهو الذي أوصاني بأن أعتمد الصمت في أغلب الأحيان، إلا عن الحق وحماية نفسي، لكن باللين والكلام الهين، فهو مفتاح يلين الصخر، كما هي حكمة والدي الذي يقول "كوني كالمياه

الجارية في السيل أو النهر، إذا واجهت صخرة في طريقها تجاوزتها بسلاسة لتكمل طريقها بنجاح".

منذ طفولتي كانت كلمات والدي لي وأساليب تعامله معي تعزز في داخلي بأني أملك عقلاً كبيرًا وأنه ينتظر مني الكثير، لم يكن يأمر أبدًا، بل يزرع الفكرة حتى تصبح مبدأ يحملني لطموحاتي، شجعني لأكمل دراستي، ووقف إلى جانبي في كل خطوة، مستمرًا في زرع حب العلم داخلي كسند لي في الحياة، ولم يبخل بوقت أو جهد أو مال في سبيل إكمال مسيرتي على أكمل وجه، وأحقق ما أصبو إليه، وكانت العبارة على لسانه دائمًا "مهما طال الطريق، فلذة النهايات تنسينا التعب"، لن أنسى تلك الليالي التي قضيت فيها الساعات ما بين الأوراق وشاشة الحاسب الآلي، أدرس وأبحث وأستزيد. كان والدي رفيق تلك الليالي، مستمعًا بإنصات لكل ما يمر علي من معلومات أو تساؤلات، وكلما كلت عزيمتي وخارت قواي كان السند الذي يشد من أزري ويرفع من معنوياتي مستذكرًا ما مرّوا به من معاناة في حياتهم الدراسية، ومدى اختلاف الموارد وسهولة الوصول إليها في وقتنا الحاضر، لن أنسى لمعة عينيه من الفرحة والفخر في نهاية كل فصل دراسي حينما كنت أبشره بتفوقي ونجاحي لأنه دائمًا ما كان قدوتي ومثلي الأعلى الذي أسعى لأن أصل لبعض ما وصل إليه.

لن تسع صفحات الكتب ولا المجلدات كلماتي في وصف والدي الحبيب، ولن تغنيني اللغة العربية بحروفها ومفرداتها وبلاغتها بأن أصف إعجابي به، فأنا الفتاة التي بأبيها معجبة، بل أنا الفتاة التي بأبيها مؤمنة،

آمنت بمبادئه وأفكاره ونظرته للحياة، وسيظل والدي أمام عيني مثالًا أطمح لأن أكون شيئًا يشبه بعضه، لا لإثارة إعجابه وفخره فحسب، بل لأرفع رأسي فخرًا بأني شبيهة أبي.



كلمات الأحباء

الصامت الحكيم العالم إذا تحدث*

د. جاسر عبدالله الحربش - الرياض

من لا يعرف الحكيم يتعجب من صمته ثم يعجب بحديثه، وذلكم هو أبو أوس إبراهيم بن سليمان الشمسان، الأستاذ في علوم اللغة العربية وآدابها. يزداد عجبك في مجلس به أبو أوس من طول صمته، فإذا تحدث تمنيت أن يطيل ولا يسكت، لتأنيه في اختيار المعنى والدلالة وأناقته في وضع الكلمة في المكان الذي تستحقه.

لذلك لا تملك إلا أن تعتب على رجل يكتفي بصمت المنصت والتجاوز عن الكثير من خطل القول وضياع الفكرة، ثم إذا وجه إليه السؤال شرح وأوضح وصحح، بحيث يسأل كل مستمع نفسه لماذا إذًا يصمت هذا الرجل ويترك الآخرين يثرثرون.

تربطني بالأستاذ إبراهيم الشمسان وشيجتان، الأولى حب اللغة العربية، بالنسبة لي كهواية طبيب متطفل عليها، وبالنسبة له كأستاذ متخصص، والثانية وشيجة مصاهرة، فابنه الدكتور أوس عميد كلية الصيدلة في جامعة الملك سعود والرئيس السابق لمعهد تقنية النانو، هو زوج ابنتي القريب من قلبي وعقلي، وبهذا يكون الأستاذ إبراهيم الشمسان جد أسباطي الأربعة ميس وإبراهيم وخالد وسارة، اللهم زد وبارك.

(*) المجلة الثقافية، العدد ٥٧٦ - صحيفة الجزيرة - الرياض، السبت ٢٨ رجب ١٤٣٩هـ/ ١٤ أبريل (نيسان) ٢٠١٨م العدد ١٦٦٣٤.

تصبح رابطة المصاهرة من أقوى الروابط إذا أكرم الله أهل الزوج بصهر كريم مثل الدكتور أوس، وأما رابطة اللغة فمنبعها الإشفاق المشترك بيننا على اللغة العربية من التواري عن الفعل العلمي والعملي، إضافة إلى الهيام بجمالها في كل صنوف التعبير. أقرأ للأستاذ إبراهيم الشمسان من حين إلى حين بعض ما يكتبه من تصويب وتعليق وشروح في الجزيرة الثقافية، فأفهم وأستمتع بما يتيسر، وينغلق دوني ما يتعسر، والبركة في القليل مثل حبة البركة والعسل للاستشفاء بقليلها من العلل ولتقوية المناعة.

وبعد فقد تجمع لي انطباع عن طباع أبي أوس وصرت أعتبره مثل السيل الموسمي، تستمتع بكلامه الأسماع وتستفيد منه العقول إذا تحدث، ولكنه يحتاج أحيانًا من يستحثه مثلما يحتاج المطر إلى الاستسقاء إذا انقطع.

وصلتني دعوة متأخرة نسبيًا للمشاركة في التعبير عن التقدير المستحق للأستاذ والصديق إبراهيم الشمسان فشعرت بسعادة كبيرة للتشريف وبهيبة أكبر للتكليف، فكيف لطبيب متخصص باللحم والشحم والدم أن يقحم نفسه مع أساتذة علوم النحو والصرف والبلاغة ومناهج الكلام، ولكن الاعتزاز بمقام المستهدف بالتكريم تغلب على التهيب والإحجام. ليهنك التقدير المستحق يا أبا أوس، فأنت علم من أعلام اللغة العربية وسادن مخلص على بابها وأهل لكل تقدير وتكريم حفظك الله وأمد في عمرك وتوفيقك.



قلب إبراهيم*

حنان بنت عبد العزيز

تتصلب أحداث الحياة من حولنا حتى نحس أنها توشك أن تتهشم وتغرقنا في بحور الخيبات، ومع تقدم العمر لا نجد سفينة تنتشلنا من همومنا سوى أيدٍ نقية لأصحاب الأحاسيس البيضاء المتوهجة.

أولئك الذين يحسون بجمال دواخلنا دون تكلف، ويؤمنون بصدق مشاعرنا نحوهم مهما ابتعدنا... يمنحوننا الثقة والوفاء والتقدير والحب.

يمسكون بأيدينا مهما طالت الطرق وقلت المؤن.. ينتظروننا بشوق ويلتقون بنا بلهفة.. قلوب تضخ الحب فيزهر الأمل فينا، ونقبل على الحياة أكثر كلما ارتوينا بمجالستهم..

ومن بين ركام حكايا الروح المخبأة أفتح لكم قلبًا حوى في زواياه تفاصيل حب نقي تقي مُؤْثِر ومؤَثّر، وكأنه يغزل الحب خيوطًا لا نهاية لها، فكلما التقى به شخص أصبح مكبلاً بقيود الحب مع صاحب هذا القلب الكبير..

مرسمة مريم - أخته - شهدت بذرة عشق للغة استكملها جيل تعلق بخيط حب قوي لخالٍ صاحب قلب كبير، قلب أبي أوس إبراهيم الشمسان.

(*) المجلة الثقافية، العدد ٥٧٦-صحيفة الجزيرة-الرياض، السبت ٢٨ رجب ١٤٣٩هـ/ ١٤ أبريل (نيسان) ٢٠١٨م العدد ١٦٦٣٤.

فلقد علمتني كيف أجمع الحروف لتصبح كلمات؛ ولكنني عندما كبرت، أنا أدركت أنني لا أستطيع أن أنظم كلمات تليق بقلب إبراهيم الشمسان.

خالي أحبك يا والدي الثاني.



سمع الأذن ورأي العين*

د. راضي الرويلي

محطات الحياة كثيرة ومتنوعة، لكن بعضها ذو طابع خاص ومميز، لا سيما تلك المحطة التي تنقلب وقد أفدت منها أيما إفادة، ولا شك أن محطة معرفتي بأستاذي الأستاذ الدكتور أبي أوس إبراهيم الشمسان إبان دراستي في مرحلة الدكتوراة في جامعة الملك سعود من المحطات المميزة، وأنا الذي رأيت بعين وسمعت بأذن، ومن أنس النفس ولذيذ الكلام وحلوه الحديث عن أساتذتنا الكبار الذين يتركون في النفوس أثرا لا يملك الدهر سحب ذيول النسيان عليه من الذاكرة مهما غار في البعد، فللحقائق قوة غالبة لا قبل لأي قوة أن تجابهها، ولا أن تنفذ من خلالها، فإذا ما تذكرت أستاذنا الدكتور الشمسان وصعّدت النظر في سيرته وآثاره وصوبته وجدت الحكمة ملء ثيابه، والجد حشو إهابه، لا تزال يده مبسوطة بالعلم والبذل والنفع والنصح لطلابه، من عرف منهم ومن لم يعرف، وينفق الساعات من وقته في سبيل ذلك، وهو من أحسن الناس عشرة، لم يكن للملالة طريق إلى نفوسنا أثناء محاضراته، سنوات تقضت وطويت منذ أن أنهينا دراسة الدكتوراة، ولم تزل جسور المحبة والتواصل ممدودة بينه وبين كثير من طلابه، إذ هو من الكبار الذين في اللجوء إليهم سد للجوع العلمي فيما يدل عليه، أنعم به وأكرم شيخا ومعلما ومربيا، وهو قمن بكل تكريم وتقدير، بارك الله في علمه وعمله.

(*) نشر في جسور، مركز حمد الجاسر الثقافي، ع٢٨، رجب ١٤٤٣هـ.

أخي إبراهيم أبو أوس

سارة بنت سليمان الشمسان

أخي إبراهيم أبو أوس، شقيقي الذي أفخر به، المحب السمح، الرفيق الرقيق، الطلق المحيا، الفياض الأصيل الأريب الوجيه اللبيب الحسيب العطوف الجواد الكريم، الذي بطلعته تهل البشائر.

من أين أبدأ حروفي وكيف أرتب كلماتي وهو العلم على هذه اللغة؛ ولكن حسبي أن حروفي ستخرج من القلب الذي طالما نبض بحبه هذا الشقيق العطوف.

إني لن أقول بأنه صاحب أخلاق رفيعة لأنها ستبدو جملة ضئيلة بجانب شمائله الرفيعة، كيف لا وهو الواصل للقريب والبعيد الذي يعطي حقا للصغير والكبير.

عرفته قائما بالواجبات بل وأكثر، فلا تمر مناسبة إلا وتجده أول المباركين وحفاوته تلك تجعلك تظن بأنك مناسبته السعيدة الأولى التي يفرح لأجلها، يتحين الفرص لإسعاد من حوله ومنحهم ما يستطيع تقديمه من السعادة، فلقد زارني يوما وعندي الاولاد والأطفال فسلمت عليه إحدى الصغيرات التي لم يتجاوز عمرها خمس سنوات فقبلته وقالت له دون مناسبة: سأعمل لك حفلة يا خالي. فضحك أخي وضحكنا وضمها بحنان، ونسينا ما حدث لكنه لم ينسَ، فعاود الزيارة ليقدم لتلك الصغيرة عقدا من الذهب يحمل أول حرف من اسمها هدية جميلة لها، وأعاد لها الضمة الحنونة وألبسها هذا العقد.

أخي الذي في شدتي يكون كتفا أستند عليه، وفي حزني وطنا يضمني إليه، وفي فرحي يشاركني فتبدو الفرحة فرحتين

في القلب آلاف الحكايا وفي الروح دزينة من الكلمات التي تجعلني أقول وبكل فخر أخي أبو أوس هو الأخ الوطن.

هو القصيدة هو الشمس لما تضيء بأشعتها الذهبية فتلمع النجوم التي تتلألأ في عيني الآن فلا أملك قولا سوى كم أحبك يا أخي فليحفظك الله..



يا شمس المعرفة

سجى عمر طعامنة

يا شمس المعرفة في دياجير الظلام، لقد عجزت الكلمات عندما أردت أن أثني عليك، عندما أردت أن أقدم شكري لذلك الشخص الذي لم يبخل بعلمه علي، بعد أن هداني الله لكتابة رسالة الماجستير الخاصة بي التي تناولت فيها علما من أعلام اللغة، ومهما كتبت فلن أوفيك يا أستاذي الجليل حقك عليّ من التجلة والتقدير، فاعذر حروفي وكلماتي وعبارتي إن تاهت في مدحك، ولكن ستبقى أبد الدهر منارة ونهرًا رقراقًا صافيًا لمن أراد أن ينهل من نتاجك العلمي المبهر، أدعو الله لكم بطول العمر وصفاء الذهن والعطاء المستمر.



جليس أبي أوس*

أ.د. سعد عبد العزيز مصلوح

يمثل النحاة في مصنفاتهم لمعنى الإباحة في (أو) بقولهم: "جالس الحسن أو ابن سيرين"، حثًّا منهم على مجالسة العلماء والصُّلاّح. ولو تاح لهم ما أتيح لي لاستبدلوا بمثالهم هذا مثالًا غيره يقول "جالس الحسن أو أبا أوس"، بلى! فإن جليس أبي أوس إنما هو جليس حامل المسك الذي جاءنا خبره من رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وسلم في ما رواه أبو موسى الأشعري ﵁؛ إذ ضربه مثلاً للجليس الصالح؛ "فهو إمّا أن يُحْذِيك، وإمّا أن تجد منه ريحًا طيبة". وتأبى مروءة الرجل الجليل أن يُجيئَك إلى الابتياع، أو أن يجعلك تقنع منه بوجدان الريح الطيبة. إنه أبدًا صاحب الحذايا الوافرة والهبات الغوالي، ينثرها فتقع من عقل جليسه موقع الماء العذب من ذي الغُلَّة الصادي. أقول ذلك عن خبرة وطول تجريب.

لقد شاء الله أن تكون الكويت دار مقامة، وشاء سبحانه أن يكون لأبي أوس نسب وصهر، ومن ثَمَّ عهدته غَدّاءً روّاحًا بين بلاد الحرمين الشريفين والكويت، كما عهدتني ناظرًا مترقبًا معلق القلب بزوراته. ويعلم الشيخ الجليل أنني من أوِدّائه الحراص على لقائه والجلوس إليه والإفادة منه؛ فتراه ما إن يحط الرحال حتى يسارع إلى إعلامي بوصوله، وسرعان ما نَتَّعِد لنلتقي، فأخِفُّ حافدًا إلى مجلس لا تعلم نفسٌ ما

(*) نشر في جسور، مركز حمد الجاسر الثقافي، ع٢٨، رجب ١٤٤٣هـ.

أخفي لي فيه من قرة عين ومتعة عقل؛ حيث لطائف النحو وشَرودُ المسائل ودقائق التخريج؛ كل أولئك في فصيح مَنْطِق، وعفة لسان، وسلامة قلب.

وإني لأشهد أنه - على كثرة ما تداولنا من حديث وما تطارحنا من حوار- أني ما سمعته يذكر غائبًا بما يكره في علم أو خلق أو دين؛ فهو من الذين لا تعرف الكلمة الخشناء أو العوراء إلى لسانه سبيلاً؛ هذا إلى تواضع وخفض جناح يعز نظيره؛ فهو دائمًا - كما وصفته بحق ذات مقال: رجل راضَ نفسه على طلب الحقيقة، غير حَفول بالتوافه، لا يَسْتَرشي مدحًا من أحد، ولا يعبأ بتكثير السواد على البياض في غير منفعة ولا عائدة، بل يُوجدك مبتغاك من أقصر طريق، ولا ينتهي إلى رأي حتى يتخَبَّره بانتقال لطيف من الجلي إلى الخفيّ، واستدلال بالظاهر على الغائب، ثم إنه إلى ذلك عالم حقِّيّ يهضم نفسه، ولا يتمزّى بعلمه على أحد من الخلق.

وإني لأسأل الله لأخي أبي أوس مزيد البركة في العمر، ومزيد التوفيق إلى صالح القول والعمل، ولا ريب عندي أن جمهرة طلاب العلم والمشتغلين به مُؤَمِّنون على دعائي؛ فكلنا منفوع بجهده وثمرات كلمه المبارك؛ فله منا جميعًا طيب الثناء، ومن الله تعالى حسن الثواب.



حارس العربية مخلص لتخصصه*

د. سعد بن عبدالله المحمود

جامعة المجمعة
مخلص لتخصصه.
حارس العربية، المدافع عنها، الخادم لها.
العالم المتواضع.

هذه بعض العبارات التي تتردد كثيرًا في المجالس العلمية، واللقاءات الأكاديمية التي يرد فيها اسم أستاذنا أبي أوس إبراهيم الشمسان.

كانت معرفتي العلمية بأستاذنا أبي أوس سابقة للمعرفة الشخصية، إذ عرفته قبل ما يزيد على عشرين سنة، وكانت علميته العالية هي السبب في تلك المعرفة، فعرفته من خلال كتابه التعليمي: دروس في علم الصرف، الذي استعنت به في تيسير مقرر الصرف على طلاب المرحلة الثانوية في المعهد العلمي في الدمام.

ثم لما يسر الله لي الالتحاق ببرنامج الدراسات العليا في قسم اللغة العربية في جامعة الملك سعود، شاء الله لهذه العلاقة أن تنتقل إلى مرحلة أعلى، نهلت فيها من معين أستاذنا الذي لا ينضب، فاستفدت في مرحلة الماجستير من لقاءاتي به، مستشيرًا ومستنيرًا، وكان مما أشار به علي في تلك المرحلة أن أبحث في أحكام (أل) في العربية في جلسة

(*) نشر في جسور، مركز حمد الجاسر الثقافي، ع٢٨، رجب ١٤٤٣هـ.

كان قطباها أستاذنا أبي أوس والدكتور: جواد الدخيل الذي كان مرشدًا علميًا لي في مرحلة الماجستير، وكنت فيها مستمعًا ومنصتًا.

وفي مرحلة الدكتوراه كان مقرر محاضرات في اللغة والنحو يجمعنا بأستاذنا أبي أوس، تمر ساعاته سريعًا، لما يكون في تلك المحاضرات من حراك علمي ونقاش يرفع مستوى الطالب في تلك المرحلة إلى ما هو مأمول. كان من أهدافي في تلك المرحلة أن يكون أستاذنا أبو أوس المشرف العلمي لي في رسالتي، فكان من توفيق الله أن كان مرشدًا قبل الإشراف، فتكررت لقاءاتي به وازداد تواصلي به، فكنت أستفيد منه وأستعين به - بعد الله - فيما يشكل، وكان له الفضل - بعد الله - في تحديد موضوع بحثي: أثر الروافد الثقافية في التنظير النحوي. ولا زلت أذكر تلك الساعة التي اتفقنا فيها على هذا الموضوع. ومازالت ملاحظاته تجود البحث حتى استوى على سوقه، فشرفه بشهادة وتقديم.

إن مما لحظته في منهج أستاذنا أبي أوس في منهجه العلمي. التزامه بالأمانة العلمية التي قد يغفل عنها بعض الباحثين بله العلماء، ظهر ذلك في بحثه المعنون بـ: أقوال العلماء في صرف أشياء. إذ كان هذا البحث مما ناقشنا فيه أستاذنا في محاضرات مرحلة الماجستير، فكان أن عرض للاتجاه الصوتي في امتناع صرف (أشياء) وأول من نبه إليه، وكان لأحد زملائنا في تلك المرحلة، وهو الأستاذ: عبدالعزيز العمران جهد في تنبه أستاذنا إلى بحث البشبيشي في هذه المسألة. وقد حفظ أستاذنا الكريم لزميلنا حقه فنبه على ذلك في بحثه.

أما منهجه في الإشراف العلمي فكان يعطي الطالب حرية للتعبير عن رأيه من غير اعتراض، حتى وإن خالف الطالب أستاذه في رأيه، بل

ربما أثنى عليه في المناقشة في مسألة خالفه فيها.

ولم تكن تلك المراحل نهاية الصلة بأستاذنا، بل كانت بداية مرحلة أخرى، ألتقيه بين فينة وأخرى، في منزله العامر بالعلم والكرم، ويشرفني أخرى باتصال أو تهنئة، وكأني صاحب الفضل، وما ذاك إلا لكريم خلقه وطيب معدنه.

إن علاقة بأستاذ كأبي أوس كفيلة أن تكسب الطالب أولًا مفاتيح العلم، وأدوات البحث، فهو العالم الباذل، والباحث الناقد، وهو بحر النحو، ومن يقف على أبحاث أستاذنا ومراجعاته يتبين جانبًا من المنهج الذي ربما كان أثره في طلابه ظاهرًا.

حفظ الله أستاذنا وبارك في عمره وعمله



شكر لأبي أوس إبراهيم الشمسان

شمسة بنت عبد اللّه بن محمّد الشهرانيّ
محاضر في قسم اللغة العربيّة
جامعة الأميرة نورة بنت عبد الرَّحمن

اعترافًا بالفضل لأهله، وعملاً بالخلق الإسلاميّ الرفيع بشكر المحسن على إحسانه، ولأنَّ للنجاح أناسًا يقفون خلفه، وجهودهم المضنية سبَّاقة لطلبة العلم أنظم عقد شكري وتقديري للأستاذ الدكتور إبراهيم الشَّمسان على عظيم إنسانيته التي سبقت علمه، وعلى نجوم نصحه وإرشاده البرَّاقة في سماء العلم، فقد أكرمني باستعارة بعضٍ من مؤلفاته، وقام بإهدائي نسخة من معجمه الموسوم بـ«معجم أسماء الناس في المملكة العربيّة السعوديّة»، ولم يتوانَ عن تقديم النَّصح والإرشاد عندما أتصل به سائلة عمَّا أجهله أو أشك به حتى أجد غايتي في سديد رأيه في أيّ مسألة علميّة تختصّ بالجانب اللهجيّ في رسالتي للماجستير الموسومة بـ«أسماء الإناث في منطقة عسير: دراسة صوتيّة صرفيّة» التي تفضّل عليّ بمناقشتها عام ١٤٣٧هـ/ ٢٠١٥م، إلى جانب الأستاذ الدكتور: محمّد بن ناصر الشهريّ، وكانت بإشراف الأستاذ الدكتور: يوسف بن محمود فجّال، التي أُوصي بطباعتها حينئذ في قسم اللغة العربية بكلية الآداب بجامعة الملك سعود. فله مني أصدق الشكر وأنداه وأزكاه، والله أسأل أن يجزيه عني وعن طلبة العلم خير الجزاء، وأن يعظم له الأجر والعطاء.

٢٣/ ٥/ ١٤٤١هـ



خالي المختلف

عبدالرحمن بن عبدالله الخميس

كل مرة أفكّر في خالي إبراهيم، أول فكرة تطرأ على بالي، الاختلاف. هو الخال الذي هو مختلف في كل شيء يدور حوله. من خياراته في الحياة، والتعامل معه، ومسيرته العلمية والعملية، إلخ. وهذا الاختلاف يشمل طبيعة علاقتي مع خالي، لأنها "غير".

هو خالي الذي لابد أن يشارك معي أفراحي الصغيرة والكبيرة، مع أن علاقتي به عادية، وأجزم أنه يفعل ذلك مع الجميع، لكني لا أعرف عن الجميع، فدعني أكلمك عن علاقتي به.

أتخيّل نفسي في مكانه، لدي تقريبًا أكثر من ابن أخت وابن أخ، وعند كل مناسبة (زواج، مولود) لابد أن أشارك بهدية، أو مبلغ مادي! شخصيًا لا أعتقد أنه يمكنني فعل ذلك، ولكن هذا خالي إبراهيم!

أعرف أن خالي يتخصص في الأدب أو النحو أو شيء حول ذلك. وكوني لا أعرف بالضبط يعطيك تصوّرًا عن طبيعة العلاقة، إذ أخشى أن أسأله، وهو نار على علم، حيث تزدحم المكتبات بمؤلفاته وفضاء الشابكة (الإنترنت) بأعماله وندواته ولقاءاته؛ ولكن في الوقت نفسه لدي فضول عن خالي وحياته وكل ما يدور حوله. لا أخفيكم كل مرة أهنئه أو أكتب له، أشعر بالرهبة. لا أريد أن أكون ابن أخته الذي لا يعرف أين يجب أن يضع الهمزة!

خالي الذي يشجّع أي شخص يكتب. أذكر غير مرة أن أختي أماني

وريم، كتبتا كتابات أدبية وخالي العزيز يقرأ لهما ويثني على محاولاتهما بل ساعد بنشر ما صلح منها في صحيفة الجزيرة الثقافية، وشجعهما على الاستمرار.

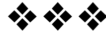
في الحقيقة يروق لي أسلوب حياته -طبعًا الظاهر لي- ولكني أحب كيف يكتب ويتكلّم عن أمور يجدها مهمة بغض الطرف عن اهتمام الناس فيها.

أصنّف خالي من المثقفين المختلفين. يحمل أعلى درجات الأستاذية في الجامعة وفي الوقت نفسه قريب جدًا من العامة بشكل مختلف وقريب إلى القلب، عجيب ما يفعله للتواصل مع الناس القريبين.

جرت العادة أن خالي لسبب ما، أجهله، يهاتفني عندما يريد أي شيء من القصيم، وكأني مأمور خط القصيم وأعرف الذاهب والقادم. المثير للاهتمام أني أحب مهاتفات خالي؛ لأنه لابد أن يمزج كلامه بمزحة أو بأمر يدخل السرور على قلبي في ذلك اليوم. يكلمني خالي عند إرسال أو استقبال طرد من عنيزة أو إليها. أحيانًا يكون تمرًا وأحيانًا كراتين لا أعلم ما بها. الذي يطمئن قلبي أن المتراسلين (غالبًا خالتي نورة) وخالي إبراهيم) من أقرب الناس إلى أمي.

أذكر، ونحن صغار، أن خالي كان يأتي إلى عنيرة حيث نسكن فيبهجنا بأن يأخذنا إلى مطعم هرفي (أعتقد مطعم الوجبات السريعة الوحيد)، وكذلك يفعل الشيء نفسه عندما نزورهم في الرياض. هذه أحد الأمور التي تعلمتها من خالي وأتمنى أن أطبقها مع أبناء العائلة.

أعزائي القراء، هذا خالي إبراهيم الشمسان وهذه بعض من صفاته الحميدة التي يذكرها أحد أبناء أخته الصغيرة.



عمي أبوأوس

د. ليلى بنت عبدالله الشمسان

عمي إبراهيم الشمسان هو مصدر فخر لنا لكونه أول شخص من أسرتي المقربة يحصل على شهاده الدكتوراه في تخصصه.

طالما كان قدوة لنا في الاحتراف الوظيفي والالتزام بأخلاقيات المعلم.

شغفه وحبه للعلم المستمر هو طاقة إلهام بالنسبة لي.

جانبة العلمي والإنساني متداخلان، هو معلم إنسان طيب القلب وحنون.

شكرًا لك من القلب.



أبو أوس الشمسان والدرس اللغوي*

أ. د. محمود أحمد نحلة
أستاذ العلوم اللغوية بكلية الآداب
جامعة الإسكندرية

من عرف أبا أوس كما عرفته سنين عددًا، وقرأ له من نتاجه العلمي ما قرأت يدرك أن الرجل اجتمعت فيه خصلتان من الفضائل ما اجتمعتا في أحد من أهل العلم إلا حاز بهما قصب السبق، وأوفى على الغاية: ملكة إبداعية، وفكر ناقد. وقد صقلت هاتين الخصلتين روافد عديدة أهمها:

١- نهم إلى طلب العلم وتحصيله لازمه مذ كان صبيًّا حتى صار شيخًا جليلاً في علوم اللغة. وقد أورثه هذا النهم في طلب العلم وتحصيله حب الاستقصاء في كل عمل علمي يقوم به، فهو لا يكتب شيئًا إلا إذا جمع له على وجه الاستقصاء ما أسلف القولَ فيه الباحثون قبله قدماء ومحدثين، ثم يصنفه تصنيفًا علميًّا دقيقًا، وينعم النظر فيه في روية وأناة إلى أن يجد سبيلاً إلى تقديمه على نحو يتفرد به، ويسد به كل الذرائع؛ فلا يكاد أحد - وإن جهد - يجد له مغمزًا، أو يستدرك عليه شيئًا فاته.

وقد تقاضاه حب الاستقصاء بذل غاية الجهد، والصبر الجميل على مكاره البحث العلمي، وسعة الرؤية والصدر، وقبول الرأي الآخر، والتفرقة الحاسمة بين الخلاف والاختلاف، وقوة الملاحظة، والرؤية

(*) نشر في جسور، مركز حمد الجاسر الثقافي، ع٢٨، رجب ١٤٤٣هـ.

الشاملة، والنقد الذاتي، وتجاوز الأنماط الشائعة في البحث العلمي إلى آفاق رحبة من الإبداع والابتكار والتجديد، والنفاذ إلى مواطن الضعف والخلل عند غيره فيما يناقش من آراء، وتجنبها فيما ينتج من علم، فضلاً عن الثقة بالنفس التي تجعله يقدم على إعلان رأيه برفق وأدب رفيع فيما يكتبه غيره سلبًا أو إيجابًا؛ إذ كان لا يقول إلا ما يعتقد أنه الحق الأبلج الذي لا يماري فيه إلا من في قلبه مرض. وكل كتبه وبحوثه في قضايا اللغة ومسائلها شاهد على ذلك.

٢- أساتذة أجلاء أسهموا في تكوينه العلمي إسهاما صقل ما فطر عليه من خصال وسجايا، فقد أتيح له في المرحلة الجامعية الأولى في الرياض وما تلاها في مصر أساتذة كبار جمعوا إلى العلم الراسخ بالتراث اللغوي الأصيل، علما بما جد به العصر من اتجاهات حديثة في الدرس اللغوي والأدبي؛ ففتحوا له أبوابا من العلم، وتنوع الآراء، وأسس التحليل العلمي، ومناهج البحث، وطرائق التدريس، والحوار العلمي الخلاق، فضلاً عن تواضع العلماء، واستقامتهم على الطريقة، وعلاقاتهم الوثيقة بتلاميذهم، ما اتقدت به حماسته، ونشطت إليه همته. واقرأ إن شئت ما كتبه عن شهاداته لأساتذته: أحمد الضبيب، ومحمد الهدلق، وعبد العزيز المانع، والشاذلي فرهود، ومحمود حجازي ويوسف خليف وشكري عياد ورمضان عبد التواب وغيرهم. وبقدر ما كان الرجل وفيًّا لأساتذته كان حفيًّا بتلامذته، مقربًا لهم، ساعيًا إلى الإسهام في تكوينهم العلمي، حريصًا على تيسير العسير لهم، فتخرج على يديه جيل من الباحثين الجادين الذين تبوءوا في العلم والفضل مكانة عليا، وكانوا أهلاً لحمل أمانة العلم والتعليم.

٣- انقطاعه للعلم، وتفرغه له، والتحلي بالزهد في عرض الدنيا، والتخلي عن العجب بالنفس، واجتناب مواطن التهم، فلم يشغل نفسه بجمع مال، أو الوصول إلى منصب، أو منافسة بين الأقران، أو استهلاك الوقت والجهد في ضغائن وصراعات لإثبات الذات، أو فرض رأي، أو ميل مع الهوى، أو مباهاة بعلمه، أو رغبة في تصدر المجالس؛ بل كان ملاك الأمر عنده أن يزداد في العلم رشدًا، وأن ينفع به الناس؛ فالعلم عنده شغله الشاغل في ليل أو نهار.

وقد أثمر هذا نتاجًا علميًّا غزيرًا يدور حول ثلاثة محاور أساسية:

١- المحور العلمي: وقد تمثل في نحو اثنين وعشرين كتابًا، وأربعين بحثًا منشورة في مجلات علمية محكمة انتظمت أهم قضايا البحث اللغوي بمستوياته الأربعة الصوتية، والصرفية، والنحوية، والدلالية، فضلاً عن معجم لأسماء الناس في المملكة العربية السعودية، وعدد ضخم من المقالات، وعشرات التحقيقات اللغوية التي تتسم بالدقة، والإيجاز، وكشف الغموض، والالتباس، والحيرة في الاستعمال اللغوي، تجدها في "مداخلاته اللغوية"، وفي كتابه "مساحة لغوية".

٢- المحور التعليمي: وقد تمثل فيما كتب من دروس في علم الصرف وما صاحبه من كراسة التدريبات التي وضعت على نحو غير مسبوق في كتب الصرف التعليمية، وأخطاء الطلاب في الميزان الصرفي، وهو عمل غير مسبوق أيضًا، فضلاً عن إعداد سلسلة من الكتب لتعليم الكبيرات، وأبحاث في صعوبات تعلم اللغة في عصر التقنية، وتعلم اللغة الإدارية، والضعف اللغوي وغير ذلك.

٣- المحور التثقيفي: وقد تجاوز به اعتصام كثير من أساتذة الجامعات العربية بالكتابة الأكاديمية التي تخاطب خاصة المتخصصين إلى الفضاء المجتمعي الرحب؛ فكتب عشرات المقالات التي تجيب في دقة وتمحيص وإيجاز عن أسئلة جمهور مستعملي اللغة من غير المتخصصين، ونشرها على نحو منتظم أسبوعيًا في الصحف السيارة كاليوم والجزيرة والرياض وغيرها، وقد جمع ما نشر في هذه الصحف حتى الآن في سلسلة من الكتب تعد ثروة لغوية حقيقية، ومرجعًا للدارسين وطلاب العلم، فضلاً عما قدمته من خدمة جليلة لغير المتخصصين في اللغة، ولم يكتف الرجل بذلك بل نقل هذا التفرد إلى واحدة من أوسع وسائل التواصل انتشارًا: "تويتر"، فأخذ ينشر بانتظام دون كلل أو ملل تغريدات لغوية ونحوية لا تزيد إحداها على سطر أو بعض سطر، ولكنها تتضمن فائدة جليلة للمهتمين باللغة العربية في العالم كله.

هذا رجل وهب نفسه للعلم فرفع الله به قدره، وأعلى شأنه، وأنبه ذكره، وجعله نموذجًا يحتذى للعلماء العاملين. ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.



هكذا عرفتُ شمسه واستضأت بإشراقته

أ. مريم بنت محمد الوباري
جامعة الملك فيصل

ذات يوم لاح في فكري سؤال، ولم أظن إلحاحه عليّ سيستوعب الوقت كلَّه أو جلَّه، بدا لي وبعد تردُّد صداه الإسراع إلى مَن يبدد حجبه التي لا تهدأ.

ولكنَّني قرأتُ لعالم عبقريّ بعض مقالاته العلميّة القيّمة، وقرأتُ عنه اليوم في منتدى مجمع اللغة العربيّة.

سيرة عطرة، يكلِّلها التواضع الجم، وفيض النبل والإخلاص الوفير، والعلم الوافر، والاعتداد بالعلماء، والحرص على توقير وتبجيل كلِّ من أفاض عليه سواء في المدرسة أو الجامعة، وما لا يحصى مِن سيرة نبل خطّها بتاريخ الإشراق والضياء.

حينها شعرتُ بالإضاءة تحفُّ ذلك المكان المملوء بالحجب في عقلي، وأسرعتُ دون توانٍ بتسجيل رقم جواله في جهازي.

لكنَّ هيبة له ولعطائه المتدفِّق ولأفضاله الكثيرة ولكنوز معارفه، ولصنائع معروفه، ولهديه الكثير، وما لا يمكن لقلم ترجمته سيطرتْ عليّ فتوقفتُ عن الإرسال وبقيتُ في كلِّ مرَّة أُغلِق رسالة أو أمحوها دون إرسالها.

إنَّ الذي كان يحول بيني وبين ذلك هو: تُرى هل وقت عالم قدير فاضل جهبذ كريم مثله يسمح له باستقبال أسئلة والإجابة عنها؟

وهل سيجيب عن أسئلة مَن لم يكن ضمن طلابه في قاعة الدرس؟

والواقع يقول نعم، لإجماع أهل العلم والفضل على أعلميّته وفضله

ولما يحتوي قلبه الكبير مِن إنسانيّة عظيمة، وللإخلاص الذي يستوعب كلَّ كيانه، وللمسؤولية التي يلقيها على عاتقه فهو عنوان العالم الفاضل والمعلم القدير والإنسان الرحيم العطوف.

ولكن هناك سؤال أهم، هل ذلك السؤال الذي لاريب سيكون محط عنايته ورعايته لا ينبئ عن سذاجة السائل؟!

سبعة أيام والأفكار التي تراود فكري كثيرة، والأسئلة لا حصر لها، والإجابات لا مكان لها، إنَّها غائبة تمامًا.

وفي يوم ما وبعد كلِّ تلك المقدمات التي لا نهاية لها، والاستفهامات المتكررة بصيغ متنوعة، حاولتُ التصدي لكلِّ ذلك وكتبتُ رسالة في مضمونها سؤال.

ولشدَّة ما نالني بعد الإرسال مِن قلق فقد حذفتها من جهازي وبقيت أترقب عن كثب وبعد هنيهة وجدت رسالة سطوع تضيء فكري وعقلي إنَّها من رائد العلم المضيء سعادة العالم المفيض ذي الفضل والجود، الأستاذ القدير الدكتور الفاضل: أبي أوس الشمسان حفظه الله.

قد أجاب بعلمه الغزير عن السؤال، وبرحمته الكبيرة وبسعة عطفه استمرَّ في الإجابات عن كلِّ أسئلتي وإيضاح ما يعسر عليّ، وتوجيهي نحو ما ينير فكري وفي كلِّ مرَّة أهرع إليه يبدد أسئلتي بفيض علمه الذي يغدقني به دون منّ أو أذى، ليس ذلك بل ويصحح أسئلتي ويصوِّب ما يعتري لغتي مِن لحن بروح طيبة وقلب كبير وصدر رحب وكل ما لا يحصى.

إنَّ سعادة الأستاذ الدكتور الفاضل أبا أوس حفظه الله نموذج للمعلم العالم الذي يسمو بعقل الإنسان، ويرتقي بفكره، ويجعل الطريق سالكًا

للعبور بكلِّ إخلاص، مما يجعل طلاب العلم يتمسكون بالفهم، ويقاومون الصعاب مهما بلغت، فهم يرون كلَّ الموائد العلميّة الزاخرة بما لذَّ وطاب للعقل والفكر ويتلمَّسون معاني الحنو والعطف مِن فيض فضله وعطائه غير المتناه.

لذلك حين يحاول الطالب شكره يقف عند محطات كثيرة، فهو بادئ ذي بدء لا يعرف مِن أي باب خوض غمار الحديث عن فضيلة العالم القدير الدكتور الفاضل: أبي أوس، ولا غرو، فالأبواب كثيرة ولا حصر لها، أعن ذلك التواضع الجم يتحدث ذلك التواضع الذي يكتنزه ويُعبِّر عن شخصه الكريم رغم العلم الغزير الذي يكلِّله، ذلك التواضع الذي يجعل أفئدة الطلاب تهوي إليه، دون أن تخشى صدودًا؛ إذ تجد رعاية وعناية وتوجيهًا، أم عن ذلك النبل الذي عرفتُ معناه من خلاله، وكيف لطالب في مرحلة جامعيّة أنْ يستذكر أستاذًا مِن بلاد عربية ويبدأ رحلة بحث عنه كي يغدقه بفيض الشكر ويجعل إهداء رسالته الجامعيّة موسوما بوسام النبل المعروف عنه بشكر ذلك الأستاذ الفاضل رحمه الله، أم عن ذلك العلم الوفير الذي أفاده بهمَّة وعزيمة ففُتِحتْ له آفاق المعرفة فأغدق العقول بعلمه وبدا رحيما عطوفا يفيض على كلِّ سوح العلم وعقول المتعلمين ويجعلهم يستضيئون بضياء شمسه المشرقة دومًا، أم عن عنوان المعلم الرائد الذي امتاز به، فغدتْ كلُّ مرافئ العلوم والمكتبات والعقول تشير إليه إجماعًا؛ لكونه الفاضل الفاضل الذي تقف له كلَّها إجلالًا وإكبارًا وثناء، أم عن معاني الإخلاص التي يترجمها في كلِّ أقواله وأفعاله أم يتحدث عن الصبر الجميل الذي يجلِّله وهو يسمو بفكر الطالب دون السماح للخذلان أنْ يقف في طريق الطالب، أم عن أسلوبه العذب في البيان وفصاحته وبلاغته في التعبير

وجودة التأليف أم عن معان كثيرة عرفتها كما عرفتها الأجيال، أم عن العربيّة التي تفخر بكونه رائدها وصائنها وحافظها، أم عن أعلام التراث الذين يتباهون ببره وببحر علمه المتدفق وبكونه الامتداد الطبيعيّ لهم، أم عن المكتبات وسوح العلم والعلماء والمتعلمين الذين يجدونه العَلم المنير، أم عن وجه شبَه تراءى لي بين فضيلته وبين ابن جنّي، وكلاهما لغويّ عبقريّ نبيل مخلص وفي وما لا يحصى.

إنَّه هو الرائد العلميّ المشرق بشمسه الساطعة المعلم الفاضل أبو أوس حفظه الله.

وهنا بعد الوقوف له إجلالا وإكبارا لعطاياه الكثيرة والنفيسة أقدم له اعتذارا، وهو الكريم الذي يصفح ويقبل فقد حاولت التعبير الحسن في مقام في فضله وما أفاض عليّ؛ لكن ما قلمي الصغير أمام شموخه، وما هو تعبيري أمام ريادته، وما الشكر الذي يستطيع طالب تقديمه لأستاذه الفاضل وقد أحياه بالعلم وقد أفاض عليه بالمعارف وقد أجزل له العطاءات وقد رحمه وقد أنعم عليه وكلُّ النعم التي يقدمها الأستاذ الفاضل المعلم الرائد أبو أوس حفظه الله لا يمكن للشكر أنْ يكون جزاء ولكن لمعروفه وصنائعه ولفيض فضله دعاء خالص في ظهر الغيب واجتهاد كي يكون تعبيرا موفقا عن الشكر الذي يبقى خجلاً أمام فيض عطائه، وهناك أمر مهما كتب القلم ونزف الحبر ونطقت الألسنة لا يمكن أن تفي أو تجازي سعادة الأستاذ الدكتور الفاضل أبا أوس وتبقى تشعر بالتقصير أمام سخائه وجوده.

حفظك الله يا عالمًا منيرًا.



لا يُدرّسنا، بل يدرس معنا

د. نايف بن عبد اللطيف مبارك الهبوب
جامعة الإمام عبد الرحمن بن فيصل بالدمام

الأبناء الأعزاء، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وبعد:

العلامة أ.د أبو أوس، أستاذ قدير، قد أكرمني الله بالدراسة بين يديه، فألفيته أستاذًا متجددًا حيويًّا، نشعر أنه لا يُدرّسنا، بل يدرس معنا، له فكر جريء في معالجة القضايا اللغوية والنحوية، نتعجب من سعة اطلاعه، يحترم العلم والعلماء، يتسم بنبل الأخلاق، وإشراقة الروح، كنت أحدثه عن تدوين سير العلماء السعوديين في اللغة العربية، جمعًا وتدوينًا، وعيني تبرق أمامه محبة له، وإكبارًا لجهوده في خدمة العربية، وهاهم أبناؤه، وطلبته يطلقون أقلامهم في سيرته، عرفانًا ووفاء.

دعوةٌ من الله صادقة، أن يمدَّ أبا أوس بالصحة والعافية، وطول العمر على الطاعة.



أبيات

سلام واحترام*

أ.د. محمد حماسة عبداللطيف
دار العلوم- جامعة القاهرة

يـا أبـا أوس سـلامًـا　　　لـك مـنـي واحـتـرامـا
أنت ثبت العلـم عال　　　صرت في العلم إماما
نــضـــر الله حـــيـــاة　　　أنت فيها لا تـسامى
وبـقـيـت الـعـمـر نـورًا　　　وبــعـــلــم يـتــرامــى
كـل عـام بـك يـزهـو　　　ولـتـزد عـامًـا فـعـامـا

٢١ ديسمبر ٢٠١٥م



(*) نشرت في:
https://www.facebook.com/100001264231997/posts/pfbid0vxoLXVWLAV7bEtm-GYY6h64swAJAeCE8Zsg9ropvbib45gRvf28G9knsQ3vQTnzJ9l

معارضة للحماسية*

أوس إبراهيم الشمسان

والدي الشهمَ الهماما دمت للحق إماما
رُمتَ بي درب المعالي منذ أن كنت غلاما
لك أخلاق نبي عن أذى النفس تَسامى
عالم علم عليمٌ صيته فاق الغماما
قال (شوقي) إن تروه ستهبّون قياما
حارسُ الضاد وعنها جرّد السيف الحساما
فجزاك الله خيرًا وثوابات عظاما



(١) حين قرأ أوس أبيات محمد حماسة أنشد على غرارها.
https://m.facebook.com/story.php?story_fbid=1036829193035879&id=100001264231997

قصيدة الشكر*

أحمد بن عبدالله العمير- الأحساء

أيـها الـرامـون مـجـدا ورجـالا   وشـمـوخًـا وعـطـاء وفـعـالا
إن أتـيـتـم لـتـنـالـوا وُجـدكـم   بـأبـي أوس لـقـد نـلـتـم مـنـالا
أيـها الـسـاقـون مـن نـبـع الـعـطـا   انـهـلـوا من كـفـه الأنـدى خـصـالا
أيـهـا الـرواد بـحـرا سـاحـرا   ارشفوا من عشقه الفصحى زلالا
وتـرووا لـغـة مـوزونـة   وارتـدوا مـن إرثـه الـنـحـوي شـالا
وتـغـنـوا أحـرفـا مـيـاسـة   كـلـمـا أذَّن خـلـنـاه بـلالا
وتـأسـوا حـكـمـة فـيـاضـة   وصـفـاء ورسـوخًـا واعـتـدالا
قد سـمـونـا فـي سـمـاء أشـرقـت   شمسها الشمسان علمًا يتلالا
والـتـقـيـنـا فـي رواق مـشـرق   نستطيب العلم فخرا واحتفالا
وقـصـدنـا الـعَـلَـم الأسـنـى هـوًى   وحـمـلـنـاه عـلـى الـرأس عـقـالا
يـنـتـشـي الـنـحـو عـلـى إيـقـاعـه   وغصين الصرف في كفّيه مالا
أي فـخـر مـن عـطـايـاه حـوى   أي حب في نفوس الناس نالا
عـنـده الألـقـاب يـفـنـى ذكـرهـا   يـنـتـفـي الأسـتـاذ والـحـامـل دالا
هـو بـحـر عـبـقـري زاخـر   هـو طـود مـن مـعـانٍ تـتـعـالـى
إن تـغـص فـي لـجـة الـعـلـم خطًا   مـدّ مـن يـمـنـاه لـلـعـون حـبـالا
جـوهـر الـعـلـم سـقـانـا شـهـده   فـلـه الـعـرفـان حـبـا وامـتـثـالا
خذ قـصـيـد الـشـكـر ريـان الـنـدى   كـل حـرف أنـطـق الـصـدق مـقـالا

(*) المجلة الثقافية، العدد ٥٧٦ - صحيفة الجزيرة-الرياض، السبت ٢٨ رجب ١٤٣٩هـ/ أبريل (نيسان) ٢٠١٨م العدد ١٦٦٣٤.

زادك الرحمن من نعمائه وحباك العمر أعواما طوالا
دمت للأجيال رمزا خالدا زدت علما عشت سعدا طبت فالا



ماذا أقول؟

أيوب غالب علي الدَّهَّاق
طالب دراسات عليا- جامعة الملك سعود

مـاذا أقـول؟ وَهَـلْ يَـهُـمُ لـسـانُ … بِمَديح شَخْصٍ إنْ بَدا الشَّمْسانُ؟
رَجُـلٌ إذا كَـتَـبَـتْ مَـنـاقِـبَـهُ يَـدٌ … نَـشِـطَـتْ لِـذلِـكَ راحَـةٌ وَبَـنَـانُ
مـاذا تَـقـولُ لِـمَـنْ أنـاخَ بِـبـابِـهِ … نـحـوٌ، وصـرفٌ وّاضِـحٌ، وبـيـانُ
وإنِ ٱستطاعتْ أنْ تُدَبِّجَ أَحْرُفًا … بَـدَتِ الـحُـروفُ بـوصْـفِـهِ تَـزْدانُ
تَـأْتـي الـعِـبـارةُ نَـحْـوَهُ مُـنْـصـاعَـةً … وَهْـوَ الـدَّلـيـلُ لـهـا هُـوَ الـرُّبَّـانُ
هُـوَ مَـنْ يُـوَجِّـهُـهَـا لـمـدْلـولاتِـهَـا … بِـبَـراعـةِ الـمـاضـيـنَ مِـمَّـنْ كـانـوا
فَـكَـأَنَّـه الـسَّـراجُ فـي أُسْـلـوبِـهِ … أَوْ كَـالـمُـبـرّدِ زانَـهُ الإتْـقـانُ
وَبِـصَـرْفِـهِ كَـالـمـازِنـيِّ مُـحَـلِّـلاً … لِبُنَى الكَلام أَساسُهُ الـمـيـزانُ
وَمِـنَ الـبَـيـانِ إذا حَـبـاكَ وَجَـدتَّـهُ … رَبَّ الـبَـلاغـةِ رَبْـعُـهُ جُـرْجَـانُ
كَمْ كنتُ محظوظًا بأنْ صاحبْتُهُ … وَنَـهَـلْـتُ مِـنْـهُ فـنـبْـعُـهُ الـرَّيَّـانُ
وَحَـبـاهُ رَبّـي حِـكْـمَـةً وَتَـواضُـعًـا … حَـتّـى ظَـنَـنْـتُ بِـأَنَّـهُ لُـقْـمـانُ
هَـذا أَبـو أَوْسٍ حَـبـيـبُ قُـلـوبِـنـا … فـي حُـبِّـه لَـمْ يَـخْـتَـلِـفْ اثـنـانُ
فاحْفَظْهُ يا رَبّي وَزِدْ في عُمْرِهِ … عَـلَـمًـا تُـبَـاهِـي بـاسْـمِـهِ الأزْمَـانُ



وفـــاء

د. جياب الخضر صالح عوض
اليمن

ما لي، يقولُ، أرى الأسماءَ قد كثُرت
فـي الاحـتـفـاءِ، واسـمُـكَ بـيـنـهـا غـابـا
هـلاّ كـتـبـتَ عـن الـشَّـمـسـان يـا رجـلُ
وكـنـت مـن ضـمـنِـهـم فـي الـبِـرّ كَـتّـابـا
كـم قـد قـرأتُ ودادًا فـي الـوفـا عـطِـرًا
وفـاح ذكـرٌ لـشـيـخِـك عـزُّه طـابـا
فـقـلـتُ مـهـلاً فـإنّـي لـسـتُ أجـهـلُـه
قـدرًا، وبـرًّا، وإحـسـانًـا وإعـجـابـا
إنـي تـفـاجـأتُ بـالأخـبـار أقـرأهـا
عـن احـتـفـاءٍ بـشـيـخـي نِـعـمَ مـا ثـابـا
ولـو عـلـمـتُ لسـطَّـرتُ الـوفـا جُـمَـلاً
وصُـغـت مـن نـسـيـجِ الـحـبِّ أثـوابـا
هـذا أبـو الأوسِ مـعـطـاءٌ بـلا مـنَـن
هـذا الـمـوجِّـهُ إنْ صـادفـتَ أتـعـابـا
هـذا الـذي يـعـرفُ الـتـألـيـفُ مـنـهـجَـه
نـحـوًا، وصـرفًـا، وأصـواتًـا، وإعـرابـا
هـذا الـذي تـعـرفُ الـعـلـمـاء قـيـمـتَـه
وعـنـده طـالـبُ الـعـلـمِ مـا خـابـا
فـجـازِه يـا ربُّ بـالـحـسـنـى ووفِّ لـه
أجـرًا كـريـمًـا، وذِكـرًا فـي الـورى جـابـا



شكر وعتاب*

ذو الكنيتين عبدالله العويد
الأحساء

هــل مــن ســبــيــل إلــى خــلّ نــهــاتــفــه؟
أو من سبيل إلى النحوي[ابن شمسان]؟
حــيّــوا أبــا أوس إبــراهــيــم، إنَّ لــه
فــضــلاً عــلــى لــغــة شــعــت بــقــرآن
وأبــحــروا فــي مــقــالات يــســطــرهــا
ذا [النحو] ذوق، وذاك [الصرف] أوزان!

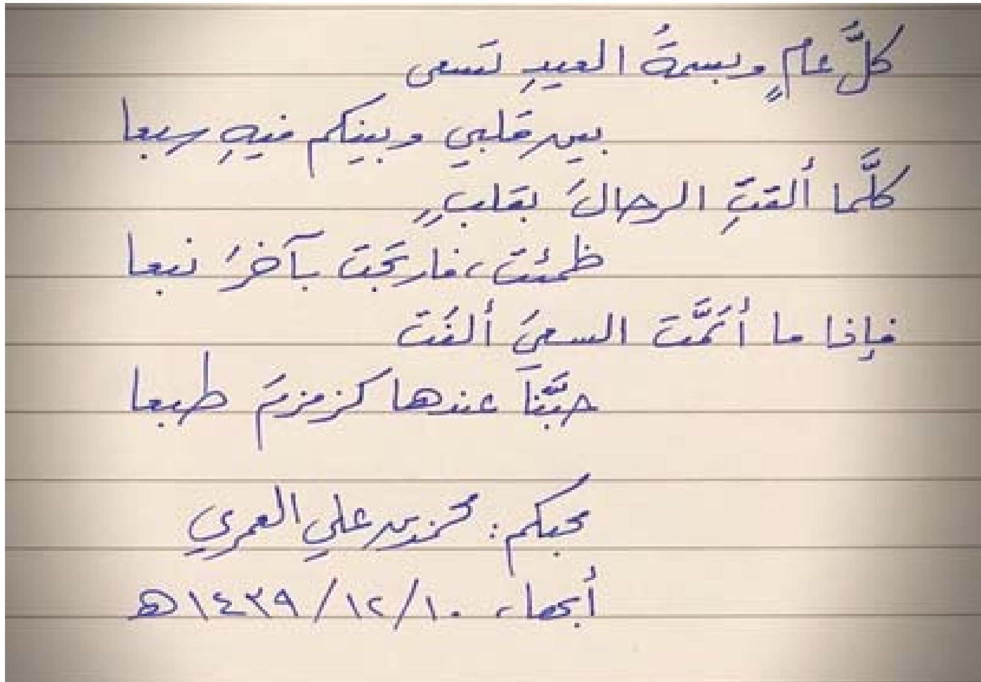
أهديها إلى المجلة الثقافية التي لم تزل تهمش أدبياتي، التي أرسلها دائمًا.



(*) نشرت في المجلة الثقافية الخميس ٣٠ جمادى الآخرة ١٤٣٢ العدد ٣٤٤، الموافقه ٢ يونيو ٢٠١١م.

تهنئة بالعيد

جمال اللفظ والخط في تهنئة لأبي أوس:



كلَّ عامٍ وبسمةُ العيدِ تسعى
بين قلبي وبينكم فيه جمعا
كلّما ألقتِ الرحالَ بقلبي
ظمئت، فارتجت بآخرَ نبعا
فإذا ما أتمّت السعيَ ألفت
حبّنا عندها كزمزمَ طبعا

محبكم: محمد بن علي العمري
أبها ١٠/١٢/١٤٢٩هـ



لأنت العيد*

محمد بن عبدالعزيز الموسى

لَأَنْتَ العِيدُ حينَ دَنا شُروقُه ... وَأَنْتَ البِشْرُ إن لّاحَتْ بُروقُه
وَأَنْتَ طَلائِعٌ لِلْمَجْدِ حَلَّت ... عَلى الدُّنْيا سَوابِغُها تُفيقُه
لَكَ الأَفْضال تُبْصَرُ في ظَلامٍ ... وَكُلُّ الفَضْلِ يَصْحَبُهُ خَليقُه
شَقيقُ الجودِ أَنْتَ بَنَيتَ فيهِ ... جَمالًا وَالشَّقيقُ لَهُ شَقيقُه
بِكَ الْأَيّامُ تَبْتَسِمُ انْشِراحًا ... وَجودُكَ ما يُزايِلُهُ غَبوقُه
فَكَم مِّن وّارِثٍ مَجْدًا تَليدًا ... فَباتَ وَنَفْسُهُ لَيْسَتْ تُطيقُه
وَلَكِنْ أَنْتَ قَدْ أَنْتَجْتَ مَجْدًا ... فَصارَ مُرَفْرِفًا تَعْلو خُفوقُه
لَقَدْ أَبْلَيْتَ في الإحْسانِ حَتّى ... أَفاقَ وَمِنْكَ قَدْ بَلَّتْ عُروقُه
وَبَحْرُكَ ماؤُهُ لِينٌ وَصَفْح ... وَبِرُّكَ لَيْسَ مِنْ أَحَدٍ يُعيقُه
تَواضُعُكَ الْكَريمُ يُشِعُّ نُورًا ... كَمِثْلِ النَّحْلِ يَدْعوهُ رَحيقُه
أَيا شَمْسانُ إنَّ الحَرْفَ يَزْهو ... بِذِكْرِكَ فَانْتَشى فَرَحًا فَريقه
فَأَنْتَ لِكُلِّ مُعْضِلَةٍ دَواءٌ ... جَوابُكَ كَالنَّهارِ لَهُ سُموقُه



(١) هنأ أبوأوس الشاعرَ المبدعَ بالعيد فأجاب بهذه القصيدة المعبرة عن سابغ كرم الشاعر.

https://twitter.com/aboawsalshamsan/status/1160168183111847936?t=-_M-hnqGQln7EZvRdlKk3g&s=08

إلى شافعِيِّ النحو

السلام عليكم

من الأساتذة القلائل الذين وهبوا أنفسهم بحق لتخصصاتهم العلمية أستاذي القدير الأستاذ الدكتور العلاّمة أبوأوس إبراهيم بن سليمان الشمسان، فقد وهب نفسه لعلوم اللغة العربية، واختص منهجًا قويًّا قويمًا من الجد والإخلاص والعمق والتفاني، تجده واحدًا في محاضراته ومؤلفاته ومناقشاته ومداخلاته ومقالاته؛ ولذا بارك الله له وفيه، فكان له حظٌّ وافرٌ من كل علومها وفنونها، وقد رزقه الله مع ذلك خلقًا كريمًا ومروءةً تامّة وإقبالاً وقبولاً وتواضعًا، فاكتسح بها معاليق القلوب وافتتح بها مغاليق الدروب، وقد نالني منه ما نال آلاف طلاب العربية من نوابغ فكره وسوابغ فضله، ثم شاء الله أن يكون حكمًا لعدد من أبحاثيَ العلمية ولكتابَيّ في التنظير وفي قياس العكس، فأفاء عليّ وأفاض من دقائق سوانحه ورقائق نصائحه، فجزاه الله عني وعن العربية وطلابها خير ما جزى عالِمًا عن علمه وأستاذًا عن تلامذته وأبا عن أبنائه، وقد قلت فيه أبياتًا عرفانًا بشيء من فضله، أدام الله فضله:

بأمر الهوى من مُولعِ القلب هائمِه ... وحقِّ الوفا من حافظِ العهد حازِمِه

تسوقُ رياحُ الحُبِّ مني سَحابةً ... محمَّلةً مِن ماءِ بِرِّي بدائمِه

بشكري بإجلالي بفخري ببهجتي ... مدى العُمرِ تهمي في جميعِ مواسمِه

إلى شافعيِّ النحوِ في يوم فقهِهِ ... وخالدِهِ يَومَ النزالِ وحاتمِه

تعاهَدَني في روضةِ العلمِ بذرةً ... وما زال يَسقيني بِدِيمِ غمائمِه

يراني نديًّا والندى منهُ جاءني ... وضيئًا وضوئي لمحةٌ من عزائمِه

وما أنا إلا نُزْفَةٌ من بحارِهِ وقَدحةُ زَندٍ من شموسِ مكارمِه
فيا ليتَ شعري كيفَ أوفيه حقَّهُ وأجزيهِ عن ماضي العطاءِ وقائمِه
فعذرًا أبا أوسٍ فلستُ ببالغٍ من الشكرِ، مهما قلتُ، كعبَ قوائمِه
فإن كان للعلمِ الحقيقِ عواصمٌ فإنَّكَ والرحمنِ إحدى عواصمِه
فسبحان مَن ثَنَّى بكَ الشمسَ فانجلَت بها من ظلامِ الجَهلِ كلُّ قواتمِه
وسمّاك إبراهيمَ إذ كنتَ أُمَّةً لوحدِكَ فينا أُترِعَت بنعائمِه

أبو الطيب محمد بن علي العمري
أبها، الثلاثاء ١ ذي القعدة ١٤٤٣هـ



شهادات

من سمات شخصية أبي أوس*

د. إبراهيم بن سليمان اللاحم
عميد كلية اللغة العربية والدراسات الاجتماعية
جامعة القصيم

قد يتعثر القلم في نقل المشاعر والأحاسيس تجاه أستاذي أبي أوس، ويَقْصُر عن بيان ما ارتسم في ذهني وانحفر في ذاكرتي من مواقف ودروس تشكلت في عدة محطات؛ أولها في تدريسه لي في السنة التمهيدية من مرحلة الدكتوراه، وثانيها: في إشرافه على رسالتي للدكتوراه: (بناء النظرية النحوية العربية دراسة في الاتساق والشمول والبساطة)، وثالثها: في لقاءات واجتماعات خاصة. ولكنْ حسبي هنا إشارات وإلماحات إلى شيء مما رأيته في شخصية أبي أوس وتعلمته من صفات إنسانية وسمات علمية.

وتتصدر سماته الشخصية تلك العلاقةُ الحميميةُ التي تنشأ بينه وبين طلابه، وتجعل صلته بطلابه مستمرة حتى بعد انتهاء التدريس لهم أو الإشراف عليهم، وقد أوجد هذه العلاقة - في نظري - ذلك التواضعُ الجمُّ الذي شمل كل مظاهر حياته؛ كلامه وهيئته وتعامله، داخل القاعة الدراسية وخارجها، وأوجدها ذلك التروي والحكمة والهدوء الذي يتحلى به العلماء، كما أوجدها البذلُ والسعي في تيسير أمور طلابه وإزالة ما قد يعيق مسيراتهم الدراسية، فتراه يتنقل في مباني الجامعة

(*) المجلة الثقافية، العدد ٥٧٦-صحيفة الجزيرة-الرياض، السبت ٢٨ رجب ١٤٣٩هـ/ ١٤ أبريل (نيسان) ٢٠١٨م العدد ١٦٦٣٤.

ومكاتبها لينجز إجراء إداريًّا لأحد طلابه، وتراه يحمل في سيارته الكتب ليوصلها إلى أحد طلابه، وغيرها من الصور ومواقف البذل، ولا أنسى ذات مرة -وكنت طالبًا- هاتفني قرابة الساعة يستعرض الكتب التي في مكتبته ليعيرني منها ما يناسب الفكرة البحثية التي أريد أن أبحث عنها، وبعدما اخترت مجموعة من الكتب بعثها إليَّ في القصيم.

لم ينقطع أبو أوس عن العلم وظلَّ وفيًّا لتخصصه، مجددًا للمعرفة اللغوية التي يحملها، مزكيًّا لها بالكتابة والتأليف واللقاءات العلمية، أفدت منه في كتابة رسالة الدكتوراه، وتجلت لي جوانب من شخصيته العلمية والبحثية، أذكرُ منها:

أولا: عمق الملاحظة ودقتها في البناء والصياغة للجمل والتراكيب، وله تنبيهات دقيقة ولفتات عميقة في عبارات وجمل شاعت بين الباحثين المعاصرين. وكان يعيب المبالغة في استعمال المصطلحات الأجنبية أو التكلف الذي قد يعقد الفهم، وينادي بوضوح العبارة واستبعاد الحشو من الكلام والتكلف في التعبير.

ثانيا: يمنح طلابه الذين يشرف عليهم حرية واسعة في طرح آرائهم، ويؤكد أنه لا يفرض عليهم رأيه، لذا لا أتحرَّج أبدًا في أن أبقي رأيي المخالف لرأيه.

ثالثا: في تعامله مع الاختلاف العلمي يذكر رأيه مقرونًا بالدليل والتعليل، وتخلو عباراته وأحكامه من مبالغة أو حِدَّة أو تسفيه أو إنشائية في الأحكام تخرج عن العلمية، خاصة في أحكامه على النحو العربي القديم. ولذا لا تجده متعصبًا للقديم أو للحديث ولا متعصبًا ضدهما.

رابعا: توقفت آراء بعض الباحثين المعاصرين عند نقد تفسيرات النحويين لظواهر في اللغة العربية دون أن يقدموا تفسيرًا بديلاً عنها، وهذا بحسب نظرية العلم يبقي تفسير النحويين الأقوى والأنجعَ لعدم طرح البديل، لكنَّ أبا أوس عندما خالف تفسيرات النحويين لبعض ظواهر اللغة أوجد تفسيرًا شاملاً بديلاً عنها، يظهر ذلك جليًّا في تفسيره لحركات الإعراب في بحثه: تعميم قاعدة النمط. وفي بعض التفسيرات الصوتية للإبدال والإعلال.



يوم يعادل أربعة عشر*

أ.د. إبراهيم بن صالح الحندود
أستاذ النحو والصرف - جامعة القصيم

شرفتُ باشتراكي مع أستاذي الكبير أبي أوس الشمسان في أكثر من مؤتمرٍ وندوة ومناقشة علمية، فألفيته بحرًا من العلوم، وموسوعةً ثقافية، لا تدري ما تخصُّصه إن لم تكن على علمٍ به قبل أن تخالطَه.

ومن يطَّلع على سيرة أبي أوس العلمية، وعلى نتاجه الغزير الذي يصعب حصرُه حتى من قِبَلِه هو ليُدرك أنَّ الله قد منَّ عليه ببركة الوقت واستثمارِه، ولا سيما في هذا العصر الذي كثرت فيه الصوارف، وفي مجتمع غارقٍ في المناسبات الاجتماعية وغيرها، مع أنه رجلٌ لا يعرف الاعتذارَ إذا ما دُعي إلى مؤتمر أو ندوة، أو مناقشة رسالةٍ علمية. وتصفَّح - إن شئت- سيرته، ونتاجه العلمي، والبلدان التي سافر إليها، والمناسبات العلمية التي سافر من أجلها.

حينما كنتُ عضوًا من أعضاء هيئة تحرير (مجلة جامعة القصيم للعلوم العربية والإنسانية) قمتُ بإرسال بحث مقدَّم للنشر في المجلة إلى أبي أوس لفحصه وكتابة تقرير عنه، وكان هذا في إحدى ليالي الجمعة، وما إن فرغتُ من صلاة الجمعة حتى أرسلتُ له رسالةً مختصرةً على هاتفه المحمول، نصُّها: «سعادة أستاذي الكريم أبا أوس. أرجو منكم

(*) المجلة الثقافية، العدد ٥٧٦- صحيفة الجزيرة - الرياض، السبت ٢٨ رجب ١٤٣٩هـ/ ١٤ أبريل (نيسان) ٢٠١٨م العدد ١٦٦٣٤.

الاطلاع على بريدكم، وكتابة تقرير عن البحث المرسل إليكم في مدة لا تتجاوز أربعة عشر يومًا»، ولم يمضِ على إرسال رسالتي إليه عدَّةُ ثوانٍ حتى كتب إليَّ يقول: «تجدون التقرير في بريدكم حفظكم الله»، فظننتُ أنَّ في الأمر لبسًا، أو أنَّه لم يُعطِ البحث حقَّه من التأمل والفحص، فإذا بالتقرير في بريدي في اثنتي عشرة صفحة، ومن أفضل التقريرات التي وقفتُ عليها.

أبو أوس يتحلَّى بأخلاق العلماء العظماء وتواضعهم؛ فلقد اشتركت معه قبل ثلاث سنوات في مناقشة إحدى طالبات الدكتوراه في جامعة الملك سعود، وكان ممَّا نبَّهتُ إليه الطالبةَ أنَّ كنية اللغوي (علي بن إسماعيل المرسي) (ابن سيده) بالهاء لا بالتاء؛ فذكرَ أستاذُنا أبو أوس أنَّ كتابتَها بالتاء، وأنّ الذين ترجموا لعلي بن إسماعيل نصُّوا على أنها منقوطةٌ بنقطتين من فوق، لكني شككتُ في معلومتي أمام قامة علمية، ولا سيما أني أحفظ كتابتها حفظًا منذ أيام الطلب الأولى، فلم أشأ أن أراجعَه في ذلك، وما كان ينبغي لي، ولكنَّه لكرمِه وسموِّ خُلُقه سارع في كتابة مقال في جريدة الجزيرة (السبت ٩ صفر ١٤٣٧هـ العدد ٤٧٩) ليذكر هذا الموقفَ، وليقولَ على مسمع من الملأ: «القولُ ما قاله أستاذنا الحندود، فلعله يقبل أسفي واعتذاري عن خطأ ووهم لا أعلم كيف تمكن من نفسي هذا التمكُّنَ الغريب». وكان يغنيه عن ذلك - عفا الله عنه- أن يتَّصل بي اتصالًا، مع أنَّ اللفظة محل خلاف، فمن المؤرخين من جعلها (ابن سيده) بالهاء الساكنة، ومنهم من جعلها منتهية بتاء التأنيث، فتكون على هذا ممنوعة من الصرف، لكنه أراد أن يُعطيَ

طلاب العلم درسًا تطبيقيًّا في كيفية الرجوع والاعتذار، وأنهما لا ينقصان من قدر العالمِ. وأحسبه - أيضًا- أراد تعميم الفائدة حول هذا الموضوع(١).

ولأبي أوس فضلٌ ومعروف على كثيرٍ من زملائه وطلاب العلم، سواء أكانت تربطه بهم علاقةٌ أم لا، وكان يُحسن الظنَّ بالعبد الفقير كاتبِ هذه الأسطر؛ إذ رشَّحني لبعض المناسبات واللقاءات العلمية دونما علمٍ مسبق لديّ، وما ذاك إلا لإحسانه الظنَّ بالآخرين.

وثمَّ جانبٌ آخرُ مهمّ، وهو أنَّ شيخَنا لا يدخل مؤتمرًا أو ندوة أو محاضرةً إلا وجهازه المحمول في يده، فهو مستثمرٌ للتقنية، متابع لمستجداتها، غير متقوقع على نفسِه كما هو حال كثير ممَّن هو في هذا العمر، الذين رفعوا الراية مردِّدين عبارة (راحت علينا)، فهذه العبارة وأمثالها من العبارات السلبية لا تجدها في قاموس أبي أوس، ولا يؤمن بها، ولا يفكر فيها مجرَّد تفكير.

حبا اللهُ أبا أوس قلبًا طيبًا وروحًا مرحةً. جالسته كثيرًا فلم أسمعه يغتابُ أحدًا، إنْ ذَكَرَ أحدًا ذكره بخير، وإن ذُكِرَ عنده أحدٌ أثنى عليه. لا تخلو محاضراته وأوراقه العلمية ومناقشاته من النكت والملح الطريفة

---

(١) جاء في بحث (الحصيدة من عبارة ابن خلكان في ضبط ابن سيدة) للدكتور صفاء صابر مجيد البياتي، "العرب"، رجب - رمضان ١٤٤٣هـ/ ٢٠٢٢م. ص ٢١، قوله "ننتهي من كلّ ما سبق إلى أنَّ (سِيدَة) بالتاء مؤنَّث (سِيد) الذي هو الذئب أو الأسد، كُنّي به الإمام اللغوي أبو الحسن عليّ بن إسماعيل المرسيّ الأندلسيّ". (المحررون).

التي تضفي على الجوِّ العلمي الصرف شيئًا من المرح وتجديد النشاط الذهني لدى المتلقِّي، وطرد الملل، فالنفوسُ إذا كلَّت ملَّت، يُدرك ذلك من حظي بشرف حضورِ شيءٍ من محاضراته، واللقاءاتِ العلمية التي يشترك فيها.

اللهمَّ وفِّقْه، ومدَّ في عمره على عملٍ صالح، في صحةٍّ في البدن وأمنٍ في الوطن.



المتدثرُ بجمال النفس*

إبراهيم بن عبدالرحمن التركي

** قلةٌ في زمننا هذا من يتكنَّون فلا تكادُ تُعرفُ أسماؤُهم الأولى، وفيهم: شيخنا أبو عبدالرحمن ابن عقيل، والمفكر التونسي أبو يعرب المرزوقي، والباحث الاجتماعي الراحل أبو هاني العبّادي، والأكاديميُّ النحويُّ أبو أوس الشمسان، أما من يُلحقون كُناهم بعد أسمائهم فليسوا قلةً، وإن لم يكتبوها مع مقالاتهم أو بحوثهم فالناسُ تعرفهم بها، ومجتمعنا معنيٌّ بنداء الكنية أكثر من الاسم المباشر أو اللقب العلمي والوجاهيّ تقديرًا في الأولى وحميميةً في الأخرى.

** والحديث هنا عن أبي أوس؛ فقد اختار الكنيةَ لسببٍ لا ندريه، ولعله العزوفُ عن الانتشار، ولا نعلم قبل مولد ابنه الكريم الدكتور "أوس" ما كانت كنيتُه، أو لعله ممن لا يتكنَّون بأسماء آبائهم حتى قبل أن يتزوجوا فاختار أوسًا قبل أن يجيءَ أوس، ولا يعني هذا كثيرًا؛ فقد كان الأستاذ الدكتور إبراهيم قليلَ الظهور في الإعلام الثقافي وما يزال، ولولا زاويتُه المنتظمة في المجلة الثقافية بجريدة الجزيرة المعنونةُ (مداخلات لغوية) لاكتفى بمدرجه وطلبته وتآليفه وأبحاثه المحكمة، وهي كنزٌ مهم دون ريب، وإذ أضاف إليها حضورًا نوعيًا تخصصيًا في إطار تيسير النحو وتقريبه فقد ضاعف الكنزَ وأوفى الكيل، ولكاتب هذه الكلمات مع أبي أوس أكثرُ من موقف.

(*) نشر في جسور، مركز حمد الجاسر الثقافي، ع٢٨، رجب ١٤٤٣هـ.

❊❊ لا يعرفُ صاحبُكم أنه أغلق مكتبَه يومًا، أو طلب تنظيمَ مواعيد الدخول عليه اقتناعًا يقينيًّا بقيمة التواصل المباشر مع من وضعه الله في طريق خدمتهم، غير أنه - قبل أعوامٍ تقتربُ من العشرين - فوجئَ بسكرتيره يبلغه أن شخصًا يطلبُ مقابلته، وأنه لم يرضَ الدخول مباشرةً، واسمه (أبو أوس)، ولأنه لا يعرف بهذه الكنية سوى صديقٍ ذي مكانةٍ عالية لديه، ويسمع بالعالِم النحويّ أبي أوس فقد أسرع صاحبُكم للخروج إليه حيث ينتظر، وإذا به هذا الإنسانُ النبيلُ الأصيلُ المتواضع الشامخ الدكتور إبراهيم بن سليمان الشمسان، فرحب به كثيرًا، وأصغى إليه طويلاً، وسعد بإهداءاتٍ من كتبه، واتفق معه على تقديم زاويةٍ متخصصةٍ في النحو ما تزال "الثقافيةُ" تتوجُها في صدر صفحتها الثانية، وخرج منها واحدٌ أو أكثرُ من مؤلفات أستاذنا المضيئة.

❊❊ ومرةً ثانيةً دعاه الأستاذُ إلى لقاء خاصٍ، واتفقا على المكان في بهو أحد الفنادق، وكانت المفاجأة أنه حمل معه ثلاثة كتب جديدة من إصداراته خصَّه بتوجيه أحدها في صفحة الإهداء إليه؛ فامتنَّ لكرمه الباذخ، ولم يعجبْ من موقفه، وهو الذي يُؤثرُ طلبته عليه فيطلب منهم تقديمَ بعض مؤلفاته، وبادر - مرةً ثالثةً - بزيارة الوالد عبدالرحمن بن علي التركي العمرو رحمه الله في منزله بعنيزة وفاءً وبرًا، وأنِسا بجلسةٍ نحويةٍ ثقافية مضيئة وصفها أبو أوس في كتاب صاحبكم: (الألفيةُ لا الأبجدية) الذي صدر بعد وفاة الوالد غفر الله له.

❊❊ أما الرابعةُ فقد عرض عليه دون طلبٍ منه أن يُصححَ إصداراته الجديدة، وضنَّ صاحبكم بوقت أستاذه فلم يُقدّمْها له، غير أنه بادر بتصحيح الطبعة الأولى من كتاب الوالد تمهيدًا للطبعة الثانية المقررة

قريبًا بعون الله، وفي الخامسة استعرضَ كتاب صاحبكم: (فواصل في مآزق الثقافة العربية) بتحليلٍ وتدقيق، ونُشر في صحيفة الرياض فأنبأ عن نفسٍ طيبةٍ وعقلٍ ذي اهتماماتٍ واسعة.

** أما السادسة فأبو أوس اختطَّ منهجًا رائدًا في تيسير النحو من غير أن ينأى عن التأصيل أو يغرق في التفصيل فاكتسبَ إعجاب شداةِ النحو وشيوخِه، وفيما بعد هذه حتى المئة فإن الأستاذ الدكتور أبا أوس الشمسان جمع العلمَ والخُلقَ فصار بهما رقمًا أكاديميًا وإعلاميًا وثقافيًا واجتماعيًا يستحقُّ التكريم والاحتفاء، ومبادرة (جسور) تكمل ملف (الثقافية) الخاص بأستاذنا، ويثق بأن مدينته (المذنب) ستكرّمه كذلك، مؤملين أن تنضم إليهما مبادراتٌ بحقِّه على مستوى الوطن.

** الشهرةُ لا تَعني ولا تُغني.



سيبويه زمانه*

المستشار أحمد بن علي آل مريع عسيري

بلغة عربية فصيحة يتحدث، ويؤلف كتبًا بالعربية السليقية، ويكتب بالعربية الناضجة لا لحن ولا عيوب لغوية، عرف طلابه قدره، ونال زملاءَه فضله، واستحسن رؤساؤه عطاءه.

فيه تواضع العلماء وأريحية البسطاء وزهد عن الأضواء، لغوي ضليع ونحوي صرف وبليغ وناقد وأديب متنوع في الاختصاصات متباين في الاهتمامات.

حبب طلابه في تخصصه وقربهم إليه بشرحه الهادي البسيط، فيه مرونة العلماء وهيبتهم، وتواضعه مصدره ثقته بنفسه واعتداده بطرحه وطريقة حياته العلمية المتميزة.

لا يحب أن يبرز علمه وتخصصه أو أن يصوب ما يقوله الناس، بل كان متأدبًا ومتواضعًا حتى مع المخطئين اللغويين، يتركهم وشأنهم ولكن إذا وصلوا إليه واستشاروه أمطرهم بالفكر الصحيح والقاعدة النحوية والطريقة الصحيحة للنطق بدون تصنع أو تظاهر أو ادعاء بل بكل بساطة وأريحية وهدوء.

قرأ وكتب ودوّن، وهو مبتعد عن الإعلام، وكرس حياته للمعرفة والعلم والفن والثقافة التخصصية، أعجبني تكريمه وسرني تقديرَه

(*) صحيفة عالم محايل الإلكترونية، مايو ٥، ٢٠١٨م.

مجموعةٌ كبيرة من زملائه وقرائه وتلاميذه في مجلة الجزيرة الثقافية، وهذه مشاركتي معهم مكتوبة في صحيفة عالم محايل المتميزة.

تحية طيبة لك أستاذي أبا أوس وتقديري لعلمك وحضورك وتوهجك في ميادين الثقافة وردهات المعرفة وأفانين العلم والتقدير أيضًا لكل زملائك أعضاء هيئة التدريس بجامعة الفكر والمعرفة الجامعة الأم جامعة الملك سعود.



أبو أوس إبراهيم الشمسان الأستاذ الصامت البليغ*

د. جاسر الحربش

لا نعرف قدر من يضع الصمت في محله المناسب إلى أن يتحدث فتتمنى ألا يسكت. وما أكثر الأساتذة ألقابًا، وما أقلهم استحقاقًا للأستاذية. استحقاق الأستاذية، لقبًا وأداءً، شرف حصريّ لمن يحقق ثلاثة شروط: التبحر المعرفي في مجاله. والموهبة في توصيل معارفه مبسطة سهلة لطلابه ومستمعيه. وأن يكون الحكيم، إذا صمت، البليغ إذا نطق.

لن يختلف معي أحد يعرف الأستاذ إبراهيم بن سليمان الشمسان على أنه من الفرقة الناجية. وأعني المتمكنة من العلم الواسع وموهبة التبسيط وحكمة الصامت البليغ إذا تحدث. سبق أن وصفت أبا أوس في مقال قديم بأن الحاضرين معه في مجلس يتعجبون من صمته الطويل المستغرب من أستاذ في مكانته. فإذا تحدث تمنى كل الحاضرين أن يطيل. لتأنيه ودقته في شرح المعاني والدلالات في اللغة ولأناقته في وضع الكلمة في مكان لا تصلح إلا فيه.

مثل الكثيرين غيري من محبي اللغة العربية الذين يتمنون لها تطورًا تبسيطيًّا يواكب العصر ويسهل قبولها وهضمها في عقول وألسنة أجيالنا الشابة. أتابع مقالات أستاذنا أبي أوس في الجزيرة الثقافية، فيطربني تعامله مع مفردات وجمل وأمثال وقصائد شعبية نعتبرها عامية صرفة،

(*) في جسور، مركز حمد الجاسر الثقافي، ع٢٨، رجب ١٤٤٣هـ.

فيردها إلى أصولها الفصيحة ويصل الماضي الأمي بحاضر المتعلم، وكنا قبل شرحه نعتقدها منقطعة الصلة بالأصول الفصيحة ثم نعرف منه أنها ليست كذلك.

وبعد، تربطني بالأستاذ إبراهيم الشمسان الصداقة الخالصة والوله باللغة العربية وصلة المصاهرة، فهو جد أسباطي، أبناء وبنات، زوج ابنتي، الأستاذ المعروف محليًّا وعالميًّا في علوم الصيدلة وتقنية النانو، الدكتور أوس إبراهيم الشمسان. هل تدفعني هذه الوشائج القوية إلى المبالغة في تقدير ضيف نشرة جسور الثقافية لهذا العدد. لا، والله؛ بل الأحرى أنها قيّدتني قليلاً خشية المحاباة.

هذا هو الأستاذ الحقيقي في مجاله، أبو أوس إبراهيم الشمسان كما أراه. لقد سعدت وتشرفت كثيرًا بإتاحة المشاركة في تكريمه في نشرة جسور ثقافية لمركز أستاذ الجميع الشيخ حمد الجاسر الثقافي، طيب الله ثرى المؤسس ووفق القائمين عليه لكل خير، وهنيئًا للأستاذ أبي أوس تكريمه المستحق.



أستاذ الإنسانية والبحث العلمي*

حسين المناصرة
جامعة الملك سعود (سابقًا)

الإنسان أولًا!! في مدة تجاوزت ثلاثة عقود، خبرت فيها الدكتور أبا أوس إبراهيم الشمسان عالمًا مثقفًا متأملاً ودودًا، ينصت لكل من يحاوره بهدوء وطمأنينة، ثم ما أن يتكلم حتى يكون كلامه معرفيًا موزونًا، يكشف عن سعة علمه واطلاعه. يترفع عن الصغائر، واثقًا أبيًّا شامخًا، يتحلى بأجمل الأخلاق... خاصة صفة التواضع، ودماثة الخلق، وحسن المجاملة والعشرة! يتحكم بعواطفه الجياشة، ويطلق العنان لفكره حكيمًا منصفًا في آرائه ومواقفه، مع جرأة علمية في إحقاق الحق، ووضع الأمور في نصابها. وما أنْ يشعر بأنّ هناك من يسعى إلى أن يتصرف بسوء النيات... حقدًا وحسدًا في مسائل علمية، أو يرتهن لمشاعر الأضغان الشخصية؛ فإنه حينئذ يدرك جيدًا أن هذا الميدان الآخريّ الخبيث ليس ميدانه، وأنه أسمى من أن يردّ على أية حماقات تصدر من (رويبضات) التعليم، الذين قد يرون في شتيمة العلماء لهم رفعًا لقدرهم.

كان أبو أوس منذ اليوم الأول في مسيرة معرفتي به إلى اليوم رجلاً مخلصًا لكرم الرجولة وحكمتها، يعي جيدًا أن تقديره لذاته الحميدة، يكمن في تقديره للآخرين وحمدهم.. أساتذةً وزملاءَ وطلابًا؛ لذلك

(*) المجلة الثقافية، العدد ٥٧٦ - صحيفة الجزيرة - الرياض، السبت ٢٨ رجب ١٤٣٩هـ/ ١٤ أبريل (نيسان) ٢٠١٨م العدد ١٦٦٣٤.

تميزت علاقاته الإنسانية بمن حوله ممن يستحقون التقدير والاحترام بكونها علاقات حميمية، ومن ثم لم تسمع عنه في أي يوم من الأيام إلا ما يؤكد ثباته على أخلاقه الكريمة ومثاليته النموذجية في تصرفاته والتزامه بمسيرته البحثية والتعليمية والمجتمعية الجادة التي تجعل كل من يعرفها يزداد بها إعجابًا. . . فأبو أوس – بكل تأكيد- رجل بقامة علمية محلاة بإنسانيته ذات الشفافية العليا في مستوى علاقاته بالآخرين.

والباحث ثانيًا!! الأستاذ الدكتور أبو أوس الشمسان عالم باحث في اللغة العربية، وباعه طويلة في كتبه ودراساته ومقالاته التي نقلت اللغة العربية من ثقافتها المعجمية إلى تداوليتها في استخدامها وتحولاتها، ولم يجعل بحثه في مجالات ضيقة، كما يفعل كثيرون غيره عندما يتعاملون مع لغتنا باعتبارها شواهد واستخدامات شاذة أو متحجرة. تقرأ له وكأنك تقرأ نصًا إبداعيًا، محبوكًا بلغة سردية ماتعة. هذا هو العالم الحقيقي؛ أي عندما يسخّر الباحث معرفته وأدواته المنهجية في خدمة لغته في مستواها العصري، فيجيز ويسوغ كثيرًا من الاستخدامات للغة، في حين نجد هناك من لا يعترف إلا بلغة العصر الجاهلي. . أو من كرس خمسين سنة من عمره في دراسة استخدامات (إذا، أو، الفاء، إنّ . . . إلخ.) في نصوص تراثية، ويفرضها أيضًا على طلابه أو طالباتها، وكأنّ اللغة أشلاء وأوصال!! أبو أوس باحث متميز، بدأ بحثه الحقيقي بعد أن حصل على الأستاذية، فكانت سنوات عمره التي تلت الأستاذية مليئة بالمنجز البحثي اللغوي. . . لم يكن همّه الأول الأستاذية، وإن كانت مهمة أيضًا، لكنه ما زال يحب أن ينادى باسم (أبو أوس إبراهيم الشمسان). . . وفي المقابل هناك من قضى ثلاثين عامًا للحصول على

الأستاذية بأبحاث الحد الأدنى (عشرة أبحاث كمية تراكمية)، وبعد أن نالها كبّر حجم الأستاذية أمام اسمه؛ ليستخدمها في الهيمنة على طلابه أو طالباتها، وصار يلوح بها هنا وهناك، وكأنها نهاية التاريخ!! وربما مكث ربع قرن بعد الأستاذية، لا يقرأ كتابًا، ولا يكتب بحثًا!!

والمكرّم ثالثًا!! يستحق الدكتور أبو أوس إبراهيم الشمسان، أن يكرم من جهات عديدة، ومن جامعة الملك سعود أولًا؛ لأنه عالم، لم يتوان لحظة عن خدمة كل من يحتاج إلى علمه... فهو أستاذ باحث، وأكاديمي مميز في التزامه بدروسه في قاعات الدراسة، وفي إشرافه على طلابه، وفي خدمته للمجتمع في مقالاته الجمّة في الثقافية بصحيفة الجزيرة. ومما يتوجب علينا، زملاءَ أبي أوس، أن ندرك جيدًا بأن مقالة صادقة هي أقل ما يمكن أن يقال بحق عالم من علمائنا ومثقفينا، فهو يستحق كل التقدير والاحترام. وهو عالم في زمن قلّ فيه أمثاله، بارك الله فيه ورعاه.



شمسانِ من عِلمٍ ومن خُلُق*

د. خالد بن عايش الحافي
قسم اللغة العربية - كلية الآداب
جامعة الملك سعود

الحديث عن الأستاذ الدكتور إبراهيم الشمسان أبي أوس متشعب متنوع؛ لأنه من الشخصيات التي تعددت مستوياتها، فالمستوى العلمي يتشعب الحديث عنه، وكذا المستوى العملي والمستوى الأخلاقي، ولا يستطيع المرء أن يلم بكل تفاصيل مستويات هذه الشخصية الفريدة في مثل هذه المقالات التي تقيّد الكاتب بعدد محدود من الكلمات.

ولست هنا في حاجة إلى سرد تفاصيل سيرته العاطرة، فهو أشهر من أن يُعرّف وبخاصة في الأوساط العلمية في الوطن العربي، في مجال تخصصه، لكنني سأتحدث عن أبي أوس من جانب عرفته أكثر ما عرفته من خلاله، وذلك عندما قُدِّر لي أن أرأس قسم اللغة العربية وآدابها في كلية الآداب بجامعة الملك سعود سُنيَّاتٍ خلون، فعرفت عنه ما لم أكن أعرفه من ذي قبل؛ إذ لم أكن أعرفه إلا من خلال اطّلاعي النزر على بعض من مؤلفاته القيمة، وبما أسمع عنه من بعض تلامذته، وحين كنت أكثر قربًا منه حيثُ العمل في قسم اللغة العربية وآدابها، وجدته خير أنموذج للأستاذ الجامعي الحقيقي في أدائه العملي، وفي عطائه العلمي، يعمل - وكأنَّه في أولِ أيامِ عمله- بروح الشاب الطامح إلى تقديم أفضل

(*) المجلة الثقافية، العدد ٥٧٦ - صحيفة الجزيرة - الرياض، السبت ٢٨ رجب ١٤٣٩هـ/ ١٤ أبريل (نيسان) ٢٠١٨م العدد ١٦٦٣٤.

ما لديه لإثبات ذاته، وهو الشيخ الوقور الذي عجم عود الأعمال وخبر ما جلَّ وما دقّ منها، تراه مُتوشِّحًا جلال العلم وسمت العلماء، يؤدي عمله غير مُتبَرِّم ولا مستكثر، يشرع في محاضراته ملتزمًا أوقاتها المقدّرة، غير مختلس منها، ولا متغيِّب عنها، ومشرِّعًا باب مكتبه لاستقبال الوفود من طلابه أو زملائه، كما شرّع لهم أبواب قلبه، فكان لتلاميذه أبًا حادبًا، وناصحًا أمينًا، ولزملائه أخًا صادقًا.

والأستاذ أبو أوس من الذين لم يستهوهم بريق المناصب، ولم يسمحوا لأنفسهم بالنزوع إليها، فصدف عنها واقفًا فكره وقلمه على العلم، فكان عطاؤه العلمي معينًا لا ينضب. فهذا كتاب يؤلف، وتلك مقالة تنشر، ورسالة علمية تناقش، ومؤتمر يشارك فيه، واستشارة تقدم، وبحوث وكتب تحكّم، وأذكر فيما أذكر أنه لا يكاد يمر شهر إلا وأتحفني بكتاب من مؤلفاته القيّمة أو ببحث من بحوثه الطريفة، وكان لسعة اطلاعه وتبحره في علمي النحو والصرف، وعلوم اللغة يذكرني بالقول المنسوب إلى الخليل بن أحمد الفراهيدي: " أنحى الناس من لم يُلَحِّن أحدًا"، ولا يعني هذا أنه متسامح على حساب العلم، وإنما حملته سعة معرفته بدقائق اللغة العربية وتمكّنه من خصائصها على عدم الاستعجال في الحكم بتخطئة متحدث أو كاتب، أو تضييق واسع كما يقال. ولم يمكن الطابع العلمي الذي طبع حياة أبي أوس مقصورًا على حياته العملية في الجامعة، وإنما كان هو رفيقه في كل أحواله، فعقيلته ورفيقة دربه الأستاذة الدكتورة أم أوس من الأساتذة المرموقين في النحو والصرف أيضًا، خرّجت أجيالًا من الطالبات اللاتي كن مثالًا في التفوق والتميز. فليس بمستغرب أن يكون بيت أبي أوس عامرًا بالعلم منتجًا له،

لذا جاء أبناؤهم نجباء.

وقد يظن كثيرون ممن لا يعرفون أبا أوس أنه من المتزمتين الذين طبعتهم عزلة العلم والبحث والدرس بطابع الجهامة والانغلاق، وغير ذلك من التهم التي عادة ما يتهم بها النحويون خاصة، لكن من يعرفه عن كثب يدرك لطف روحه، وطيب معشره، وتبسّطه في أحاديثه وطرفه مع أصدقائه وزملائه، فلم يكن الشمسان شموسًا في خُلقه، بل كان دمث الأخلاق، إذا عاتب جاء عتبه أرقَّ من الندى، يسل السخائم دونما عنف أو فظاظة، يزينه بهاء العلم ورونق الخلق.

عليهِ شمسانِ من عِلمٍ ومن خُلُقٍ
ومنهما سُمّي الشمسانُ شمسان

متع الله أبا أوس بالصحة والعافية ما أحياه، وأمدَّ في عمره ونفع به وبعلمه.



علم ووفاء*

أ.د. خالد عبد الكريم بسندي
أستاذ علوم العربية في جامعة الملك سعود

إن الكلمات لتعجز أن تظهر قدر هذا العالم الجليل والمربي الفاضل الأستاذ الدكتور أبو أوس إبراهيم الشمسان الذي أعطى العربية وقته وجهده، نظر فيها وتأمل نظامها الصوتي والصرفي والنحوي والدلالي، وبحث فيه بحث المنقب عن الحقيقة، المبين لأسرار هذا النظام، المُبْحر في كتب الأقدمين، والمطلع على كتب المحدثين، ليسبر أغوارها، ويمعن في محتواها، ويختبر كنهها، وما كان هذا ليكون إلا بالصبر والأناة. فقد درس حفظه الله المستوى الصوتي للعربية في عدد من الأبحاث، منها: الأصوات: مخارجها وترتيبها وتصنيفها عند الخليل وسيبويه وبعض الظواهر الصوتية كالإمالة والإشمام وغيرها.

وربط المستوى الصوتي بالمستوى الصرفي في بعض أبحاثه فدرس التغيرات الصوتية للصيغ الصرفية المتنوعة، ودرس الإبدال وأحرف العلة منطلقًا من كتب الأقدمين، وأفرد المستوى الصرفي باهتمام خاص، وظهر هذا من مؤلفاته الصرفية المتعددة التي منها: دروس في علم الصرف.

ووقف عند المستوى التركيبي في دراسة الماجستير برسالته المعنونة بالجملة الشرطية عند النحاة العرب، ورسالة الدكتوراه المعنونة بالفعل

(*) المجلة الثقافية، العدد ٥٧٦- صحيفة الجزيرة - الرياض، السبت ٢٨ رجب ١٤٣٩هـ/ ١٤ أبريل (نيسان) ٢٠١٨م العدد ١٦٦٣٤.

في القرآن الكريم تعديته ولزومه، إضافة إلى أبحاث عمقت المفاهيم ووجهت الظواهر النحوية ببعد معرفة وعمق اطلاع.

قدّم البعد العلمي للباحثين في أعمال كثيرة حملت الفكر والتفكر، وكانت انطلاقًا ونبراسًا لدراسات جادة في ميادين النحو والصرف. ولم ينس البعد التعليمي في مؤلفاته فنادى بتيسير الصرف والنحو، وقدم نماذج تُحتذى من مثل: جداول التدريبات الصرفية للطلاب نظرة منه لتيسير المعرفة لهم.

أما إشرافه على طلابه في مرحلتي الماجستير والدكتوراه فهو أب مربّ وعالم موجّه، سمته التأني وشعاره الدقة والعلمية والمنهج، لا يتوانى لحظة عن تقديم العون والمساعدة، فمن قصده وجده بحرًا ثرًّا معطاء، وهو ما أغدق به عليّ وأنا زميل له، فلله دره كيف يكون مع طالبه! وأنا طالبه وأشرف بذلك.

أما مناقشاته العلمية فطابعها الهدوء، وتقديم الملحوظات مطبوعة جاهزة للتعديل مباشرة، فهو رحيم بطلابه، حازم في رأيه، جاد في توجيه طلابه، فقد شرفت بأن ناقش معي أول رسالة ماجستير أشرفت عليها، وهي (معايير ابن خروف في اعتراضاته النحوية على ابن بابشاذ)، وكانت كلمات ثنائه على العمل وعلى جودة الإشراف شعارًا لكل أعمالي اللاحقة، وقد شرفت بمناقشته عملاً آخر لدرجة الدكتوراه أشرفت عليه وهو (الصناعة المعجمية عند البستاني في محيط المحيط)، وقد أثنى على العمل في صحيفة الجزيرة، وكنا إذ ذاك برفقة الأستاذ الدكتور علي الحمد من الأردن والأستاذ الدكتور أحمد مطر العطية من سوريا والأستاذ الدكتور محمد لطفي الزليطني من تونس.

وشرفت أن ناقشت معه بعض الرسائل، وكان سمحًا في تقبل الرأي الآخر الذي يوجه إلى الأعمال المتقنة التي يقدمها طلابه.

قلمه سيّال وفكره متّقد، دائم الكتابة والمراجعة والتعليق والتنقيب، يمدح في مكان المدح وينقد النقد البناء الذي لا يمسُّ ولا يَجرح، بل يُعدل ويوجه.

وهو معجمي كان لي شرف مصاحبته في دورتين تدريبيتين: واحدة في الأردن والثانية في الدوحة ضمن مشروع (معجم الدوحة التاريخي للغة العربية) فنعم الصحبة تلك، وجدتني أمام إنسان بما تحمله هذه الكلمة من معان، وجدتني أمام مرب، أمام أب موجه.

فهنيئًا لنا بصحبة عالم، وهنيئًا للعربية بدقة باحث، وهنيئًا للمملكة بصرح شامخ، وهنيئًا لمن سطرت كلماته اسم أبو أوس إبراهيم الشمسان، أطال الله عمره وحسّن عمله، ونفع به العلم والعلماء.



الدكتور الشمسان الرمز اللغوي*

د. خالد بن قاسم الجريّان
جامعة الملك فهد للبترول والمعادن بالظهران

عرفتُ الأستاذ الدكتور إبراهيم الشمسان أبا أوس من خلال مقالاته التي كان يكتبها في صحيفة اليوم، وكنت معجبًا بأسلوبه وقضاياه ومنهجه الأدبي الذي يتشح باللغة.

كنتُ أسأل بعض أصدقائي عن هذه الشخصية النحويَّة اللغوية الأدبية من أين؟ وفي أي جامعة يُدرِّس؟ لكني للأسف لم أهتدِ إلى جواب.

وفي أحد الأيام اتصلت بالدكتور عبدالعزيز التويجري رحمه الله أسأله عن كتاب من كتب اللغة، ثم جرنا الحديث إلى أن أسأله هل تعرف الدكتور إبراهيم الشمسان؟ فأجابني بنعم أعرفه، ثم قال: هو أستاذ جليل القدر عظيم العلم والمعرفة، في القسم معنا، وفي الجامعة، أي جامعة الملك سعود، ومنذ تلك اللحظة والشوق يحدوني لمعرفته عن قرب، حتى -شاء الله- أن أقبل طالبًا للدكتوراه في جامعة الملك سعود، وكانت أول مادة أدرسها هي (قضايا نحوية) وأستاذها هو الدكتور إبراهيم الشمسان، وفي أول محاضرة وأول لقاء بهرني حسن حديثه، وسلبني أسلوبه، وتسمرتُ أمام علمه.

كان عالمًا لغويًا فذًّا، حاذقًا، متمكنًا، يعرف مداخل اللغة ويجيد

(*) المجلة الثقافية، العدد ٥٧٦-صحيفة الجزيرة-الرياض، السبت ٢٨ رجب ١٤٣٩هـ/ ١٤ أبريل (نيسان) ٢٠١٨م العدد ١٦٦٣٤.

التفنن فيها، ومما لفتَ انتباهي اقتداره العلمي على مقارعة العالم اللغوي المعروف بابن جني، وتعليلاته اللغوية، فقد قدَّمَ الدكتور إبراهيم كتابًا من أهم الكتب اللغوية الصرفية المعاصرة وأبرزها، وهو كتابه (الإبدال إلى الهمزة وأحرف العلة في ضوء كتاب سر صناعة الإعراب لابن جني)، بل لقد خالف منهجَ ابن جني في كثير من التعليلات التصريفية التي اعتمد عليها ابن جني، ورأى أنَّه قد أخطأ فيها، وهذا لاشك يدعونا إلى الالتفات إلى قراءة ما كتبه الأوائل وبيان صحة التعليلات الصرفية خاصة من خطئها.

والإبدال من أصعب الموضوعات الصرفية؛ بل أشدها إعجازًا؛ لأنَّ العالم الذي يعلل لظاهرة الإبدال لابدَّ أنْ يكون ملمًّا بلغة العرب، عارفًا بأسباب الإبدال وأنواعه ودواعيه، مستشهدًا بأمثلة متجانسة، وهذا ما تميز به الدكتور إبراهيم الشمسان.

وممَّا تميز به الدكتور إبراهيم معرفته بأسماء الناس في المملكة العربية السعودية وأسباب التسمية، وقد ألفَ كتابًا مميزًا يحمل العنوان نفسه (أسماء الناس في المملكة العربية السعودية) وهو من مطبوعات مكتبة الرشد، والكتاب يبحث في موضوعات من أبرزها: دراسة الاسم (العلم) لغويًّا في ثباته وتحوله وما تتفرع عنها من علوم جزئية تعنى بالاسم العلم أدبيًا ولسانيًا، وهل الأسماء تتفاضل فيما بينها أم لا؟ وهي ظاهرة لغوية تستحق البحث والدراسة، وقد أجاد الدكتور إبراهيم في هذا الكتاب أيما إجادة.

لقد أثرى الأستاذ الدكتور إبراهيم الشمسان المكتبة اللغوية والنحوية والصرفية بعددٍ من المصنفات والمؤلفات والأبحاث والدراسات

والمقالات، وأرجو أن يقوم أحد المراكز العلمية اللغوية أو البحثية أو المجامع اللغوية أو إحدى الهيئات بجمع ما كتبه أستاذنا الكبير الدكتور إبراهيم في مجلدات وتوزيعها على الجامعات وكليات اللغة العربية وأقسامها وعلى المعنيين بالدرس اللغوي التراثي أو الحديث، وتوصية بعض الباحثين بدراسة ما كتبه وقدَّمه الدكتور إبراهيم للمكتبة العربية.



عرفتُه قبل أن ألقاه

دغيثر بن مقبول بن محمد حكمي
مُدَرِّسُ اللغة العربية للناطقين بغيرها
جامعة المالديف الإسلامية

الحمد لله، والصلاة والسلام على أشرف خلق الله، وبعد:

فإنَّ طبيعة الدراسة في مرحلة الماجستير تقتضي أن يُغَذِّيَ الباحثُ معارفه بدراساتٍ عميقة حديثة تكون فيها سمة الجرأة ركنًا رئيسًا في الطرح.

وكنتُ أُهرَعُ عند كلّ مسألة نُكَلَّف ببحثها إلى استقصاء أجدِّ الأقوال وأخلصها في تفكيك الإشكالات وبيان الدلالات الحقيقية، فوجدت في قراءات أستاذنا الكبير أبي أوس إبراهيم الشمسان للتراث اللغوي ذخيرةً لغويةً بليغةً في الإصابةِ، حديثةً في تناول الحكم النحوي بأدواتٍ تجمع بينَ صلابة القاعدة، ومرونةِ الإفادة من غير انحياز إلى قديم أو حديث إلا إلى ما يصح فيه الدليل، ويستقيم به الواقع.

ولستُ مَعنيًّا بسرد تلك الآراء التي أثرت الدرس اللغوي الحديث؛ لكنّي أستطيع من خلالها أن أشهد على عبقريّة صاحبها الذي أخلص للغته العربية، فكان عَلَمًا ممتازًا بين علمائها في العصر الحديث، ولا أبالغ إن جعلته في مرتبة سيبويه، والفراء.

وكنتُ قد عرضت عليه رسالتي لنيل درجة الماجستير (شواهد النحو الشعرية المحكوم عليها بالقلة والندرة والضرورة والشذوذ في ضوء نظرية تضافر القرائن)، فشرّفني بمقال في زاويته بصحيفة الجزيرة

السعودية عنوانه: (شواهد الشعر، ونظرية القرائن) يوم السبت أكتوبر.

وقد خلَعَ عليَّ فيه من عبارات الثناء ما بلغتُ به نشوة الفرح والسرور، وهو إن كان قد خالفني في جوهر البحث، فقد وافقني في مجمل الآراء التي لم يسبقني إليها أحدٌ قديمًا أو حديثًا، وإنَّ موافقته لحُجَّةٌ ناصعةٌ تردُّ عني كلَّ اعتراض.

وكان هذا البحث سببًا لتشرّفي بالسلام عليه إذ حرص على اللقاء شخصيًّا، فأشعرني في اتصال هاتفي بزيارة علمية للجنوب غيرَ أنّي سبقتُه بالقدوم إلى الرياض قبل سفري إلى جمهورية جزر المالديف الشقيقة، وحين التقينا وجدته في أحسن ما يكون عليه شيخ وقور بلغ من التواضع أسماه، ومن البشاشة ألطفها، وما كان أحسنَ حديثَه الذي يُفصح عن شغفه بالعلوم كافة، وبالعربية خاصة؛ وعن احتفائه بطلاب العلم، فلم يكن متكلمًا إلا كنخلة تُساقط رطبًا جنيًّا!

١٠/ ٥ / ١٤٤١هـ



ذكريات لا تغيب*

د. راضي الرويلي
جامعة الجوف - القريات

من الأشياء الجميلة في الحياة أن تلتفت إلى الوراء بشيء من الحنين، وأن تستخدم القلم لنسج ثوب من الكلمات عن هذا الوراء (فالحياة لحظات متوالية، وأن تعيش كل لحظة فيها يعني أنك ناجح)، وغني عن القول أن في زوايا حياة كل امرئ علامات ذات توهج تعسر مقاومته، أو الإشاحة عنه، وهأنذا يقتسمني نهبان، نهب ينزع بي نحو خوض غمار بحر الكتابة وبشيء من الخجل عن قامة بمثل قامة أستاذي الأستاذ الدكتور أبي أوس إبراهيم الشمسان؛ إذ لن أكون بمأمن من التقصير في حقه، ونهب آخر يريد بي القعود عن هذا الأمر، لكن كبت العواطف مضر بالنفس البشرية، فالكتابة رئة ثالثة تتنفس من خلالها.

اجتمعت أنا وثلة من زملاء المرحلة في سياق زمني معين كنا فيه ضيوفًا على اللغة العربية في كلية الآداب بجامعة الملك سعود بالرياض، وكنا على مائدة أحد قاماتها، كان أستاذنا الدكتور إبراهيم الشمسان علامة باسقة ذات طلع نضيد من العلم والأخلاق والرقي والنصح، سرعان ما انعقدت بيننا وبينه ألفة عجيبة، وبدأ شلال من الحب يتدفق بقوة في نفوسنا نحوه، أستاذنا علم فعلّم، أعجبنا به إلى حدّ الانبهار، يمتلك قدرة عالية في تفحص الآراء والاحتمالات وتوظيفها في أبوابها المختلفة.

(*) المجلة الثقافية، العدد ٥٧٦ - صحيفة الجزيرة - الرياض، السبت ٢٨ رجب ١٤٣٩هـ/ ١٤ أبريل (نيسان) ٢٠١٨م العدد ١٦٦٣٤.

هو وجه للعربية مشرق، مسكون بالوفاء لأساتذته وزملائه تشهد بذلك مقالاته وكتاباته، وهبنا طرقًا في التفكير فريدة، ودفع بنا نحو فهم للمسائل بأسلوب محبب، فالأساتذة يمشون وأستاذنا يطير، ما تزال نقاشاتنا معه عالقة بالذاكرة متناثرة في زواياها هنا وهناك، قد حفرت في نفوسنا أخاديد تجري فيها كلماته العذبة يصعب ردمها، مهما أظلتنا سحب الحياة ستبددها خيوط شمس ذكراه الجميلة.

كلامك كالسحب الجميلة يمطر
يـغـيـر أحـوالًا وحـالًا يـغـيّـر
تذاكرك الأصحاب حين تسامروا
وأحرفك البيضاء في القلب تسهر



قاب قوسٍ من أبي أوس*

د. زيدان عودة
اليمن

تتعثرُ اللغةُ حينما تراودني الكتابةُ عن عَلَم من أعلامِ العربيةِ، فأجدني حَائرًا من أين أبدأ، وكيف أقولُ، وماذا أقولُ عن رَجُلٍ سقطَ سهوًا من العصر الأموي وما بعده، ليروي لنا علوم مشائخه الكبار؛ الخليل، وسيبويه، وأبي الأسؤد الدؤلي، وابن جنّي، فأثرى ساحات العلم وميادين الثقافة. رجلٌ جمع بين العلم والرحمة، ولا شيءَ سواهما، في زمنٍ قلَّ أن تجدَ من يجمع بينهما، فهل أكتب عن أبي أوس العالم؟، أم أبي أوس المعلِّم؟، أم أبي أوس الإنسان؟. إذ لا أجدُ كلماتٍ تليقُ بالحديثِ عن قامةٍ علميةٍ سامقةٍ، منحتنا دفءَ قِيَمِها ونُبلها، لكني سأمتطي صهوةَ الكتابة، وأقتربُ قابَ قوسٍ أو أدنى؛ لأكتب عن شخصية أبي أوس، التي استطاعت بقدرةٍ فائقةٍ، ومهارةٍ عاليةٍ أن تغوصَ في أعماقِ اللغةِ والثقافةِ، وتستخرجَ نفائسَها، وتسقي فلواتها، وتحيي مواتَ حروفِها، وتنفخَ فيها روحَ الجدَّة والاستعمال، فأثمرتْ تجربتُه الأكاديميةُ في تخريجِ كوكبةٍ من العلماءِ والباحثين الأفذاذ، وضعَ بين أيديهم كنوزَه النفيسةَ، فنالوا من جواهره، وسُقوا من معينه، غيثًا مدرارًا، همَى عليهم بلا ضجيجٍ ولا مواعيد، وإن كنت لستُ منهم، لكني قد نلتُ من جنانه، ورويتُ عنه ماءَ المعرفة، سواء من مجالساته، أو كتاباته، وأحيانًا من أسئلتي الفضولية المتكررة كلما التقيتُه في قسمِ

(*) المجلة الثقافية، العدد ٥٧٦ - صحيفة الجزيرة - الرياض، السبت ٢٨ رجب ١٤٣٩هـ/ ١٤ أبريل (نيسان) ٢٠١٨م العدد ١٦٦٣٤.

اللغةِ العربيةِ وآدابها بجامعةِ الملك سعود، في مكتبه المفتوحِ كقلبه، فأروي ظمئي، وأُشبعُ نهمي، بما لديه من إحاطةٍ واسعةٍ، ودرايةٍ واعيةٍ، وما زلتُ حول سنائه أتطلع. وكأنما عناه أبو تمّام بقوله:

هُو البَحْرُ من أيِّ النَّواحي أتيتَه
فلُجَّتُهُ المعروفُ والجُودُ ساحِلُهْ

أما أبو أوس الإنسان فتجده في تواضعه الجمِّ، وخُلقهِ الرفيع، رحبَ الصدرِ، واسعَ الأفق، لم يدخله نوعٌ من العُجب بالذات، أو إحساسٌ زائغٌ بالغرور، يبحثُ عن الحقيقةِ أينما كانت بموضوعيةٍ خالصةٍ، ويقدّمُها لطلابهِ وقرّائِه، متحليًّا بأخلاقِ العلماءِ الكبار في الماضي والحاضر، يرهفُ إليك سمعَه إذا تكلمتَ، ويهمسُ في أذنِ طلّابه في قاعاتِ الدرسِ والمناقشاتِ العلميةِ بأسلوبِ الناصح، وكأنه يريد أن يتعلّمَ منهم، فضلاً عن اهتمامه الكبير بأحوالهم، وتحسُّسِ أوجاعهم، وتفقّدهم إذا غابُوا، ومبادراته بتقديم العون والمساعدة إذا ألمّ بأحدهم أيُّ خطبٍ، محاولًا بكل ما يمتلكه من حبٍّ، وما يعتز به من إنسانية، أن يمنحهم شيئًا من السعادة التي غادرتهم، ويغمرهم بالفرح الذي لا يجدونه إلا من آبائهم. أَحَبُّ اسمٍ يفضِّل أن يُعرفَ به في الوسط الثقافي والأكاديمي، هو (أبو أوس إبراهيم الشمسان)، بعيدًا عن الأضواءِ والألقابِ، والزهوِ بدرجته العلمية، وقد نجحَ بهذا التَّجاوزِ في إمكانيةِ رؤيةِ نفسِه على حقيقتها، ومن ثمَّ رؤيةِ الآخرين، والواقعِ من حوله، وهذا هو حالُ المبدعين والعظماء، الذين يرون الريادةَ بالعلمِ والبحثِ والتَّقصي والرَّحمة ولينِ الجانب، وليس بالاستماتة للوصول إلى سفح الريادة والشهرة بأية وسيلة كانت. حفظه الله وأمَّ أوس، ونفع بعلمهما.

أبو أوس الشمسان العالم الوقور

سامي محمد نعمان
باحث دكتوراه في قسم اللغة العربية وآدابها
جامعة الملك سعود

يصادفك بابتسامته الرزينة المعهودة وتواضع العالم العامل ووقاره، ولا غرو، فتلك أهم صفات العالم الممتلئ بالعلم الواسع الأفق فيه، ويدهشك أحيانًا، وهو الممتلئ علمًا ووقارًا، وأنت تناقشه في مسألة علمية أو رأي فيها؛ إذ لا يجد غضاضة من القول: هذا رأي جديد جميل، أين وجدت هذا القول؟ ثم ينبه الزملاء في المحاضرة القادمة، أن زميلكم الفلاني أضاف هذه المعلومة وقد ضمنتها في الأوراق التي بين أيديكم. فيتركك وأنت تردد في جنبات نفسك: لقد أتعبتنا كثيرًا بعدك يا دكتور، ثم تلوم نفسك، وأنت محق في هذه الملامة، على أنك لم تصل إلى هذا المستوى من الرشد. لم يزده تواضعه إلا عظمة ورزانة لدى كل من يقترب منه، ومن المفروغ منه أنه لا يفعل هذا إلا عالم وثق بنفسه وأثر فيه العلم، وأكسبه كل هذا الوقار. إن واحدة من أهم الصفات التي يجتهد العالم في تحصيلها، ولا يوفق إليها إلا من غزر علمه، واتسع باعه، وبعد أفقه، تلكم هي صفة التواضع؛ إنها الصفة التي قد يصل العالم إلى تحقيق الكثير من العلوم، ولكنه قد لا يوفق إلى الوصول إليها. آية ذلك في أستاذنا أن أعراض التكلف، والادعاء الكاذب، والبهرج الخادع تصادف منه صدودًا كبيرًا ونفورًا شديدًا، تراه وقورًا منصفًا معززًا لطلبته، آخذًا بيد الضعيف حتى يَقْوى.

من سمات التأليف عنده، أنه سهل العبارة كثيفها، واضح الأسلوب مطرد المنهج، بعيد عن الحشو فيما لا يفيد، يضع أمامك المسألة بأخصر أسلوب، وأوضح عبارة حتى لا يترك لك مزيدَ سؤالٍ فيها. وبالمعنى الحصري: يكتب بذهنية العالم وأنفاس الأديب. وإن القارئ لكل إنتاجه العلمي ليجد ذلك بوضوح. كما أن أستاذنا الدكتور بعيد عن الجمود والتقليد، غير مشدود إلى الماضي برباط وثيق لا فكاك منه، بل يقرأ في كل ما يستجد من دراسات حديثة في اللغة، ويطوعها تطويعًا عجيبًا فإذا هو قديم جديد، جديد قديم. ويندر أن تجد عالِمًا بهذا الوصف. وله آراء نافذة، بعيدة الغور، خطيرة القيمة، جليلة القدر، غير مقلد ولا مقدس لأي رأي أيًّا كان صاحبه، شجاع في هذا الجانب طالما أداه اجتهاده إلى هذا الرأي أو تلك القناعة. من آرائه الصرفية مثلاً: أن الفعل (قال) أصله (قَوَلَ) كما هو معروف، غير أن الذي صيره إلى (قال) هو سقوط الصامت مع صائته أي الواو مع حركتها التي بعدها، ثم مطل الصائت (الفتحة) الذي بعد القاف فتولّد الصائت الطويل (الألف الطويلة)، وهو قول هو صاحبه، أداه إليه اجتهاده، وهو رأي على جانب كبير من الصحة فيما أرى. وزيد في نحو قولنا: (إن زيدًا جاء) فاعل مقدم جاء منصوبًا. ومن ذلك، أيضًا رأيه فيما اشتهر عند النحاة بالنعت المقطوع عن منعوته؛ إذ يخالفهم فضيلته في ذلك، ويُبدي استغرابه من جعل الكلمة محلاً لوظيفتين إعرابيتين مختلفتين، هما النعت والخبر، وليس أمر المحافظة على سلامة العوامل اللفظية، كما يقول، بأهم من رعاية المعنى، وإقناع العقل؛ ويرى أن النعت في مثل هذه السياقات يظل نعتًا، إلا أن حركته قد تتغير تنبيهًا على أنه نعت،

لأن الذهن ينصرف إلى موضع تلك المفارقة. وهكذا يمزج عالمنا الجليل بين الوظائف النحوية، وبين المتكلم والسامع في فهم المعنى النحوي، فليست اللغة عنده شبكة من العلاقات النحوية فحسب، إنها كل ذلك والمتكلم والسامع، فقصد المتكلم وتنبيهه السامع جزء مهم في إيصال المعاني من المتكلمين إلى أذهان السامعين. إلى غير ذلك من الاجتهادات الجديدة التي لها حظها من التفكير وحظها من القبول، أو إن شئنا قلنا: إن آراءه النحوية والصرفية ليس من اليسير ردُّها، لما فيها من حِجَاج قوي، وبرهان واضح، وسبر للمسألة من كل جهاتها، يساعده في ذلك ممارسة واسعة، وذهنية علمية وقّادة، وبعد في النظر.

إلى ذلك، قد يرجح رأيًا مغمورًا، ويبعثه من جديد، لأنه يراه أقوى مما هو ذائع مستفيض، فليس يضره قلة القائلين به أو كثرة المخالفين له. إن معيار قوة القول لديه إنما تكون بقوة الأدلة والمنطق السليم والنظر الصحيح، وربما أضاف إلى ذلك، التيسير، كأنه يتمثل قول عالم قديم: إنما الفقه الرخصة من ثقة، وأما التشدد فيحسنه كل أحد!

كما أنه لا يكترث كثيرًا لتلك التفصيلات الإعرابية الطويلة والمملة التي تلحق الحكم الإعرابي، والتي لا طائل كبيرًا من ورائها غير المكاثرة في الكلام، من نحو: مبني في محل، مرفوع وعلامة رفعه... إلخ. من هذه التفصيلات المملة وغير المفيدة، وما يهمه هو الوظيفة النحوية التي تستحقها الكلمة ضمن التركيب، التي يستقيم معها المعنى المراد، غير أن هذه الوظيفة النحوية قد تتخذ بعدًا جديدًا عنده كما رأينا في الاسم المنصوب بعد إن المسند إلى الفعل، فليس يهمه شيء غير وصول المعنى من المتكلم إلى السامع.

إن آراءه الجديدة من السعة والتنوع، وقوة الحِجَاج والبرهان بحيث تحتاج إلى من يفردها بدراسة علمية مستقلة أو أكثر، تجمع شتاتها وتناقشها من جهة، وتبين منهج التفكير لديه، وطريقته في الاستدلال والاستنباط من جهة أخرى، أي إنه يحتاج إلى الدراسة من زاويتين اثنتين، جهوده، ومنهجه.

وبعد، فهذا الوقار وهذا الامتلاء بالعلم والتواضع والجدية في العمل والقرب من طلبته أكسبه شخصية قوية مهيبة الجانب عزيزة النفس؛ وإنك لتخجل من أن تسدد نظرك في وجهه طويلاً، لما كساه الله من الهيبة والجلال.

والله أسأل أن يطيل في عمر أستاذنا وعالمنا الجليل ويمده بالصحة والعافية!

الرياض ٣/ ١/ ٢٠٢٠م



وقليلٌ مثلُ أبي أوس*

أ.د. سعد عبد العزيز مصلوح

لا عليك إذا أعثرتك المقادير على صاحب مثل أبي أوس إبراهيم الشمسان أن تفتقد صحبة آخرين؛ فربَّ صاحبٍ يغني عن المئين. إنه الصديق الذي إذا ثاقفته في شؤون الحياة اطلعت منه على حكيم خَبَر الدروب، وعَجَم الأعواد، وراز العوائص. وهو العالم الذي إذا باحثته في مسائل العلم وجدت لديه كنزًا من المعارف؛ يفيدك إيّاها، ويفيضها عليك غير ضنين، في تواضع جميل لا تعرف فيه تَعَمُلاً ولا تكلفًا. وهو الصائد الماهر بفرائد المسائل؛ الذي يرصدها، ويستيقظها من مكامنها في أُمَّات المصادر، ويُصاديها حتى يستخرج لك خبيئها، ويدعوها إليه فيأتينه سعيًا، ثم إنه يجلوها في هيئة دقيقة محررة، وعبارة محبّرة، وعربية قاصدة تعرف الطريق إلى متغياها في غير جمجمة ولا التواء، وتهتدي إلى عقل القارئ بقدم ثابتة لا تعرف العثار.

ولعل من أجمل الجميل؛ ما يتحلى به الرجل من خليقة الوفاء. وإني لأشهد أني ما وجدت له ضريبًا في إجلاله لأساتيذه الذين علَّموه، وفي رفقه الحازم بتلاميذه الذين تلقوا العلم على يديه. نعم؛ إنه لا يُعْنِتُهم ولا يشقُّ عليهم، بيد أنه لا يرضى منهم في العلم بما دون الرضا. لا جَرَمَ، جاء نتاج بِذَارِه من طلاب العلم المنتَجَبين كزرع أخرج شَطْأَهُ فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقِهِ، إذ يفخر أحدهم حين يقول

(*) المجلة الثقافية، العدد ٥٧٦ - صحيفة الجزيرة - الرياض، السبت ٢٨ رجب ١٤٣٩هـ/ ١٤ أبريل (نيسان) ٢٠١٨م العدد ١٦٦٣٤.

بملء الفم: إني تلميذ أبي أوس.

وأما سُهمة أبي أوس في مسيرة العلم فعجبٌ من العجب؛ إذ يقف الرجل مفردًا بين قلة قليلة من أهل العلم الذين يشهد نتاجهم بأن الكم والكيف لا يتعاندان، وأنه - على وفرة ما كتب ويكتب - ما أخلّ يومًا برصانته البحثية، وما تجافى عن طلب الجديد والمفيد. وليس قارئه بواجد في عمل من أعماله العلمية أثرًا لتهاونٍ أو عجلةٍ أو ابتسار. إنما هو البحث المشبع الذي يُقَلِّب المسألة على كل وجه، ويُعْمِل فيها الفكر بالتحليل والتعليل والاستنباط. وإني لأراه في هذا المساق مدرسة علمية جديرة بالاتباع والمتابعة. وينضاف إلى ذلك ما يُلزم الرجلُ به نفسه من إقامة الموازين القِسط في ما يأخذ وما يدع، وفي ما يبديه من ملاحظ ونقود، وما يعتمده من أصول في التخيير والترجيح. وهو في هذا كله لا يتقصى إلا دقاق المسائل ومشكلاتها؛ نائيًا بنفسه عن الطريق المأنوسة والكلام المُعاد، فيكاد كل عمله يكون إضافة وفتحًا لمغاليق القضايا النحوية واللغوية، وكشفًا عن المكنون من نفائس التراث، وإسهامًا في تأسيس وعي معرفي رشيد به وبدوره في ترسيخ الهوية وتحقيق التواصل مع العصر على هُدى وبينّة. ويؤنسني في هذا المقام أن أستدعي كلمات سبق لي أن قدمت بها أحد المنجزات الباذخة لأبي أوس، وما أراها إلا عبارة صادقة عن ذات النفس، أملتها طول الصحبة، وأُنس المطارحة، وبهجة المجالسة؛ وفيها أقول:

"لقد اسْتَأْحَدَ الرجل، وأقره على مكانته في فنه العُدول من أهل العلم، وعرفوه باحثًا قد استمرت مريرته على الجد، آخذًا نفسه بما فيه مَنْبَهةٌ للعقول، ومَشْحذَةٌ للفهوم. قد راض نفسه على طلب الحقيقة، غير

حَفُولٍ بالتوافه، لا يَسْترشي مدحًا من أحد، ولا يعبأ بتكثير السواد على البياض في غير منفعة أو عائدة، بل يُوجِدُكَ مُبتغاك من أقصر طريق، ولا ينتهي إلى رأي حتى يتخَبَّرَهُ بانتقال لطيف من الجلي إلى الخفي، واستدلال بالظاهر على الغائب، وبذلكم تتصل أسبابه بالقول الراجح والمذهب المنصور".

أسأل الله لأخي أبي أوس أن يزيده توفيقًا إلى توفيق، وأن يديم له نعمة التجويد والإتقان، فما أحوجنا إليها وإليه؛ فإن مثله في هذا الزمان قليل.



امتداد لمتقدمي النحاة*

د. سعد بن عبدالله المحمود
أستاذ النحو المشارك - كلية التربية بالزلفي

ليس من السهل على الطالب أن يكتب عن أستاذه وهو يقطع يقينًا باطلاع أستاذه على ما سيكتب، ولعل هذه الحالة من تلك الحالات التي يكون البيان فيها عصيًّا على صاحبه فتحجب الألفاظ عنه فلا يستطيع الوصول إليها ليعبر عما في نفسه.

إن العلاقة بيني وبين أستاذي الأستاذ الدكتور: أبي أوس إبراهيم الشمسان علاقة قديمة، بدأت مع بدايات التسجيل في برنامج ماجستير النحو واللغة في قسم اللغة العربية بكلية الآداب بجامعة الملك سعود، كانت البدايات في تلك المحاضرات العلمية التي كان يمتعنا بها أستاذنا أبو أوس، ثم توثقت عرى تلك الصلة في مرحلة الدكتوراه، حيث تكشفت لي المكانة العلمية التي يتبوؤها هذا العالم الجليل، من حيث المنهج العلمي الأصيل الذي ترى فيه امتدادًا أصيلاً لمتقدمي النحاة، وتطورًا ذكيًا للأسس المعرفية، وتغلغلاً ناقدًا إلى أسرار النحو والصرف وأصول اللغة.

لم أتردد في أن ألبي رغبتي في الكتابة عن أستاذي أبي أوس، لكني وجدت قلمي يقف حائرًا أمام هذا الطود الشامخ في ميدانه، الكريم في

(*) المجلة الثقافية، العدد ٥٧٦ - صحيفة الجزيرة - الرياض، السبت ٢٨ رجب ١٤٣٩هـ/ ١٤ أبريل (نيسان) ٢٠١٨م العدد ١٦٦٣٤.

أخلاقه وتعامله. فتردد قلمي في الكتابة، تزاحمه الأفكار والمواقف، حتى كاد يمتنع عنها.

إن الحديث عن أستاذي أبي أوس حديثٌ ذو شجون، فالأصالة سمةٌ بارزة في أسلوبه، والأمانة العلمية منهج يتميز به، رسم لنا من خلالها - طلاب الدراسات العليا - نموذجًا من نماذج العالِم في محاضراته المترعة بالدقة، المشبعة بالأمانة العلمية، التي استودعها الله حملة العلم والمعرفة.

والمواقف مع أستاذي كثيرة، رسم لنا من خلالها وبأسلوب عملي منهج طالب العالم وصفاته، أمانة علمية، واتساع معرفي، وخلق دمث، ولا مجال في هذه الأسطر لتعداد تلك المواقف، لكني سأذكر موقفًا كان لنا - طلاب الدراسات العليا - الموقف العملي على الأمانة العلمية التي يجب أن يتحلى بها الباحث.

ما زلت أذكر قصة تلك الإحالة العلمية التي أشار إليها أستاذنا في بحثه في: أقوال العلماء في صرف (أشياء)، التي حفظ فيها أستاذنا حق زميلنا الأستاذ: عبدالعزيز العمران حين نبهه إلى سبق محمود البشبيشي العلمي في القول بالعلة الصوتية في صرف (أشياء)، فحفظ أستاذنا لزميلنا حقه العلمي بأسلوب يرسم المنهج العملي لطالب العلم.

وصفوة القول، إنّ أسلوب أبي أوس هو أسلوبه وحده؛ لأنه صورة صادقة لنفسه، وتعبير واضح وجريء عن فكره ومنهجه، وهو ثمرة معرفة واسعة بالتراث اللغوي، وإدراك دقيق وعميق لروح اللغة، وخبرة بأسرار لغة العرب، وعلمائها ومفكريها.

لقد استطاع أستاذي أبو أوس أن يملك قلوب طلابه بخلقه وأخلاقه، إلى جانب علمه ومعرفته، فهو بحق من الأساتذة الذين تبقى في الذاكرة أخبارهم، ويلهج اللسان لهم بالدعاء. حفظ الله أستاذنا وبارك في علمه وعمله.



مدرسة العلم والأخلاق*

د. سعود بن أحمد المنيع
أستاذ النحو والصرف المشارك
جامعة المجمعة - كلية التربية بالزلفي

من جميل الأشياء الجميلة أنها قد تستعصي على النسيان، وربما كان نسيانها أعصى من تذكرها؛ وإني لا أنسى عندما أُعْلِنَتْ أسماء المقبولين لدراسة الماجستير في جامعة الملك سعود عام ١٤٢٤هـ-٢٠٠٢م جعلت الجامعة لكل طالب أستاذًا أو أستاذين للمقابلة الشخصية فكنتُ عند أستاذنا أبي أوس إبراهيم الشمسان، وكنت وقتها أتوجس خيفة من أيِّ مقابلة شخصية، فدخلت مكتبه للمقابلة في أول لقاء لي بأساتذة جامعة الملك سعود، ومع أبي أوس خاصة فقد كنت أسمع به وربما قرأت بعض ما كتب فتفاجأت بشيء من التعامل لم يكن في حسباني من روعة الاستقبال وتهلل الوجه، فاطمأن قلبي وهان عندي بعض ما كنت أتهيبه، فطرح بعض الأسئلة اللطيفة والملطفة إلى أن امتد السؤال إلى التخصص الذي أرغب فيه، فبينت له رغبتي وميولي نحو الدراسات النحوية، فما فتئ أن ذكر مسألة نحوية ثم طلب رأيي فيها. استعجبت من السؤال، وقلت: رأيي أنا؟ قال: نعم. أعطيته رأيي، ثم قال لا بد أن يكون لك رأي، فخرجت من عنده وأنا أتمتم بكلمات الثناء حول أخلاق هذا الأستاذ الذي استلطفني في أول لقاء وهو لما

(*) المجلة الثقافية، العدد ٥٧٦ - صحيفة الجزيرة - الرياض، السبت ٢٨ رجب ١٤٣٩هـ/ ١٤ أبريل (نيسان) ٢٠١٨م العدد ١٦٦٣٤.

يعرفني بعد، ثم ما لبث أن طمأنني بالقبول قبل أن تخطو قدمي نحو الباب، وتمنيت أن يدرِّسني، فكان ذلك في أول فصل في الماجستير ثم بعد ذلك في الدكتوراه، وكان بشهادة الجميع من زملائي في المرحلتين بأنه أستاذ دراسات عليا بالدرجة الأولى؛ إذ يمنح الطالب حرية في الرأي والتعبير، وربما -وهذا حصل لنا معه كثيرًا- قدَّم رأي الطالب على رأيه، حتى إننا نشعر بنشوة فرح، وكأننا قد استوثقنا بعضَ المسائل التي ندرسها مما نجده من إشادة برأي ونحو ذلك.

الأخلاق ثروات لا تكتسب بالحيلة ولا بالإرث بل هي هبات من الله يؤتيها من يشاء، ولقد كان أستاذنا أبو أوس مدرسةً في أخلاقه وتعامله مع طلابه وقد ضرب أروع المُثُل في تحمله لطلابه وسؤالاتهم، ووقوفه معهم في وضع خططهم البحثية، وكان يقف مع كل طالب يأتي إليه لمعالجة ما يرد عليه من إشكالات في البحث، وإن لم يكن هو المشرف على البحث، ويُشْعِر من يأتيه أو يهاتفه بفرحه بذلك ويهشُّ له، وربما مازحه استلطافًا، برغم ما هو فيه من عَنَتِ المحاضرات وشُقَّةِ التدريس:

تَلَذُّ له المروءةُ وهي تؤذي ومن يعشَق يلذُّ له الغرامُ

الدقة والتنظيم من صفات أستاذنا أبي أوس التي لازَمَتْهُ في حياته العلمية، ولعلي لا أبالغ إذا قلت: إني لم أرَ مثله في ذلك، وكل من ناقشه أستاذنا رأى ذلك ظاهرًا، فقد كان يعطي الطالب ما وجده من ملحوظات أثناء المناقشة، ثم بعد ذلك يعطيه إيّاها مطبوعة مرقمة بالسطر والصفحة؛ كي يريح طلابه فلا يتأخروا في تعديل الملحوظات.

وأستاذنا مع ذلك كله كاتب من الطراز الأول قلّما تجد مثله في عصرنا المتبجح بالعجلة والسرعة، فتحيتي من هذه الصحيفة موجهة إلى هذه الصحيفة (صحيفة الجزيرة الثقافية)؛ إذ لم تنسَ كاتبها الذي امتدت خدمته معها سنوات وسنوات. ومن الطَّبَعِي أن تعروَ كل طالب من طلاب هذا الأستاذ الكبير نشوةَ فرح لما يرونه من إجلالٍ لأستاذهم وإكبارٍ له.



الأستاذ الدكتور أبو أوس الشمسان
العالم المتواضع والإنسان الوفيّ

د. سليمان يوسف خاطر
أستاذ النحو والصرف بجامعة أم درمان الإسلامية،
في السودان، سابقا، وبجامعة القصيم في السعودية حاليا

مقدمة:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد النبي الأمين، وعلى آل محمد وصحبه أجمعين، ومن اهتدى بهديه إلى يوم الدين.

أما بعد فقد عرفت أن جماعة من الأوفياء يأتمرون لإعداد كتاب احتفالي احتفائي تكريمي عن الأستاذ الدكتور أبي أوس إبراهيم الشمسان أستاذ النحو والصرف المعروف بجامعة الملك سعود في المملكة العربية السعودية، صاحب النشاط العلمي والثقافي الجم الذي يعرفه أهل التخصص بخاصة وأهل الثقافة والفكر والعلم بعامة؛ لما له من أياد بيضاء، ومشاركات واسعة وجهود كبيرة في خدمة العلم والفكر والثقافة.

كنت قد عرفت الأستاذ الدكتور أبا أوس منذ حوالي عشرين عامًا، من خلال شبكة الفصيح لعلوم العربية، أستاذًا نشطًا مشاركًا لأبنائه وطلبته، فيما كان يجري في المنتديات الشبكية تلك الأيام من تحاور وأخذ وعطاء ومناقشات ثرية ثرّة، فيها كثير من الاتفاق والاختلاف والمفيد والضار، يشارك فيها كل من هبّ ودبّ من أهل العلم وطلبته وغيرهم من الهواة، فكان صبورًا كريمًا بعلمه نشطًا صريحًا واضحًا في

اسمه وآرائه، وكان أكثر رواد تلك المنتديات بأسماء مستعارة، فهم بين فلان بن علان وهيان بن بيان، وقد كان الأستاذ على الرغم من أنه يكاد يكون أكبرهم سنًّا وعلمًا وخبرة، يتحمل الجميع بصدر رحب.

وقد عرفت الأستاذ لاحقًا عن قرب في لقاءات علمية مباشرة ومؤتمرات محلية ودولية ومناقشات لرسائل علمية، وحوارات علمية عامة وخاصة، فكان هو هو في علمه وهدوئه وسعة صدره وتواضعه الجم واحترامه للجميع كبارًا وصغارًا.

وقد قُدِّمَتْ عنه وعن جهوده رسالتين علميتين للحصول على درجة الماجستير في الدراسات اللغوية، إحداهما في جامعة آل البيت في الأردن، والأخرى في قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة القصيم، وبحكم معرفتي واهمامي بإنتاجه العلمي، وجهوده وآرائه العلمية، وعضويتي في القسم بعامة واللجنة العلمية اللغوية بخاصة اطلعت اطلاعًا عامًّا على جميع ما نشره من كتب وبحوث ودراسات ومقالات ثقافية وفكرية، ظل ينشرها في المجلة الثقافية الأسبوعية الملحقة بصحيفة الجزيرة السعودية، كما اطلعت اطلاعًا خاصًّا على إنتاجه العلمي في مجال التخصص، اللغة وعلومها المختلفة وشؤونها الطريفة والتالدة، ومشكلاتها وهمومها المعاصرة.

كل ما سبق جعلني أسعى إلى المشاركة في الكتاب التذكاري التكريمي عنه، بهذا المقال الذي أحاول فيه تقديم شيء من سيرته الشخصية والعلمية، مركزًا على سمات خلق الوفاء البارزة في شخصيته.

يسعدني جدًّا أن أهتبل هذه السانحة لأهدي هذا المقال المتواضع

إلى صاحب الفضل فيه الأستاذ الدكتور الشمسان، وأنا بهذا لا أكافئه أبدًا، وإنما هذا من باب:

فتشبهوا إن لم تكونوا مثلهم إن التشبه بالرجال فلاح

وإلا فمن يجاري أبا أوس في فضله وعلمه ووفائه وتواضعه وكرمه؟

أبدًا فلن يرقى إليك بياني أنا نقطة من بحرك الملآن

فأرجو أن يتكرم عليَّ بقبول هذا الإهداء مني ويسامحني في القصور والنقص والتجاوز فيه؛ فحقه على طلبة العلم والتخصص من أمثالي كبير جدًّا لا نوفيه لكن نسأل الله أن يجزيه عنا وعن العلم وأهله في كل مكان وزمان خير الجزاء.

والله أسأل أن يوفقني ويجعل ما كتبته مفيدًا فيه الفائدة العلمية والوفاء الإنساني؛ فهو وحده الموفق والمستعان.

تمهيد: أبو أوس الشمسان وجهوده العلمية والثقافية والفكرية:

الأستاذ الدكتور أبو أوس إبراهيم بن سليمان بن رشيد الشمسان علم معروف من أعلام الثقافة العربية واللغوية المعاصرين؛ فلست في حاجة إلى كتابة مفصلة عن سيرته ومراحل تعلمه وأعماله العلمية والفكرية والثقافية؛ إذ كل ذلك معلوم منشور ورقيًّا وشبكيًّا، يمكن لكل قارئ الاطلاع عليه بضغطة زر؛ ولهذا سأكتفي هنا بكلام عام عن تلك السيرة العطرة والمسيرة العلمية المستمرة. والله الموفق.

ولد الأستاذ أبو أوس قبل حوالي ٧٤ عامًا وتحديدًا في ١/ ٧/ ١٣٦٦هـ الموافق له ٢١/ ٥/ ١٩٤٧م، وقد كان مولده بمحافظة المذنب في منطقة القصيم المعروفة بالمملكة العربية السعودية.

نشأ في بلدته المذنب، وتلقى فيها تعليمه قبل الجامعي حتى نهاية المرحلة المتوسطة، ثم انتقل إلى الرياض فدرس في مدرسة اليمامة الثانوية، ثم التحق بجامعة الرياض (جامعة الملك سعود حاليًا)، وتخرج فيها عام ١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م، فعين معيدًا وابتعث إلى جامعة القاهرة في مرحلة الدراسات العليا، فحصل فيها على درجتي الماجستير والدكتوراه في اللغة العربية تخصص النحو والصرف، فعاد إلى جامعته، فعمل فيها حتى عين أستاذًا غير متفرغ في ١/٧/١٤٢٦هـ، وما يزال يعمل بجد لا يعرف الكلل وهمة عالية لا تعرف الملل، فهو في نشاطه وهمته وإسهاماته العلمية والفكرية والثقافية، كما قال أبو الطيب:

وشيخ في الشباب وليس شيخًا   يُسَمّى كل من بلغ المشيبا

حفظه الله ورعاه ومتعه بالصحة والتوفيق، وأطال عمره في خدمة العباد والبلاد.

المطلع على مسيرة الأستاذ أبي أوس يعرف يقينًا أنه بلغ الغاية القصوى في المجالات الثلاثة لمهنة الأستاذ الجامعي، التدريس والبحث العلمي وخدمة المجتمع.

منذ ما يقرب من ربع قرن ظل الأستاذ أبو أوس يدرس طلابه في جامعة الملك سعود في المراحل الجامعية المختلفة كما ظل يشرف على رسائلهم العلمية للماجستير والدكتوراه ويشارك في مناقشة الرسائل وترقية الأساتذة وتحكيم البحوث في الجامعات المختلفة، ويكتب بحوثه وكتبه ودراساته ومقالاته التي جمعها في كتب جامعة لشتاتها، فأربت على عشرة، وقد اطلعت على ثلاثة عشر كتابًا منها، وبعضها في

مجلدات، فالأستاذ يبدو حريصًا جدًّا على النشر والنفع للناس بكتبه وإنتاجه العلمي والثقافي والفكري الذي أكثره في مجال التخصص، والباقي في مجالات ثقافية وفكرية عامة وخاصة، وتفصيل ذلك كله منشور في الشبكة بعامة وموقعه الشخصي على شبكة جامعة الملك سعود، بخاصة، فيمكن الاطلاع عليه في تلك المظان.

أشير في ختام هذا التمهيد إلى أمرين مهمين في هذه السيرة والمسيرة يقل نظيرهما اليوم عند زملائه من الأساتذة الجامعيين، الأول الاستمرار في الكتابة والعطاء العلمي والفكري والثقافي، دون أن يكون شيء من ذلك بغرض الترقيات العلمية؛ لأن الواقع أن كثيرًا من أساتيذ الجامعات العربية يكون آخر عهدهم بالكتابة العلمية هو يوم سماعهم خبر ترقيتهم إلى درجة الأستاذية، هذا إن لم يكن يوم حصولهم على الدكتوراه. لكن كل مطلع على شأن الأستاذ أبي أوس يعرف يقينًا أنه لم يتوقف يومًا عن العطاء المتنوع الشامل لعلوم العربية وفنونها وشؤونها المختلفة، فعلى الرغم من أن تخصصه الدقيق في النحو والصرف لم يغادر فرعًا من فروع علوم العربية إلا وقد كتب فيه بحثًا أو مقالاً أو أكثر، فتكامل المعارف، والدراسات البينية، وشمولية النظرة، أمور تجد عناية واهتمامًا وجهدًا عند الأستاذ. الأمر الثاني هو هذا التنوع الكبير في الإنتاج العلمي المعرفي الشامل للثقافة الخاصة والعامة، فهو مثقف واسع الثقافة متنوع المعارف، كما أنه عالم لغوي مجتهد وباحث جاد في مجال تخصصه العالم والدقيق، وبذلك جمع بين النشاط الأكاديمي التخصصي والنشاط الفكري والثقافي العام، في إنتاجه الذي ما يزال مستمرًا، بفضل الله وتوفيقه.

أبو أوس الإنسان الوفي العالم المتواضع:

لكل إنسان عدة صفات تظهر على سيرته ومسيرته في الحياة لكن تغلب عليها صفة أو أكثر، فتكون أبرز وأظهر فيه، فتهيمن على صفاته الأخرى. ومن خلال معرفتي الطويلة اللصيقة الدقيقة بسيرة أبي أوس ظهر لي أن أبرز صفاته التواضع في العلم والوفاء في الإنسانية، فهاتان الصفتان في شخصية الأستاذ أبي أوس يجمع عليهما كل الذين عرفوه وتعاملوا معه أو درسوه أو درسوا عليه أو زاملوه، فأبو أوس صورة بارزة من التواضع والوفاء تمشي بين الناس، هذا إلى جانب صفاته الأخرى المعروفة عنه كالحلم والعلم والصبر وسعة الصدر والكرم والسخاء بالنفس والمال، حتى إن معظم إنتاجه العلمي ينشره من ماله الخاص ثم يوزعه على الناس من زملائه وطلابه وغيرهم، في إهداءات، ولا أظنه يربح شيئًا من المال من وراء إنتاجه العلمي؛ بارك الله له في نفسه وصحته وأهله وماله.

ومما حملني على الكتابة في هذا الجانب والتركيز عليه دون غيره من صفاته الحميدة كلها أنه أهدى كتابه الذي سأعرضه(١)، إلى أستاذه عبد القادر السوداني الذي درسه اللغة العربية في المرحلة المتوسط، فتخيل كيف لم ينس معروف أستاذ درسه مع الطلاب في مدرسة حكومية في عمل رسمي لا يعده الكثير من الناس شيئًا، لكن أبا أوس الإنسان الوفي العالم المتواضع حفظ لهذا الأستاذ حقه، فرفع ذكره ونشر فضله في العالمين، بهذا الإهداء الفريد من نوعه، وبمقال طويل كتبه يحكي فيه بحثه الطويل عن أستاذه هذا بعد أن فرقت بينهما صروف الدهر.

المعروف في عالم الإهداءات العلمية أن يبدأ المؤلف بأفراد أسرته كالوالدين والزوج والأبناء ومن إليهم، ثم يأتي لاحقًا من لهم حق

(١) انظر العرض في قسم (قراءات) من هذا الكتاب، ص٢٢١.

الأستاذية ونحوها من الصلات والمعارف والمعروف، لكن وفاء الأستاذ أبي أوس يأبى له إلا أن يخالف هذا العرف التليد، فيهدي باكورة إنتاجه العلمي وأول نشرة من مؤلفاته إلى أستاذه السوداني عبد القادر محمد محمد علي الذي درسه لمدة سنتين فقط في المرحلة المتوسطة، فنَمَّى فيه حب العربية وعلومها والقراءة والاطلاع.

لم يكتف الأستاذ أبو أوس بكتابة إهداء على أول مؤلفاته إلى أستاذه السوداني بل ذهب بنسخ من الكتاب أول صدوره إلى السفارة السودانية في القاهرة وقابل الملحق الثقافي؛ ليعجل بالوفاء لأستاذه الذي كان من المؤكد أن يفرح كثيرًا بهذا النجاح العلمي الباهر لتلميذ من تلاميذه الكثر الذين ربما لا يكاد أكثرهم يذكره أو يتذكره بعد فراقه لهم كما هي عادة عامة الناس؛ ولكن أبا أوس يظل إنسانًا فريدًا ومتفردًا في خلق الوفاء الذي لازمه في حياته وما زال يلازمه حيثما حل وارتحل.

وقد ظل أبو أوس يسأل كل غاد ورائح من أهل السودان عن أستاذه الذي بحث عنه لسنوات في كل مكان، وشاركته البحث عنه زوجه الأستاذة الدكتورة أم أوس وسمية المنصور، وهي كريمة بنت كرام. وقصة هذا البحث المضني عن الأستاذ عبد القادر السوداني حكاها الأستاذ أبو أوس في مقال طويل طريف سطره ونشره في المجلة الثقافية (صحيفة الجزيرة) ثم نشره ضمن كتابه الجامع: من شجون اللغة، الذي نشره نادي القصيم الأدبي في بريدة في طبعته الأولى عام ١٤٣٨هـ - ٢٠١٧م، بتقديم تلميذه النجيب أخي الفاضل الدكتور معاذ بن سليمان الدخيل، كما أتاح الفرصة لتلميذه الآخر وأحد أبنائه البررة الدكتور فهد عبد الله الخلف أن يقدم لكتابه الآخر في هذه السلسلة (شؤون لغوية) وهذا برهان آخر من الآيات الكثيرة الدالة على تواضع الأستاذ أبي أوس

الذي يطلب من تلاميذه بل من صغارهم سنًّا أن يقدموا لبعض كتبه، وفي هذا من المعاني والقيم والأخلاق التربوية والتعليمية ما لا يدركه إلا أمثال الأستاذ أبي أوس من الرجال الكرام والمربين العظام، مع أن العرف جرى أن يقدم للكتاب أحد أساتيذ المؤلف أو أحد زملائه على الأقل، وقد قدم لبعض كتبه صديقه العلامة الأستاذ الدكتور سعد مصلوح العلم اللغوي المعروف وأستاذ الجميع في العربية وعلومها، لكن الأستاذ أبا أوس عوّدنا أن يكون متفردًا في تواضعه وفي كل شأن من شؤونه العامة والخاصة.

وهنا أشير أيضًا إلى تفرد الأستاذ أبي أوس في إهداءاته في مستهل كتبه؛ فقد شملت حتى الأبناء، إذ أهدى كتابه (من شجون اللغة) إلى ابنه البكر أوس، وهو إهداء طريف جميل بليغ جدًّا لفظًا ومعنى.

وأخيرًا لا أنسى أن أخص بشكر خاص السيدة الفضلى الأستاذة الكريمة والمعلمة القديرة المربية الناجحة الباحثة الجادة اللغوية الماهرة الأستاذة الدكتورة أم أوس وسمية المنصور، على متابعتها وحرصها وتشجيعها لي وصبرها الطويل علي لإنجاز وعدي للجنة الموقرة التي تتولى التنسيق لإنجاز الكتاب التكريمي المنتظر، أسأل الله أن يجزيها عني خيرًا ويبارك في جهودها وجهود اللجنة، وأن يجعل هذا العمل والكتاب كله عملاً صالحًا خالصًا لوجهه الكريم.

وآخر دعوانا أنِ الحمد لله رب العالمين.

بريدة القصيم، الثلاثاء ١٣/ ١٠/ ١٤٤٢هـ - ٢٥/ ٥/ ٢٠٢١م



أستاذي أبو أوس*

د. صالح بن محمد الصعب
جامعة القصيم

الحديث عن أبي أوس كالحديث عن النخلة؛ إذ تُشبهه في أشياء ويشبهها في أشياء أخرى، فهما مثلاً في الأصالة سواء، وفي البذل سواء، وفي الصبر سواء، لكن جَنَاهُ أدنى من جناها وأدْوَم، وهما كذلك يُتسلقان ويُستظلُّ بظلِّهما، والحديث عنهما وفيهما ذو شجونٍ لا تنقضي.

ليس سهلاً أن تكتب عن أبي أوس، وهذا المقام ليس بكافٍ لذكر خصاله والثناء عليه بما يستحقه، لكني سأذكر خصلتين من خصاله قلَّ وجودهما في جيله وجيلنا.

أولاهما بذل العلم دون مقابل لكل أحد، وهو أمر عزَّ نظيره، وله في هذا الباب شأن عظيم ونوادر طريفة، منها أنني كنت أعتذر منه لإزعاجه في أثناء كتابة رسالتي وهو مشرفها، وعندما أكثرت عليه الاعتذار أخبرني أن لا داعي لذلك، فهو عمليًا يكادُ يُشْرف على طلاب في جامعات أخرى وهو لا يعرفهم، لكنه يُجيب على رسائلهم، ويُعدل خططهم، ويُراجع فصولهم ويقترح عليهم ما يُفيدون منه من أفكار ومراجع.

وكنّا نتباحث أحيانًا موضوعًا، ثم يمر وقت، فلا أدري إلا برسالة

(*) المجلة الثقافية، العدد ٥٧٦ - صحيفة الجزيرة - الرياض، السبت ٢٨ رجب ١٤٣٩هـ/ ١٤ أبريل (نيسان) ٢٠١٨م العدد ١٦٦٣٤.

منه فيها مقال أو كتاب أو بحث يتناول موضوعنا الذي نسيته، وكأنه لا يَشْغله غيره! وكنت أرسل له بعض الآراء العلمية التي لا يُعبأ بها، فيرد علي وإن كثُرتْ الردود وطالت، كأنني أعطيه الذي أنا سائله!

ومرة سمعتُه يدعو (للمساهم) بالخير؛ لأنه صوّر كتبه ونشرها في الشبكة مجانًا.

أما خصلته الثانية فموضوعيته وتجرده وتواضعه للعلم والعلماء، وهو أمر لا تخطئه عينك إذا قرأت كتابًا من كتبه، فتراه يتراجع عن قول أو يُثني على آخر لغيره، ومن تواضعه أنه وضع دراسته القيِّمة (تعميم قاعدة النمط) في موقعه وكتب حِذاء العنوان "بتعديل المنيع" والمنيع أحد طلابه، كذلك من لطيف تواضعه أنه طلب من د. معاذ الدخيِّل أن يُقدِّم لكتاب أبي أوس (من شجون اللغة)، ومعاذ كان إذ ذاك طالبًا لمّا يتخرج بعد، وما فعل ذلك إلا لما عَلِمَه من سعة علم معاذ وعمقه.

ومن تجرده أنني في رسالتي كنت أورد أقوال العلماء المُحدَثين في مسائل شتّى، وربما ورد قوله بمسألة ما، فأرد على القول أو أضعفه، وكان يُدقق نصي إملائيًا وأسلوبيًا دون أن يتدخل في رأيي واختياري، على أنني وإياه نعلم فارق العلم بيننا وقلة بضاعتي فيه.

والشواهد على هاتين الخصلتين كثيرة، وهما كافيتان لتعظيم حاملهما، فكيف إن كان بعلم أبي أوس؟!

وهما ما ينبغي للعالِم أن يتحلى بهما، فالعلم لا ينتشر ويزدهر إلا بالبذل والموضوعية، وأستاذنا بهذا قدوة لا يُبارى، وروتينه الأسبوعي ببذل العلم ربما عده الآخرون إنجازًا استثنائيًا ينجزونه كل بضعة أشهر.

والمقام كما أسلفت لا يكفي للحديث عن أبي أوس، لكن من كانت هاتان خصلتين من خصاله فهو عظيم القدر، والإخبار عن محاسنه والثناء عليه قليل وإن كَثُر.



حياة حافلة بالعلم والعمل

د. صالح بن عبد الله الخضيري
جامعة الملك سعود - الرياض

الأستاذ الدكتور أبو أوس إبراهيم بن سليمان الشمسان أستاذ النحو والصرف في قسم اللغة العربية وآدابها بكلية الآدب جامعة الملك سعود، حياته حافلة بالعلم والعمل، وهو من أصحاب التميز والأفكار النيرة، يتسم بدماثة الخلق، ويتميز بحسن تعامله مع الجميع، يبتسم دائما فتشعر إذا لقيته بشيء من الانشراح، علاقاته قوية بزملائه وطلابه.

كانت بداية معرفتي بالأستاذ الدكتور أبي أوس حين احتجت إلى من استشيره عندما أردت أن أقدم للترقية، وكنت في ذلك الوقت في قسم اللغة العربية في كلية المعلمين بالرياض، وقيل لي حينها إنّ ملفك في جامعة الملك سعود وترقيتك عن طريق الجامعة، فحضرت إلى قسم اللغة العربية، وقابلت الدكتور أبا أوس - وهو لا يعرفني- وسألته عن إجراءات الترقية وكنت مستعجلاً، فطلب مني الجلوس والتحدث بهدوء، فسألته عن إجراءات الترقية فبين لي جزاه الله خيرًا الأشياء المطلوبة بالتفصيل، مع ملاحظة أن الإنتاج العلمي لا يكفي أن يكون منشورًا في مجلات علمية محكمة، بل ينبغي أن يكون على مستوى علمي رفيع يليق بالدرجة العلمية المطلوب الترقي إليها، ومتوافقًا مع التخصص العلمي.

ثم التقينا مرة أخرى في المؤتمر الدولي للغة العربية المنعقد في جاكرتا بإندونيسيا، وقد حصل الدكتور أبو أوس في ختام هذا المؤتمر على شهادة تكريم، وكان المؤتمر حول: "اللغة العربية بين الانقراض

والتطور، تحديات وتوقعات" بالتعاون بين جامعة الأزهر الإندونيسية، واتحاد مدرسي اللغة العربية، في الفترة ما بين ١٠-١١ شعبان ١٤٣١ هـ ٢٠١٠م وقد شارك الدكتور أبو أوس في هذا المؤتمر ببحث عنوانه: صعوبات تعلم اللغة العربية وتعليمها في عصر التقنية.

وفي أحد الأيام وأمام بعض الزملاء أثنيت على جهوده في إعداد الموسوعات، والمشاركة في اللجان، والعطاء المستمر الذي لم يتوقف في المناصب المتميزة المتنوعة، فقال: هذه الأعمال - كما تعرف- ليست تشريفًا ولا منصبًا للمفاخرة، بل تكليف وأمانة.

قامة علمية تستحق التكريم:

أبو أوس قامة علمية يستحق التكريم، فمسيرته العلمية والعملية زاخرة بالإنجازات، وله جهود متميزة في عدد من الجمعيات العلمية، وعضوية في تحرير عدد من المجلات المتخصصة، وإسهامات متعددة في الدوريات العلمية المحكمة، واللجنة الاستشارية في مركز الملك عبد الله بن عبد العزيز الدولي، وله العديد من الندوات والمحاضرات، وحلقات البحث، هذا بالإضافة إلى غزارة إنتاجه العلمي الذي ما يزال، ما شاء الله، مستمرًا؛ لذا أرى تكريم الأستاذ الدكتور إبراهيم الشمسان، وذلك بإقامة ندوة علمية يستعرض من خلالها تجربته وسيرته ومنجزاته العلمية والثقافية والفكرية، وإتاحة الفرصة لمحبيه وطلابه للاحتفاء به والتعبير عن مشاعرهم.

وفي الختام أشكر جميع أفراد أسرته على وفائهم لوالدهم الأستاذ الدكتور أبي أوس، وعلى إتاحة الفرصة لنا للمساهمة في ذلك.



د. إبراهيم الشمسان .. عُلُوٌّ في علوم اللغة العربية(*)

د. عايض بن بنية الردادي
عضو مجلس أمناء مؤسسة حمد الجاسر الثقافية

من الصعوبة أن يطاوع القلم في كتابة موجزة عن عالم متمكن في تخصصه، وأنتج إنتاجًا غزيرًا كالدكتور إبراهيم الشمسان الذي تخصص في علوم اللغة العربية: نحوًا وصرفًا ولغة، وبسط مسائلها في مؤلفات ومقالات، فتَّقت مسائلها، وبحثت شجونها، ممتلكًا قدرة علمية وبحثية ونقدية، ويدرك القارئ من خلالها حبه للغة، وتبحّره في علومها، وحرصه الشديد على خدمتها، وما وطّن نفسه عليه من دقة علمية، ودأب وجلد يمحص المسألة تمحيصًا علميًا دقيقًا، قد لا يستوعبه أحيانًا إلا من امتلك قدرة لغوية فائقة، نجد ذلك في كتابه (من شجون اللغة) الذي بحث فيه مسائل لغوية (صرفية وصوتية) ومسائل نحوية، ومسائل معجمية، ومسائل إملائية، وكتبًا وبحوثًا تناولها عرضًا وتعريفًا أو نقدًا وتقديرًا لجهد باحثيها، ومثل ذلك كتابه (مسائل نحوية) الذي خصصه لموضوعات أو نظريات نحوية، وقد يخصص الكتاب لموضوع صرفي مثل كتاب (أبنية الفعل ودلالاتها وعلاقاتها) و(حروف الجر: دلالاتها وعلاقاتها)، وفي كل تلك الموضوعات كتب عن كل مسألة كتابة علمية موثقة، والجامع لمؤلفاته ومقالاته هو تخصصها في اللغة ومسائلها، وحرصه على المنهج العلمي، وهي تزيد عن (١٢) كتابًا حسب اطلاعي.

(*) نشر في جسور، مركز حمد الجاسر الثقافي، ع٢٨، رجب ١٤٤٣هـ.

ومن مؤلفاته المعجمية (معجم أسماء الناس في المملكة العربية السعودية) الذي يقع في ٩٥٠ صفحة، وهو متفرد في موضوعه، ومتميز في تأليفه، وفي منهجه في بيان أسماء الأفراد السعوديين (رجالًا ونساء) مرتبة ترتيبًا هجائيًا، معتمدًا طائفة من المعاجم التراثية والمعاصرة في دلالات الأسماء ومعانيها، وما لا يجد له دلالة منقولة اجتهد في تفسيره، وجمع الأسماء من أدلَّة الهاتف السعودي، ومن أسماء الطلاب والطالبات في المدارس والجامعات، ومن سجلات المواليد وسجلات وزارة الداخلية، مراعيًا الاختلاف في النطق بين بيئات البلاد المتعددة، وقد بدأ اهتمامه بالموضوع بعد اختياره خبيرًا ميدانيًا عن المملكة للمشاركة في إعداد موسوعة السلطان قابوس لأسماء العرب، وعندما صدرت وجد أن أسماء بلادنا نالها حيف في هذه الموسوعة، إضافة إلى أن تعريف بعض الأسماء غير دقيق، لذا ألف هذا المعجم: استقصاء للأسماء، وتفسيرًا، لمعانيها في منهج مختلف عن منهج الموسوعة، فجاء معجمًا متميزًا متفردًا في موضوعه.

إن الدكتور إبراهيم الشمسان ذو عُلُوّ في معرفته باللغة، وفي مؤلفاته وفي علوم اللغة، مما جعله واحدًا من علماء اللغة العربية المميزين: علمًا وتأليفًا، زانهما تواضع العلماء ورزانتهم.



حسبي من القلادة*

أ.د.عبدالرحمن حسن العارف
أستاذ اللغويات بجامعة أم القرى

الحديث عن أبي أوس (أ.د.إبراهيم الشمسان) يطول ويطول، ولكن حسبي من القلادة ما أحاط بالعنق.

عرفت أبا أوس - لأول مرة - حينما وقع نظري في أحد سنوات حضوري معرض القاهرة للكتاب، وأظنها سنة ١٩٩٠م، على كتاب له يحمل لونًا مثل زرقة البحر صفاءً وسعةً، وعنوانه (الجملة الشرطية عند النحاة العرب) ورأيت على غلافه الخلفي صورة شخصية له، تزينه من جهة، وتشي بالطموح واستشراف المستقبل من جهة أخرى، فأحببت شخصه آنذاك دون سابق معرفة، وأحسست أن هذا الكتاب - وقد قدَّم له أستاذنا الدكتور محمود فهمي حجازي - يحمل أفكارًا جديدة، وأنظارًا لسانية غير معهودة في مثل هذه الموضوعات النحوية، فاقتنيته وعدت به إلى مكتبتي في مكة المكرمة - حرسها الله - ملزمًا نفسي باقتطاع جزء ثمين من وقتي لقراءته والإفادة منه. وما خاب ظني؛ إذ وجدت فيه فكرًا منظمًا، وأفكارًا جريئة، وطروحات علمية تبعث في النفس فضل تأمل.

ثم كان أن شارك أبو أوس سنة ١٤١٥هـ في مناقشة أطروحة دكتوراه

(*) المجلة الثقافية، العدد ٥٧٦ - صحيفة الجزيرة - الرياض، السبت ٢٨ رجب ١٤٣٩هـ/ ١٤ أبريل (نيسان) ٢٠١٨م العدد ١٦٦٣٤.

لزميلنا الفاضل الدكتور محمد حماد القرشي، وعنوانها (تعقبات أبي حيان النحوية للزمخشري في البحر المحيط) بإشراف أستاذ الجيل الراحل الدكتور تمام حسان - طيب الله ثراه- وكانت مناقشته محل إعجاب من حضر من الطلاب والأساتذة؛ لما اتسمت به من علمية ومنهجية وثقافة مناقش. ولعلي هنا لا أذيع سرًّا حينما أذكر أن أستاذي وشيخي الدكتور تمام حسان أبدى إعجابه الشديد بمناقشة أبي أوس، وقال بالحرف الواحد: لقد أفدت من هذه المناقشة ما لم أفده من كثير من الرسائل التي أشرفت عليها، وحسبك بهذا تزكية علمية وشهادة فخرية تصدر عن رائد لغوي له مكانته السامقة في الفكر اللساني العربي المعاصر.

ومرت الأيام وأنا أتابع أبا أوس عبر مؤلفاته ونشاطه العلمي ومقالاته في صحيفة الجزيرة، والتقيت به أكثر من مرة داخل المملكة وخارجها عبر المؤتمرات العلمية والندوات الثقافية، حتى شاء الله أن يضمني به عام ١٤٣١هـ مجلس علمي بجامعة الملك سعود، لمناقشة الباحث (الدكتور حاليا) الأستاذ خالد الجريان، في أطروحته للدكتوراه (البيتوشي ومنهجه في النحو واللغة)، وفيها أبان أبو أوس عن عالم متمكن ولغوي ضليع.

وتعمقت صلتي به بعدما أسندت إليَّ رئاسة تحرير مجلة جامعة أم القرى لعلوم اللغات وآدابها عام ١٤٣٢هـ، وكنت حريصًا غاية الحرص على مشاركته معنا في تحكيم بحوث المجلة؛ لما أعرفه عنه من جدية ومنهجية ونزاهة، فكان أن أضفى على مجلتنا شفافية في التحكيم، وموضوعية في التقويم.

وازدادت علاقتي به عبر الأيام، فكنت كثيرًا ما أستشيره في القضايا العلمية الشائكة، وأفاتشه في مسائل العلم العويصة، وأجد عنده الحلول لكثير مما أبحث عنه، وذلك مما جعلني أنظر إليه على الدوام بمنظار الأستاذية.

وكانت آخر مشاركاتي معه - حفظه الله - في رحاب قسم اللغة العربية بكلية اللغة العربية والدراسات الاجتماعية بجامعة القصيم، عام ١٤٣٨هـ، حيث تلقينا دعوة كريمة من صديقنا المفضال الأستاذ الدكتور إبراهيم الحندود، أستاذ النحو والصرف بالكلية، للمشاركة في ندوة علمية عنوانها (التحكيم العلمي بين الذاتية والموضوعية) وكان معنا الصديق الأريب الأستاذ الدكتور محمد ربيع الغامدي، أستاذ اللغويات بكلية الآداب بجامعة الملك عبد العزيز. وكان أبو أوس متجليًا كعادته، علمًا وخلقًا وسعة تجارب، مما أضفى على هذه الندوة جوًا مشبعًا بالمنهجية والبحثية والأفكار البناءة.

وقبل أن اختتم ذكرياتي وخواطري أود الإشارة إلى أن أبا أوس كان حظه كبيرًا في تعليمه الجامعي؛ فقد تلقى تعليمه الجامعي الأول في جامعة عريقة تعد أقدم الجامعات السعودية وهي جامعة الرياض سابقًا، الملك سعود حاليًا، ثم ارتحل لأعرق الجامعات العربية وهي جامعة القاهرة، وحظي هناك بالتلقي العلمي على يد كبار اللغوين المعاصرين في العالم العربي، ولما عاد أسهم بنشاط علمي متميز في تأليف الكتب، ونشر البحوث والمقالات، والمشاركة في الندوات العلمية والمؤتمرات، والإشراف على الرسائل الجامعية والمشاركة في مناقشتها على مستوى المملكة والخليج، ولقد أوقف أبو أوس نفسه للعلم

والثقافة والمعرفة، ولم يركن لمناصب زائلة أو مواقع براقة، بل اشتغل بما يفيد وينفع، فكان أن وضع الله له القبول، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

هكذا عرفت أبا أوس وخبرته (وما شهدنا إلا بما علمنا)، وإنها لفرصة سانحة أجدها مواتية لطرح فكرة تكريم أبي أوس، متمثلة في وضع كتاب تذكاري يُهدى إليه، محتويًا على سيرته ومسيرته، ومتناولًا رؤاه الفكرية، وطروحاته العلمية، وأنظاره اللغوية، ولعل قسم اللغة العربية بجامعة الملك سعود، أو أي جهة علمية أخرى، تتبنى هذا المقترح، وتنهض به بما يليق ومكانة هذا العَلَم، وذلك هو أقل شيء يُقَدَّم ويُهدى لأستاذ فاضل خدم العربية - وما زال - لأكثر من خمسة وثلاثين عامًا.

بارك الله في عمر أستاذنا، ومتعه بالصحة والعافية والعمل الصالح، وجعل ما قدَّمة للغة القرآن في موازين حسناته، إنه ولي ذلك والقادر عليه، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.



أبو أوس... وأحقية الاحتفاء*

د. عبد العزيز بن أحمد المنيع
أستاذ النحو والصرف المشارك
قسم اللغة العربية - كلية التربية بالزلفي

سنَّت (الجزيرة الثقافية) سنة حسنة بالاحتفاء بالرواد والعلماء في حياتهم؛ ليقفوا على شيء من تقدير المجتمع لمنجزهم، ويطلعوا على ما يختلج في صدور محبيهم وطلابهم من مشاعر الوفاء والإجلال كِفاءَ ما سلخوا من أعمارهم، وأنفقوا من أوقاتهم وصحتهم في سبيل العلم والنهضة.

وقد قضى غير واحد من الرواد الكبار قبل أن ينالوا ما يستحقون من تكريم، وربما مُنِحت الجوائز التقديرية، ودُبِّجت القصائد، وانثالت المقالات بعد وداعهم، والأدهى من ذلك أن يشعروا في حياتهم بنكران جميلهم، أو تنكُّب طريقتهم، أو الاستنكاف عن إنزالهم منازلهم، ثم يأتي الاحتفاء بعد الغياب، وحالهم كما قيل:

لا أَعْرِفنَّك بعد الموت تندبني   وفي حياتيَ ما زودتني زادي

وقد أحسنت (الثقافية) مرة أخرى باختيار العلَم المُحتفَى به، وهو أستاذنا الكبير أبو أوس إبراهيم الشمسان، ولست في مقام التعريف به، فهو... هو، نار على عَلَم، سلك طريقًا لاحبًا في العلم، وأشرَعَ بتآليفه ومقالاته وإيراداته مواردَ للفهم، وحوى له الله مكارم الأخلاق،

(*) المجلة الثقافية، العدد ٥٧٦ - صحيفة الجزيرة - الرياض، السبت ٢٨ رجب ١٤٣٩هـ/ ١٤ أبريل (نيسان) ٢٠١٨م العدد ١٦٦٣٤.

وأحسبُ كل من عرفه أو كتب عنه سيذكر هاتين الخصلتين: العِلم وحسن الخلق، وحسبك بهما صفتين جامعتين للفضائل.

وإنك سامع عن بعض الناس ما يُعجِب، فإذا رأيته صغّر الخَبرَ الخُبْرُ، وأما أستاذنا فما سمعت أذني بأحسن مما قد رأى بصري.

وقد أكرمني الله بالتتلمذ على يديه في الدراسات العليا، وشرفت بإشرافه عليّ، فوقفت على علم جمّ، وخلق رفيع، ونصح وتواضع. يكرم طلابه، ويُحِلهم محل أبنائه، ويتعاهدهم، ويتصل بهم -وإن قصّروا- ويبادرهم بالتهنئة في المناسبات المختلفة، ويحثهم على مواصلة البحث والدرس.

وصحبته في سفر علمي فزاد معرفتي به يقينًا. لا يحوجك إلى تكلف أو تصنع، ويتحفك بالفائدة الفريدة، والآبدةِ المعجِبة، والنادرة المضحكة.

وإني أدعو أن يكون هذا الاحتفاء سببًا وسبيلاً إلى منح أستاذنا أبي أوس جائزة من جوائز الدولة التقديرية، فهو لها خليق، وبها حقيق، ومؤلفاته على ذلك شاهدة، وإليه داعية.



أبو أوس*

د. عبدالعزيز بن عبدالله الخراشي
أستاذ الأدب والنقد في جامعة الملك سعود

لم أشأ عنوانًا؛ لأني لم أرَ أوعى من كنية سارت في آفاق اللغة والنحو، وصارت رائجة بين المشتغلين في حقول العربية بحمولتها ووهجها؛ إذ آخت بين الأصالة والمعاصرة.

أبو أوس من جيل عصاميّ نهد إلى العلم مغالبًا في سبيله صعابًا زادته جلدًا ومضيًّا؛ فلم يصغِ لصوارف الزمان، أو يركن إلى الراحة والدعة، بل حمل عصاه في ضروب الضاد؛ منقّبًا ومعقّبًا؛ نابذًا النظرة السكونيّة، أو الإخلاد إلى رأي.

إنّ هذا الدأب سَنَنُ العلماء الذين سرى العلم في نسغ أجسادهم؛ فتمكّن من أرواحهم مثلما تملّك ألبابهم؛ فالمراجعة معاودةُ أنفاسٍ لا حياة إلا بها، ومثاقفة الآراء إرواءٌ لها من لذيذ مشارب العقول؛ فما كان أبو أوس ينتجع العلم وقت فراغ، أو حين المستراح، بل كان حيًّا في ضميره يملأ سمعه وبصره.

لذا التقط بدقيق النظر وحسن الإصغاء كثيرًا من الملاحظات التي تبلورت مشاريعَ علميّةً تنوّعت موضوعًا وخطابًا ووظيفةً؛ إذ صاغ كتبًا رصينةً في تأصيل الدّرسين: النّحويّ والتّصريفيّ، أو تعليميّةً تنهج

(*) المجلة الثقافية، العدد ٥٧٦ - صحيفة الجزيرة - الرياض، السبت ٢٨ رجب ١٤٣٩هـ/ ١٤ أبريل (نيسان) ٢٠١٨م العدد ١٦٦٣٤.

الإيضاح والتيسير، وأخرى تنفتح على اللّسان الاجتماعيّ؛ موسّعًا بذلك نطاق التّأثير؛ إذ لم ينكفئ على المختصّين أو المهتمّين؛ ممّن لا يخرج خطابهم عن الصوت والصدى.

ولعلي أستشهد بكتابه الذي نُشر مؤخرًا الموسوم بـ(معجم أسماء الناس في المملكة العربيّة السعوديّة)؛ فقد بلغ ألف ورقة إلا خمسين؛ مستفرغًا جهده ثلاثين ربيعًا؛ إذ بذره عام ١٩٩١م بعنوان: (نظام التسمية في المملكة العربية السعودية) ضمن موسوعة السلطان قابوس لأسماء العرب حتى أينع بحثًا رصينًا عام ١٩٩٧م بمجلة كلية الآداب في جامعة الملك سعود بعنوان: (أسماء الناس في المملكة العربية السعودية) الذي آل كتابًا منشورًا صادرًا عن مكتبة الرشد عام ٢٠٠٦م، ثم استوى على سوقه معجمًا في هذا الإصدار الباذخ.

إن هذا المسار العلميّ، والمصار التأليفيّ يمدّ الناظر بمستفادات علميّة تكمن في مراودة العالم فكَره، وقليلٌ من ينحو ذلك؛ لأنّ إعادة النظر تعني معاودة النقض والبناء، وهذا ما قد يعزّ على النفس، ويعسر على الخاطر، وأخرى منهجيّةٍ لا تقتصر على دقّة الملاحظة، بل تبين مدى القدرة على تعميق النظر والاستقراء؛ ممّا جعل الإصدار محقّقًا لمقولة (معجم)، وأبعد غورًا من هذين البعدين (العلميّ، والمنهجيّ) ما تعكسه التجربة لمن ألقى السمع ورأى ما تأسّس عليه هذا المشروع؛ إذ فيها دروسٌ لكلّ طالب علم تملي التروّيَ والتجريبَ والتحقّقَ والمصابرةَ، وتحرّيَ الواقع بموافاته بما ينفع الإنسان واللسان.

والحق أن هذا الجهد وحده خليق بالاحتفاء والاحتفال في عصر تواجه فيه العربيّة تحدّيات جمة؛ فكيف إذا ضُمّ إلى ذلك جملة آثاره

المطبوعة، ومقالاته الأسبوعيّة في الجزيرة الثقافيّة التي تضمّنت طروحاتٍ معرفيّةً تمسّ اهتمام الجمهور؛ خاصّةً ما يمسّ الرّسم الكتابيّ، ومطارحاتٍ علميّةً ذاتَ طابع سجاليّ باهٍ بحسن المأتى، ولطف المنزع، والأدب الجمّ رغم صدع القول.

إنّ ما جُبل عليه أبو أوس من صرامة علميّة ما كانت نتاج طبيعة الدرس النحويّ كما هو مستقرٌّ في الوعي الجمعيّ من متصوّرات ذهنيّة عن علم النّحو، ولا ناجمةً من منادمة الرعيل الأول من النحاة، بل كانت إحساسًا قيميًّا بالهُويّة، واستشعارًا بمسؤوليّته تجاه لسان العرب؛ إذ بات أحدَ سدنته في هذا العصر.



ومضة عن أبي أوس*

أ.د. عبد العزيز بن علي الحربي
عضو هيئة التدريس بجامعة أم القرى
رئيس مجمع اللغة العربية، بمكة المكرمة

صنفت كتابًا سميته (خبايا النفوس) يقول من قرأه: إنّ لي معرفة بشمائل الرجال وأخلاقهم.

وسأصدّق هذا القول تصديقًا يقينيًّا في العلَم الذي أكتب عنه هذه السطور فيما يتعلق بشخصه. فأنعته بأنه (أريحي، وفيّ، متواضع) إنه الأستاذ الدكتور/ أبوأوس، إبراهيم الشمسان.

أحد أعلام النّحو، والتصنيف، والكتابة.

كان من أوائل من رشّحوا لعضوية المجمع، جمعتني به مناسبات زادتني به معرفة وإكبارًا.

وأقوى طرق التواصل التي كشفت لي عن أدبه، وعلمه: مشاركته بالمجمع، عضوًا عاملاً، وعضوًا بمجلسه العلمي، وعضوًا بلجنة فتاويه، ومشاركًا بالكتابة، والتعليق، والمحاضرة، والمتابعة، والنشر بالمجلة، والمنتدى، ومحكَّمًا، ومستشارًا، وناصحًا.

إذا أحيل إليه شيء بذل البَسط فيه بوعد منجز.

يمتاز في علمه بالدقة، وفي كتابته بحسن العرض، وفي خلقه بطيب

(*) المجلة الثقافية، العدد ٥٧٦ - صحيفة الجزيرة - الرياض، السبت ٢٨ رجب ١٤٣٩هـ/ ١٤ أبريل (نيسان) ٢٠١٨م العدد ١٦٦٣٤.

المعشر، وفي اطلاعه في تخصّصه بالسَّعة، وفي بحثه بالدأب، وفي حياته بالجدّ؛ فهو شابٌّ في صورة شيخ:

وله عناية فائقة بالتصويب والتغليط، اطلاعًا، وبحثًا، وكتابة، واستدراكًا.

ومقالاته الصحفية - وكثير منها في منتدى المجمع - شاهدة على ذلك.

علمت أنه صُرف بعد تخرجه من الثانوية عن الطب إلى النحو، ولعل ذلك من جميل حظ النحو وأهله، ثم إن بين النحو والطب شبهًا، فكلاهما يعالج، غير أن النحوي يعالج علل الكَلام، والطبيب يعالج علل الكُلام، أو هذا طبيب أبدان، والنحويّ طبيب لسان. ولعل من أسباب وفرة تصنيفه وغزارة عطائه أن وفقه الله بامرأة تنحو نحوه، وتلتقي معه في مشرب النحو العذب، إنها الأستاذة الدكتورة: وسمية المنصور، أحسن الله ذكرها.

وهذا الثنائي البارع يذكرني بثنائيات جليلة، كأمين الخولي وعائشة بنت الشاطئ، وكذلك: أحمد مطلوب، وخديجة الحديثي، وعبدالصبور شاهين وزوجه.

أسأل الله أن يبارك في حياته وفي حياة أم أوس وأن يزيده توفيقًا، وأن ينفع بهما.



سيبويه العصر*

أ.د. عبدالعزيز بن ناصر المانع
جامعة الملك سعود - الرياض

أبوأوس الشمسان زميل قديم في قسم اللغة العربية، عرفته أول ما عرفته طالبًا، وكان لهذه المعرفة قصة لطيفة، فقد دخل عليّ وكنت رئيس قسم اللغة العربية عام ١٤٠٠هـ تقريبًا، وكان ذلك الطالب رزينًا عاقلاً مؤدبًا- والرجال تعرفها من وجوهها - بدأ حديثه بالشكوى من إيقاف بعثته لانتهاء المدة المحددة لها.

طرحت عليه السؤال المعتاد: ما الذي تريد؟ قال تمديدًا، وكانت معه ورقة الطلب، فأخذتها وقلت له: اذهب لدراستك وثق أن التمديد موافق عليه، وفعلاً عرضته على القسم فلم يتردد أحد في الموافقه؛ لأن الطالب هو أبو أوس الشمسان المعروف عندهم بجديته وحرصه وعلمه، عندما كان طالبًا بالقسم، ولكن الأنظمة جائرة أحيانًا على العلماء أمثاله.

وتمضي الأيام وينهي دراسته ويباشر في القسم في وقت أغادر فيه الجامعة للعمل في الولايات المتحدة.

وعند عودتي ومباشرتي العمل في القسم رأيته واقفًا في محادثة مع د. محمد الهدلق فحييته. قال الهدلق: أتعرفه؟ قال أبو أوس: نعم، هذا الذي مطط لي البعثة!!

(*) المجلة الثقافية، العدد ٥٧٦ - صحيفة الجزيرة - الرياض، السبت ٢٨ رجب ١٤٣٩هـ/ ١٤ أبريل (نيسان) ٢٠١٨م العدد ١٦٦٣٤.

عرفته عالمًا في تخصصه في النحو والصرف واللغة، يحلم بها في الليل ويتحدث عنها في النهار، عرفته قامة صامدة في الوفاء للعربية ومكانتها، وأقسم بالله غير حانث أنه ما مرّ علي إشكال نحوي أو صرفي أو لغوي إلا لجأت إليه أستقي من معينه، وأروي ظمئي من بحره الزاخر.

كان آخر ما أهديته كتاب (على خطى المتنبي) فأهداني عددًا من الملاحظات اللغوية لا النحوية، فكان أن نشرتها اعتدادًا بها واعتزازًا بمن نقب عنها وأهداها لي: رحم الله من أهدى إليّ عيوبي.

تُقَدَّم للكرسي الذي أشرف عليه بعض الكتب النحوية واللغوية والكرسي يحكم كل الكتب، فكان أول اسم يرد على خاطري هو أبو أوس: دقيق في تحكيمه، صادق مع نفسه، مخلص لتخصصه ومع ضميره.

كم من الكتب أعدتها لأصحابها ثقة في تحكيم أبي أوس.

الشمسان: يراه الكثير شديدًا في آرائه وصلبًا في مواقفه، ولكني أرى أن هذا الزمن العلمي الرديء يحتاج إلى ألف أبي أوس لكي تعود للعلم هيبته وللجامعة مكانتها، وفقه الله وأمد في عمره وزاده صلابة وشدة في مواقفه العلمية الرائدة.

حياك الله أبا أوس من أخ يكنُّ لك من الود ما تعلم وما لا تعلم.

ألم تلاحظ أبا أوس أني لم أخاطبك (بالدكتور) ولو لمرة واحدة؟

لأني أعرف تواضعك وتساميك عن الألقاب.

رعاك الله.



عالم لغوي وقور*

عبدالله بن حمد الحقيل

سعدت غاية السعادة عندما طُلب مني كتابة شهادة عن أستاذ جليل هو الاستاذ الدكتور إبراهيم الشمسان أبو أوس، فهو علم من أعلام اللغة العربية والثقافة تربطني به علاقة أخوية وثيقة، يفيض مروءة ونبلاً، وهو مبدع لغوي يمتلئ معرفة وعقلاً، في بدء لقاءاتي به في المدينة المنورة حيث كنّا مدعوين لمؤتمر اللغة العربية في الجامعة الاسلامية فتعلمنا منه نبل الخلق روحه الطيبة المرحة، إضافة إلى ثقافته اللغوية الموسوعية وذو تجارب غنية عميقة، مداخلاته بلغة فصيحة رصينة وبأفكار مرتبة متناسقة، كما أنه شخصية اجتماعية فذة متألقة كتألقه في التدريس في الجامعة وفي ميدان البحث العلمي، مسكون بالقراءة والتأليف لكتب اللغة العربية والتراث، فهو يمثل شخصية الباحث التي تتميز بالدقة وحسن التتبع، ولقد قرأت كتابة اللغوي (معجم أسماء الناس في المملكة العربية السعودية) فوجدته طويل النفس، يوضح الأمور على وجوهها المختلفة، وينتقي عباراته بعناية ودقة، ولقد تبنى مجمع اللغة العربية على الشبكة العالمية طباعته بعد تحكيمه ومراجعته.

تلك هي شخصية أبي أوس العلمية والأكاديمية، كما أنه شخصية مرحة الروح بشوش المحيا، كما أنه من أشد المدافعين عن اللغة العربية في عصر العولمة، ونتمنى منه الكثير من المشروعات التي تخدم اللغة

(*) المجلة الثقافية، العدد ٥٧٦ - صحيفة الجزيرة - الرياض، السبت ٢٨ رجب ١٤٣٩هـ/ ١٤ أبريل (نيسان) ٢٠١٨م العدد ١٦٦٣٤.

العربية للمحافظة على سلامة اللغة العربية وإيجاد البيئة الملائمة لترسيخ اللغة العربية وتطويرها ونشرها والعناية بنشر وتحقيق الدراسات والأبحاث والمراجع اللغوية.

وأني لأعتز بالكتابة عن الاستاذ الدكتور أبي أوس، وهي كتابة تدخل في جهد المقل ولا تفيه حقه وقدره؛ ولكنها تعبير صادق عن محبه عميقة وتقدير كبير، وليته يكتب سيرته فهي حافلة بالعطاء والمواقف، ويتحدث عن تجربته في الميدان الثقافي، فهو شاهد على عصره وسابر لأغواره حقق الله الآمال ووفق الجميع.



ماذا يفعل أبو أوس؟*

د. عبدالله بن صالح الوشمي
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

في ركن مهم من مكتبة والدي، رحمه الله، لفتني اسم أبي أوس للمرة الأولى، ثم حدث صمت عابر في الذاكرة، إلى أن انفرطت سلسلة من التداعيات، وأبو أوس الرجل الذي يهطل كل حين.

ولدت مجموعة من الرؤى في ذاكرتي تجاه أبي أوس، وهي ترتبط بمواقف واقعية أو بمواقف في الوجدان يبعثها ما أراه منه أو أسمعه، وقد صنع بها حضورًا راقيًا عند المختصين من أساتذته وأصدقائه وتلاميذه وقبولاً جميلاً في الإعلام والتجمعات العامة.

الأول: أنه رجل علم ومعرفة، ويتحرك وفق موجهاتها دائمًا، ولذلك تجده في اللجان واضح الرؤية وصريح العبارة في شرح رأيه وربطه بالجانب العلمي، وحين يعلو الموقف العاطفي أو الإعلامي، فإنَّ أبا أوس أبرز منْ يعيد النقاش إلى إطاره العلمي، وإن اختلفت معه، فإنك مرتبط باستدلالاته ورؤاه، وتناقشها ولا تناقش الأشخاص؛ بل إنه يحفزك بهدوئه وحرصه على وضوح الرأي حتى في مخالفته.

ومن أبواب ذلك ومفرداته حرصه على ضبط المنهج، وتتبعه لذلك فيما يناقش أو يقرأ أو يعقب؛ وحرصه على قيم النزاهة العلمية في

(*) المجلة الثقافية، العدد ٥٧٦ - صحيفة الجزيرة - الرياض، السبت ٢٨ رجب ١٤٣٩هـ/ ١٤أبريل (نيسان) ٢٠١٨م العدد ١٦٦٣٤.

الكتب والمناقشات العلمية، وتجد أثر ذلك في تواصله مع جهات الفحص والتحكيم من وكالات البحث العلمي أو المجلات العلمية المحكمة، أو تواصله الشخصي مع الباحثين وجهات النشر، كما أن ذلك يمثل قيمة عالية عنده، ولذلك يتحدث عنها ويناقش فيها.

الثاني: أنه رجل وفاء مع أساتذته، وهذا يتضح لي في مقالاته وأحاديثه المتعددة المتنوعة عن أساتذته في مصر والسعودية، وكان موقفًا طريفًا عندما تفضل د.أحمد الضبيب بدعوتنا إلى منزله واستضافة مجموعة باحثين، ثم فوجئت به يسلم أبا أوس أوراقًا مطوية أو دفترًا صغيرًا، لأفاجأ لاحقًا بكتابة وبحديث عابق بالوفاء من أبي أوس عن أستاذه د.الضبيب، وبحثه الشعري معه، وذكريات التلمذة عليه.

الثالث: أنه رجل نبل مع أصدقائه، ويندر أن ينجز صديق له عملاً علميًّا، أو يرحل زميل آخر؛ إلا وتجد أبا أوس من أسرع الناس استجابة لدواعي الوفاء والكتابة عنه، وتلمس جوانب الجودة والإحسان والتميز، وبيان ذلك للقراء.

الرابع: أنه رجل قِيم مع تلاميذه، فعلاقته بهم علاقة احترام وعلم، ومن هنا يسعى في مصالحهم، كما أنه لا ينفك يسأل عنهم، وعندما يتميز أحدهم فإنه يتابع شأنه كاملاً، فيقترح طباعة رسالته على جهة علمية، وربما تابع التفاصيل وأشاد بها، وقد وجدت به حرصًا على تلاميذ أصدقائه، بما يعني أنه يجمع أمرين من أبواب الوفاء والحرص.

ومع أني لم أشرف بالتتلمذ المباشر عليه أنسب نفسي إلى هذه الفئة بسبب السن، وبسبب ما يتحفني به من رؤى، وأتعلم منه من أفكار،

ولذا أجد منه دعمًا مميزًا، كما يجد الطلاب منه رسائل الإشادة والدعم والمؤازرة.

الخامس: أنه رجل لا يعترف بحاجز السن ليمنعه من الولوج في مظاهر الحداثة الجديدة، فقد بادر مبكرًا إلى المنتديات اللغوية، وأسهم بفعالية في صفحاتها، ثم بدأ بتويتر، ورأيته يحث الآخرين من الأفراد والمؤسسات على نقل عطاءاتها من مستوى تقليدي إلى المستوى التقني الحديث.

ومن هنا يأتي إسهامه وقيامه بالمشروعات العلمية الممتدة، فهو شريك علمي في موسوعة السلطان قابوس لأسماء العرب، وشريك علمي في المعجم الطلابي الصادر عن وزارة التعليم، كما أنه دائم الجديد العلمي من كتبه أو أبحاثه أو مقالاته، بل تجد فيه حرصًا على الاستمرار والتنوع.

ولعل هذا من أسباب وعيه وتسامحه في معالجة مسائل اللغة من ناحية القبول والرفض، حيث يأخذ المسائل من الناحية التطبيقية مستصحبًا بعدها الاجتماعي، ومخططًا متنبهًا لكيفية تطبيقها، وأن المسائل العلمية لا تعني الفرض والإلزام، وإنما يتعين تقريبها وتقديمها بأليق صيغة.

السادس: أنه رجل إصلاح وإسهام في مختلف المجالات، فهو نشط في التصويب المنهجي واللغوي والثقافي، وحاضر في عديد من الندوات متحدثًا ومعلقًا، وينتمي إلى عدة مجالس ولجان ناقلاً رؤاه الحقيقية الدقيقة، ولا يجد أي غضاضة أن يطرح ما يخالف الجميع إن

كان رأيه الصريح، كما لا يجد أي تردد أن يحمل مشعل التنبيه على خطأ متراكم، أو غائب عن المسؤول.

السابع: أنه رجل منتظم الخطابات، فما يكتبه ويطالب به، هو ذاته ما يُنظر له في أحاديثه، بل إنه ذاته الذي يطبقه على نفسه، ويراسل به أصدقاءه.

ويمكن هنا أن نشير إلى تكتل الأسرة التي صنعها وساندته، حيث نجد فيها تميزًا علميًا، وبروزًا مشرقًا يدلّ على رؤية متماسكة يتحرك فيها، وقد كان اسم (أم أوس) وحضورها العلمي القوي ومداخلاتها المميزة إحدى أمارات النجاح في الأسرة جميعًا[١].

الثامن: أنه رجل حرص ومتابعة للمشروعات الناجحة، وبملء فمه وربما بفخر تجده يتحدث عن نجاحات أساتذته وأصدقائه وطلابه، بل ومن لا يعرفهم، فهو متصالح جدًا مع ذاته.

وهنا أتذكر ثناءه المستمر على ما أنجزه الجيل الذي تلاه وربما تلاميذ تلاميذه في أعمالهم العلمية التخصصية بالنحو واللغة العامة، وربما وجدته يقدمهم في الرأي، ويستشهد بهم.

التاسع: أنه رجل تواضع وخفاء، فظل بعيدًا عن الإعلام سنوات طويلة، كما ظل مبتعدًا عن النشر والكتابة في الوسائل العامة، إلى أن اتخذ قراره في سنواته الأخيرة، لينتقل إلى الجزيرة الثقافية بزاويته التي

---

(١) يأتي هذا الكتاب الذي تصدى لجمعه أبناء أبي أوس أنموذجًا على اللحمة الراقية والرؤية المستمرة في أسرته الكريمة؛ ولذلك أنظر إلى جهودهم بوصفهم ينوبون عني وعن كثيرين من محبي أبي أوس في تكريمه وتقديره.

عرفه كثيرون بها، وأتاحت له النشر والمتابعة للقضايا المتنوعة، كما تحولت إلى منبر للسجال مع القضايا التخصصية التي قربها إلى الحيز الثقافي العام.

ماذا صنع أبو أوس كي يحصد كل هذا الحب والتقدير والحضور؟ فله أن يفتخر، إذ نجح في حصد الصداقات وتكوين جبل من الحب وجيل من التلاميذ، وهذه الالتفاتة من صحيفة الجزيرة ما هي إلا قبلة عابرة على جبين العلم والمعرفة والأخلاق.



علم وتواضع*

د. عبد اللّه بن علي الشلال

احترت كيف أبدأ الحديث عن أخي وصديقي وأستاذي أبي أوس الأستاذ الدكتور/ إبراهيم بن سليمان الشمسان، هل أكتب عن خلقه وتواضعه، أو عن موسوعيته العلمية والأدبية؟ إنني أمام بحر لا ساحل له من الصفات السامية والخصال الحميدة.

عرفت أبا أوس منذ أكثر من عقد من الزمان مشاركًا له في وضع معجم اللغة العربية للمرحلتين المتوسطة والثانوية لوزارة التعليم، فعرفت أخلاقه ومكانته العلمية عن قرب؛ لكن وصول محاسنه إلى السمع، ولطائفه إلى النفس سبقت ذلك بسنوات. . .

(وما المرء إلا ذكره ومآثره)

والحقيقة أن أبا أوس أديب متعدد الجوانب ومتنوع المواهب، فهو مثقف ونحوي ولغوي وكاتب وناقد وتربوي، قبل أن يكون أستاذًا جامعيًّا وباحثًا ومؤلفًا. وقد عرفت عنه هذه المواهب والصفات كما عرفها عنه زملاؤه في الجامعة، ومن شاركوه في الندوات والمناقشات، وكل طلابه ومعارفه يصفونه بأكثر من ذلك.

فإلى جانب هذا الشمول والإحاطة بفنون اللغة وآدابها من خلال عمله في الجامعة وما يكتبه في الصحف والمجلات العلمية من مقالات

(*) المجلة الثقافية، العدد ٥٧٦ - صحيفة الجزيرة - الرياض، السبت ٢٨ رجب ١٤٣٩هـ/ ١٤ أبريل (نيسان) ٢٠١٨م العدد ١٦٦٣٤.

ومراجعات لغوية، وما يشارك فيه من ندوات ومحاضرات وحلقات إذاعية ودورات تدريبية، وإشراف على رسائل علمية ومناقشات أخرى داخل المملكة وخارجها، وما ينتجه من مؤلفات وبحوث تزيد على ثلاثين (٣٠) منجزًا، وغيرها من المنجزات التي تحتاج إلى سفر خاص يرصدها ويدونها، إنه دون مبالغة عدة أساتذة.

لقد استفدت من أخي وأستاذي أبي أوس كثيرًا، ولولا أني أعلم أنه لا يحب ذكر جمائله مع الآخرين لسطرت كثيرًا مما يقدمه لمن يعرف ولمن لا يعرف...، إلا أنني سأذكر له عملاً واحدًا وليسامحني بذكره، فقد جرى الحديث معه مرة أني في حاجة إلى تصوير مخطوطتين في إحدى الدول العربية، فطلب مني تحديد أماكن وجودهما وأرقامهما، وظننته حديثًا عابرًا، ولم يمض وقت قصير على حديثي معه إلا وهو يفاجئني بها في إحدى المناسبات... وما زلت ألتقي به أو أهاتفه في قضية نحوية أو لغوية فأجد الرأي السديد المبني على الدليل الذي ترتاح له النفس، ويسكن الضمير... شكر الله له جهوده لقاء ما يقدمه لبلده وأبنائه وللغة القرآن، والحديث الشريف، ولسان العربية.



أبو أوس .. العالم العَلَم*

د. عبدالله العريني
المشرف العام على مركز حمد الجاسر الثقافي

في القامات العلمية.. تتلاشى أهمية اللقاءات والمقابلات الشخصية أمام التأثير الاجتماعي والعلمي.. وهكذا هو أبو أوس.. لم أقابله إلا قبل أيام.. ولكني عرفته بمداخلاته اللغوية في الجزيرة الغراء منذ سنوات.

نزع اللقب وحَفِظ الكنية (أبو أوس)، وبها عرفناه وأدركنا أسلوبه العلمي، الذي يقترب منه المتخصص والمبتدئ، ويفيد الجاهل باللغة والمتعلم بأغلب تفاصيلها..

حدّث العربية وصححها، وبعث أساليبها وتراكيبها المهجورة، وفنّدها حسب سياقاتها اللغوية، واختلافاتها النحوية.

هو (العين) في اللغة، و(الكبير) في التعامل والوفاء لمحبيه وزملائه.. امتلك من (الخصائص) ما ميزه عن غيره، فأدرك (سر الصناعة) اللغوية من أوسع أبوابها، حتى غدا (الكشاف) المضيء في بعض دهاليز اللغة المبهمة!

عاشت العربية معه بكل أطرها وأنماطها.. وتعايش مع صروف اللغة وصنوفها.. وتكيّف مع مظانها وأسرارها..

هو عالم النحو والصرف.. بل عالم اللغة وعَلَمها الذي يُهتدى به.. وتسعد (جسور) أن تحتفي به.. جزءًا من الواجب.. ووفاءً لقدره..



(*) نشر في جسور، مركز حمد الجاسر الثقافي، ع٢٨، رجب ١٤٤٣هـ.

السفير النحوي*

أ. د. علي بن إبراهيم السعود
أستاذ النحو والصرف بجامعة القصيم

إن الكتابة عن شخصية علمية - وهبت نفسها للعلم، ودأبت أبدًا تبحث في بحوره على مدى عقود من الزمن - يعتريها الكثير من الإيجاز المخل، حيث إن قامة علمية كأبي أوس لا يكفيها مقالة تنسج، وحوار عابر، لرصد أعماله ومشاركاته، لكن يمكن الحديث عن أهم الدوائر الكبرى التي تقلبت فيها حياته العلمية، وأثره في الدرس النحوي المعاصر، ومن أبرزها:

أولًا: الأبوّة العلمية:

هذه الناحية الوجدانية رأيتها في أبي أوس في مظاهر متعددة، وشواهد كثيرة، فقد التقيته عند بعض طلبته الذين أَشرف عليهم، وفي بعض جلساته داخل الجامعات وخارجها، حيث ترى الأب المفتخر بأبنائه وما وصلوا إليه في دراساتهم، فتجده يستمع إلى حواراتهم استماع التلميذ لشيخه، ويمنحهم مساحات من الاختلاف معه، واختلاف الرؤية بينه وبينهم، فلم يكن أبًا وظيفته الإلقاء وعليهم الاستماع، بل كان البناء والمواصلة المعرفية هي الحبل المتين الذي يؤصله في نفوس تلاميذه. وسأضرب نموذجين على هذه الأبوة: أحدهما: أن أبا أوس لا يجد

(*) نشر في المجلة الثقافية العدد ٥٧٦ - صحيفة الجزيرة - الرياض، السبت ٢٨ رجب ١٤٣٩هـ/ ١٤ أبريل (نيسان) ٢٠١٨م العدد ١٦٦٣٤.

غضاضة في أن يقدم أحد تلاميذه لواحد من كتبه، بل يطلب منه ذلك، كما في كتاب (من شجون اللغة). وثانيهما: اتصاله ببعض الطلاب؛ للتهنئة على جودة رسائلهم العلمية قبل مناقشتها. وقد وقفت على شواهد من ذلك.

ثانيًا: التصانيف المتتابعة:

لم تقف عجلة التأليف عند أبي أوس في رسالتيه الماجستير والدكتوراه، أو بحوث الترقية لدرجتي أستاذ مشارك أو أستاذ، كعادة بعض أساتذة الجامعات حيث يجف القلم عند آخر بحث نسجه في آخر ترقياته، ولكون العلم مُدارسةً يموت بالتوقف، ويتناقص بعدم التعاهد له، فقد كان قلم أبي أوس نبعًا لا ينضب، له جداول شقت طرقها في مسارات علمية رصينة، متكئة على إرث علمي، اختزنته ذاكرته، وتقلب فيه فكره، وأجاد العقل في طرحه ونظمه.

ثالثًا: المشاركات الدائمة:

لقد أصبحت اللغة في قضاياها ومشكلاتها، جزءًا من فكر أبي أوس وروحه، بل وشاغلة عقله، ولهذا تجد اسمه منقوشًا في صحيفة البرامج لكل محفل لغوي داخلي أو خارجي، حيث المؤتمرات والندوات، ملقيًا ومحاورًا وناقدًا ومضيفًا، ولم تكن المشاركة يومًا مكررة، أو لذات المشاركة، فالفكرة هي التي تقوده، والتفكير هو الذي يطرز به كتاباته، والإضافة الجادة هي المآل الذي يرجوه والمبتغى الذي يطلبه.

رابعًا: القراءة والمتابعة:

إن شغف أبي أوس بالقراءة ومتابعة كل جديد يخص محيطه اللغوي

جعلته متابعًا لمطبوعات تخصصه، وملتقياته، ولهذا فإن قلمه تراه حاضرًا في التعريف بأي كتاب ذي قيمة في عموده الصحفي، ملخصًا أهم القضايا التي تناولها الكتاب، وكذا في كل ملتقى أو مؤتمر يحضره فإن مشاعره التي أسرته، والمشاركات التي ألقيت فيه، يخصها بمقال أو أكثر؛ رغبة في إبراز هذه الاجتماعات العلمية، ولافتًا إلى كل جديد حادث في مجال اللغة بأنماطها.

وأخيرًا، هنيئًا لجامعة يشع علمه فيها، ولطلاب نهلوا من علمه تلقيًا وإشرافًا ومناقشة، ولملتقيات ومؤتمرات أضفى عليها من فكره وخبراته.



الأناقة الساحرة*

د. علي عبد الله إبراهيم
جامعة الملك سعود (سابقًا)

لم يحدث قطُّ أن رفعت قلمي لأكتب مدحًا في هذا الرجل، أو أسطر ثناءً مدبجًا بأحلى الكلمات والعبارات في آخر. ذلك، لأنني لا أتقن هذا النوع من الكتابات، ولا أحسن طرائق تجويده وإخراجه. ومع ذلك، وجدتُ نفسي مندفعًا اليوم لأكتب شيئًا ما عن أبي أوس بعد أن علمت أن صحيفة الجزيرة العملاقة بصدد نشر ملفّ خاص عن هذا الرجل في غضون أيام قليلة. وسأقصر كلامي على محورين اثنين يتعلق الأوّل منهما بإنسانية أبي أوس ودماثة خلقه، ويتصل الثاني بأستاذيته ومساهماته الفاعلة في التدريس الجامعي، والتأليف المتميز في نحو العربية وصرفها.

ربما لا أكون مخطئًا إن زعمت أن أول ما يلفت انتباه مَن يجلس إلى جانب أبي أوس ليتجاذب معه أطراف الحديث هذه الأناقة الساحرة في المظهر والمخبر كليهما. . يستقبلك بتحية رائعة فيها من معاني الحبّ والصدق ما فيها، وبابتسامة عريضة تبعث الدفء في نفسك وتجعلك تطمئن على قضاء وقت طيّب طال ذاك الوقت أم قصُر. ثم لا تلبث أن تجد نفسك أمام رجل على درجة عالية من الثقافة والعلم. ليس ذلك فحسب، بل تجد نفسك أمام رجل عصري استطاع تسخير تقنيات

(*) المجلة الثقافية، العدد ٥٧٦ - صحيفة الجزيرة - الرياض، السبت ٢٨ رجب ١٤٣٩هـ/ ١٤ أبريل (نيسان) ٢٠١٨م العدد ١٦٦٣٤.

التواصل الحديثة لخدمة جهوده في ميادين: القراءة، والتأليف، وعمل المداخلات المتميزة في كثير من ضروب الثقافة والمعرفة.

تتجلى إنسانية أبي أوس في أمور شتّى لعل من أهمها هذا التواضع المثير، وهذا السلوك الحضاري المتمثل في تعامله مع أصدقائه وزملاء المهنة، بل في تعامله مع الآخر بصفة عامة. حباه الله جلّ شأنه بخصال بات كثير منها نادر الوجود في زماننا هذا، من أجلّها وأعظمها صفة الوفاء.. دعاني ذات مرة إلى مكتبه العامر فحدثني عن أهل السودان حديثًا تطرب له الأسماع، وتتحرك بسببه في النفس أسمى معاني الاعتزاز والافتخار بالوطن وساكنيه. قاده ذلك الكلام الشفيف الرقيق إلى الحديث عن أستاذه السوداني الذي درسه في المرحلة المتوسطة، وكان له الفضل بعد الله سبحانه وتعالى في تكوين شخصيته العلمية بشكل عام، وفي حبه للعربية ونحوها على وجه الخصوص. وذكر لي أنه قام بإهداء رسالة الماجستير التي أنجزها في مصر إلى هذا الأستاذ، وأبدى أسفه العميق أنه لم يعد يملك معلومات عنه، وأنه يريد أن يرسل له مبلغًا من المال من باب الوفاء والتقدير، ومن ثمّ طلب مني مساعدته في تحقيق هذه الرغبة. وبعد بحث لم يدم طويلاً بلغني أن الأستاذ المعني توفي قبل ستة أشهر فقط من تاريخ حديثنا عنه. وبعد التشاور في الأمر أعطاني أبو أوس مبلغًا من المال كبيرًا، وكلفني بإيصاله لأسرة أستاذه المحبوب، وتم ذلك بعون الله، ودار حديث طويل بعد ذلك بين الطرفين فيه من آيات الشكر والثناء ما فيه.. فأي عطاء أكبر وأجل، وأي وفاء أعظم وأنبل من هذا؟!

أما فيما يخص أبا أوس الأستاذ الجامعي والمؤلف فمما لاشك فيه

أن الحديث عن هذا الجانب يحتاج إلى مساحة أوسع، وإلى وقت أطول.. أستاذ ملتزم يعشق عمله، ويوليه قدرًا عظيمًا من الاحترام والتقدير.. يذكره طلابه - على الدوام - بالخير كله.. كتبه ومؤلفاته تتحدث عن نفسها، وحسبك أن تنظر في مداخلاته اللغوية التي نشرت في سنة ١٤٣٦هـ لتجد فيها علمًا غزيرًا وخيرًا وفيرًا، حيث عالج فيها الرجل عددًا كبيرًا من مسائل اللغة والنحو، فضلاً عن عدد من الشهادات والمتابعات.. أبو أوس قامة سامقة من قامات العلم والثقافة في الوطن العربي. نسأل الله أن يمتعه بالصحة والعافية، والقدرة على الكتابة والتأليف لمزيد من الغنى والإثراء للمكتبة العربية.

الرياض في ١٥/٧/١٤٣٨هـ



الأستاذ المثال*

د. علي بن معيوف المعيوف
أستاذ النحو والصرف المشارك
جامعة الملك سعود

حين بلغني أن الجزيرة الثقافية ستخصِّص عددًا تكريميًّا للأستاذ الدكتور أبي أوس إبراهيم بن سليمان الشمسان أستاذي الكريم النبيل الذي شرفتُ بأن درَّسني، وناقش رسالتي في الماجستير، وأشرف على رسالتي للدكتوراه - حين بلغني ذلك لم أتردد لحظةً في المشاركة، بل أظن أن ذهني لم يدخل في دائرة تفكير هل أشارك أو لا أشارك، فالأمر كان محسومًا منذ تلك اللحظة. ولكنَّ الذي حيَّرني طويلاً هو: "في أي موضوع سأكتبُ عن أستاذي؟"، وكانَ سبب حيرتي أني أعلم علمَ اليقين بأني لن أوفي أستاذي حقه ولا عشر معشار حقه في أي موضوع سأتحدث به عنه. وبعد حيرة طالت حتى كدتُ لا أدرك الكتابة في وقتٍ يسمحُ بنشر ما أكتبه ضمن العدد التكريميّ اخترتُ أن أكتُب عن الأستاذ المثال أبي أوس من حيثُ صلته بطلابه، وعنايته بهم، ورعايته لهم؛ لأني على يقينٍ أنَّ أكثر من يعلمُ فضلَه في ذلك طلابه، كما أني لن أستطيعَ أن أصفه في هذا الموضوع بما هو أهله، لكني سأكتفي عن التفصيل بالإجمال، فأذكر ثلاثة مواقف حدثت معي شخصيًّا أورِدها للقارئ الكريم، وأذكر شيئًا من فضل أستاذي عَلَيَّ، وأشكر كرمه ونبله

(*) المجلة الثقافية، العدد ٥٧٦ - صحيفة الجزيرة - الرياض، السبت ٢٨ رجب ١٤٣٩هـ/ ١٤ أبريل (نيسان) ٢٠١٨م العدد ١٦٦٣٤.

في تعامله مع طلابه وأنا واحد منهم.

أما الموقف الأول فكان حين تقدَّمت بطلب مرشِدٍ أكاديمي لكتابة خطة رسالتي للدكتوراه، وكنتُ أرجو أن يكون أستاذي أبو أوس هو المرشد، وتحدثت معه في ذلك هاتفيًّا، فأخبرني أنه في تفرُّغ علميٍّ مدة عام كاملٍ هو العام الذي يُفترَضُ أن أُنجِزَ فيه خطة البحث، ولكنَّه أخبرني أيضًا أنه مستعد للإرشاد والإشراف، فأرشدني، وساعدني في رسم خطة البحث، وكان يحضرُ إلى القسم أحيانًا، وفي أحيانٍ أخرى يدعوني إلى بيته العامر لنناقش موضوع الرسالة، فيرشدني دائما إلى ما هو أفضل، حتى اكتملت الخطة وعنوانها: "نظرية الموضع في كتاب سيبويه"، فقدمتها إلى القسم، وقبلها القسم، وسمَّى أستاذي أبا أوس مشرفًا، وهو ما يزال في تفرُّغه العلميّ، فقبل الإشراف، وفزت بإشرافه، ولا أظن أن أحدًا كان أسعد منّي يومها، واستمرّ يُشرف على عملي ويوجهني وهو في تفرُّغه العلمي.

وأما الموقف الثاني فكان بعدَ أن فَرَغتُ من كتابة رسالتي للدكتوراه، وقَبِلها أستاذي بصورتها التي هي عليها، دعاني لأحضر الرسالة كاملة في قرصٍ إلكتروني، وحمَّلها كاملةً في جهاز الحاسب لديه، وقال لي: مع السلامة، وعدْ إليّ بعد أسبوع لتحمل رسالتك إلى المطبعة. ولم أكن أعلمُ ما يريده أستاذي بالرسالة في تلك اللحظة؛ ولكن بعد انتهاء الموعد زرته فوجدته قد صمَّم الرسالة وأخرجها إخراجًا فنيًّا لا يتقنه إلا محترف في برامج الحاسب الآلي، ثم أعطاني العمل، وقال: الآن اطبعها، وأحضر معك ست نُسَخٍ للقسم وللجنة المناقشة. ولعلَّ كثيرين لا يعرفون عن أستاذي أبي أوسٍ هذه الصفة وهي إتقانه

برامج الحاسب الآلي إتقانًا لافتًا، أما كرم نفسه فكثير من الناس يعلمونه، وأجزِمُ أنه يندر أن يوجد أستاذٌ يمكن أن يفعل ذلك لطالبه، فأي إكرامٍ من أستاذٍ لطالبه، وأي نبلٍ، وأي فضل.

أما الموقف الثالث فكان بعد أن ناقشتُ رسالة الدكتوراه ونلت الدرجة ولله الحمد، وكنت أتابع المقالة الأسبوعية لأستاذي في ثقافية الجزيرة، فأثار اهتمامي مقال لأستاذي، وكتبت مداخلةً أناقشُ فيها المقال من وجهة نظري، وأرسلت المداخلة بالبريد الإلكتروني إلى أستاذي، وكنتُ قد كتبتها بصورة صالحة للنشر في الصحيفة نفسها، وكنت أرجو من أستاذي أن يطَّلِعَ على المداخلة أولًا، ثم يبدي رأيه في مناسبتها للنشر، وكان في نفسي أنني أستحيي أن أرسلَ المداخلة إلى الجزيرة الثقافية ولم يرها أستاذي قبل أن تُنشَر، ففوجئت بالمداخلة منشورة في العدد التالي، وكان الذي أرسلها إلى الجزيرة الثقافية هو أستاذي أبو أوس نفسه، وعلمت بعد ذلك من الدكتور النبيل إبراهيم التركي أنَّ أستاذي أبا أوس حين أرسل المداخلة إليه قال له: "إن لم يكن لهذه المداخلة مكان في العدد القادم فأرجو أن تنشروها في موقع مقالتي في العدد نفسه". وفي الحقيقة لم أستغرِب هذا الفعل من أستاذٍ آتاه الله بسطةً في العلم والفضل والنبل والخلق الكريم.

هذه المواقف الثلاثة الخالدة في ذهني غيرها كثير، ولكني أكتفي بما يسمح به المقام، وأجزم أن لدى طلاب أستاذي قصصًا ومواقف مشابهة حدثت لهم مع أستاذنا جميعًا، وأظن أنّي سأقرأ شيئًا منها في العدد التكريميّ نفسه إن كان بعض طلاب أبي أوس قد علموا بهذا العدد وشاركوا فيه.

وقبل أن أختم هذه الأسطر أتوجه بالشكر والتقدير للجزيرة الثقافية وجميع القائمين عليها وعلى رأسهم الدكتور إبراهيم بن عبدالرحمن التركي؛ لهذه اللفتة الكريمة في تكريم أستاذ كبير وعالم جليل يستحقُّ كل تكريم. وأسأل الله العظيم أن يجزي أستاذي أبا أوس عني وعن طلابه خير الجزاء. وأرجو أن يعذرني أستاذي أبو أوس إذا اطلعَ على هذه الأسطر كما عذرني في كل مرةٍ أُقصِّرُ فيها.



الإخلاص للعلم، والوفاء للتخصص*

أ.د. فريد بن عبد العزيز الزامل السليم
كلية اللغة العربية والدراسات الاجتماعية
جامعة القصيم

تتزاحم الأمانيُّ والمبادئ، وتتسابق الآمال والعوائق، ويتجاذب الطمع والطموح، يغري بريق المؤهل العالي فيبعث في النفس دوافع الظفر، فلا ينفك الأمل والبريق والرتب العالية والأوسمة والجوائز يدفع النفس المشرئبة، وينفخ في الروح المتطلعة حتى تبلغ ما تريد.

وما يلبث هذا الوهَج أن ينطفئ، وذلك التألق أن يخفت، لا لأنَّ المجال قد ضاق، أو لأن الروض قد رُعي، ولا لأن المشاريع قد كمُلت، ولكن لأن مراتب الترقي قد اكتملت، وبلغ الأمر منتهاه، حتى إن كان في العمر بقية، وفي كأس القوة سؤر.. فلا داعي (دنيوي)، ولا دافع من إخلاص للتخصص، ووفاء للعلم.

هذا حال كثيرين، ليس أبا أوسٍ إبراهيمَ الشمسان!

رجل بذل وبلغ، وأدرك وحصل، ثم ما يزال بعد ذلك يبذل ويجتهد، أخلص لتخصصه، فلم يتنكر كما تنكر آخرون تسنموا بتخصصهم الرتب فلم ينفعوه بعدها، أو نالوا المناصب فلم يذكروا عهدهم -وهو بضاعتهم- في قاعة الدرس، وبين رفوف المكتبة، وأشنع من ذلك من ولى وجهه طريقًا آخر، وأخذ يتهكم بالكتب الصفراء التي

(*) المجلة الثقافية، العدد ٥٧٦ - صحيفة الجزيرة - الرياض، السبت ٢٨ رجب ١٤٣٩هـ/ ١٤ أبريل (نيسان) ٢٠١٨م العدد ١٦٦٣٤.

أوصلته إلى تلك الأحرف التي يصدر بها اسمه.

أبو أوس علامة فارقة في صفحة النحو واللغة، زاوج بين القديم والحديث، وبين ارتياد الأعماق إشباعًا لنهم المتخصص، وتبسيط المغاليق إرضاءً للشداة المبتدئين، وعامة المتعلمين.

سيرته حافلة بالمنجزات، البحوث المحكمة، والتقارير، والمحاضرات الجامعية، والعامة، والمشاركات في المؤتمرات والندوات، والإشراف على الرسائل العلمية ومناقشتها، غير ما نفع عامة القراء به من المقالات الصحفية، والمدونات الإليكترونية، لم يدع سبيلاً للنفع إلا سلكه، ولا بابًا للبذل إلا فتحه.

وقد توَّج هذا الإخلاص للعلم، بخلق كريم، وتواضع يندر مثيله، لا يتكبر عن المعرفة أين كان مصدرها، ولا يتجافى عن الملحوظة مهما بلغت دُنوًّا أو عُلوًّا، مع تغافل عن زلات الآخرين، وموضوعية في تناول القضايا الشائكة.

وأذكر في هذا الصدد، موقفًا أعده من أمارات خلقه الرفيع، وتجرده للحق، وتغافله عن الزلل.

كتب أحد طلبة العلم مقالًا تعرض فيه لأبي أوس، واتهمه اتهامات باطلة، بناها على ظنّ، والظنّ أكذب الحديث، عدَّه من المتحاملين على التراث، الغاضين من شأنه، الذين ولَّوا وجوههم نحو المناهج المستوردة، فأفسدوا التراث لما تعرضوا له بالنقد، وكانوا معاول هدم لا بناء. . .

ظن ذلك الطالب أن أبا أوس من جملتهم، فكتب عنه عبر أحد

مواقع الشبكة ما لا يقال له، ولا يليق بمثله، ظنّ فأخطأ، وبنى على ظنه فظلم.

فتواصلت مع ذلك الطالب، وبينت له ما أراه في ذلك، وقلت له حسب أبي أوس إخلاصه للعلم، وتواصله معه، بلهَ أنه من أهل التراث الذين هم حماته، يحوطونه بعنايتهم، ويحفظونه ممن أراد به سوءًا، وإن كان لا يمجد تمجيد الجهلة، ولا يردد ترديد الببغاوات، ولا يقدس تقديس الغلاة.

فأجابني إجابة من لم يقتنع، مع أنه - ولا أظلمه - قد قال قولًا حسنًا.

ومضى على هذا الحديث بضع سنين، انتظم ذلك الطالب في الدراسة العليا، ونال درجة من درجاتها، وطبع رسالته، التي كانت مثار إشكال واستشكال، ناله ما ناله منها، فما كان من أبي أوس إلا أن تناول رسالته في إحدى مقالاته، وأثنى عليها، وأيده في بعض ما توصل إليه من نتائج، متغافلاً عما مضى، متجردًا للعلم، محبًّا لأهله.

هنيئًا لأبي أوس ما من الله به عليه، وهنيئًا لمن كانت له به آصرة، فهو حامل مسك، لا يعدم منه صاحبه نفعًا، طاب ذكره كما طابت رائحة المسك.



عَلَم من أعلام العربيَّة في بلادنا
(أبو أوس أ. د: إبراهيم الشّمسان)*

د. فهيد بن رباح بن فهيد الرَّباح
كلِّيَّة اللغة العربيَّة/ جامعة الإمام محمَّد بن سعود الإسلاميَّة

تحيَّة طيِّبة مطيَّبةً لكم معاشر القرَّاء الأكارم..

أبو أوس أد. إبراهيم بن سليمان الشمسان عَلّم من أعلام العَّربية في بلادنا المملكة العربيةِ السعودية، هو معدود من الطبقة الثَّانية من الأكاديميِّين في جامعات المملكة إذ أساتذته في الجامعة هم الطبقة الأولى، فهو من الرَّعيل الأوَّل، ومَن دأبه تيسير علوم العربيَّة وتقريبه إلى الأفهام للمبتدئين في دراسة العربيَّة ومَنْ في سمتهم، ولغيرهم فوق ذلك ودون ذلك، وكذا تقريبه لأَهل التخصُّص من زملائه ومريديه، وشاهدي على ذلك كتاباته ومؤلَّفاته العلميَّة، فهي ناطقة بذلك شاهدة على ذلك.

وكنت في مستهلِّ العام (١٤١٩هـ) معلِّمًا للغة العربيَّة في المرحة الثَّانوية، وكنتُ طُلَعَة في البحث عن دقيق الكتب ذات الاتِّجاه النَّحويِّ والصَّرفيِّ وجديدها، والصَّرف خصوصًا لدِّقَّته ولقلَّة الكتب مقارنه بكتب النَّحو الَّتي تطفح بها السَّاحة، وتمتلئ بها أرفف المكتبات، وقد وقعت على كتابٍ عنوانه (دروس في علم الصَّرف) ولم أكن أَعلم عن مصنِّفه شيئًا، وهُجَّيراي أن أنظر في محتوى الكتاب متنًا وعرضًا فإن وَجَد قبولًا

(*) نشر في جسور، مركز حمد الجاسر الثقافي، ع٢٨، رجب ١٤٤٣هـ.

عندي قنيته، وإلا فلا. وعندما سرَّحت النظر في كتاب (دروس في علم الصرف) وتصفَّحته، وجدته شاملاً لما يحتاج إليه معلِّم اللغة العربيَّة، وهو متَّسم بعرضٍ جديدٍ مطعَّم بعلوم حديثة من ذكر المقاطع ونحوها من علوم لغويَّات اللسانيَّات الحديثة، لا موغُل فيها ولا مُمحل منها، بل آخذ منها ما رآه خادمًا ومعينًا على التَّوضيح والإفهام؛ فكان كتابه هذا كتابًا مكينًا عندي، فحمدت له صنيعه، وأنا لا أعلم عن حال مؤلِّفه سوى ما هو مكتوب على عنوان كتابه "أستاذ في قسم اللغة العربيَّة وكلِّيَّة الأدب جامعة الملك سعود" لا فوق ذلك شيءٌ عندي عنه وقتئذٍ.

أبو أوس أستاذٌ قدير ذو مدرسة خاصَّة في التَّأليف وفي معالجته للمسائل اللغويَّة النَّحويَّة والصَّرفيَّة خصوصًا، ومثل هذا المنهج ظاهر في ما يكتبه من مقالات تطالعنا بها مجلَّة (الجزيرة الثقافيَّة)، ويكفي تصديقًا لذلك النَّظر في عناوين المداخلات اللغويَّة في زاويته الأسبوعيَّة (مداخلات لغويَّة)، وقد جمع منها قدرًا وافرًا ثمينًا في إصدارات أصدرها جاءت في ثلاثة كتبٍ نوافع هي : (مسائل نحويَّة، ومسائل لغويَّة، وشهادت ومتابعات)، إنَّ النَّاظر فيها يجد البراعة والإبداع في العرض والطَّرح، والتَّجديد في الأخذ والبَّسط، والتَّنويع في النَّظر السَّويِّ لا جمود في الطَّرح، ولا هتر في التَّجديد، بل كلُّ شيء باعتباراته وبرهانه، والاحتكام إلى أصول اللغة والنَّظر في القواعد مع عدم إغفال حياة اليوم كما أنَّه ناظر في الطُّروحات الحديثة والمدرسة اللغويَّة الحديثة.

وقد حضرت له عددًا من المناقشات العلميَّة والرَّسائل الأكاديميَّة، واستمعت لعدد غير قليل من اللقاءات والمحاورات العلميَّة، فكان ذا

سمت بيِّن، ورزانة قول، وهدوء لفظ وطبع يجلِّله العلم، ويكسوه الوقار، ومن عجيب ما مرَّ بي أنَّه في مناقشة رسالة علميَّة ذات شقَّين، أحدهما دراسة والآخر تحقيق، فناقش الطَّالب في الدِّراسة مناقشة فاحصٍ سابرٍ لدقائق الدِّراسة، وقد وقف مع الباحث وقفاتٍ على دقيق المعالجات أغفلها، أو جهلها، أو ضعف طرحه فيها. واكتفى بذلك؛ أي: بشقِّ الدِّراسة، واعتذر عن مناقشة الباحث في قسم التَّحقيق بأنَّه غير متخصِّصٍ فيه؛ أي: في التَّحقيق، وأنا أعجب من ذلك، فإذا كان غير متخصِّصٍ فيه فلم قبل المناقشة أصلاً، فهلاَّ اعتذر ابتداءً عن مناقشة هذه الرِّسالة! ويزول العجب إذا عُلم أنَّ المشرف على الرِّسالة من سدنة التَّحقيق والعناية به، وأهل التَّدقيق والمنازعة فيه، فعندئذٍ يهون الأمر، ويزول العجب؛ لأنَّه لن يأتي بجديدٍ ولا بدقيقٍ يفوت المشرف على الرِّسالة، ولا بشيءٍ ذي بالٍ، بل سيكون الأمر من تضييع الوقت وتطويل المناقشة فيما لا طائل فيه، وهذا ما لا يرضاه، وتأباه نفسه العلميَّة؛ إذا اعتذر من مناقشة التَّحقيق واكتفى بمناقشة الدِّراسة، ولعلَّه اعتذر من مناقشة الرِّسالة أصلاً، ولكن رغب إليه قصدًا أن يكون المناقش فيها، فلعله اشترط ذلك شرطًا.

وسمة عدم التَّطويل غالبة على أبي أوس، إذ يقصد إلى المتن مباشرة دون تطويل في المقدمات والحواشي والتَّمهيدات الَّتي تشتِّت الذِّهن عند المتلقِّي، وربما أذهلت المتحدِّث عن قصده وأصل حديثه، وعطفته إلى بنيَّات الطَّريق، وممَّا يتَّسم به في نقاشاته الهدوء التَّام ولين العبارة واللطف بها، فهو يجتنب شثن الألفاظ ووحشيِّها، وسيِّئ العبارات وجارحها، أو التَّهكم بإغفال المناقش، ومفاتشته بجهالته

وإبرازها، وذلك أنَّ مقصوده المعلوم لا العَلَم، والمكتوب لا الكاتب، والمحتوى لا الذَّات.

وحمادى القول في أبي أوس أنَّه مدرسة متميِّزة، وعلم من أعلام بلادنا، وطننا العزيز المملكة العربيَّة السُّعوديَّة، ومفخرة من مفاخر أهل العلم، وهو نسيج وحده في جمعه بين العتيق والجديد في دراساته، وكتاباته، ومؤلفاته.

عَلَمنا العزيز أبو أوس أد. إبراهيم الشَّمسان دمث الخلق، لطيف اللفظ، حسن المسامرة، يستخلص لك الفائدة، ولا يبخل عليك بما عنده، ولا يتعاظم نفسه عليك، بل حاله كقول الأوَّل:

ملأى السَّنابل تنحني بتواضعٍ والفارغات رؤوسهنَّ شوامخ

حفظ الله أبا أوسٍ ونفع به، وبعلومه، وكتبه، وبارك له في عمله وعمره، ووفقه لكلِّ خيرٍ. والحمد لله رب العالمين.

ودمتم في رعاية الله وحفظه وكلاءته معاشر القرَّاء.



شهادة في حق أبي أوس*

د. مباركة بنت البراء

عرفته في رحاب جامعة الملك سعود بحضوره المشهود وجهده البحثي الدؤوب، وأخلاقه العالية. فهو أبو الدرس اللغوي فيها بشهادة الجميع، شغله تمحيصًا وتنقيبًا وتأليفًا وأثراه إشرافًا ومتابعة للأطروحات، وأغناه بالبحوث الجادة وتحكيم الندوات محليًّا وإقليميًّا.

يشكل حضور طلبته في الجامعات السعودية حضورًا مشرفًا له بما أدى وأسدى من جهود بحثية وإشرافية جليلة.

هو من فتح المجال لأجيال كثيرة من الطلبة السعوديين وغيرهم للإيمان بتأسي شخصيته الوطنية في عطاءاتها المتنوعة ودفعه للاعتزاز بتراثها المجيد وحثه على مسايرة المناهج الحديثة.

يكفي أن تذكره في أي محفل علمي أو حضور طلابي لتنثال الكلمات ثناء عليه وللإشادة بجهوده. البحثية ومؤلفاته الرصينة، لقد تواضع لله فحباه سعة العلم ودقة الفهم.

والحديث عن أبي أوس إبراهيم الشمسان حديث ذو شجون، أقول ذلك وأنا أعي أن الحديث عن شخصية بوزنه ليس بالأمر الهين؛ شخصية تعدى حضورها المشهود الساحة الفكرية والثقافية محليًّا وامتد إقليميًّا ليلبي نهم طلاب العلم والمكتبات ومحركات البحث السيارة.

(*) المجلة الثقافية، العدد ٥٧٦ - صحيفة الجزيرة - الرياض، السبت ٢٨ رجب ١٤٣٩هـ/ ١٤ أبريل (نيسان) ٢٠١٨م العدد ١٦٦٣٤.

من المفروض في شهادة عن أبي اوس أن نتوقف عند عطائه في جامعة من أعرق الجامعات عربيًا وأن نستعرض مؤلفاته الناصعة في لغة الضاد تأصيلاً وتفصيلاً، وفي المجالات المحايثة لها دراية وتوثيقًا.

نعم ذلك ما تقتضيه الموضوعية حين الحديث عن شخصية أكاديمية بوزنه؛ ولكن أليس هذا تحصيل حاصل وترديدًا لما سُطر في سيرته الذاتية الغنية وفي مصنفاته المتوافرة لدى المكتبات ومراكز البحث في الجامعات.

من نافلة القول التأكيد على هذا فالقائمة تطول وللقول متسع في المجال.

لكني بوعي سأعدي عن هذا المسار الموثق لأطل من شرفة أخرى تتسم بالحقيقة؛ ولكنها تشرع أبوابها على معاينات اقتضتها صداقتي مع زوجه الغنية عن التعريف أ.د. وسميه المنصور، وذلك لما يربو على عقد من الزمن، فقد كنت في نفس الجامعة التي يعملان فيها ويشكلان علامة من علامات تميزها وفرادتها.

نعم عرفته من خلال زوجه تلك السيدة التي تحتضن الكل معارف وجيرة وأصحابًا وأحبابًا برحابة صدر ووافر بذل وامتلاك لأسباب الإمتاع والمؤانسة والألفة.

كنت وغيري من الأستاذات المتعاقدات في الجامعة ضيوف الأسرة في مناسبة وغير مناسبة، في كل رمضان ومع بدء كل عام دراسي وبين هذا وذاك.

وكان أ.د. أبو أوس يتلقانا في بيتهم العامر بالبشر والحفاوة. متسمًا

بوقاره العلمي وجوده الحاتمي.

ولا يبخل علينا بالإفادة من معارفه واستشاراته في كل ما يشغلنا من أمور البحث والتدريس، لم يتوان في تقديم الإرشاد والنصح السديد.

نحس مع الأسرة دفء العودة إلى الأهل والوطن ونرجع من عندهم محملين بالطمأنينة والهدايا ولسان حالنا يقول:

ودعته وبودي لو يودعني صفو الحياة وأني لا أودعه

ولعلي سأخرج على أعراف الشهادات بحق الأعلام وأطلق لنفسي العنان لأطل من نافذة الشعر وأتخذ منها متكًا صدقًا لما أقول عن أبي أوس:

حروفي عن أبي أوس أبيني ... وإلا عنكِ سيدتي دعيني
أبيني عن معارفَ واسعات ... وعن فهم دقيق مستبين
وعن بحث ينقب فيه عما ... تناثر في المراجع من دفين
وعما فيه من كرم ونبل ... وعما فيه من تقوى ودين
أبيني كل ذلك وانشريه ... وفيه لو سمحت فأنشديني
رأيتُ عرابةَ الأوسيّ يسمو ... إلى الخيرات منقطع القرين
إذا ما راية رفعت لمجد ... تلقاها عرابة باليمين



أبو عمرو بن العلاء البصري (١٥٤هـ)
وأبو أوس إبراهيم بن سليمان الشمسان*

أ.د. محمد خير البقاعي
كلية الآداب - جامعة الملك سعود

قال ابن خلكان عن أبي عمرو: «كان أعلم الناس بالقرآن الكريم والعربية والشعر، وهو في النحو في الطبقة الرابعة من علي بن أبي طالب». [وفيات الأعيان ٣/ ٤٦٦].

اشتُهر بالفصاحة، والصدق، والثقة، وسعة العلم، والزهد، والعبادة، وكان من أشراف العرب، مدحه الفرزدقُ وغيرُه، وورد أنَّه كان يختم القرآن في كلِّ ثلاث. واختلف في اسمه لقلة ما كان الناس ينادونه به لهيبته وجلالة قدره فغلب عليه لقبه.

وصديقنا النحوي اللوذعي البارع أبو أوس عرفته قبل وفودي إلى المملكة العربية السعودية من خلال كتابه وكتاباته فلما لقيته كَذَّب الخبرَ الخُبْر. كنت أراه أيام كان قسم اللغة العربية وآدابها في جامعة الملك سعود يعج بفطاحل جيل من الأساتذة تركوا بصماتهم بعلمهم وأخلاقهم وحبهم لبلدهم وحكومتهم، وإخلاصهم في خدمة العلم واحترامه، كنت أراه، وهو يعبر الممر المؤدي إلى مكتبه بتؤدة فلا أعرف إلا أنه أبو أوس الشمسان من أسرة كريمة، ومحتد أصيل، يلقي تحيته فتشعر أنها مشحونة ودًّا وصدقًا، وتستمع إلى تعاليقه ومحاضراته فتجدها تنضح

(*) المجلة الثقافية، العدد ٥٧٦ - صحيفة الجزيرة - الرياض، السبت ٢٨ رجب ١٤٣٩هـ/ ١٤ أبريل (نيسان) ٢٠١٨م العدد ١٦٦٣٤.

تواضعًا وعلمًا، أبو أوس لا يعرف سوء الظن إلى نفسه سبيلاً، يفترض حسن النية ويتعامل من هذا المنطلق، يغضب للحق، ويكره التملق والكذب. ولو رأيت تعامله مع طلابه لشهدت عجبًا، يحنو حتى كأنه أب رحوم، ويشتد للعلم والجد، كيف له وهو يُسمي نفسه "المعلم" في إعلاناته وأحاديثه. وليس ما ذكرناه بدعًا في حياة أبي أوس بل كان هذا ديدنه طالبًا؛ إذ يقول أستاذه الأستاذ الدكتور محمود فهمي حجازي في تقديمه لطبعة رسالته في الماجستير (الجملة الشرطية عند النحاة العرب، ١٤٠١هـ/ ١٩٨٣م، ص٩): "لقد عرفت صاحب هذا الكتاب عند بداية دراسته اللغوية العليا في كلية الآداب بجامعة القاهرة، فكان مزودًا بخير ما يعرفه المتخرجون الجادون في قسم اللغة العربية بجامعة الرياض (الملك سعود). وسار الأستاذ إبراهيم سليمان الرشيد الشمسان في درب العلم لا يعرف الملل ويسعد بالتدقيق وراء المصطلح النحوي، وبالبحث في الفكرة الجزئية هادفًا إلى تجاوز هذا كله إلى الرؤية الشاملة لتراثنا وإلى معرفة نحو العربية في عمق وموضوعية".

إن هذا النص يختصر مسيرة أبي أوس الذي أثرى المكتبة اللغوية العربية بدراسات نحت نحو الصرامة العلمية والأسلوب الماتع والمصطلح المضبوط. وإذا أعملت النظر في كتبه التعليمية وجدت سلاسة في العرض ووضوحًا في الفكرة ودقة في المصطلح.

ليس من السهل تتبع القضايا النحوية المتفرقة في كتب النحو؛ لأن ذلك يحتاج في المقام الأول إلى معرفة المصادر والمراجع وأماكن معالجة القضايا ثم اختيار منهج معين لسلكها في عقد يتلقاه الباحثون والطلاب بيسر وسهولة، وهذا ما فعله أبو أوس في دراساته التي تناول

فيها بعض تلك القضايا، مثل: قضايا التعدي واللزوم في الدرس النحوي(١٤٠٧هـ) حيث يقول: "وربما باشر النحويون درس القضية في فصول خصصت للتعدي واللزوم - على نحو ما فعل سيبويه - أو عرضوا لها في درس الفعل أو درس المفعول به. على أن جملة القضايا المتصلة بالتعدي واللزوم نجدها مفرقة في تضاعيف المطولات النحوية. ويحاول هذا الكتاب - ما أمكننا - جمع هذه القضايا في حيز واحد والاجتهاد في تصنيفها. ولهذا الصنيع أهمية في نظرنا؛ وهي مناقشة بعض القضايا والخلوص فيها إلى رأي".

إن الهم المنهجي والتعليمي التربوي كان ديدن أبي أوس، وإن مسألة التوفيق بين منهج النحويين وطريقة معالجتهم القضايا وبين الهم التعليمي لدى أبي أوس ينبع من عقلية لغوية بامتياز، واهتمامه بالتعليم يبدو من خلال كتبه التعليمية التي قرب فيها المعضل، وجمع شتات المتفرق، ووفق فيها بين ما يبدو أنه متضاد. إن أبا أوس ثروة لغوية وأخلاقية، ومنجم خبرة ينبغي أن يُستفاد منه في التنظير للنحو العربي لنقله من الهجر على ألسنة الطلاب والأساتذة إلى الاستئناس والقياس.

ولا تغيب الميول الأدبية عن أبي أوس فنجده يعالج جوانب من الشعر والأمثال واللغة في مسقط رأسه المذنب (الشعر المعجب في أدبي المذنب)، (من الأمثال والكنايات في المذنب)، (معاني بعض الأماكن في محافظة المذنب). وعندما باشر أبو أوس كتابة زاويته في صحيفة الجزيرة وجد المتابعون فيها مادة علمية جادة تعالج موضوعات دقيقة وتعرض كتبًا مهمة بأسلوب واضح يتسلسل منطقيًا من العرض إلى الحكم والتقويم.

لأبي أوس مشاركات معجمية وحوارات علمية وأفكار تنظيرية

احتوتها بحوث كتبها بصفاء ذهن ووضوح فكرة فجاءت مؤدية الغرض الذي أنشئت من أجله.

ولا أود أن يفوتني الجانب الإنساني في شخصية أبي أوس وهو جانب ينبع من إحساسه العميق بالآخرين واحترامهم، وتجلى ذلك في تعاملاته مع زملائه واحترامه لأساتذته في كل المراحل وتسقط أخبار من تركوا في شخصيته آثارًا لم ينسها ولم يتنكر لها، فكتابه عن الجملة الشرطية (الماجستير) مهدى لأستاذه من السودان الشقيق عبد القادر محمد محمد علي جزاء ما ثقفه من علمه وأدبه، وله معه قصة يرويها زملاؤه رمزًا للوفاء قولاً وفعلاً. ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾﴾ [آل عِمرَان: ٩٢].

ما زال أبو أوس مد الله في عمره يقطع الممر أمام مكتبي بصحة واتزان نرجو من الله أن يمنحه الصحة والعافية، وإذا استعرضت ما على باب مكتبه من إعلانات للطلبة أو راجعت موقعه الإلكتروني اكتشفت العقلية المنظمة وحب الفائدة لطلابه وزملائه، وإذا استفتاه أحد من طلابه أو زملائه بادر إلى القول بما يعرف بوضوح فكر وعقلية تعليمية نادرة. رد من ترجموا لأبي عمرو بن العلاء الخلاف في اسمه إلى أن هيبته وفضله كانت تمنع الناس من مناداته باسمه، بل بكنيته، حتى حَدث الْأَصْمَعِي قَالَ: أَبُو عَمْرو بن الْعَلَاء اسْمه أَبُو عَمْرو لاَ اسْم لَهُ غَيره. وأبوأوس بقياسيته ومنهجيته ووقاره يذكرني بما روي في سيرة أبي عمرو رحمه الله. بارك الله لأبي أوس في علمه وصحته وأسرته وأهله ومد الله في عمره لخدمة لغة القرآن، ولرعاية طلابه والله ولي التوفيق.



إبراهيم الشمسان [أبوأوس]

الكشاف المضيء في دهاليز اللغة المظلمة!*

محمد عبد الرزاق القشعمي

عرفت الأستاذ الدكتور إبراهيم بن سليمان بن رشيد الشمسان بمركز حمد الجاسر الثقافي الأسبوعي منذ عرفت طريقي إليه قبل عقدين من الزمن، وغلبت كنيته على اسمه، إذ لا يدعى باسمه فقط بل أصبح يختصر إلى أبي أوس الشمسان، فكنت أُبكِّر في حضور خميسية ثم سبتية الجاسر لأحظى بالحديث مع من يبكرون بالحضور مثل أبي أوس. وبدماثة خلقه وسمو مشاعره وواسع علمه ومعرفته وبساطته فإنك سريعًا ما تندمج معه بالحديث في الأمور الثقافية العامة. وبعد حصول ابنه أوس على الدكتوراه أصبحت أراهما معًا، وشارك الأب والابن في محاضرات ومناسبات علمية عديدة، الأب في اللغة، والابن في علوم الصيدلة وتقنية النانو.

وكنت قد وفقت لحضور عدد من مشاركاته العلمية، فقد حضرت مهرجان عنيزة الثقافي الثالث قبل نحو عشر سنوات، وكانت له مشاركة في ندوةٍ عن اللغة العربية مع الدكاترة محمد الهدلق وعبدالله الوشمي، وغيرها من المشاركات. وفاتني حضور بعض المناسبات العلمية التي شارك فيها، فلم أستطع حضورها، رغم حرصي على الحضور، ومنها مناقشة رسالة الدكتوراه للدكتور علي المعيوف؛ لقرب الثاني – ابن

(*) نشر في مجلة اليمامة العدد – ٢٧١٥ – السنة الواحدة والسبعون – الخميس ٠١ ذو الحجة ١٤٤٣هـ – الموافق ٣٠ يونية – ٢٠٢٢م.

أختي - ولمحبتي للاثنين، وكان أبو أوس مقرر لجنة المناقشة والمشرف على الرسالة، وحسب علمي فقد نشأت بين الطالب وأستاذه علاقة عميقة فيها كثير من الاحترام والتقدير المتبادل، وكنت كلما تحدثت مع ابن أختي الدكتور علي عن أستاذه أبي أوس سمعت منه عن أستاذه ثناء هو أهله كما عرفت عنه، وتتجلى لي صفات أخرى فيه لم يكن لي فرصة معرفتها مباشرة فهي مرتبطة بعلاقته مع طلابه في الجامعة، إذ يذكر الدكتور علي أن أستاذه أبا أوس ليس مجرد أستاذ يلقي العلوم لطلابه ثم ينتهي الأمر به إلى هذا الحد، بل إنَّه يرعى طلابه رعاية بالغة، وعلى وجه الخصوص طلاب الدراسات العليا، وهو لا يرجو من ذلك إلا أن يواصل طلابه خدمة العربية وعلومها وتعليمها. وحكى لي الدكتور علي قصصًا ومواقف له ولزملائه مع أستاذهم أبي أوس يقصر المقام عن سردها في هذه المقالة، ولكن ما نقلته مما كتبه طلاب أبي أوس عنه يُفصح عن بعض مضامينها.

وبعد الجائحة وعودة الحياة إلى طبيعتها أصبحت أحضر سبتية الجاسر، وإذا لم يكن أبو أوس بين الحضور أتصل به لأطمئن عليه، فكان يبادلني المشاعر، وكنت أبعث له بعض ما ينشر لي من مقالات أو كتب فكان يبادر بالإجابة كتابيًا وهاتفيًا ويشيد ويشكر ويبدي ملاحظاته إذا دعا الأمر إلى ذلك.

وأنا أُعد للجزء الرابع من محاولاتي المتواضعة في تراجم شخصيات بارزة ذات عطاء وحضور مميز في مجالاتهم وتخصصاتهم ممن يراهم البعض في الظل، وجدت رموزًا لم يأخذوا حقهم، إذ لم يكتبوا عن أنفسهم، ولم يُكتب عنهم ما يكفي، مثل الدكاترة: محمد

الشامخ، وأبي أوس الشمسان، وآخرين لا يقلون عنهم، فعزمت على الكتابة، وتوكلت على الله.

أبو أوس من مواليد محافظة المذنب بمنطقة القصيم، ولد في عام ١٣٦٦هـ/ ١٩٤٧م. وقد خصص مركز حمد الجاسر الثقافي العددَ الثامنَ والعشرين من نشرته (جسور) للحديث عن أبي أوس الشمسان؛ فأحببت أن أستشهد بما ذكره عنه محبوه، ولأستفيد مما قال عنه زملاؤه الذين زاملوه في الدرس والتدريس، ولعلي أبدأ بالأستاذ الدكتور مرزوق بن تنباك زميله في القسم نفسه الذي قال عنه: ".. وأبو أوس.. هو من القلة الذين تضع لهم أكثر من مكان في نفسك على المستوى الشخصي وعلى المستوى العلمي وعلى المستوى الاجتماعي، وفي كل موقع من هذه المواقع الثلاثة تجده يتميز بالهدوء والسكينة وحسن الصلة مع كل من يتعامل معه من الزملاء والإخوان وعامة الناس وخاصتهم".

وقال عنه الدكتور جاسر الحربش صديقه وصهره: "لا نعرف قدر من يضع الصمت في محله المناسب إلا أن يتحدث فنتمنى ألا يسكت... لن يختلف معي أحد يعرف الشمسان على أنه من الفرقة الناجية، وأعني المتمكنة من العلم الواسع وموهبة التبسيط وحكمة الصمت البليغ إذا تحدث..".

وتصفه الأستاذة الدكتورة وسمية بنت عبدالمحسن المنصور - أم أوس - بأنه العالم، الباحث، الإنسان. "أخلص أبو أوس للبحث العلمي الجاد، فوهبه وقته وجهده وأنسه، فهو ممن لا يشده مجلس أنس أو صالة ترفيه، لأنه خاص مخلص لصحبه: سيبويه والفراء وابن جني والسهيلي... فهو معنيّ باللغة مشغوف بنحوها وصرفها،

ومعجمها ولهجاتها، وتأصيلها وتغيراتها، فهذا هو شاغله ليله ونهاره في حله وترحاله. . . هذا الجانب تتحدث عنه صحبة قاربت نصف قرن عرفت فيها الشمسان رجلاً صادقًا إذا وعد وفى، وإذا استُخبر في مسألة أجاب، عميق الإحساس، سريع التأثر بوهج المشاعر الإنسانية. . . رجل هادئ غير صاخب، عفيف اللسان، بعيد عن البذاءة حتى في أشد حالات الغضب، كتوم لا يتحدث عن أمر ما لم يسأل عنه. . . لا يتوانى في تقديم النصح والإرشاد لطلابه. . يتفقدهم ويسأل عن أحوالهم، وينهض دون تردد لمساعدتهم. . . ".

ويقول الدكتور راضي الرويلي وهو أحد طلابه: " . . . فإذا ما تذكرت الدكتور الشمسان وصعّدت النظر في سيرته وآثاره وصوبته وجدت الحكمة ملء ثيابه، والجد حشو إهابه، لا تزال يده مبسوطة بالعلم والبذل والنفع والنصح لطلابه، من عرف منهم ومن لم يعرف، وينفق الساعات من وقته في سبيل ذلك، وهو من أحسن الناس عشرة، لم يكن للملالة طريق إلى نفوسنا أثناء محاضراته. . لم تزل جسور المحبة والتواصل ممدودة بينه وبين كثير من طلابه. . . ".

وللدكتور سعد المحمود - أحد طلابه - قوله: " . . . إن مما لحظته في منهج أستاذنا أبي أوس في منهجه العلمي، التزامه بالأمانة العلمية التي قد غفل عنها بعض الباحثين بل العلماء. . . أما منهجه في الإشراف العلمي فكان يعطي الطالب حرية للتعبير عن رأيه من غير اعتراض، حتى وإن خالف الطالبُ أستاذَه في رأيه، بل ربما أثنى عليه في المناقشة في مسألةٍ خالفه فيها. . . إن علاقةً بأستاذ كأبي أوس كفيلة بأن تكسب الطالب مفاتيح العلم، وأدوات البحث، فهو العالم الباذل،

والباحث الناقد، وهو بحر النحو. . . ".

وقال الدكتور فهد الرباح: ". . . أبو أوس أستاذ قدير، ذو مدرسة خاصة في التأليف وفي معالجته للمسائل اللغوية النحوية والصرفية خصوصًا، ومثل هذا المنهج ظاهر فيما يكتبه من مقالات تطالعنا بها مجلة (الجزيرة الثقافية). . . وقد حضرت له عددًا من المناقشات العلمية والرسائل الأكاديمية، واستمعت لعدد غير قليل من اللقاءات والمحاورات العلمية، فكان ذا سمت بيِّن، ورزانة قول، وهدوء لفظ، وطبع يجِلُّ العلم ويكسوه الوقار. . . وحمادى القول في أبي أوس أنه مدرسة متميزة، وعَلم من أعلام بلادنا، ومفخرة من مفاخر أهل العلم، وهو نسيج وحده في جمعه بين العتيق والجديد في دراساته وكتاباته ومؤلفاته. . . ".

أما الأستاذ الدكتور محمود أحمد نحلة، وهو أحد علماء اللغة الذين زاملوا أبا أوس في قسم اللغة العربية وآدابها في جامعة الملك سعود، فيقول: "من عرف أبا أوس كما عرفته سنين عددًا، وقرأ له من نتاجه العلمي ما قرأت يدرك أن الرجل اجتمعت فيه خصلتان من الفضائل ما اجتمعتا في أحد من أهل العلم إلا حاز بهما قصب السبق، وأوفى على الغاية: ملكة إبداعية، وفكر ناقد. . . هذا رجل وهب نفسه للعلم فرفع الله به قدره، وأعلى شأنه، وأنبه ذكره، وجعله نموذجًا يحتذى للعلماء العاملين، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم".

ويختتم الدكتور إبراهيم التركي مقاله في أبي أوس (المتدثر بجمال النفس) ". . . فأبو أوس اختط منهجًا رائدًا في تيسير النحو من غير أن ينأى عن التأصيل أو يغرق في التفصيل، فاكتسب إعجاب شداة النحو

وشيوخه. . . جمع العلم والخُلق فصار بهما رقمًا أكاديميًا وإعلاميًا وثقافيًا واجتماعيًا يستحق التكريم والاحتفاء. . . ".

ويختتم الدكتور عائض الردادي كلمته في أبي أوس بقوله: "إن الدكتور الشمسان ذو علو في معرفته باللغة، وفي مؤلفاته، وفي علوم اللغة، مما جعله واحدًا من علماء اللغة العربية المميزين علمًا وتأليفًا، زانهما تواضع العلماء ورزانتهم".

وقال عنه الأستاذ الدكتور سعيد مصلوح الأستاذ بجامعة الكويت: " . . . وإني لأشهد أنه على كثرة ما تداولنا من حديث وما تطارحنا من حوار، أني ما سمعته يذكر غائبًا بما يكره في علم أو خلق أو دين، فهو من الذين لا تعرف الكلمة الخشناء أو العوار إلى لسانه سبيلاً، هذا إلى تواضع وخفض جناح يعز نظيره، فهو دائمًا كما وصفته بحق ذات مقال: رجل راض نفسه على طلب الحقيقة، غير حفول بالتوافه، لا يسترشي مدحًا من أحد، ولا يعبأ بتكثير السواد على البياض في غير منفعة ولا عائدة، بل يوجدك مبتغاك من أقصر طريق، ولا ينتهي إلى رأي حتى يتخيره بانتقال لطيف من الجلي إلى الخفي، واستدلال بالظاهر على الغائب، ثم إنه إلى ذلك عالم حقِّي يهضم نفسه، ولا يتمزّى بعلمه على أحد من الخلق. . . ".

ويُختتم الملف بكلمة الدكتور عبدالله العريني بقوله: " . . . هو العين في اللغة، والكبير في التعامل والوفاء لمحبيه وزملائه. . امتلك من الخصائص ما ميزه عن غيره، فأدرك سر الصناعة اللغوية من أوسع أبوابها، حتى غدا الكشاف المضيء في بعض دهاليز اللغة المبهمة. . . ".

وترجم له أحمد سعيد بن سلم في (موسوعة الأدباء والكتاب السعوديين خلال مائة عام) فقال: " . . . تدرج في التعليم حتى حصل على البكالوريوس في الآداب من جامعة الرياض (الملك سعود) عام ١٣٩٤هـ وعلى الماجستير في الآداب من كلية الآداب جامعة القاهرة عام ١٣٩٩هـ وحصل على الدكتوراه من نفس الكلية عام ١٤٠٥هـ، عمل معيدًا في كلية الآداب جامعة الملك سعود عام ١٣٩٣هـ، ثم أستاذًا في قسم اللغة العربية في نفس الكلية منذ عام ١٤٠٥هـ. له اهتمام بما يدور في الساحة الثقافية، واهتمام بالأبحاث اللغوية، وله مشاركات في البرامج الإذاعية، وقد نُشرت له بحوث ومقالات في مجلات سعودية. . وذكر من أهم مؤلفاته: الجملة الشرطية عند النحاة العرب، وأبنية الفعل دلالاتها وعلاقتها، وحروف الجر. . دلالاتها وعلاقاتها".

وضمن السيرة العلمية والعملية لأبي أوس، ورد أن كتبه المنشورة ٢٦ كتابًا و٢٤ بحثًا، مع حضوره ومشاركاته في الندوات والمؤتمرات وورش العمل، وجملة من المشاركات العلمية منها:

- إعداد موسوعة السلطان قابوس لأسماء العرب، خبيرًا عن المملكة العربية السعودية.
- الموسوعة العربية العالمية، مستشارًا لغويًا، وكاتبًا لبعض مداخلها.
- موسوعة الملك عبدالعزيز.
- معجم طلاب المرحلة المتوسطة والثانوية.

متعه الله بالصحة والعافية وطول العمر.



لماذا دمعت عينا «أبي أوس»؟*

د.محمد بن عبدالله المشوح

في يوم الثلاثاء التاسع من شهر ربيع الآخر من عام ألف وأربعمائة وسبعة وثلاثين للهجرة، كان لـ(الثلوثية) موعدٌ مع الأستاذ الدكتور أبوأوس إبراهيم الشمسان، وكان هذا اليوم قد تأخَّرَ لعدم الموافقة الأولى من الضيف الكبير اللغوي الشهير الباحث المعروف الأستاذ الجامعي الدكتور إبراهيم الشمسان.

عندما ظفرتُ بموعدٍ من أستاذنا الكبير أبي أوس، كان ذلك يومًا مشهودًا من ليالي الثلوثية الَّتِي لا تُنسى؛ ذلك لأن الدكتور إبراهيم من الَّذِينَ يتمنَّعون كثيرًا عن الاحتفاء والتكريم، فكم دُعي إلى مناسبةٍ يكون فيها الضيف والمُحتفَى به، ثُمَّ يعتذرُ ويتمنَّع بكل لطف ولباقة.

وهكذا فعلَ معي إلاَّ أنني استطعتُ - بحمدِ الله وفضلِه - أنْ أُكثِرَ عليه من الإلحاح والإلزام، حتى وافقَ أخيرًا وسط حفاوةٍ بالغةٍ وترحيبٍ كبير من زملائه وأصدقائه وتلامذته الكُثر.

لا أنسى إذا تحدثنا عن ليلة الاحتفاء والتكريم الَّتِي حظيت بها الثلوثية للأستاذ الدكتور إبراهيم الشمسان، تلك العَبرات والدموع الَّتِي سكبها وهو يتحدث عن أحد أساتذته المعلم السوداني عبدالقادر محمد محمد علي، الَّذِي قدمَ إلى (المذنب) تلك المدينة الصغيرة آنذاك في

(*) المجلة الثقافية، العدد ٥٧٣ - صحيفة الجزيرة - الرياض، السبت ٧ رجب ١٤٣٩هـ/ ٢٤مارس (آذار) ٢٠١٨م العدد ١٦٦١٣.

منطقة القصيم، معلِّمًا للغة العربية.

وكان إبراهيم الشمسان (التلميذ) يتلقى مبادئ التعليم الأولى في مرحلته المتوسطة على يدِ هذا الأستاذ الَّذِي حفَّزه ورغَّبه وحبَّب إليه لغته العربية الفصحى.

بعد أكثر من خمسة وأربعين عامًا لمْ ينسَ هذا الوفي الحفي الدكتور إبراهيم الشمسان معلمه الأَوَّل الَّذِي كان لديه المفتاح الأَوَّل لمحبة وعشقِ إبراهيم الشمسان للغة العربية، فبحث عنه، وأوصى، وتابعَ، ولاحقَ هذا الاسم في المملكة العربية السعودية وفي السودان، وأوصى الكثير من الأصدقاء والمحبين للبحث عن هذا الشخصِ.

وفي الأخير عثرَ عليه وعلى أسرته، ثُمَّ تُوفي أستاذه، ولمْ يقف عند هذا الحد الوفي الحفي إبراهيم الشمسان، إنما تواصلَ مع أسرته وتعهد لهم بإقامة مشروعٍ استثماريٍّ تجاري، يعود رَيْعُه على تلك الأسرة الَّتِي لا ينسى فضْلَ أستاذها وربانها عليه.

في الحقيقة أنَّ الحديثَ عن إبراهيم الشمسان حديثٌ متعددٌ ومُتشعِّبٌ، لكنَّ من أجمل تلك اللحظات الَّتِي سعدتْ بها الثلوثية في تكريم والاحتفاء بإبراهيم الشمسان هي وفاؤه لأساتذته وشيوخه.

وهذا ملمحٌ مهم كنتُ أحاول جاهدًا أنْ أكسرَ به رفْضَ العديد من الشخصيات العلمية والثقافية الَّذِينَ يأبون ويرفضون الاحتفاء والتكريم، وأقول لهم: إنني لا أريدُ أنْ تتحدث عن شخصك وذاتك، لكنها قد تكون فرصةً للحديث عن أساتذتك وشيوخك، ومَن لهم تأثيرٌ في حياتكَ العلمية والعملية والثقافية ومن لهم حق عليك.

والبعضُ منهم -ولله الحمدُ- يجدُ أنَّ ذلك تنبيهًا مهمًّا وفرصةً سانحةً؛ لردِّ بعضٍ من الجميل لأساتذةٍ وشيوخٍ كان لهم فضلٌ ومقام وحظوة في مسيرة الضيف المتحدث.

والدكتور إبراهيم الشمسان هو أحد أولئك القلائل من الأوفياء الَّذِينَ لم يمرَّ عليه اسمٌ من أسماء أساتذته وشيوخه إلاَّ توقَّف عنده ذاكرًا وشاكرًا ومُثْنِيًا ومُبَجِّلاً ومُعظِّمًا لهم، يُقدِّرهم حقَّ قدرهم، ويُقِيم لهم وزنهم اللائق بهم، بدءًا من أستاذه ذلك المعلم السوداني مُعلِّم اللغة العربية في المذنب، وانتهاءً بأساتذته في الجامعة، مرورًا بالدكتور أحمد الضبيب، والدكتور محمد لطفي الصبَّاغ «رحمه الله» الَّذِي خصَّه بمقالةٍ خاصة.

وهو لا يتردد مطلقًا في الكتابة عن أي راحلٍ من زملائه وأصدقائه وأساتذته، يذكر مآثرهم، ويُشنِّفُ الأسماعَ بأخبارهم الجميلة؛ وذلك من الوفاء الَّذِي اشتهرَ به الدكتور إبراهيم الشمسان «حفظه الله».

في الحقيقة أنني أجدُ أنها فرصة في هذا الملف الثقافي المُميَّز الَّذِي تنهض به الثقافية في جريدة الجزيرة، وهي الَّتِي عوَّدتنا دائمًا على التكريم والاحتفاء بالعديد من الشخصيات الثقافية الَّتِي تستحق ذلك.

والدكتور إبراهيم التركي حفيٌّ وفيٌّ كذلك بالعديد من الشخصيات الَّتِي كان لها دورٌ في مشهدنا العلمي والثقافي.

وأجدُ أنها فرصةٌ كذلك للحديث عن أستاذنا الكبير الدكتور إبراهيم الشمسان الَّذِي من المصارحة في الحديث عنه أنَّ البعض لا يعرف عن شخصية إبراهيم الشمسان، سوى ذلك الشخص العالِم الجليل المهيب

الَّذِي غاص حتى أذنيه في العِلم والعربية وعلومها ومصارفها وكتبها وكنوزها، جادٌّ في حديثه، مُغرَمٌ بالعلم في كل حياته، ليس له همٌّ ولا شأنٌ إلاَّ الدفاع عن عربيته الأصيلة، ورد الشُّبَهِ الَّتِي تُثار حول لغتنا العربية الفصحى.

لكنَّ الدكتور إبراهيم الشمسان له وجهٌ جميل آخر، لا يُدْرِكه إلاَّ مَنِ اقتربَ منه، إنَّه ذلكم الشخص الرقيق الَّذِي مُلِئَ خُلقًا وفضلاً ونبلاً، يأسركَ بابتسامته ولطفه وعطفه بكل ما تحمله هذه الكلمات من معنى.

وهو حَيِيٌّ كذلك رغم مكانه، وحينما يتحدث إليكَ، حتى وإنْ كنتَ أحد تلامذته، تجدُ الإصغاء التام، وتجد نظرات عينية الَّتِي يملأهما الحياءُ والرفق واللين والخُلق الرفيع.

وإنْ نسيتُ في هذا المقام فلا أنسى موقفه الشخصي النبيل حيثُ قدَّم كتابه الضخم العظيم، هذا الكِتاب النفيس، وهو (معجم أسماء الناس).

هذا المعجم المميز الَّذِي أفنى فيه عمره ووقته من أجل إخراج هذه الفوائد الرائعة الجميلة حتى خرج بهذا الثوب الجميل القشيب، يُنبيكَ عن هذه السَّعة العلمية اللغوية في تتبع أسماء الناس، وردها لأصولها ومصطلحاتها ومكنونها وفصيحها وعاميها، ومعاني تلك الأسماء ودلالاتها.

وليس الحديث عن الكِتاب وما يتضمنه من معلومات فائقة، وتفاصيل علمية دقيقة، لكنني أتوقفُ عند نقطةٍ هامة تنبيكَ عن هذا القلبِ الكبير النبيل، وهو إهداؤه الكتاب لشيخنا العَلاَّمة محمد بن ناصر

العبودي، وتفاجأ شيخنا الشيخ محمد بن ناصر العبودي بأنَّ هذا الكِتاب قد أُهدي إليه، بل إنَّ هذا العمل برمته أهداه المُؤلِّف في أولى صفحات الكِتاب إلى الشيخ محمد العبودي. وذلك بلا شك ينبئ عما يحمله الدكتور إبراهيم الشمسان من نبلٍ نادرٍ، قلَّ نظيره.

فكان موقفًا وفائيًّا مهمًا من الأستاذ الدكتور إبراهيم الشمسان مع شيخنا العَلاَّمة محمد بن ناصر العبودي، في إهدائه لهذا الكتابِ.

والحديثُ كذلك عن الدكتور إبراهيم الشمسان حديثٌ يطول؛ لأنك تتحدثُ عن شخصيةٍ علميةٍ مميزة، كان له أدوارٌ عديدة في كلية الآداب بجامعة الملك سعود، وتتلمذ على يديه العديد من الشخصيات الَّتِي كان لها أثرٌ بارز في الحياة العلمية والعملية في المملكة العربية السعودية. وكذلك إنَّ البعض قد لا يدرك أنَّ العديد من الشخصيات الَّتِي مرَّت على الدكتور إبراهيم الشمسان، دائمًا تذَكَّر فضله، ونبله، وتواصله مع الناس.

وفي الختام، أجد نفسي شاكرًا ومثنيًا على الدكتور إبراهيم الشمسان على هذه الأعمال العلمية النبيلة الَّتِي دائمًا يتحفنا بها، ولا أدلَّ على ذلك من احتفاء مجمع اللغة العربية على الشبكة العالمية، بنشرِ معجمه المميز؛ معجم أسماء الناس الَّذِي نشره.

وكنتُ قد قرأتُ على شيخنا ذلك الإهداء الجميل الَّذِي قدَّمه الدكتور إبراهيم الشمسان، حيث قال في إهدائه إلى معالي الشيخ محمد بن ناصر العبودي: «إلى علاَّمتنا الشيخ الجليل محمد بن ناصر العبودي عميد الرَّحَّالين في البلاد والتراث، ومحرر المعجمات الطوال ليكونَ

هذا المعجم المتواضع في ساقة أعمالكم الجليلة متصلاً بها بسببٍ».

فأيُّ كلماتٍ أجملُ من هذا الإهداء الرقيق اللطيف الوفي من قبل الدكتور إبراهيم الشمسان.

ختامًا، أتوجَّه بالشكر الجزيل إلى ثقافية الجزيرة على هذا العمل الجليل الَّذِي يستحقه أستاذنا الكبير الدكتور إبراهيم الشمسان، متمنيًا لأبي أوس تمام وكمال الصحة والعافية، وأنْ يُمدَّه بعونه وتوفيقه لِيُكمِلَ مشاريعه وأعماله العلمية الرصينة الَّتِي ينتظرها زملاؤه وتلامذته ومحبوه وأصدقاؤه.



ورُبَّ أبٍ لكَ لم يلدك!*

أ.د. محمد بن علي العمري
أستاذ أصول النحو بجامعة الملك خالد بأبها

إذا ما تجاوزت المشترك بين الأساتذة الكبار، من جيل الروَّاد، في المملكة العربية السعودية وغيرها، من السِّير الملأى بالكفاح في التعليم، حتى بلوغ الدرجات العُلا، على الرغم من وعورة الطريق ووحشة المسلك آنذاك؛ ومن مسارد المؤلفات والأبحاث التي أثروا بها المكتبة العلمية، ومن قوائم عناوين الرسائل العلمية التي أشرفوا عليها أو ناقشوها، ومن المناصب الإدارية التي تقلدوها في الجامعات وغيرها، ومن الجوائز والشهادات والأوسمة التي نالوها . . .

وإذا ما تجاوزت كلَّ ما يُنسب إلى كلِّ أستاذ من أولئك العظماء، من تميُّزٍ في الفكر أو المنهج أو العبارة، أو فيها جميعًا، حين يؤلف، ومن تفرُّدٍ في طريقة التعليم، وإدارة الحوار، وإثراء النقاش حين يُعلِّم، ومن تحلٍّ بحلية أهل العلم، من التعبُّد الخالص لله تعالى بالعلم، وخفض الجناح، ولزوم القناعة والسكينة والوقار والمروءة والرفق، وهجر الترفه ومجالس اللغو واللغط، وإطالة التأمل والتثبت، وكبر الهمة وعظم النهمة في طلب العلم، والأمانة العلمية الظاهرة في نقله ومذاكرته، والكرم الفيَّاض في بذله والجود به، والانجذاب إلى مساعدة طلاب العلم والأخذ بأيديهم، والغرام بالكتب، وإرخاص الأموال في جمعها، والانقطاع

(*) المجلة الثقافية، العدد ٥٧٦ - صحيفة الجزيرة - الرياض، السبت ٢٨ رجب ١٤٣٩هـ/ ١٤ أبريل (نيسان) ٢٠١٨م العدد ١٦٦٣٤.

إليها، وتقديم صحبتها على ملذات الحياة ومتعها. . .

إذا ما تجاوزت كلَّ هذا المشترك بين الرعيل الأوَّل من الأساتذة، من الخصال التي (ما يلقَّاها إلا الذين صبروا، وما يلقَّاها إلا ذو حظ عظيم)، فإنَّ لأستاذي الأكبر، سعادة الأستاذ الدكتور إبراهيم بن سليمان الشمسان، بعد ذلك كله (باقيًا)، باقيًا تكمن فيه خصوصيته التي أنعم الله تعالى بها عليه، ويكاد ينعقد إجماع كلٍّ من تلمذ له على نسبتها إليه، واعتقاد أنه لا منازع له فيها في زماننا هذا. ذلك الباقي هو طاقة (الأبوَّة) التي خلطها الله تعالى بروحه ولحمه ودمه، فاستطاعت أن تتجاوز حدود بيته وأسرته، لتنطلق في الآفاق على مدى عشرات السنين، لتتسع أطنابها كلَّ من تعلَّم عليه من طلاب العلم.

ولأنَّ (الأبوة): (حُبٌّ)؛ ترى الأستاذ الشمسان (حين تكون علاقة غيره من الأساتذة بطلابهم هي علاقة الفم بالأذن، والقلم بالورقة، والمتن بالحاشية): يُقبل على طلابه، في قاعة الدرس، أو في قاعة المناقشة، أو في جلسة الإرشاد، أو في مجلس المؤانسة والمسامرة، أو حتى في المكالمة الهاتفية العابرة؛ فتتفتح له أبواب القلوب مروجًا من القبول والارتياح؛ فيكون لكلِّ كلمةٍ منه وقعٌ نافعٌ في النفوس، يتعالى على السقوط أو النسيان؛ ويكون لكل حضور أو لقاء معه نقشٌ خالدٌ في جدار الذاكرة، يأبى المحو أو التغير، فيخالط بوقعه ونقشه أنفاس طلابه، فما يلبث أحدهم حين يدرس عليه، حتى تراه ولسان حاله يقول قول العباس بن الأحنف:

تتبَّع الحبُّ روحي في مسالكِهِ
حتى جرى الحبُّ مجرى الروحِ في الجسدِ

ولأنَّ (الأبوة): (حرص)؛ ترى الأستاذ الشمسان (حين يخرج غيره من الأساتذة من قاعة الدرس أو قاعة المناقشة أو المكتب، وقد نسي من كان فيها وما كان) مسكونًا بطلابه، لا يخلفهم وراءه بل يحملهم معه، فهم في داخله أيانَ وأينما . . .، يرعى أعمالهم، ويلقِّح آمالهم، وينشغل بهمومهم، ويسأل عنهم، ويشاطرهم أفراحهم، ويشيد بنجاحاتهم، فلا تجد شبهًا لحاله مع طلابه أقوى من حال مالك بن أحمد بن سوار الطائي، وهو يخاطب ابنه أحمد، قائلاً:

وإني لأخشى أن أموتَ وأحمدٌ صغيرٌ؛ فيُجفى أحمدٌ ويَضيعُ

ولأن (الأبوة): (إلهام)؛ ترى الأستاذ الشمسان (حين يحرص غيره من الأساتذة على رسم حدود لكياناتهم، وصبغها باللون الأحمر حتى لا تمس؛ حفاظًا على ما يتخيلونه هيبة علمية) قد محا منذ زمن طويل تلك الحدود والخطوط؛ وراح يُلهم طلابه بفعله وقوله وحضوره؛ ليستثير فيهم الإنجاز والإبداع، ولينعش فيهم الأفكار الخلاقة، وليحفز فيهم الطموح الرامي لاستهداف النائي من الآفاق، واقتحام الأُنُف من الرياض، وافتراع الأبكار من الأعمال والمنجزات، فهو كما قال أبو الطيب:

كالبحرِ يقذفُ للقريبِ جواهرًا جودًا، ويبعثُ للبعيدِ سحائبا

ولأنَّ (الأبوة): (نقاء)؛ ترى الأستاذ الشمسان (حين يعزُّ على غيره من الأساتذة أن يقرَّ لقرين أو تلميذٍ بفضل أو سبق) لا يقر لنوابغ طلابه بالفضل أو السبق حين يحققون منجزات علمية أو إبداعية متفردة فحسب، بل تجده أسعد منهم بما حققوه، يسيل مداد قلمه بذكر

حسناتهم، ويتدفق كلامه بجلاء إبداعاتهم، وتعمر مجالسه العلمية بنشر ما منَّ الله به عليهم، ينجحون فيكون له النصيب الأوفى من فرحة نجاحهم؛ فلا يجد الرائي شيئًا يفوق جمال نجاح الطالب إلى فرحة الأستاذ، ويبدعون فيكون له الحظ الأوفر من نشوة إبداعهم، فلا يجد السامع شيئًا يجوز منزلة إبداع الطالب إلا نشوة الأستاذ، في مشهد عظيم لا أجد شيئًا يكاد يحكي جلاله وجماله إلا قول الشريف الرضي:

حكَت لِحاظُكَ ما في الريم من مُلَحٍ
يومَ اللقاءِ فكان الفضلُ للحاكي

إنَّ ما قلته في الأسطر السابقة عن الأستاذ الشمسان ليس وصفًا صادقًا لشيء من واقعه فحسب، بل هو، والله، شهادة حق أكتبها، والله يسمع ويرى، لا لأجله هو، فقد رفعه الله تعالى عن أن يرجو لما قدمه في حياته العامرة من خدمة العلم وأهله جزاء أو شكورًا، بل أكتبه لنفسي وللأجيال المتعاقبة من المعلمين وأساتذة الجامعات؛ ليكون لنا فيه أسوة حسنة في منهجه الفريد، الذي جعل فيه (الأبوة) بكل ما فيها من الفضائل، مطية لعلمه وتوجيهه وإشرافه ومناقشته وحواره وعلاقته بطلابه، فكتب الله له القبول والنفع والتأثير، حتى غدا مدرسة في العلم والتعليم والحياة، فهو والله كما قال أبو عبادة البحتري:

ما زال يسبق حتى قال حاسده   له طريقٌ إلى العلياء مختصرُ



المداخلات علم وعالم*

د.محمد لطفي الزليطني
أستاذ اللسانيات في قسم اللغة العربية
كلية الآداب - جامعة الملك سعود(سابقًا)

عرفت الأستاذ الدكتور أبا أوس إبراهيم الشمسان منذ انضمامي إلى قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة الملك سعود قبل حوالي ثلاثة عقود من الزمن، أو تزيد قليلاً. كان يومها قد عاد حديثًا من بعثته الدراسية إلى جامعة القاهرة، حيث حصل على شهادة الدكتوراه في الآداب، وانخرط مباشرة في سلك التدريس ليصبح واحدًا من أعمدة القسم وأساتذته المبرّزين في النحو والصرف وما يتصل بهما من قضايا اللغة العربية. ولاحظت لأول وهلة ما يحظى به أبو أوس من احترام وتقدير بين زملائه وطلابه، وحزم وانضباط في دروسه، واستعداد دائم لخدمة العلم وإفادة أبنائه من الطلبة والطالبات.

عرفت أبا أوس محدِّثًا لبقًا، يحسن الإنصات، فإذا تحدث كان مقتصدًا في قوله، دقيقًا مركزًا في آرائه، يوصل سامعه إلى مبتغاه من أيسر السبل وأقصرها من دون إسفاف ولا إسهاب.

هو من النحاة القلائل الذين عرفتهم متمكنين من الحاسوب وتقنياته، ومواقع التواصل ومنتدياته، لا أستبعد أن تكون دروسه في الصرف والنحو من أوائل دروس اللغة العربية التي عرفت طريقها إلى

(*) المجلة الثقافية، العدد ٥٧٦ - صحيفة الجزيرة - الرياض، السبت ٢٨ رجب ١٤٣٩هـ/ ١٤ أبريل (نيسان) ٢٠١٨م العدد ١٦٦٣٤.

الحاسوب والسبورة الذكية أَمدًا ليس بالقصير قبل أن تدهمنا معايير الجودة ومتطلبات التعليم الإلكتروني والاعتماد الأكاديمي.

شرفت به عضوًا في مناقشات علمية لرسائل بعض طلابي من الدراسات العليا، فاستفدت كثيرًا - تمامًا كطلابي الذين كان يناقشهم- من علمه الغزير، وأُعجبت بما كان يصدر عنه من آراء دقيقة ثاقبة يعرضها برصانة هادئة، واعتدال في الموقف، وعمق في التناول. وشرفت كذلك بمناقشة رسائل لبعض طلابه، فبهرتني بصمته الواضحة وأثره الظاهر في طلابه وما نجح في نقله إليهم من العمق والصرامة المنهجية والتأصيل العلمي.

وقرأت لأبي أوس، فوجدت كتابه عن (الجملة الشرطية عند النحاة العرب)، مثلاً، وهو من بواكير إنتاجه العلمي، من خير الأعمال التي تناولت هذا الموضوع بعمق يدل على إلمام باهر بالمصادر وأصالة علمية فريدة، مع براعة فائقة في الموازنة بين الآراء، وقدرة عالية على تقصي المسائل، حتى عاد الكتاب في رأيي مرجعًا أساسيًا لكل من يريد دراسة الشرط وأدواته، والجملة الشرطية في العربية وعناصرها والقضايا السياقية التي تتصل بها.

وقرأت كتابه عن (الفعل في القرآن الكريم: تعديته ولزومه)، فوجدته لا يقلّ عن سابقه عمقًا في التناول، واستقصاءً للمسائل، بحيث لم يترك شاردة ولا واردة تتصل بالموضوع إلا أتى على ذكرها وناقشها واستعرض مختلف الآراء التي دارت في شأنها.

وأما كتابه (أسماء الناس في المملكة العربية السعودية)، فهو دراسة

طريقة لظاهرة لغوية اجتماعية هي نظام التسمية وأسماء الناس في المملكة، بذل فيه الباحث الجليل جهدًا بالغًا لرصد أسماء الناس المنتشرة في المجتمع السعودي، والوقوف على عوامل اختيارها ومعانيها، وتحليل أشكال رسمها وبنياتها الصوتية والتصريفية، والثابت منها والمتغير. ولذلك يُعدّ هذا العمل بحق من لبنات الدرس اللغوي الاجتماعي والأنثروبولوجي في العالم العربي.

وقرأت كتابه الآخر في (حروف الجر ودلالاتها وعلاقاتها)، فوجدته على القدر نفسه من العمق والأصالة وسعة الاطلاع والتمكن من المصادر. وقرأت كتابه (مسائل لغوية) الذي جمع فيه مداخلاته اللغوية التي توالت على صفحات صحيفة "الجزيرة"، فوجدت في تلك المداخلات الطريفة المتنوعة عالمًا واسع الاطلاع، هاجسه اللغة العربية بظواهرها الصوتية والإملائية والصرفية والنحوية والمعجمية، وما تتسم به من دقائق تخفى على كثير من أهل الاختصاص، يعرضها بأسلوب سهل سائغ قريب من القارئ العام والمتخصص. والذي يفاجئك في هذا الكتاب أنه، وإن كان في الأصل مجموعة من المداخلات اللغوية الصحفية، فلا تظهر فيه أي من سمات الارتجال أو العجلة التي تتسم بها كثير من الكتابات الصحفية؛ بل إن ما فيه من آراء جاءت موثقة توثيقًا علميًا دقيقًا يدل على إلمام بالتخصص وملازمة لمصادر التراث، ويدل كذلك على مدى الجدية التي يتعامل بها مع كتاباته والاحترام البالغ لعلمه وقرّائه.

هذه الأعمال العلمية وغيرها دليل على ما يتصف به أستاذنا أبوأوس من علم غزير وانشغال بالبحث، ورغبة في مصاحبة الكتب وصحبة

المشتغلين بالعلم، ولعل ذلك ما جعله يزهد في المناصب والألقاب، وهو أهل لها، لكنه الجدّ والتواضع الجمّ وحب العلم. بارك الله لأبي أوس في علمه ووقته وصحته وعافيته وأهله وولده.



الشمسان: قيمة وقامة*

أ.د. محمود أحمد نحلة
أستاذ العلوم اللغوية بجامعة الإسكندرية

إذا عرفتَ الرجل عن قرب كما عرفتُه أيقنت كما أوقن أنّه قيمة خلقية رفيعة وقامة علمية باسقة؛ فهو في الخُلُق نسيجُ وحدِه وفي العلم صانع مجده. لكأنما جمعت له الفضائل والمآثر فحاز أعلاها وأسماها. سَمْحٌ سليم دواعي الصدر؛ لم يحمل لأحد ضغنًا قطّ، بل رزق التماس العذر في الشيم، وكأنّ الشاعر تمثله حين قال:

رُزِقْتَ أسمحَ ما في الناسِ من خُلُقٍ
إذا رزقتَ التماس العذرِ في الشِّيَمِ

منحه الله عقلاً وافرًا يزينه الروية وحسن التأتي والتقدير؛ فإذا تكلم ابتدأ الرأي فأصاب، ووضع الكلام في موضعه فأجاد. وإذا صمت كان صمته ناطقًا برزانة حلمه وشرف نفسه وهيبة سمته.

أبعد الناس عن هوى متبع يميل به عن الحق الذي لا يعرف غيره، ولا يرضى به بدلًا، فإذا اشتبه عليه أمران نظر أيهما أقرب لهواه فنحاه. وهو أبعد ما يكون عن إعجابه بنفسه، على ما له من علم وفضل، لأنه يعلم أنه إن رضي عنها اكتفى باليسير فوقع في التقصير.

لا يبالي بمدح مادح أو قدح قادح؛ لأنه أعرف الناس بنفسه؛ يزنها

(*) المجلة الثقافية، العدد ٥٧٦ - صحيفة الجزيرة - الرياض، السبت ٢٨ رجب ١٤٣٩هـ/ ١٤ أبريل (نيسان) ٢٠١٨م العدد ١٦٦٣٤.

فيما تأتي وما تدع بميزان الذهب. يُصدِرُ أمره بالحزم ويُمضيه بالعزم مع رأي رشيد، وبصر حديد، وبصيرة نافذة، ونفس مطمئنة راضية.

يومه يومان: يوم تعلم ويوم تعليم. لم يتعلم العلم ليباهي به العلماء، أو يماري به السفهاء، أو يتصدر به المجالس، بل ملاك الأمر عنده أن يزداد في العلم رشدًا، وفي عَرَضِ الدنيا زهدًا؛ فالعلم عنده رسالة، ومشغلة حياة.

يألف الناس ويألفونه، ويحبهم ويحبونه. يفتقدونه إذا غاب، ويأنسون به إذا حضر. يعرفون قدره ويؤثرون فضله. طيب المعشر، نقي المظهر والمخبر. إذا استنصحته نصحك، وإذا استعنته أعانك، وإذا دعوته أجابك. تعرف فيه صلابة أبناء القصيم، وشدتهم في الحق، وتمسكهم بالأعراف والتقاليد، وقدرتهم على الصبر والجلد، وتمسكهم بالقيم النبيلة، والشمائل الجليلة.

إذا حاورته راعك منه سعة الأفق، وغزارة العلم، وصواب الرأي، وحسن التقدير، ودقة التدبير، والنفاذ إلى الحقائق من أيسر سبيل، والقدرة على التحليل والتعليل، وهو يبدهك دائمًا بما لا تتوقع، ويسمعك ما لم تكن تسمع.

والرجل بهذا وغيره قيمة خلقية يعز لها النظير.

وهو إلى هذا قامة علمية باذخة علت وطالت واستطالت بما قدم للدراسات اللغوية والنحوية من بحوث تقوم على علم راسخ بالتراث اللغوي عند العرب، وبصر حديد بما جد به العصر من نظريات لغوية واتجاهات. ولا يغرنك أن بعض عنوانات كتبه وبحوثه تعالج قضايا

عالجها غيره؛ فشتان بين معالجة ومعالجة؛ فحين عرض للجملة الشرطية عند النحاة العرب تناولها على نحو تفرد به؛ إذ تتبع رؤية النحويين لها تتبعًا تاريخيًّا في المراحل الثلاث من تاريخ النحو: التأسيس، والنضج، والتفسير والتقليد، ووضع ملحقًا ضم كل مصطلحات الجملة الشرطية ومكوناتها وأحكامها في التراث النحوي، ورتب ورود كل منها ترتيبًا تاريخيًّا على نحو غير مسبوق، بشهادة علم من أعلام الدراسات اللغوية هو محمود فهمي حجازي. ولم يشغله البحث التاريخي عن النظرة النقدية الواعية لتناول النحويين لهذا النوع من الجمل، ونبه إلى ضرورة الفرق بين الخلاف والاختلاف في آراء النحويين، وتجلى صبره وجلده في إعداد الفهارس، ويكفي أن أشير إلى أن فهرس المحتويات وحده بلغ نحوًا من ثمان وعشرين صفحة.

كذلك فعل في كتابه (الفعل في القرآن الكريم: تعديته ولزومه)؛ إذ صنف الأفعال الواردة في القرآن الكريم وفق إحداثيتين أو قل علاقتين: إحداهما أفقية يطلق عليها اللغويون المحدثون المصطلح syntagmatic relation والأخرى رأسية يطلقون عليها paradigmatic relation، الأفقية تمثل المبنى، والرأسية تمثل المعنى؛ فتمكن بذلك من مراقبة أثر المبنى والمعنى في التعدي واللزوم ودرس علاقة كل منهما بالآخر وما يصيبهما من تغير في سياقات الاستعمال. وقدم موازنة غير مسبوقة بين دراسة تعدي الأفعال ولزومها في القرآن الكريم ودراستها في النحو العربي، وخرج بنتائج بالغة الأهمية. ومن أهم فهارس الكتاب فهرس الأفعال التي وردت في القرآن الكريم وكانت محل الدراسة.

وحين رأى ما أصاب أسماء الناس في المملكة من ضيم في

موسوعة السلطان قابوس لأسماء العرب - وكان يشارك فيها- بسبب غياب العلم بالثقافة المحلية في الجزيرة العربية دعته همته إلى رفع هذا الضيم فوضع معجمًا لأسماء الناس في المملكة العربية السعودية خالف فيه الموسوعة رأيًا ورؤية، وظهرت فيه قدرته الفذة على التأصيل والتفسير والتصويب، مع دقة وصف، واستقامة منهج؛ فأصبحت دراسة الأعلام بين يديه خلْقًا آخر.

ومن يتتبع ما كتبه الرجل من بحوث علمية رصينة يجده شخصية علمية تأبى أن تجري في عنان أحد، أو تنقاد له، وبحوثه كلها شاهد على ذلك؛ فإن أردت أمثلة واضحة على ما أقول فدونك ما كتب في مداخلاته اللغوية والنحوية، وتصويباته اللغوية، وجدلية الملفوظ والمحفوظ، وفي حسمه الخلاف في مواضعه، وما تفرد به من آراء.

وقد اتسم نشاطه العلمي بإعادة قراءة التراث العربي في ضوء معارف العصر، وما جد به من نظريات واتجاهات؛ وظهرت آثار ذلك واضحة فيما كتب عن لهجات الجزيرة العربية وأسماء الناس فيها، وتحقيق القول في الضاد نطقًا وكتابة، وفي دراسة التأثير والتأثر بين اللغة والمجتمع أو اللغة والحياة، وفي المدخل الصوتي لدراسة النحو العربي، والتغيرات الصوتية في المبني للمفعول؛ وفي التخلص من المتماثلات لفظًا . . . إلخ.

وقد أسهم بما له من علم وفضل، وحزم وعزم، في تخريج كوكبة من الباحثين، صنعهم على عينه، وكونهم تكوينًا علميًّا بصيرًا أهّلهم لحمل المسؤولية، وأداء الأمانة، على النحو المرجو منهم.

وظفر مجال تعليم اللغة العربية منه ببحث فريد عن تعلم اللغة العربية وتعليمها في عصر التقنية ووضع كتابًا في الصرف العربي التقليدي ومعه كتاب للتدريبات لم يسبق باحث عربي إلى مثله، ورصد ما وقع فيه طلابه من أخطاء في الميزان الصرفي، وبين لهم ولنظرائهم الصواب، وما يزال هذا الكتاب مرجعًا للطلاب والمعلمين والباحثين يفزعون إليه حين يلتبس عليهم شيء في الميزان الصرفي.

ولم يدخر الرجل وسعًا في خدمة المجتمع العربي، على اتساعه، بما شارك فيه من ندوات، ومحاضرات عامة، وورش عمل، وحلقات نقاش، وتحكيم بحوث، وعضوية لجان وجمعيات، وما قدم من شهادات، وما حضر من مؤتمرات.

هذا رجل وهب نفسه للعلم فرفع الله قدره، وأعلى شأنه، وأنبه ذكره، وجعله نموذجًا يحتذى للعلماء العاملين. نسأل الله أن يجزيه خير ما يُجزَى به عالم عن علمه وعمله.

والله من وراء القصد، وبه التوفيق، وعليه التكلان.



كيف لا أعرفه!*

أ.د. محمود الربيعي
مجمع اللغة العربية في القاهرة

أهداني سفرًا قَيّما عنوانه (معجم أسماء الناس) فكان أول ما بحثت عنه فيه اسم (الشمسان). "الشُّمُوس" مقترن بالتأبي، والعزوف، والرفض، وعدم الرضوخ للترويض، لكن ما أراه من حال صديقي يقف على الضد من هذه المعاني، فأنا معه أصاحب إنسانًا غاية في الوداعة، ولطف الصحبة، وسحر الابتسامة، ورقة المجاملة. قلت لنفسي: أعدل إذن عن هذا المعنى في تفسير اسمه، وأتحول إلى المعنى الآخر: الضوء والحرارة، وأصل الحياة، والإبهار، وكل المعاني التي يمكن أن تتولد لا عن "شمس" واحدة، وإنما عن "شمسان"!

في الأيام الخوالي كان لي شرف العمل في جامعة الكويت مع أستاذة جليلة هي الأستاذة "أم أوس" وكنت أحمل لها إجلالًا صامتًا هي جديرة به، ولم أكن أعلم أنها زوجة "إبراهيم الشمسان"، بل إنني لم أكن قد سمعت عنه أصلاً. ومرت السنوات فكان محمد حماسة - طيب الله ثراه - يقول لي دائمًا: ألا تعرف "إبراهيم الشمسان"؟ أقول له: لا! يعود فيقول لي: كيف لا تعرف "إبراهيم الشمسان"؟ أقول له: وهل يجب على كل أحد أن يعرف "إبراهيم الشمسان"؟ يتعجب ولا أعرف سببًا لتعجبه! ومرة قال لي: كيف تكون زميلاً "لأم أوس"

(*) المجلة الثقافية العدد ٥٧٦ - صحيفة الجزيرة - الرياض، السبت ٢٨ رجب ١٤٣٩هـ/ ١٤ أبريل (نيسان) ٢٠١٨م العدد ١٦٦٣٤.

ولا تعرف إبراهيم الشمسان؟ عندئذ نبهني إلى ما لم أكن أعرف، ثم ثابر على حثي على معرفة شخصيته قال لي إنها فريدة في المثابرة، وحسن الخلق، وحسن التأني للأمور، والكرم الطبيعي، وحسن الصحبة، وصفات أخرى كثيرة كنت أستمع منه إليها منبهرًا، متأسفًا أن لم تتح لي الحياة فرصة التعرف على هذا النمط النبيل من البشر، مع أن دواعي التعرف متاحة، كما كان محمد حماسة يقول لي.

ثم انفرط القرن العشرون كله، وأظلنا القرن الجديد، ودخلنا في أنماط جديدة من العمل، وكان من حظي أن وقع علي الاختيار - ولا أدري كيف وقع! - أن أكون عضوًا في مجلس أمناء مركز الملك عبد الله بن عبد العزيز الدولي لخدمة اللغة العربية". وكان أول اجتماع لنا في الرياض. عددنا محدود، ولذا نجلس متقاربين، وحين بدأ الأمين العام - "عبد الله الوشمي" - في تقديم الأعضاء - وكنت قرأت من قبل اسم "إبراهيم الشمسان" في القائمة - انتظرت من يكون من بين الجالسين، وأرهفت حواسي، إلى أن سمعت اسمه، فسددت بصري إليه. كان يجلس مطرقًا، وبدا لي شبه متوحد، "شمسان" بحق فيما قدرت أولًا، لكنه حين احتدم النقاش وطلب الكلام، بدا لي على غير النحو الذي قدرته - والله يغفر لي - هادئًا، فصيحًا، منطقيًّا، حسن التأني، جريء الرأي، متوازن الموقف، غيورًا على تراث أمته، متطلعًا إلى الاستفادة من معطيات عصره، مقتصدًا في التعبير عما لديه، واضح الرؤية في البدء والختام.

أثلج حديثه صدري، فتقدمت إليه مصافحًا بعد الاجتماع، فاستقبلني استقبال من يعرفني من زمن طويل، وأشاع الطمأنينة في نفسي، ووطّأ

لي من كنفه ما أزال من نفسي إحساسًا بالتقصير في معرفة هذه الشخصية الثرية التي طالما لامني محمد حماسة على أن حرمت نفسي من معرفتها.

بدأت منذئذ أتتبع مجهوده في العلم على مهل، فدخلت إلى بحر زاخر من المعرفة، فيه وحدة الأصول العميقة للثقافة العربية الأصيلة، وفيه تنوع الفروع الواسع لتجليات معارفها. هو "نحوي"؟ نعم، وبكل ما تحمل الكلمة من المعاني. هو لغوي؟ نعم، وبكل ما تحمل الكلمة أيضًا من المعاني. تقليدي؟ نعم، وبكل فخر واحترام. تجديدي؟ نعم، وبكل قصد ورزانة. طالب علم بالمعنى الكبير للكلمة، متوسع في فهم هموم لغته وهموم قومه، حفي بنشر المعرفة، ورعاية الشباب، لا يقدم واجبًا على واجب الدرس، وقد اختبرت هذا بنفسي حين اعتذر أمامي عن موعد مهم جدًا قائلاً "لا يوجد أهم من لقائي طلابي - وورائي دروس!" - وقد جعلني هذا أكبره أيّما إكبار!

أترك تقدير مكانته في علمه التخصصي الدقيق لأقرانه، لكني ألاحظ بشغف وانبهار أن عمرًا كعمر إبراهيم الشمسان اتسع لكل هذا الإنتاج المتنوع الخصب الدسم عمر مبارك، استثمر في العلم والسعي الدؤوب وراء المعرفة. وأما الحديث عنه كصديق فهو حديث ذو شجون لا تبلى جدته، ولا ينفد. حلو المعشر، حاضر البديهة، مستجيب للدعابة، محسن للسخرية الخفيفة التي تسر ولا تؤذي. إبراهيم الشمسان - اسم سيذكره تاريخ المعرفة، وسيضمن له مكانًا ومكانة بين خدام العلم في لغتنا العربية.



عرفت الشمسان قبل أن أراه*

أ.د. محي الدين محسب
جمهرية مصر العربية

ذات يوم من عام ١٩٨٤م حضرتُ إلى بيت المشرف عليّ أستاذنا العلامة الدكتور محمود فهمي حجازي لأعرض ما أنجزته من رسالتي للدكتوراه، وكانت عن (البحث الدلالي في مفاتيح الغيب للفخر الرازي). دار الحديث، وأثناءه وقعت عيناي على كتاب ذي تجليد أزرق سميك عنوانه (الجملة الشرطية عند النحاة العرب) ومدون اسم صاحبه عليه: أبو أوس إبراهيم الشمسان. ولما كان أحد فصول رسالتي للدكتوراه بعنوان (التركيب الشرطي) فقد استأذنت أستاذي الدكتور حجازي لاستعارة هذا الكتاب الأزرق. فإذن لي بعد أن قال: رسالة جيدة فيها جهد كبير! ثم أخبرني أنها رسالة كانت بإشرافه؛ فأدركت أن اشتراكنا في انضواء رسالتينا تحت إشرافه جامعٌ وآصرةٌ بيني وبين صاحب الرسالة. ولعل ذلك ما جعلني أشعر لحظتها بقيمة معنوية مضاعفة لتلك العبارة الواصفة الوجيزة (رسالة جيدة فيها جهد كبير!). وبعد أن قرأت رسالة الشمسان أيقنتُ كم كانت عبارة أستاذنا دقيقة إلى أبعد حدّ! لقد وضع الكلمة/ المفتاح التي قد لا تكون ثمة كلمة أخرى تصف - على وجه الدقة والشمول- كل عمل قدمه الشمسان: إنها كلمة (الجهد)!

(*) المجلة الثقافية، العدد ٥٧٦ - صحيفة الجزيرة - الرياض، السبت ٢٨ رجب ١٤٣٩هـ/ ١٤ أبريل (نيسان) ٢٠١٨م العدد ١٦٦٣٤.

ومع هذه الرسالة، ثم بعد ذلك مع أعمال أخرى للشمسان، وبعد أن جمعتنا أسعد الأقدار بأن نعمل معًا في قسم اللغة العربية بجامعة الملك سعود لمدة خمسة أعوام، عاينتُ في الشمسان انطباق وصف ابن الرومي:

لا يعتريه الأَينُ والسآمُ كأنما الجهدُ له استجمامُ

وبالأحرى عاينتُ قول أبي تمام:

وَمَتى حَلَلْتَ بِهِ أَنالَك جُهدَهُ وَوَجَدتَّ بَعدَ الجُهدِ فيهِ مَزيدا
مُتَوَقِّدٌ مِنهُ الزَمانُ وَرُبَّما كانَ الزَمانُ بِآخَرينَ بَليدا

ومن ينظر مثلاً في كتاب الشمسان (مساحة لغوية)، ويقف على المسائل البالغة الرهافة التي وقف إزاءها بتدقيقه وتحريه وتنقيبه، فإنه يجد الشاهد تلو الشاهد على ديدن الجهد الذي يتصف به هذا الجليل.

بيد أنني أتصور أن هذه المنقبة الجليلة نفسها هي البوابة المفضية إلى المناقب الأخر في شخصية الشمسان. وهنا تأتي في الصدارة سمة أسلوبية ذات تواتر ملحوظ عند الشمسان. وأعني بها اختيار التعبير بـ(أستاذي) عندما يتحدث عن أي فاضلٍ من العلماء قدّم له يدًا في التكوين العلمي. فهذا الربط الذي يختار فيه أن يضيف نفسه إلى أستاذه، وأستاذَه إلى نفسه، إنما هو مؤشر ذو مغزى في إقامة علاقة التضايف الحميميّ بينهما، وكأن وجود الأول (الأستاذ) سببٌ لوجود الذات المتكلمة، أو كأنها إشارة إلى أن هذا الأستاذ أفرغ أستاذيته وأمحضها لهذه الذات المتكلمة تحديدًا. ومن ثم فتأكيد انتساب الذات إلى أستاذها إنما هو تأكيد العرفان والامتنان.

ثم تأتي منقبة (الرحابة الفكرية). فمن يبذل الجهد الحقيقي يدرك قيمة بذل الآخرين لجهدهم. ولعلك تجد ذلك في الشمسان بما يجعله خارج عنت كثيرٍ من النحويين، أو فقهاء اللغة، الذين يخشون من بوار ما استظهروه من قواعد، وما حفظوه من معايير. خذ مثلاً قول الشمسان "يغفل القائمون على التصحيح ظروف التراكيب والاستخدامات اللغوية التي يقومون على تقويمها. فما يرونه من قبيل المخالفة اللغوية قد يكون له أسبابه الخاصة التي لا تجعله ظاهرة لغوية عامة... وقد نجد أن ما يظنه المصحح اللغوي خطأً - لأنه يقيسه على استخدام سابق- هو من قبيل التطور اللغوي، والاحتياج إلى معنى جديد...". والحقيقة هي أننا نخسر كثيرًا في توجهنا اللغوي، وفي تخطيطنا اللغوي، إن لم نجعل المعنى- كما أكد الشمسان هنا، وفي غير هنا- هو الذي له الصدارة في الرؤية، وفي الأداة.

ولا شك أن حديث المناقب يطول مع أبي أوس.. العالم الجليل الذي أحبه وأحترمه !!



عن أبي أوس الشمسان*

أ.د. مرزوق بن تنباك
كلية الآداب - جامعة الملك سعود

في الذاكرة مكان لكل من تعرف من الناس أو تتعامل معه أو تراه، قد يكون زميلاً وقد يكون صديقًا حتى قد يكون إنسانًا عابرًا في حياتك، وقد تختلف الصورة أو تتحول مع هؤلاء ومع أولئك. أما من تعرفه زمنًا وتعاشره أمدًا وتبلوه دائمًا فإنك تضع له مكانًا جليًّا حيث يكون جزءًا من الذاكرة التي تعيش معك وجزءًا منك في أي حال.

وأبو أوس الأستاذ الدكتور إبراهيم الشمسان هو من القلة الذين تضع لهم أكثر من مكان في نفسك على المستوى الشخصي وعلى المستوى العلمي وعلى المستوى الاجتماعي، وفي كل موقع من هذه المواقع الثلاثة تجده يتميز بالهدوء والسكينة وحسن الصلة مع كل من يتعامل معه من الزملاء والإخوان وعامة الناس وخاصتهم.

على المستوى العلمي:

أنت أمام الشخصية التي يصدق عليها وصف الأكاديمي الحقيقي، عمل دؤوب موشح بالتأني متوجه إلى المعلومة التي يحاولها بهدوء ونظر بعيد عن الفرقعات الإعلامية والإعلانية التي تستهوي بعض زملائه الأكاديميين، أنجز أعمالًا متميزة، هي بكر في مضمونها جديدة في موضوعها وفي عرضها وملحة الحاجة إليها تقرأ له:

(*) نشر في جسور، مركز حمد الجاسر الثقافي، ع٢٨، رجب ١٤٤٣هـ.

من شجون اللغة، وأعلام الناس، وفي حكاية الأعلام، ونظام التسمية في المملكة، وتباين كتابة الأسماء العربية، وتجربتي في إعداد معجم أسماء الناس، ومعجم الأسماء ومعانيها. وقد شدت ظاهرة استنبات الأسماء وزراعتها انتباهه فسك مصطلح (زراعة الأسماء) عنوانًا لبعض موضوعاته، وهو مصطلح وضعه استقراء لما صار إليه الناس في هذا الوقت مما استدعى ملاحظته، والبرفيسور أبو أوس له جهود كبيرة وتحقيقات ودراسات في اللغة نحوها وصرفها ووظيفتها غير ما ذكرت.

في هذه العنوانات وغيرها مما ألف، حفظه الله، يكذّب أبو أوس المقولة المشهورة (طبخ النحو حتى احترق) فقد حاول أن يجعل النحو طريًّا ليّنًا على ألسنة المتكلمين وبكرًا في عرضه ومضمونه وجديدًا في موضوعه مناسبًا للعصر وداعية الحاجة إليه.

على مستوى الشخصي:

تعامل أبو أوس مع زملاء وعلماء وطلاب ومجتمع، وقلّ من يتعامل مع هؤلاء جميعًا وينجو بجلده، وهو من هؤلاء القلة الذين نجوا من الخلافات والمنازعات مع الاحتفاظ بمبدئه ورأيه دون مصادمة آراء الآخرين أو تجاهلهم، وتعامل بشعرة معاوية مع كل من قد يوجب التعامل معه موضع خلاف أو جدل، كان للجميع أخًا ومفتيًا في عويص اللغة وصرفها ومشكلاتها واختلاف علمائها ونحاتها لا تراه غاضبًا أو متذمرًا ولا شاكيًا.

على المستوى الاجتماعي:

شارك أبو أوس مشاركة مثمرة في شؤون المجتمع وقضاياه مثقفًا

ومعلمًا، وحاضر في الندوات والمؤتمرات خارج الجامعة وداخلها، وله عمود ثابت في الصحف موجه إلى عامة المثقفين الذين لا تضمهم ردهات الجامعة، حيث جعل من الصحافة ميدانًا للوصل بينه وبين الناس ونشر المعلومة التي يحتاجها عامة المثقفين في مجال اللغة والنحو والصرف فأثرى الساحة المعرفية بفيض من غزير علمه المفيد.

وأبو أوس الأستاذ الدكتور إبراهيم الشمسان ليس زميلاً فحسب بل أعده من أساتذتي، وقد كان يسبقني بسنة واحدة في الجامعة وهو مازال سابقًا على كل حال وقد استفتيته عن بعض مشكلات النحو وعن الكتب والمصادر التي تفيدني في ذلك الوقت وكان نعم الأستاذ والمفتي ونعم العالم المستقصي بارك الله في علمه وعمره ووفقه للخير وأعانه عليه.

لقد أسعدتني مبادرة هذه النشرة بتكريم أبي أوس والاحتفاء بجهوده العلمية، وهي مبادرة جميلة وتكريم يستحقه ليس من جسور فحسب بل من جامعته وزملائه ومجتمعه العريض؛ فجهوده وخدمته للعربية وتراثها انتفع بها الجميع، وسيبقى النفع مستمرًّا ما دامت العربية والعرب. أدام الله عليه الصحة والعافية وبارك في جهوده لخدمة تراث العربية وتاريخها.



قراءة في سمات الشخصية العلميّة للدكتور أبي أوس الشمسان

أ. مريم محمد الوباري
الأحساء

قد يقف القلم طويلاً، ويتوقَّف الفكر كثيرًا، ويتَّخذ العقل زمنًا واسعًا، قبل أنْ يستجيب للكتابة في هذا العنوان، وهو أمر طبيعيّ، وليس غريبًا، فالشخصية المُتحدَّث عن سماتها وخصائصها موسوعة علميّة كبيرة، ودائرة معارف كبيرة.

لكنَّ الحافز على ذلك هو ما غمرني به بسعة صدره الفسيح، وبقلبه الكبير، مِن غزارة علمه الوفير، وصبره على كثير من أسئلتي، وتبديده حجبها بأجوبة راسخة ساطعة في العقل.

بادئ ذي بدء يقف الفكر احترامًا وتبجيلاً وإكبارًا له فقد أفاض عليّ مِن علمه الزاخر وعطفه ورحمته ما لا حصر له.

ولكي أبدأ الحديث لا بدَّ مِن تقديم موجز لما يدور في صفحة ذهني مِن أفكار.

إنَّ العالم الفاضل أبا أوس إبراهيم الشمسان شامخ بفكره، وله مِن الثراء العلميّ ما أغنى المكتبات وأزهر في العقول وسما بالفكر، وهذا الأمر يجعل الكتابة عنه محفزّة، لكنَّها في الوقت نفسه تتطلَّب ذوي العلم وأصحاب الألباب.

وأيضًا فإنَّ تلك المساحات الشاسعة ممَّا غرس فأنبتت تحتاج إلى

أن تُجمَع والقادر على ذلك ليس بمستوى قلمي الصغير.

وكذلك، فإنَّ التواضع الجم الذي تميّز به يجعل كثيرًا مِن أعماله الوفيرة في طيّ الكتمان، فهو الشخصية العلميّة التي تعمل دون أن ترغب مِن الآخرين الإفصاح، بل كلّ ذلك في كتاب لا يضلّ ولا ينسى تُسجَّل فيه كافَّة الخير الذي أفاض به.

حصافة وذكاء ونجابة وفضيلة وحذاقة وصيت ذائع بكلِّ خير ورغم ذلك كلّه رحمة وعطف وتواضع جم.

صنع الجميل ورد المعروف، لا يمكنك أن تسمع من حديثه العطر كلمات تنبئ عن معروف نشره، أو خير صنعه، أو عطاء قام به، لكنّك ستصغي دومًا إلى أفضال العلماء الفضلاء الذين نهل من رحيق علمهم فظل ينشره على امتداد الدنيا.

حين قرأت شذرات من سيرته الطيبة وجدته يتحدث عن موقفين إنسانيّين والمواقف كثيرة، لكنَّ الذي علق في ساحة ذاكرتي وارتبط بها بشدة، هما:

١- اكتنازه العلم من أستاذ عربيّ سودانيّ قد أفاض عليه علمًا وهو بفطنته وحبِّه للعلم استطاع احتلال منزلة عنده. آن ذاك كان في المرحلة المتوسطة رغم ذلك استطاع أنْ يعطي دروسًا في كيفية إظهار النعم التي نهلها من عبق علم أستاذه العطر مذ ذاك الحين وعلى امتداد حديثه فهو لا ينسى ذلك الأستاذ الطيب.

٢- في مرحلة الدراسات العليا موقف آخر سطَّره بكل ألق وهو اهتمام عالم قدير فاضل هو الأستاذ الدكتور محمود فهمي حجازي رحمه

الله بطالب نجيب أصبح فيما بعد أستاذًا فاضلاً. رغم ذلك، وعلى تفوقه وحصوله على مرتبة علميّة كبيرة يرى نفسه طالب علم، ويا له من تواضع لا يمكن وصفه أو التعبير عنه! إنه الدكتور الفاضل أبو أوس الشمسان، وفي مرحلة الدراسات العليا قلَّما يلاحظ الأستاذ المنير غياب أحد الطلبة لكنَّهما المرموقان، فالأستاذ هو الدكتور الفاضل: محمود فهمي حجازي -رحمه الله- عنوان العالم المثالي والطالب هو النجيب المتفوق الذي سطّر ألوان الاجتهاد حتى غدا محط نظر أستاذه وببصيرته شاهد معالم النبوغ فعرف أنَّه مستقبل رائد لغويّ كبير لذلك غمره بعنايته ورعايته، فحين علم بمرض ألمَّ به زاره في بيته، ولم يتوقَّف الأمر ههنا فحسب بل بادر باصطحابه إلى عيادة زميل متخصص ولم ينته الحنو بل عرض أن تُجرَى له عملية على حسابه!

وبذلك يبقى يذكر هذا الموقف ويثني ويترحم ويترضَّى على عالم هذا هو نهجه.

لا ريب أنَّ طالبًا شابًا يلقى كلَّ تيك العناية والرعاية والاهتمام يجد حافزًا للاغتراف أكثر من العلم والتمسك به أكثر.

ربما تتربع في ذهن القارئ علامتا استفهام ويتضح أثرهما جليًّا على وجهه.

إحدى العلامتين: هذا العنوان كبير، وبحجم عالم قدير، هو: الدكتور الفاضل أبو أوس الشمسان السائر وفق سيبويه وابن جني وعلماء عباقرة لا ينبغي أنْ تكتبه هذه الكاتبة، حري به أنْ يكتبه علماء لهم باع

طويل في العلم، ولكنِّي في سبيل تبديد علامة الاستفهام تلك أقول: لقد غمرني أستاذي القدير: أبو أوس حفظه الله بأفضال كثيرة، وعلوم وافرة، وكنوز معارف، فأردت على خجل من تقصيري ذكر شيء من ذلك وفاءً له.

وإنَّ علامة التعجب هذه التي ظهر أثرها على وجوهكم لا غبار عليها فمن حقكم ذلك، وأعلم بأنَّكم أردتم أنْ أكون ممن يستطيع التعبير بعبارات جامعة مانعة ولكنْ من حقي وإنْ لم يعلُ قلمي أن أُعبِّر عن ذلك وإنْ قصر قلمي فمنه العذر، والعذر عند فاضل كريم قدير مثله -حفظه الله- لا ريب مقبول.

وأمَّا علامة التعجب الأخرى، فهي أنه ينبغي للمُتكلِّم عن شخصية ما أنْ يبتدئ بسمات الشخصية منذ أول نشأتها، والحال أنني بدأتُ في سرد بعض السمات، ثم تجاوزت قضايا مُؤثِّرة في مرحلتي الإعدادية والجامعة!

ويمكن لعلامة التعجب هذه أيضًا أن تزول عندما يعلم القارئ بأنني عرفته مِن خلال هذين الموقفين قبل مواقف كثيرة غمرني بها بفيض عطائه، وقبل التعمُّق والقراءة في سيرته العطرة، بل إنَّ هذين الموقفين هما الباعث على القراءة أكثر وأكثر، والقراءة والاستماع جعلا مسوغًا آخر هو الإرسال له وسؤاله عمَّا يستعصي عليّ فهمه، ولم أجد منه في كلِّ مرَّة رغم مسؤولياته عبارة منِّ أو أذى بل على العكس كان بقلبه الكبير، وسعة صدره الفسيح يصحح لي ما يجري على قلمي مِن لحن، ويتلَّمس مواطن الخلل في فهمي فينقلني إلى ساحة العلم حيث الضياء، وكثيرًا ما أذكر آراء ربَّما هي خطأ لقلَّة علمي؛ لكنَّه وإن لم يوافق وجهة

نظري لم يكن يُسفهها، أو يقلِّل منها، بل دائمًا يُرجِع ذلك إلى أنَّ القراءة المتواترة في كتب اللُّغة يمكنها بعد ذلك أنْ تجعلني مَن يُغيّر رأيي في تلك الآراء.

الوفاء:

وما أدراك ما الوفاء؟ لكنَّك إذا كنت تتلمذت أو أفدت أو عرفت الأستاذ الفاضل أبا أوس سترتوي لا ريب من صور الوفاء الكثيرة التي تعنون مسيرته كلها، إنَّه بكلماته وحروفه وبصدقه يرسم ملامح الوفاء بأسمى صورها، وما رحلة بحثه الطويلة عن أستاذه السودانيّ إلا من بعض رموز الوفاء التي عُرِف بها، فهو أشد الناس وفاء! وأوفى الناس! ومَن يعرفه أو يتتلمذ من علمه الوافر يعلم ذلك، ويحاول السير وفق هذا النهج الكريم.

تبجيل العلماء:

مِن سمات الشخصية المنيرة للعالم اللُّغوي الفاضل الأستاذ القدير الدكتور الفاضل: أبي أوس سواء الرواد الأوائل الذين أغنوا المكتبات بالثراء العلمي الكبير، أو العلماء المعاصرين الفضلاء الزملاء وتتَّضح معالم ذلك حين يذكرهم ويوقرهم وينعتهم بالأستاذ والعالم، وحتى العلماء الذين تختلف وجهة نظره العلميّة عنهم لا تصغي منه إلا الثناء عليهم والتقدير لهم أو الذين في بداية الطريق العلميّ فهو يغمرهم بسابغ النعم ويغدقهم بأفضاله الكثيرة ويضيء لهم بإشراقته الطريق ويسعد بتفوقهم ونجاحهم وينعتهم برتبهم العلميّة.

الشغف باللُّغة والريادة فيها:

حين يتحدث عن العربيّة تجد الكلمات تفخر بذلك، وهو الأمين عليها من اللحن، والفارس في ميدان التركيب اللغوي السليم، هذا الوله باللُّغة جعله ينقل ذلك الشعور إلى القارئ أو السامع فهو يشعر باهتمامه واستيعابه للمادة اللغويّة وكذا بالمستمعين فتجد الفكر منتبهًا طوال الوقت، وحين يبحث الطالب عن هذا الأمر تجد هناك أسبابًا عدَّة أهمها حفظه لسور من القرآن الكريم في مرحلة مبكرة من حياته، وتولي أخيه الأستاذ رشيد الفاضل بأسلوبه الشائق الجاذب تعليمه فنون اللغة وهذا الأسلوب الجاذب والطريقة المحببة للعلم وتفهيمه هي التي جعلته فيما بعد يسير وفق النهج نفسه.

الأسلوب الرائد في طريقة التعليم:

إنَّ طالب العلم يتلقى التعليم من أستاذه إمَّا بالانتظام في حلقات الدرس سواء في المدرسة أو الجامعة أو بالاستماع إلى تسجيل محاضرات ودروس علميّة عبر وسائل الاتصال أو قراءة الكتب وله حفظه الله الأسلوب الذي يجعله يمسك بزمام الأمور، ويجعل الطالب يقظًا بل يخشى انتهاء الدرس إذ سيفقد هذا الكم الهائل من الأسلوب المضيء، الأسلوب البيّن الواضح، وطالما وجد القارئ لإنتاجاته العلميّة المشرقة الإفادة بدءًا من العنوان ومرورًا بالعرض وانتهاءً بالخاتمة، وفي أسلوبه المنير ما يحكي عن تميز لا حدود له وعن علاقة وثيقة راسخة رصينة بينه وبين العلم جعلت ذلك يظهر جليًا في علاقة الطالب مع ما يقرأ.

البحث العلمي الرصين:

وهذا يُلحَظ في ما يُعبِّر به عن نفسه وهو أنه طالب علم، فهذا الأمر جعل صلة وثيقة بينه وبين الكتاب، هذا الاهتمام بالقراءة والإفادة منها، جعل فكره يشرق أكثر فأكثر وبذلك أفيدَت المكتبات بالإنتاج العميق الكثير واستزادت العقول برصيد هائل من الفهم.

البديهة الناصعة:

وهذه السمة تعود لما قبلها ولكثير من سماته فأي سؤال يجيب عنه ببراعة، ومع ذلك قد يأتي بنظرة جديدة أو برأي آخر، وحين يُسأل هل هذا الرأي موجود في إحدى مؤلفاتكم العلمية يجيب إنّه وليد اللحظة.

حمل مسؤولية اللغة وأبنائها:

إنَّ الرائد اللغوي الكبير فيه سمة واضحة وهي اهتمامه بالعربية وأبنائها، ويتضح عليه الألم حين يجد الصدود عنها، سواء بتعبيرات وجهه، أو بعبارات قلمه، أو ربما بالآلام التي في أعماقه فيشعر بها السامع أو القارئ وهو في سبيل ذلك يهتم بهذا الأمر ويولي العربية وطلابها اهتمامًا لا نظير له.

الإصغاء والاستماع:

هو يستمع إلى الطالب، إلى تلك الهموم التي يخشى منها في طريق العلم، إلى المسائل التي تصعب عليه، ويضيء له بمصابيح علمه، ويشرح بكل ما أوتي من علم غزير ويورد عراقيل وصعوبات استطاع العلماء تخطيها بالصبر والإيمان بأهمية العلم.

التواضع الجم:

لا يمكن لطالب علم استقى من علمه الطيب أن يذكر قبل اسمه عبارات فهو يقف سدًا منيعًا، وأذكر في بادئ أسئلتي كنت أنعته بالعلامة المفيض؛ ولكنَّه لم يسمح لي بذلك رغم أنه أهل لذلك، وحين استجبت ولبيت طلبه وبعد فترة ذكرت ذلك اللقب أعاد عليّ كلامه الأول؛ ولأنني أحترم رأيه كثيرًا فقد لبيت ذلك في الكتابة له؛ لكنني في الحقيقة حين أتحدث عنه أنعته بذلك فهو يستحق ذلك، وحين يتحدث معه الطالب لا يشعر بالقلق من كون الطالب قد يسأل سؤالًا ساذجًا لسعة عطفه ورأفته بالطالب وذلك يندرج أيضًا ضمن الإيمان العميق بالمسؤولية تجاه العلم والطالب معًا.

الإنصاف ونبذ التعصُّب:

إنَّ المتتبِّع لمؤلفاته العلمية الغزيرة وإنتاجاته الزاخرة بالفوائد يجد الإنصاف يتجلّى في قلمه وفكره ولا تجد له تعبيرًا أو مفردة تنبئ بالتزمت بالرأي أوبالتعصب المقيت أو فرض الرأي بل إنه يذكر الآراء ابتداء من العلماء الأوائل ويتدرّج برفق وحنو كي يقرأ الطلاب بكل تمعُّن إلى أنْ يصل إلى العلماء المعاصرين ثم يذكر رأيه ولا يفرضه فرضًا بل إنَّ القارئ يفكر ويحلل ثم بعد ذلك يقرر بنفسه ويصل إلى الرأي العلمي السديد.

التألق والاسم:

عند قراءة ما يفيض به علينا تجد السطوع والإشراق ومن غير أن تقرأ اسم كاتب المقالة تعلم أنَّه فضيلة العالم المنير سعادة الأستاذ

الدكتور القدير أبو أوس فهو من الشخصيات العلمية التي نالت من اسمها نصيبًا وقد لاقى الاسم لا ريب سرورًا وغبطة لكونه ارتبط به.

تلمُّسه مواطن اللحن وإيضاحها:

حين يرد في سماء فكري تساؤل، ينتابني شعور الخجل للأخذ من وقته، ولكنني لا أقلق من مسألة إيضاح ما استعصى عليّ، لأنني على ثقة بأنَّه لا يترك سؤالي يغوص دون جواب واضح، قد مرَّ على ذلك تجارب عديدة، حين يقرأ السؤال وقبل أنْ يجيب بعلمه المتدفق يقوم بإصلاح اللحن الذي وقعت فيه، ليس ذلك فحسب بل يقوم أيضًا بذكر الصياغة اللغوية المناسبة، ويوضح لماذا أبعد تلك المفردة وجاء بالمفردة الأخرى حتى إنني ادخرت ذلك الرصيد في دفتر خاص وكتبت عليه: (إشراقات أستاذي القدير الشمسان فيما لحنت)، ورغم ذلك، وعلى جهوده فإنَّ الخطأ يتكرر، واللحن يقع على قلمي ولكنني على ثقة بأنه بوجود هذا العالم المنير ذي الفضل الكثير سينهزم اللحن وسينتصر البيان الفصيح، وهو في بيانه للخطأ ولمواطن اللحن لا تجد منه تذمُّرًا بل يوجه بحنو ورفق.

الرحمة بالطلاب والاعتداد بهم وجعلهم بمنزلة الأبناء، فهو يرجو لهم التفوق العلمي وأن تكون أذهانهم حاضرة للفهم وللاغتراف من العلم وقد شعرت بتلك العلاقة الطيبة المبنية على أسس الخلق الكريم حين وجدت كتبًا علميّةً له قد كتب تقديمها أبناؤه من الطلبة الذين فيما بعد صاروا علماء فضلاء.

ويجدر بي ذكر هذا الموقف الذي لا يمكن طيّه أو نسيانه، فهو من

باب الاعتراف بالجميل ونشر الفضيلة:

حين كتب مقالًا علميًّا في شهر رمضان المبارك، لم يسعني الوقت لقراءته إلا بعد مرور ساعات طويلة، وحين قرأته ولطالما يرد في ذهني تساؤلات وحين أرسلت التساؤل بعد الامتنان على فيضه وشكر الله تعالى على تيسير سؤاله أجابني بعبارة الرحمة، في حقيقة الأمر ورغم معرفتي بخصاله الطيبة أذهلني الموقف، هذا الصدق وهذا الإخلاص والحرص على الطلاب، وأما عبارته فكانت:

(ابنتي الفاضلة: قلقت لتأخر تعليقك على الموضوع، وخفت أن تكوني مريضة، لا قدر الله؛ ولكن الحمد لله فقد قرأت وعلقت) ثم أجابني عن السؤال المتعلق بتلك المقالة العلمية.

هنا عادت بي الذكريات إلى موقفه مع أستاذه السوداني الذي أفاض عليه علمًا لا يمكن له نسيانه بل كان النبل والوفاء وما لا يحصى عناوين تترجم له، فإذا كان في تلك المرحلة وهو طالب ما زال في أوائل المراحل العلميّة بهذا النبوغ والصدق فكيف به وقد غدا عالمًا مشرقًا يذيع صيته أنَّى ذُكرِت العربية.

في الجزيرة الثقافيّة تجد له عنوانًا جاذبًا يقرِّبه من فكر القرَّاء الناهلين الذين ينتظرون إطلالة شمسه المشرقة بمقالة علميّة قيّمة يستطيع من خلالها الطالب الفطن أن يصيغ موضوعًا علميًّا قيّمًا يستفيد منه ويُفيد ما بعده، ويبقى الباحثون والطلاب والمفكرون والمثقفون ينتظرون نهاية الأسبوع للتزود من موائده العلميّة الزاخرة التي يجود بها بكل عقيدة راسخة ومسؤولية كبيرة.

وهذا يعود إلى كونه حفظه الله يحمل العلم رسالة صدق لذلك تجده رغم مسؤولياته الكثيرة يجيب ويوضح ويبين ويرتقي بالفكر.

هذه كلها وأشياء لم أحط بها علمًا من سمات شخصية علمية معاصرة.

وينبغي إيضاح أمر مهم جدًّا هو أنَّ في الأعماق شكر كبير وافر لا يمكن لقلمي التعبير عنه ولا غرو، فالشخصية العلمية لرائد لغوي تتكاثر المزايا الحسنة فيه، إنَّه يستوعب كل الخصال التي جعلته محط إجماع على وفير علمه وسعة فضله وكثير كنوزه العلميّة وجهوده الكثيرة في سبيل الارتقاء بالفكر وإثراء المكتبات وصون العربيّة وحفظها، فما هذا إلاَّ غيض من فيض لا يمكن حصره، فهو المعلم الإنسان والمربي الفاضل والمعلم الناصح؛ إذ جعل وقته كله في سبيل الطلاب والمغترفين، وربما أخذ الطالب جلَّ وقته في السؤال والتقصي بحثًا عن الفهم فلا تجد منه صدودًا بل سعة فضل ورحمة وعطف وحنو فللَّه دره عالمًا فارسًا معطاءً منيرًا مرشدًا! أحسن بأبي أوس مفضالًا! وما أوفره علمًا وعبقريةً! ما أكرمك وأنبلك أستاذي القدير الفاضل المشرق بشمسك المنيرة دائمًا.

وأخيرًا أصدق القول بأني لو كتبت آلاف الصفحات وقمت بإنتاج المؤلفات الكثيرة لن تفي بعضًا من حقوقه الكبيرة على العلم والمتعلمين، نعم، ولو حرصت فلن أبلغ ذلك فالفيض الذي أفاضه لا يمكن حصره بقلمي.



شيخي أبوأوس*

د.معاذ بن سليمان الدخيّل
جامعة القصيم

لا شيء يبدو عليك عسيرًا كمحاولة الكتابة في موضوعات ثرّة المعاني، إنّ الكاتب إذ ذاك تفيض عليه المعاني العظيمة في موضوعه فيظلّ في حيرة الاختيار في أيّها يكتب، وأيّها يترك! وهذا دون شكّ ما كابدته إذ أردت الكتابة عن أستاذنا (أبي أوس) العالِم والإنسان. ولا تغيب عن القارئ لمؤلفات أبي أوس وبحوثه ومقالاته كثير من سمات الرجل العلميّة؛ ولذلك أعرضتُ عن هذا الجانب محاولًا الكتابة في جانب آخر لا يكاد يظهر إلا للقريبين منه؛ أهله وزملائه وطلابه الذين درسوا عليه أو أشرف عليهم. إنّ ممّا تتركه شخصيّة أبي أوس في ذاكرتك إذ تراه وتتعامل معه الروحَ المشغوفة بالعلم والعمل في آن واحد رغم أنّه قد أتمّ الترقيات الممكنة لأستاذ جامعيّ منذ سنوات طويلة، فلم يتوقّف عن المواصلة في كتابة الكتب والبحوث والمقالات والإشراف على الرسائل العلميّة ومناقشتها. لا شكّ أن القراءة والتأليف والبحث لن تنقطع إذا كان الإنسان مشغوفًا بالمعرفة وفيًّا لها، ولا أظنّ أبا أوس إلا هذا الرجل. وكان مع هذا الشغف لا تغيب عنه صفة التواضع العلميّ، فلن يجد معاناة وخصومة مع ذاته في محاورة طالب من طلابه، بل شخص مجهول في منتديات الإنترنت حول مسألة علميّة، وقد كنتُ

(*) المجلة الثقافية، العدد ٥٧٦ - صحيفة الجزيرة - الرياض، السبت ٢٨ رجب ١٤٣٩هـ/ ١٤ أبريل (نيسان) ٢٠١٨م العدد ١٦٦٣٤.

أحد هؤلاء المجاهيل الذين تحاور معهم أبو أوس أيامًا وليالي حين كنّا في شبكة الفصيح قبل أكثر من عشر سنوات، ثم تجده إذا انتهى الحوار أو كاد ختم ردّه بقوله: هذا رأيي أعرضه ولا أفرضه. ولا شكَّ أنّه مدافع صلب عن آرائه واجتهاداته التي يعلنها، ولكنّ هذا لا يعني عدم تراجعه عن رأي له إذا روجع فيه وتبيّن له أنّ الصواب قد جانبه أو أنّ معلومة قد غابتْ عنه، وربّما تمسّك برأيه دون تسفيه لرأي مخالفيه، بل يظهر اهتمامه وتقديره لأيّ اجتهاد. وما زلتُ أتذكّر -إذ نشرتُ تعقيبًا عنوانه (بيني وبين أستاذي أبي أوس) على مداخلتين كان قد نشرهما في زاويته الأسبوعيّة- رسالتَه النصيّة التي أبدى فيها تشجيعه وحفاوته بما كُتِب. وقد كان شديد الانتماء لعمله حريصًا على الوفاء بمتطلباته مهما بلغت تعقيداتها الإداريّة، وقادرًا على التعلّم والتجدّد بروح مقبلة على العمل ولا تعرف التسويف، وجدتُ هذا في كثير من المواقف التي مرّت في مرحلة إشرافه على الرسالة، ولن أقف عند سرعة إعادته الفصول التي حررتها مع كثير من الملاحظات الدقيقة، ولكن أورد شاهدين خاصّين؛ أحدهما إذ أتممت الرسالة بعثت له نسخة نهائية منها فقَبِلَها ثم ختم بأنّ هناك بعض الملاحظات الشكلية على إخراج الرسالة أريد أن ترفع من جودتها، فأبلغته أني غير خبير بالحاسوب ولكنّي سأحاول مستعينًا بأحد المختصّين، فقال: إذا جلستَ على الحاسوب اتّصل بي، فلم تنته تلك المكالمة الطويلة حتى أصلحنا العمل، وكان يصلح بعض الأشياء بنفسه إذا تعذّر عليّ ذلك لأسباب تقنيّة. وأما الشاهد الآخر فقد طلبت من زميل أن يحضر إفادة من القسم بعد المناقشة وكنت حريصًا أن أتمّ هذه الإجراءات دون علمه، فأبلغني

الزميل أنّه لا بدّ من إمضاء المشرف على الإفادة، فاضطررت أنْ أسأل أبا أوس عن أيام محاضراته في الجامعة، فأجابني ثم سألني عن سبب السؤال فأبلغته بأمر الإفادة، وأنّ هناك زميلاً سوف ينجزها ولكن نحتاج إلى إمضائك، فقال لي: لا تطلب من أحد، سوف تكون عندك غدًا. فكتبها في بيته ثم اعتمدها من القسم وأرسلها.



الشمسان معين البيان*

معن بن حمد الجاسر
مركز حمد الجاسر الثقافيّ

حبيبنا أبو أوس ذو الإطلالة البهيّة، والابتسامة المعبّرة؛ نتحيّن أوقات حضوره إلى مجلس حمد الجاسر الثقافيّ؛ فقد تشغله أعباء العمل ومشاريعه العلميّة عن انتظام الحضور غير أنّ لحضوره شأنًا آخر، وطابعًا خاصًّا؛ فهو لغويٌّ جِهْبِذٌ امتلك ناصية البيان؛ فحين يداخل يثري المداخلات والتعقيبات معنًى ومبنًى.

ولأبي أوس إسهاماتٌ متنوّعةٌ؛ فهو في صدارة ثلّة المحكّمين الذين يُوكل إليهم تحكيم المقالات ذات الموضوع اللّغويّ التي يرغب أربابها نشرها في (مجلّة العرب)؛ كما أنّه لم يتوانَ يومًا عن الكتابة في (جسور) الصادرة عن مركز حمد الجاسر الثقافيّ، ولعلّ آخر مشاركاته ما خطّه بإحساس إنسانيّ عميق احتفاءً بشخصيّة العدد المؤرّخ أ.د.عبدالعزيز الهلابيّ.

ومن إسهاماته إدارة عديد من المحاضرات، بل مبادراته في إلقاء محاضرات استدعاها الواقع وتطلّبها راهن اللغة العربيّة كمحاضرته عام ٢٠٠٧م بعنوان: (الاستعمال الوظيفيّ للّغة)، واشتراكه في محاضرة بعنوان: (الشباب واللّغة) عام ٢٠١٤م جمعت أساطين اللّغة والأدب في

(*) المجلة الثقافية، العدد ٥٧٦ - صحيفة الجزيرة - الرياض، السبت ٢٨ رجب ١٤٣٩هـ/ ١٤ أبريل (نيسان) ٢٠١٨م العدد ١٦٦٣٤.

كلّيّة الآداب بجامعة الملك سعود؛ إذ شاطره العزيز أ.د.محمد الهدلق، وأدارها أستاذنا المحقّق أ.د.عبدالعزيز المانع متّعهم المولى بسابغ نعمه.

أمّا من حيث التأليف؛ فقد صدر لأبي أوس عن مركز حمد الجاسر الثقافيّ كتابه (جدليّة الملفوظ والمحفوظ) منذ عقد من الزمن ضمّ خمسة أبحاث هي:

- الاستعمال الوظيفيّ للّغة.
- تباين كتابة الأسماء العربيّة.
- الضاد بين الشفاهيّة والكتابيّة.
- الأصالة والاتّصال في لهجات الجزيرة العربيّة.
- حكايات من نجد.

وهو مؤلَّفٌ ينسجم ورؤيةَ المركز؛ إذ تتوخّى أدبيّات جزيرة العرب التي شغلت حياة حمد الجاسر العلميّة، وباتت معلمًا في المنجز الحضاريّ.

إنّ هذا الاحتفاء سنّة حسنة في المشهد الثقافيّ تصل الأجيال، وتوقظ الأفهام إلى تملّي التجارب، وتحرّي ما هو ناجع في صياغة الذات، وصناعة المستقبل.

وختامًا يجدر الإلماع إلى تتويج هذا الاحتفاء بجمع مقالات أبي أوس الأسبوعيّة التي تتحفنا به الجزيرة الثقافيّة؛ لإصدارها في إضمامة بعنوان: (سجالات لغويّة).



الإنسانُ العالمُ(*)

د. منذر ذيب كفافي
جامعة الملك سعود - الرياض

إنّ هذا المقالَ لا يرنو إلى حصرِ الخصائص العلميةِ والإنسانيةِ والتربويةِ التي يتحلّى بها سعادة الأستاذ الدكتور إبراهيم الشمسان (أبو أوس)، بل يهدفُ إلى الإشارةِ إلى ما لفتَ نظر الكاتب منها، فأبو أوس من جيلٍ مباركٍ، أثرى الساحةَ العربيةَ، فهو شخصيةٌ علميةٌ ثقافيةٌ تتصف بالعمقِ العلميّ الرصين.

إنّ القلمَ ليعجز عند الكتابةِ عن إنسانٍ عالمٍ وجليلٍ بحجم أبي أوس، فكيف إن كان هذا الإنسان العالم جارًا لمَن يكتب؟ فإن الأمرَ يزدادُ أمانةً في الكتابةِ، حتى إنني أقفُ حائرًا أمامَ هذه المسؤولية الجسيمة.

إنّ أبا أوس (وهو اللقبُ المحبّبُ لأستاذنا الكريم) أستاذٌ ومعلمٌ حقيقي، فقد تتلمذ على يديه الكريمتين عددٌ لا بأس به من طلبةِ العلم، ويشهدُ كلّ من عرفه أنه تعلّم منه الشيءَ الكثيرَ علميًا وأكاديميًا واجتماعيًا وخُلُقيًا، فيستحقُ منا هذا العالم الذي أمضى سنين عمره في خدمة لغته ووطنه وقفةَ احترامٍ وتقديرٍ وإكبارٍ وإجلالٍ.

وعندما يتحدثُ الشخصُ عن إنسانيته؛ فإن ما يميزه في هذا الجانب

(*) المجلة الثقافية العدد ٥٧٦ - صحيفة الجزيرة - الرياض، السبت ٢٨ رجب ١٤٣٩هـ/ ١٤ أبريل (نيسان) ٢٠١٨م العدد ١٦٦٣٤.

أنه - أطال الله في عمره - قريبٌ ومحبوبٌ من زملائه وطلبته، حتى إنه في كثير من الأحيان لا يُشْعِرُ الطالب أو المتحدّث أنه أكثر منه علمًا - وإن كان هذا هو الواقع الفعلي - ويشهد بذلك كلُّ من تعاملَ معه من الزملاءِ والطلابِ، وإذا أردتَ أن تصفَ هذا الأمر فلا تملكُ إلا أن تقول إنه: تواضعُ العلماءِ.

وفي الرحلاتِ التي كان ينظمها قسمُ اللغة العربية وآدابها بجامعةِ الملكِ سُعود أكبر دليل على هذا التواضع وتلك الإنسانية، فقد شاهدتُه غير مرة إنسانًا متواضعًا، يخالط الزملاء ويتحدثُ معهم ويمازحُهم، فيأنسُ به جليسُه لما يجد فيه من روحِ الدعابة، وهذا يدل على خُلُقٍ نبيلٍ امتاز به، فمن أكثر ما يميز أستاذنا الجليل إنسانيًا خُلُقه النبيل في تعامله مع الآخرين حتى في عتابِه لهم فإنه يتبعُ أسلوبًا عزّ نظيره - وهذا جرّبتُه شخصيًا مع أستاذنا الكريم - فهو عتابٌ محببٌ، أبويّ، تعليميّ، ذو فائدة مستقبلية.

وإذا أراد الشخص أن يصفَ أستاذنا الجليل فهو في الأدبِ معلمٌ، وفي النحو جبلٌ، وفي الثقافةِ بحرُ، وفي الكتابةِ والتحدثِ بالفصحى كتابٌ نحويّ، وفي الفكرِ علمٌ شامخٌ، فهو من أبرز مؤيدي الكتابة والتحدث باللغة العربية الفصحى في وجه هذا الانتشار غير المحدود للغات الأجنبية، حتى إنه في كثير من الأوقات يدعو إلى تركِ بعض المصطلحاتِ الشائعةِ، ويضعُ بدلًا منها مصطلحًا عربيًا من فكره الخالصِ، ومما أذكرُ في هذا الجانب أنه طالبَ أن يُستبدل مصطلح (الوثّاب) بمصطلح (الواتساب) وغير ذلك الكثير، فيستحقُ أن أُطلقَ عليه لقب (نصيرُ اللغةِ العربيةِ الفصحى ومؤيدها).

أما عن صرامته العلميةِ المنهجيةِ، فعلى الرغم من تواضعِه وخُلُقه النبيل كان صارمًا في المسائلِ العلمية، وقد عرفتُه في هذا الجانب عند الاختبارات التي كنّا نعقدها مع سعادته لطلبةِ الدراساتِ العليا، فكان - حفظه اللهُ - يلزمهم بالتحدث باللغةِ العربيةِ الفصحى، وكانت أسئلتُه تهدفُ إلى بناءِ جيلٍ يهتمّ بالتفكير المنطقيّ السليم.

وتظهرُ هذه الصرامةُ العلميةُ المنهجيةُ في مناقشاته للرسائل العلمية - التي كنتُ أحرصُ على حضورها للفائدةِ - فلا تجدُ في ملحوظاتِه إلا ذلك العالِم الذي يقدّمُ لطلابه كلّ ما يفيدهم بأسلوبٍ واضحٍ ومفيدٍ، فأبو أوس مدرسةٌ حقيقيةٌ في هذا الجانبِ العلميّ، فالاهتمامُ بمثلِ هذه الأمور يأتي من واقعِ الأمانةِ العلميةِ، فهو لا يرضى ولن يرضى لطلابه ومحبيه إلا الأعلى والأفضل.

فأستاذنا عالمٌ موسوعيّ ودليل ذلك هذه المؤلفات التي تزخرُ بها المكتباتُ العربيةُ وأصبحت مراجع للآخرين، والمطّلعُ على هذه المؤلفاتِ يستطيعُ معرفةَ المنهج العلمي الذي امتاز به، فكتاباته تتصفُ بالموضوعيةِ والحياديةِ في تناول المادة المطروحة، وعدم التسرع في إصدار الحكم قبلَ استقصاءِ القضيةِ والإحاطة بها ودراستها دراسةً فاحصةً، إضافة إلى أنه لا يُحمّل الأمرَ المدروسَ أكثر مما يحتمل.

فنسألُ الله أن يمدّ لنا في عمره، ويباركَ في صحته، ويبقيه ذخرًا للغةِ العربيةِ، فهو قامةٌ فكريةٌ علميةٌ عربيةٌ وإسلاميةٌ، وأحدُ الأعلام الكبار في هذا القرن.



الأبُ المُشْرِفُ*

د. منصور صالح الوليدي
أستاذ النحو والصرف المساعد بجامعة عدن

أخذْتُ القَلَم... وضعْتُه على الورقة... لكنني لم أكتب شيئًا، غيّرْتُ من جِلستي... حاولتُ ثانيةً... ومع هذا أخفقْتُ أيضًا، تركتُ القَلَم واستلقيْتُ أتأمّل سقف الدار، فأخَذَتْ ذاكرتي تسترجع تلك اللحظات التي كلّما تذكّرْتُها ران على قلبي حزن شديد، وزارتني عَبْرة لا تكاد تفارقني حتى أترك هذا الاسترجاع وأخوض في أمر غيره.

أحقًّا؟ لقد انقَضَتْ تلك المرحلة التي أسترجع ذكراها، وأستمتع بأدقّ تفصيلاتها!

نعم... انقَضَتْ، لكنها -عندي- لم تنقضِ.

عن يميني أحمد وعن يساري سعد وأمامي راضي وجياب ومحمد وبقية الثلة الصالحة، وفي صدر المجلس يتربع كبيرنا، أبونا... وأستاذنا وحبيبنا (أبو أوس) بابتسامته التي تُدخِل السرور علينا، بحديثه الماتع عن السهيلي وابن الطراوة وابن جني وبالطبع عن سيبويه.

أتذكّر جيّدًا أنني كنت أُحدِّث نفسي في تلك اللحظات: "من المؤسف أنَّ هذه اللحظات لا تدوم".

لقد تعلّمنا من أستاذنا الكثير من العلم، والكثير من الخُلُق، والكثير

(*) المجلة الثقافية، العدد ٥٧٦ - صحيفة الجزيرة - الرياض، السبت ٢٨ رجب ١٤٣٩هـ/ ١٤ أبريل (نيسان) ٢٠١٨م العدد ١٦٦٣٤.

من الحكمة، فلم يكن أستاذُنا أستاذًا يؤدي وظيفة، كلاّ، لقد كان أبًا رحيمًا، شفيقًا، ناصحًا، حريصًا، وكان أيضًا عالمًا موجِّهًا دقيق الملاحظة.

أما الدرس الأول فهو: "أنتم لستم طلابًا، أنتم باحثون" وقد أصرّ أستاذنا على هذه الصفة في وصف المجموعة، وهو ما جعل الثقة والألفة تسود بيننا منذ اللحظات الأولى.

لقد كنّا مع أستاذنا نستمع، ونناقش، ونُعطي آراء، وننتقد، ويقوِّم بعضنا بعضًا، ولا يُنهي حديثنا إلا أذان المغرب! حتى قال أستاذنا يومًا: "هذا النقاش، وهذا الطَرْح متعة حقيقية".

وإذا كانت تلك اللحظات قد انقَضَتْ فإنَّ علاقتي بأستاذنا لم تنقضِ، بل لعلَّها قد بَدَأَتْ، فقد بادرْتُ أستاذنا فور انتهاء المرحلة التمهيدية وطلبْتُ منه أن يكون مرشدًا ومشرفًا، وكم كانت سعادتي يوم أن أبدى رضاه عني، ووافق على الإشراف، وأَسْمَعَني ما وعاه قلبي، وجعَلَني أشعر بمسؤولية كبيرة على عاتقي!

ثم جاء موضوع اختيار العنوان وقبوله، وهي معضلة كبيرة لدى كثير من الدارسين، وقد راوَدَني بعض الخوف ألّا يُقبل موضوعي، وهو موضوع كنت قد أَحضرْتُه معي من (عَدَن) لإيماني أنه موضوع جاد، ويستحق الدرس، لكن ماذا لو أن أستاذنا لا يرى ما أرى؟ يومَها عَرَضْتُ الموضوع على أستاذنا بإرساله إلى بريده الإلكتروني، فجاءني ردُّه - حفظه الله - برضاه عن الموضوع، واستحسانه له بكلمة واحدة: (رائع)، وكان العنوان هو (ظاهرة التفرُّد بالرأي عند النحويين)، ورأى

أستاذنا إزالة كلمة (ظاهرة) من العنوان، ثمَّ إرسال الموضوع إلى بريد لجنة اللغة والنحو، وكان رأيي إبقاء العنوان كما هو، غير أني نزلْتُ عن رأيي لرأي أستاذنا وغيَّرْتُ العنوان، ثم أرسلتُه إلى بريد اللجنة.

خطأ إلكتروني

عند إرسال العنوان غَفِلْتُ فأرسلْتُ الموضوع إلى بريد اللجنة العلمية بالعنوان الأول الذي طلب أستاذنا تغييره وهو (ظاهرة التفرد بالرأي عند النحويين)؛ ذلك أني عند اختيار الملف المُرفَق اخترْتُ الملف قبل التغيير! ولقد أصابني هَمٌّ لا يعلمُه إلّا الله، كيف لي ألّا أستجيبَ لطلب أستاذنا، وكيف أرسل العنوان بالصورة القديمة وقد أخبرتُه أني قد غيَّرْتُ العنوان؟ خِفْتُ أن يغضب أستاذنا! ولم يكن أمامي سوى الاتصال به؛ لإخباره، والاعتذار عن هذا الخطأ، ففعلْتُ، وقد كان هذا الموقف دَرْسًا آخر من دروس أستاذنا التي تعلمناها منه؛ إذ جاءني ردُّه بما سَرَّني: "لعل هذا هو الأفضل، وسنرى رأي اللجنة أيستصوبون رأيك بالعنوان كما هو أم يغيرونه كما رأيتُ أنا"، حمدْتُ الله كثيرًا يومها، وأكبرْتُ هذا العالم المتواضع الذي يستأنس بقول تلميذه، ولا يرى غضاضة في أن يساوي بين القولين أمام اللجنة العلمية.

درس ثانٍ في موضوع العنوان

قَبِلَتْ اللجنة العلمية العنوان بالصورة التي رآها أستاذنا -حفظه الله- وطَلَبَتْ بعض التغيير في عنوانات الفصول، ولقد وافَقَ قبول العنوان أنْ رزقَني الله مولودة كانتْ سببًا في غيابي عن الجامعة، وبعد أيام، جاءني بريد من أستاذنا يقول فيه: "هذا هو عنوانك الذي قبلتْه اللجنة، وهذه

هي خطتك في صورتها النهائية، وكانت اللجنة قد طَلَبَتْ بعض التغيير، نُبْتُ عنك في إجرائه" وكان أستاذنا قد علم بحالي وبموضوع المولودة بعد أن سأل بعض الزملاء عن سبب غيابي، ولم يكتف أستاذنا بهذا، بل حرص على إكرام المولودة، وإهدائها ما يناسب وضعها.

ومن المواقف الطريفة أنني قابلتُ أستاذنا بعد أنْ شَرَعْتُ في كتابة التمهيد وأخبرْتُه أنني على وشك إكماله، ولعلّي أرسله إلى بريد أستاذنا بعد يوم أو يومين، وكان ظني أن هذه المدة كافية لإكمال ما تبقّى، ولكنها لم تكن كذلك، فلقد تجاوزْتُ اليومين، والثلاثة، والأسبوع، ولم أنتهِ، فأَخَذَ مني الحياء مأخذًا! وفي تلك الأثناء قابلْتُ صديقي العزيز د. صالح حسن الوجيه فقال:

- لقد قابلْتُ الدكتور أبا أوس، وسأل عنك.
- هل قال شيئًا؟
- نعم، قال: "قُلْ لمنصور يقرأ بانَتْ سعاد"

أدركْتُ مراد أستاذنا فضحكْتُ كثيرًا، في حين كان د. الوجيه في حال ذهول!

- لماذا تضحك؟
- هل فهمْتَ مراد أستاذنا؟
- نعم، لعل في القصيدة شيئًا ذا علاقة بموضوعك.
- لا، ليس هذا هو المراد، بل مراد أستاذنا من القصيدة بيت واحد، وهو قول كعب:

كانتْ مَواعيدُ عرقوبٍ لها مَثَلاً   وما مواعيدُها إلا الأباطيلُ

عَكَفْتُ ليلتها على التمهيد حتى أنهيتُه قبيل الفجر، وبعد الفجر

أرسلتُه إلى أستاذنا، ثم ذهبْتُ إلى الجامعة وقابلْتُه -حفظه الله- وما إنْ رآني حتى تبسّم، فاعتذرْتُ منه وأخبرته أني قد أرسلْتُ التمهيد إلى بريده بعد الفجر، فبادرني: "لقد قرأتُه وأرسلْتُه إلى بريدك".

سبحان الله، هذا درسٌ آخر في المبادرة إلى العمل، فلقد قرأ التمهيد، وعلّقَ عليه، وأَرسَلَه بعد ذلك!

أمّا توجيهاته العلميّة في أثناء كتابة البحث، وقراءته كلمة كلمة فهي هي! وكانت من النِعَم الكبرى المباركة حتى إذا استوى البحث على سوقه، وانتهى إلى الصورة التي قُدِّمتْ للمناقشة، أخبرني برضاه عن العمل، وتوصيته لمركز الملك عبد الله بن عبد العزيز الدولي لخدمة اللغة العربية بطبع الرسالة.

مَنْ يعرف أستاذنا حقَّ المعرفة يعرف أنَّ ما قيل فيه قليل في حقّه، وأنَّ فضله - حفظه الله ونَفَعَ به - علينا جميعًا عظيم، ومكانتُه في نفوسنا لا تدانيها مكانة، فطريقة تعامله مع أبنائه الطلاب، وحرصه عليهم، وزرع الثقة في نفوسهم، مما لا يوصف، حتى إنه ليسأل عن طلابه، وأوضاعهم، الصحية، والمالية، ويعرض عليهم مرافقته لهم إلى المشفى إنْ احتاجوا لذلك!

هذا هو أستاذنا الذي عَهِدْنا.
والذي أحببنا.

جزى الله خيرًا أستاذنا أبا أوس، وجعل عمله في ميزان حسناته يوم القيامة، وجَعَلَنا ممن يبرُّ بأساتذته ومعلميه، وكل ذي فضل عليه.



مسيرة أزهرت علمًا*

أ.د. نوال بنت إبراهيم الحلوة
أستاذ علم اللغة بجامعة الأميرة نورة بنت عبدالرحمن

أبو أوس قامة علمية مشهودة، وعلم من أعلام النحو المعاصرين، وتلميذ أحد أعلام اللغة المسددين الأستاذ الدكتور محمود فهمي حجازي (رحمه الله)؛ لذا فإن استدعاء عالم بقيمة أبو أوس مقام يحفز على المشاركة حيث سيسيل القلم ذكرًا وعلمًا؛ فهو رجل له هويته العلمية الخاصة فليس بالتقليدي المتشدد ولا بالحداثي المنبهر؛ معتز بتراثه، متوثب للذب عنه، إلا أنه وقف ناقدًا ومفكرًا في بعض المسائل النحوية القديمة، وحاول أن يشق طرقًا جديدة للنظر في المادة القديمة لتوليد أفكار جديدة منها توسع آفاق التفكير النحوي وتخرجه من جموده، كما استثمر ما طرحته الدراسات الحديثة بمناهجها في هذا المجال، وكان له رأيه في انفتاح الوعي على النظريات والمناهج اللسانية المعاصرة، حيث أسهم في بعض أبحاثه باختبارها والكشف عن أسسها المعرفية وتطبيقاتها على اللغة العربية، فقد كان أبو أوس متمسكًا متجددًا يقرأ بنهم كل ما يجد بالنظرية النحوية ثم يطبعها -بعد أن يحسن النظر فيها- بعين التراثي المتأصل، وهذا المزيج وذاك التوظيف قلّما تجده في نحوي سعودي، فأخرج بهذا المنهج أبحاثًا عديدة ذات رؤى جديدة.

ولا يخفى على المتابع لإنتاجه العلمي أن أبا أوس لغوي له حس

(*) المجلة الثقافية، العدد ٥٧٦ - صحيفة الجزيرة - الرياض، السبت ٢٨ رجب ١٤٣٩هـ/ ١٤ أبريل (نيسان) ٢٠١٨م العدد ١٦٦٣٤.

اجتماعي تداولي، إذ حاول أن يدمج علم النحو بعالمه فتحول من دراسته للغة بوصفها نظامًا إلى دراسة علاقتها بالمجتمع المحيط؛ لذا اهتم باللغة المستعملة والتفت إلى الظوهرة اللغوية المعاصرة وأطال النظر في اللهجات الحديثة، محاولًا أن يرصد واقعه اللغوي وأن يتمثله، كما كانت الأخطاء الشائعة في اللغة المعاصرة من همومه اللغوية فوقف مترصدًا لها ليقلل من التلوث اللغوي الذي أُصِيبت به اللغة، ولما كان المعجم ذاكرة الأمة كان لأبي أوس سهمٌ منه، فألف (معجم أسماء الناس في المملكة العربية السعودية) ليسبق في التأليف في صنف جديد من العلوم المعجمية هو (الأسمائية) التي تهتم بتأصيل الاسم العلم.

هذا فيض من غيض مما لا يتسع له هذا المقام، فأبو أوس إبراهيم الشمسان رجل علم له جهود جبارة، ومسار طويل، وسعي حثيث في خدمة العربية فبوركت خطاه ومن سار على هداه وجعل عمله في ميزانه.

والله الموفق.



إضاءات من سيرة الشمسان*

د. ياسر أحمد سيف قائد

حين يكون الوفاء هو الدافع للكتابة، والاعتراف بالفضل هو المضمون، والاعتزاز بعلمائنا هو الذي يجب أن يكون، أجد حروفي طيّعةً لتدوين شهادة للتاريخ، وحفظ أقلّ ما يجب لأستاذي صاحب الفضل أبي أوس الشمسان، من أفدت منه علمًا وخلقًا.

أبو أوس، إبراهيم بن سليمان الشمسان، من عرف بكنيته بين طلابه ومحبيه وفي المؤسسات العلمية، كانت محافظة المذنب بمنطقة القصيم هي محطته الأولى في حياته العلمية، بعدها تعددت مشاربه والبيئات العلمية التي نهل منها، فتنقل بين القصيم والرياض والقاهرة وغيرها من البلدان.

اللغة بقضاياها هي الحاضرة في حياة أبي أوس، بها ولها يكتب، وعنها يتحدث، ومنها وبها ولها يستشهد، ولأجلها ينقُدُ ويعقّبُ، له في تاريخ النحو إسهامات، وفي أصول النحو كتابات ومؤلفات، وفي تيسير تعليمه مشاركات وكتابات، تعرفه المجامع اللغوية، والندوات والمؤتمرات الدولية والمحلية، له مع الجُمَلِ وقفات ومؤلفات، ومع الحروف دراسات وتعليقات، وفي مجال الأسماء مداخلات ومعجمات.

تقفُ وأنت تطالع ما يكتب أو تسمع ما يقول، أمام عالم نحوي،

(*) المجلة الثقافية، العدد ٥٧٦ - صحيفة الجزيرة - الرياض، السبت ٢٨ رجب ١٤٣٩هـ/ ١٤ أبريل (نيسان) ٢٠١٨م العدد ١٦٦٣٤.

وناقد لغوي، وراصد معجمي، يحاور القدامى من النحويين واللغويين ويجلّهم، وينقدهم من غير استنقاص جهودهم، له اجتهادات وآراء، يوردها بعد استقصاء وتأصيل موضع التحرير. نقده العلمي يُشعرك بحارس أمين للغته، وتعقيباته وتساؤلاته تجعلك أمام مراقب ومحاسب دقيق لكلٍّ متجاوز في عباراته وأساليبه.

النتاج الفكري والمعرفي لأستاذنا الشمسان، وتنوعه يجعلنا أمام عالم وهب حياته للعلم، أحبَّه، وعاش له، يؤصل مسائله، ويوجه شواهده، ويحاور مضامينه، لا يسلّم من غير نقاش، ولا يناقش من غير حجة، ولا يحتجّ بقول لا تسنده الأدلة والشواهد، يربط بين القديم والحديث، ويؤلف بينهما، لا يقدم قديمًا لقِدمه ولا حديثًا لجدته، يوازن بين الأقوال ويرجح ما ظهر له وإن خالف أقوال السابقين. وفيٌّ لوطنه، قريبٌ من مجتمعه، يرصدُ الظواهر اللغوية في حياة الناس، ليجعلَ اللغة حياةً حيَّة. من يتتلمذ على يديه يكتسب منهج التدقيق والتحقيق والتحرير معًا، حين يغيب (الأنا) يحضر العالم الشمسان بتواضعه ورقي طرحه.

حين يكون أستاذك هو الشمسان فقد نلت حظًا من التوفيق، فأنت بين يدي المعلم والأب والموجّه، عمدةٌ في هذه كلها، مرفوع أصالة في قلوب طلابه، مبتدأ مخبر عنه بجملة لا حصر لها من الصفات النبيلة، له الصدارة والأصالة، من يتعثر يسنده، ومن تتقطع به سُبل البحث يرشده ويهديه السبيل.

قيم الوفاء - في عصر كثر فيه الجفاء - تتجلى في تعاملات أستاذنا أبي أوس، حين يقابل أساتذته أو يتحدث عنهم تدرك هذه القيمة، إنه

سلوك العالم، وما يجب أن يكون عليه طلاب العلم من وفاء لمن أحسن إليهم ولمن له فضل في مسيرتهم العلمية. ما يميّز الشمسان أنه يحفظ الود لأصحاب الفضل، ولا ينصرف عن ذلك، ثناء، ودعاء، وإرشادًا إلى تراثهم والعناية به، يلمس هذا كلُّ من تتلمذ على يديه.

سيحتفظ التاريخ بما قدّمه للعربية، وسيُضاف إلى قائمة علمائنا الكبار، فهو المسند إليه جميل الخصال، وهو الذي لا ينصرف عن أخلاق أهل العلم، له إسهامات علمية ومؤلفات كثيرة، في النحو والصرف، والنقد اللغوي، وتاريخ النحو، وإصلاح الخطأ، والمجال النحوي التطبيقي.

ما بدأت الكتابة عن أستاذنا الشمسان وما انتهيت، لكنني أشرت واستثرت محبيه ليكتبوا عن جوانب من حياته.



قراءات

دروس في علم الصرف هل من جديد؟(*)

أ.د. أحمد مطر العطية
جامعة الملك سعود - الرياض(سابقًا)

عرفت أخي أبا أوس من كثب، فعرفت فيه معاني الإنسانية بكلّ تجلّياتها، عرفت فيه الوفاء والإخلاص وكرم الأخلاق، عرفت فيه الخصال الرّاقية، والصّفات السّامية، عرفته عالمًا لغويًّا فذًّا، جليل القدر، خدم هذه اللّغة الشّريفة باحثًا ومدرِّسًا ومؤلِّفًا، أغنى المكتبة العربيّة بمؤلّفاته الجليلة، وأبحاثه الأصيلة، مدّ فيها جسورًا تصل الحاضر بالماضي، وتربط المعاصرة بالتّراث، فكانت مؤلّفاته منهل طلاب المعرفة ومقصد الباحثين عن العلم الأصيل، والفكر الرّصين؛ ولهذا كلّه ولغيره فإنّ أبا أوس حقيق بالتّكريم، وجدير بالاحتفاء.

وفي يوم تكريمه لا أجد في بضاعتي المزجاة ما يليق بمثل هذه القامة الشّامخة، فنكصت أتلمس الماضي، فوجدت أنّي منذ أكثر من عشرين عامًا عندما أصدر أستاذي أبو أوس كتابه (دروس في علم الصّرف)، كتبت مقالًا عنه، بعنوان: علم الصّرف هل من جديد؟ قراءة في كتاب دروس في علم الصّرف، نُشرت في صحيفة الرّياض بتاريخ ٢٨/ جمادى الآخرة/ ١٤١٨هـ، فليسمح لي أخي أبو أوس أن أهديه هذا المقال في يوم تكريمه. وإليكموه:

لا ريب أنّ علم الصّرف من أهمّ أبواب علم اللّغة، لأنّه ميزان

(*) نشر في المجلة الثقافية، صحيفة الجزيرة، السبت، ٢٨ رجب ١٤٣٩هـ/ ١٤/ ٠٤/ ٢٠١٨م.

العربية، وبه تعرف أصول كلام العرب كما يقول ابن جنّي (ت ٣٩٢هـ) (المنصف ١/ ٢). وقد دعا ابن عصفور (ت ٦٦٩هـ) إلى تقديم علم الصّرف على غيره من علوم العربية، فقال: «وقد كان ينبغي أن يقدم علم التّصريف على غيره من علوم العربية إذ هو معرفة ذوات الكلم في أنفسها من غير تركيب، ومعرفة الشّيء في نفسه قبل أن يتركّب ينبغي أن تكون مقدّمة على معرفة أحواله الّتي تكون له بعد التّركيب» (الممتع ١/ ٣٠).

ومع أهمية هذا العلم، فقد ظلّ التأليف فيه مخالطًا بالنّحو، ويعيش تحت ظلاله، ولم يصلنا مؤلّف مستقلّ في الصّرف إلّا في القرن الثّالث الهجري، وذلك عندما ألّف أبو عثمان المازني (ت ٢٤٩هـ) كتابًا في التّصريف، وشرحه ابن جنّي، في كتابه (المنصف)، ثمّ توالت البحوث الصّرفيّة، ولكن معظمها جاء في فصول ملحقة بالكتب النّحويّة.

وفي عصرنا الحاضر ظهرت بحوث عديدة في علم الصّرف واستقلّت في كتب مفردة، مستفيدة من علم الأصوات الحديث، وكتاب الصّديق الكريم أبي أوس يأتي مساهمة مباركة في هذا المجال.

حدّد الدّكتور غرضه من تأليف كتابه في مقدّمته، إذ يقول: «أتى هذا الكتاب نتيجة للحاجة الماسّة إليه، ليكون مرجعًا أوليًّا للطّلاب المتخصّصين بدرس اللّغة العربيّة، يمهد الطّريق لهم ليكتسبوا بعض المعرفة الصّرفيّة الّتي تهديهم إلى التّمكين من المهارات التّصريفيّة» (المقدّمة ٥).

فالغرض إذًا تعليميّ، والهدف تربوي، فقد أدرك الدّكتور الشّمسان خلال تدريسه لعلم الصّرف في جامعة الملك سعود - قسم اللّغة العربيّة

- لسنوات عدّة، أدرك مدى تعثّر الطّلبة في استيعاب هذا العلم، وتذمّرهم من دراسته، ومردّ ذلك إلى أنّ معظم الّذين ألّفوا في هذا العلم عالجوا مسائله وموضوعاته وكأنّها ظواهر معزولة بعضها عن بعض، ورتّبوها على مشابهة خارجيّة لفظيّة، لا على وحدة داخليّة معنويّة. فبدت موضوعاته مشتّتة لا ينظّمها نظام، ولا يربطها نسق معيّن.

ولهذا كلّه جاء الكتاب ليسدّ تلك الثّغرات المنهجيّة في تأليف الكتب الّتي توضع بين أيدي الطّلبة، فكان أهمّ ما يمتاز به منهجه المحكم وترتيبه المنسّق، إذ استطاع الدّكتور الشّمسان تبويب موضوعات كتابه خير تبويب، وترتيبها أحسن ترتيب، فكان بذلك منهجيًّا حقًّا في عرض مادّة كتابه عرضًا محكمًا، ضمّ فيه الأشباه إلى أشباهها والنّظائر إلى نظائرها، وحصر الموضوعات المتماثلة في باب واحد لا في أبواب متفرّقة، فبدأ بعد التّمهيد بالقضايا المشتركة بين الأفعال والأسماء، ومن ثمة انتقل إلى قضايا الفعل الصّرفيّة، وأتبعها بمباحث الاسم، ثمّ تحوّل إلى معالجة قضايا التّغيّرات الصّوتيّة والصّرفيّة.

وبهذا الصّنيع قدم الصّرف على أنّه نظام متكامل تتّصل أجزاؤه في اتّساق وانسجام، من أجل بلوغ الغاية الّتي وضعها نصب عينيه.

أمّا أسلوب الكتاب، فكان أسلوبًا تعليميًّا محضًا، يتّسم بسلاسة التّعبير، وإيثار الأسلوب العصريّ السّهل الّذي ينأى عن التّعقيد والجفاف، إذ استطاع الدّكتور أبو أوس أن يعرض مادّة كتابه عرضًا رشيقًا في أسلوب واضح مهيع، وعبارة نقية مشرقة، ومناقشات منطقية تعتمد على الشّرح والتّحليل، مستعينًا بالأمثلة الكثيرة الّتي تساعد على فهم الظّاهرة، واستيعابها كما أنّه كثيرًا ما كان ينظّم النّتائج في جداول

متنوّعة تزيد المسائل وضوحًا وبيانًا، وتساعد على اكتساب المهارات وإتقانها.

إنّ كتاب (دروس في علم الصّرف) يحمل سمات واضحة للتّيسير والتّبسيط في الدّرس الصّرفي، والابتعاد عن العسر والتّعقيد والغموض والإبهام، الّتي طالما شكا منها الطّلبة واتّخذوها ذريعة في تسويغ فشلهم في اكتساب المهارات الصّرفيّة.

فهذا المنهج الّذي اتّبعه الدّكتور الشّمسان بمواصفاته الّتي ألمعنا إليها، يجعل الطّالب يتدرّج في اكتساب المعرفة تدرّجًا طبيعيًّا، يبعده عن التّشويش والإرباك والإحباط.

ومع أنّ الكتاب أُلِّف وفق التّصوّر العربيّ التّقليديّ لعلم الصّرف (كما أشار المؤلّف في مقدّمته ٥) لم يظلّ أسير دراسات القدماء وآرائهم، بل استفاد من أبحاث المحدثين ودراساتهم، ويتضّح ذلك في كثير من الحواشي الّتي أعقبت فصول الكتاب. انظر مثلاً الحواشي (١١، ١٢، ١٣، ١٤، ص ١٣، ج١) والحواشي (١٥، ١٦، ١٨، ٢٧، ص ٢٥، ج٢).

لقد حرص المؤلّف الكريم على الرّبط بين الماضي والحاضر، والقديم والحديث، إيمانًا منه بأن لا حديث بلا قديم، ولا جدوى من قديم يتقوقع على نفسه ولا يتطوّر مع الزّمن ومعطيات التّرقّي الثّقافيّ والفكريّ.

وممّا تجدر الإشارة إليه أنّ المؤلّف - وإن كان معتمدًا آراء القدامى - لم يسلّم لهم بكلّ شيء، بل كان أحيانًا يناقش آراءهم، ويبين ما فيها

من خطل، من ذلك مناقشته رأي ابن مالك في بناء الفعل الأجوف للمجهول (١/ ٧٤).

ومن مزايا الكتاب توثيق مادّته، فكانت تعقب كلّ فصل حواشٍ تربط المادّة المعروضة بمصادرها، وتحيل عليها بغية إرشاد الطّلبة إلى ما يعمق معرفتهم، ويوسعها، ويزيد من دائرة اطّلاعهم، وقلّما نجد مثل هذا الصّنيع في الكتب التّعليميّة.

ومن الإلماعات الجيّدة في الكتاب، ما نجده من ملاحظات لغويّة دقيقة، ناجمة من حسّ لغويّ أصيل، من ذلك ما ذهب إليه الدّكتور من أنّ اللّغة كاشفة لبيئة مستخدميها، وذلك أنّه وجد ظاهرة التّصغير واسعة الانتشار في بيئة نجد بعامّة وفي القصيم بخاصّة. وردّ ذلك إلى ما كانت عليه هاتان البيئتان من فاقة وشظف عيش، فكان أن عمد السّكان إلى تصغير الموجودات من حولهم تعبيرًا عن قلّتها أو شدّة تعلّقهم بها، كما لاحظ انحسار هذه الظّاهرة مع التّغيّرات الّتي حسنت الأحوال الماديّة (انظر ٢/ ٤٤).

وكذلك نجد في الكتاب إشارات إلى بعض اللّهجات العربيّة المعاصرة الّتي رصدها المؤلّف، مثل ظاهرة الإمالة في لهجة (سدير)، وكذلك ظاهرة النصب (الفتح) في لهجة (الوشم) في مثل (بَيت، عَيش) إذ أبقت على الحركة المركبة، بينما تحوّلت في اللّهجات العربيّة المعاصرة إلى حركة ممالة (انظر ٢/ ١٧٧).

وقد عمد المؤلّف الكريم إلى ذكر تفسير بعض الظواهر الصّرفيّة، مثل تفسير إبراهيم أنيس ظاهرة القلب المكاني معتمدًا على الإحصاءات

المعجمية الّتي أجريت على الحاسوب (١/ ٤١).

وللدّكتور أبي أوس آراء في بعض القضايا الصّرفيّة الّتي كانت موضع خلاف بين الصّرفيّين، من ذلك دعوته إلى جواز النّسب إلى الجمع، فيقول: «وقد نشأت الحاجة في وقتنا الحاضر إلى النّسبة إلى الجمع، مثل (دُوَليّ) نسبة إلى (دول)» (٢/ ٧٦).

ومن ذلك أيضًا إجازته تصغير ما يمنع تصغيره، إذا كان في سياق أدبيّ أو فنيّ، فبعد أن ذكر الأسماء الّتي لا يجوز تصغيرها، قال: «لكنّ السّياق هو الفيصل في تحديد ذلك، فإذا كان الحديث عن (سبت) بعينه معهود، فإنّه يمكن أن يناله التّصغير في سياق أدبيّ أو فنيّ» (٢/ ٤٦).

ومع أنّ الدّكتور الشّمسان حاول أن يستفيد من علم الأصوات الحديث في معالجة بعض القضايا الصّرفيّة لم يعمد إلى التّحليل الصّوتي للظّواهر الصّرفيّة، وبخاصّة ظاهرتا الإعلال والإبدال، ولكن كنت أتمنّى على الأخ أبي أوس أن يهتمّ بالتّحليل الصّوتي الّذي يكشف عن نظام اللّغة ووظائف عناصره والأسس الّتي يقوم عليها، فليس هناك ما يمكن من فهم روح اللّغة وفقه أسرارها، مثل ذلك التّحليل الصّوتي، ولعلّ هذا من أهمّ المبادئ الّتي اكتشفتها اللّسانيات الحديثة.

ومن شأن ذلك التّحليل أنّ يثبت صحّة القوانين الصّرفيّة ومنطقيتها. (قارن بما فعله الدّكتور عبد الصّبور شاهين في كتابه (المنهج الصّوتي للبنية العربيّة: رؤية جديدة في الصّرف العربيّ) وخاصّة الصّفحات: ٧٢، ١٥٤ - ١٥٥، ١٧٩، ١٨٢، ١٨٤، ١٩٩)، وانظر أيضًا (الصّرف وعلم الأصوات) للدّكتور ديزيره سقال، وخاصّة الصّفحات

٧٢، ٨٠، ١١٥، ١٢٠، ١٣٣، ١٣٤، ١٥٤، ١٧٢).

وثمة بعض هنّات، تخضع للمناقشة، من مثل جعله التّاء المربوطة في «بلدة» لتكثير الكلمة (٢/ ١٧).

وأرى أنّ هذه التّاء لتأكيد التّأنيث، فكلمة (بلد) تذكر وتؤنّث (المصباح المنير «بلد») فعندما تدخلها التّاء تخلّصها التّأنيث.

وفي بحث أغراض الزّيادة، ورد قوله: «وتذكر بعض المصادر النّحويّة أغراضًا أخرى للزّيادة، منها[1] تليين اللّفظ، مثل: عمامة، وصحيفة، وعجوز».

كنت أتمنّى على الأخ الكريم أن يوضّح المقصود بـ(تليين اللّفظ)، ولا سيما والكتاب تعليميّ بالدّرجة الأولى. ولعلّ جعل مثل هذه الزّيادة لمدّ الصّوت يكون أمثل.

وفي حديثه عن المبني للمفعول، وردت الجملة الآتية: «لُمت من قبل زيد» (١/ ١٧٤).

ومعلوم أنّه متى حذف الفاعل وناب عنه نائبة، فلا يجوز أن يذكر في الكلام ما يدلّ عليه. ولذا لا معنى لإيراد: «من قبل زيد»[2].



(١) هذا لفظ أبي الفداء في الكشكول. والمعنى واضح. (المحررون).
(٢) لإيراده هنا غرض إيضاحي وهو بيان المسند للمفعول لأن (لُمتُ) مشترك لفظي. (المحررون).

الشمسان وشجون اللغة(*)

أ.د. أحمد مطر العطية
جامعة الملك سعود - الرياض(سابقًا)

تفضل علي أستاذنا أبو أوس بإهدائي نسخة من كتاب له صدر عن نادي القصيم الأدبي، بعنوان «من شجون اللغة».

وهذا العنوان فيه كثير من سمات أستاذنا الجليل، فهو مسكون بهواجس اللغة وهمومها وشجونها، وهو الذي كرّس علمه وتعليمه وكتاباته لقضايا اللغة وشؤونها، فكان بحق من سدنة هذه اللغة الشريفة -على حد تعبير ابن جني- والمنافحين عنها، فقد كتب في جوانب كثيرة ومتنوعة، وألف فيها جملة صالحة من الكتب القيمة المفيدة.

جاء الكتاب في ثلاثة فصول:

الفصل الأول عنون له بمسائل لغوية

والفصل الثاني وسمه بكتب وبحوث ولقاءات

ثم ختم بالفصل الثالث «من رجال العلم»

وسأعرض في هذه العجالة ما جاء في الفصل الأول الذي تضمن أربعة أقسام، أولها المسائل الصوتية والصرفية، وثانيها المسائل النحوية، ثم المسائل المعجمية، وأخيرًا مسائل الرسم الإملائي. استهل أستاذنا

(*) نشرت في صحيفة الجزيرة على جزأين الأول في السبت ١٧شعبان ١٤٣٨هـ - ١٣/ ٠٥/ ٢٠١٧م، العدد ١٦٢٩٨، والآخر في السبت ٢٤ شعبان ١٤٣٨هـ - ٢٠/ ٠٥/ ٢٠١٧م، العدد ١٦٣٠٥.

هذا الفصل بمدخل وضح فيه علاقة العربية بالعلوم الإنسانية والتطبيقية؛ فاللغة -كما قال - تمتاز بأنها الوسيلة المعبرة عن الإنسان، وتصوره عن الكون، والقادرة على إنجاح تواصله وتفاعله. وفي حديثه عن المسائل الصوتية والصرفية نجد أبا أوس يغوص في مسائل صرفية، محللاً مدقّقًا، يناقش أقوال القدماء مناقشة علمية عميقة، يوازن بين أقوالهم، مرجّحًا قولًا على قول، مع إيراد الأدلة والحجج والبراهين، مضفيًا عليها من روحه وفقهه اللغوي، ويضيف مصطلحًا إلى مصطلحاتهم، كمصطلح «الصفة المشبهة باسم المفعول»، ويورد أمثلة متنوعة على هذا المصطلح، الذي غفل عنه القدامى والمحدثون على حد سواء. وأجد أن أبا أوس وفق أيما توفيق إلى هذا المصطلح الصرفي الجديد. وفي المسائل النحوية عالج أستاذنا جملة من القضايا النحوية، ولا يخلو بعضها من طرافة، ككتابة الشيكات المصرفية، وكتابة الأرقام.

ومما عالجه أنواع (ما) واتصالها بـ(دام)، حيث إن من شروط (دام) أن تسبق بـ(ما)، وقد تتنوع (ما)، فقد تكون مصدرية وقد تكون نافية، أو شرطية، وتختلف دلالة (دام) باختلاف (ما).

وحقيقة قل من الباحثين من التفت إلى هذا التنوع، حتى جاء شيخنا فجلا الأمر جلاء واضحًا، كاشفًا عن التنوع الدلالي بتنوع (ما).

ومن المسائل النحوية التي عالجها، وفيها فوائد جليلة للناشئة والشادين في اللغة، مسألة تغيير حروف المعاني في كلام المحدثين تأثرًا باللغات الأعجمية، من ذلك استعمال (أمّا) وكيف حلت محلها في أسلوب المحدثين جملة من المركبات، مثل: أمّا بالنسبة، وأمّا بخصوص، أما ما يتعلق، أما فيما يتعلق. وكذلك بعض التراكيب التي

حلت محل الباء، وأورد أمثلة لذلك من واقع أساليب المحدثين.

وبين أستاذنا أن استعمال مثل هذه التعابير، لا يعد خطأً نحويًا، يؤدي إلى اللحن، بل هو تجاف عن طريقة العربية وسمتها، وإيثارها الاختصار والابتعاد عن الحشو والإطناب.

وفي رؤية أبي أوس هذه، دعوة صادقة إلى المحافظة على الصفاء اللغوي، والتمسك بأصول اللغة وعدم الابتعاد عنها.

هذا بالإضافة إلى معالجة مسائل لغوية متعددة، مثل التوسع في استخدام المصطلح، والعطف المقطوع، والتأكيد بـ«كلا وكلتا» وغير ذلك من المسائل.

وهذه القضايا اللغوية المتنوعة التي عالجها شيخنا الفاضل تناسب طلاب العلم المتخصصين، غير أنها قدمت وعرضت بلغة واضحة مأنوسة، وبأسلوب سلس مرن؛ ليستفيد منها القارئ العادي من غير ذوي الاختصاص.



في الفصل الثاني من شجون اللغة، عرض أستاذنا أبو أوس جملة من الكتب التي تناولت قضايا اللغة وشؤونها في العصر الحديث، من أول تلك الكتب (أثر اللسانيات في تعليم اللغات) لرضا الطيب الكشو، وتبرز أهمية هذا الكتاب في أنه اهتم ببيان أثر اللسانيات في تعليم اللغات عامة؛ انطلاقًا من كون اللغة بنية، هي جملة من العلامات ذات العلاقات المترابطة، وحاول المؤلف بناء منهج علمي، لإعداد مادة تعليمية صالحة، وبين الدكتور أبو أوس أن في هذا الكتاب دعوة إلى

مراعاة الشيوع في استعمال الألفاظ والتراكيب، وبهذا الطرح اقتربت مادة تعليم اللغة من حياة الناس، مما يؤدي إلى جدوى تعلم اللغة، وبهذا يكون المتعلم أقدر على التواصل باللغة والتفاعل معها.

وقد بين أبو أوس أن هذا الكتاب يشرح أثر اللسانيات في تعليم اللغات، بما ابتكره من طرائق ناجعة في تدريس اللغات إذا ما أحسن استعمالها، ويعد كتاب الكشو من أفضل الكتب التي تناولت تبسيط الوسائل والأساليب في تعليم اللغات. وحقيقة نحن ننتظر من اللسانيين أن يقدموا لنا نظرة جديدة وطريقة مبتكرة لاكتساب اللغة مستفيدين مما أحرزه علم اللسانيات من تقدم وتطور.

وثاني كتاب عالجه أستاذنا الفاضل (الأسمائية في اللسانيات الحديثة بين النظرية والتطبيق) لزكية السائح دحماني، وقد ذكرت المؤلفة أن الأسمائية فرع من فروع المعجمية، وتهتم بدراسة الاسم العلم لغويًّا في ثباته وتحوله، وتتفرع عنها علوم جزئية، تعنى بالاسم العلم أدبيًّا ولسانيًّا، ونجد في هذا الكتاب ما يثيره العَلَم المحول والثابت من قضايا أدبية وبلاغية، فمن الأعلام ما تحول للدلالة على صفة غلبت عليه كصفة الكرم أو الشجاعة أو الحلم أو غير ذلك من الصفات التي يعشقها العرب ونطالع في فصل من هذا الكتاب أن الاسم ليس مجرد تتابعات صوتية خاوية، بل يكتنز بدلالات ورموز مكتسبة من أبرز من سُموا به، كما نطالع فيما عرضه أستاذنا أهمية العَلم في الأثر الأدبي، من حيث دلالته الإخبارية والتضمينية والرمزية، وهنا تبرز علة تخير أسماء الشخصيات الأدبية في الأعمال الروائية، كما أن للعمل الأدبي أثره في إكساب اسم الشخصية فرادة بما يحاط به من صفات، وما يلابسه من

ظروف، ثم إنه بها يتحول إلى رمز يمثل تلك الصفات المكتسبة، وقد يكتسب العلم في النص الأدبي ما يدل على معنى خاص، تفوق أشارته إلى مجرد مسمى؛ ولذا فإن اختيار أسماء الشخصيات قد لا يكون اعتباطيًّا، بل هو جزء من فن السرد نفسه. وختم أستاذنا الشمسان عرضه بقوله: إن الكتاب مكتنز بالتفاصيل التي يعسر أن تزوى في هذا المقام.

والكتاب الثالث الذي عرض هو كتاب (العرب والخيار اللغوي: دراسات ومقالات في الواقع اللغوي المعاصر) للدكتور أحمد الضبيب. وقد أبان أبو أوس عن رؤية الضبيب الكاشفة لواقع اللغة العربية، حيث إنه جلّى المشكلة، وأظهرها للعيان، وبين شيخنا أن الضبيب يحمل رسالة سامية، اضطلع بها، وشغلت كثيرًا من وقته وجهده، فهو يعرض ذلك في كل محفل لغوي يشهده، كما أنه في كتابه هذا يزوي جوانب كثيرة في غاية الأهمية لمشكلة العربية المزمنة، التي لا تختلف عن مشكلات العرب الأخرى في اضطراب معالجتها والتخبط في إدارتها. ونكتشف فيما عرضه أبو أوس أن الضبيب قد وفق عندما استهل كتابه بدراسة لغة الطفل في ظل العولمة مبينًا مخاطرها على شخصية الطفل ولغته وفكره، وهذا قاده إلى مناقشة تدريس اللغة الأجنبية، ومتى يبدأ فيها، مبينًا الآثار السلبية لتعليم الطفل اللغة الأجنبية في سن مبكرة.

ونطالع في هذا العرض أن أزمة اللغة تظهر في ثلاثة أبعاد: أولها البعد الوجداني، وذلك بغلبة العامية في وسائل الإعلام، واستعمال اللغة الأجنبية بين الناس خاصتهم وعامتهم.

أما البعد الثاني فهو بعد تربوي، يتجلى في ضعف التعليم وإخفاقه في إكساب الطلاب الفصحى.

ثم البعد الثالث وهو بعد اقتصادي؛ إذ نحيت العربية عن إدارة الأعمال، واستبدت الأجنبية بذلك.

ومن فصول كتاب الضبيب المهمة فصل (اللغة العربية وتحديات العصر) وجعلها في نوعين: تحديات عامة وتحديات خاصة، وأفاض في شرح كلا النوعين، ثم وضح الوسائل الناجعة في مواجهتها.

وختم أبو أوس عرضه لهذا الكتاب بقوله: لقد أحسن أستاذنا افتتاح كتابه وختامه، وهو سلسلة جهادية، أخذ نفسه بها وعرف بها.

ويطول بنا المقام لو وقفنا عند كل كتاب عرضه شيخنا الجليل، ولكن يكفي من القلادة ما أحاط بالعنق.

وأخيرًا فإن كتاب من شجون اللغة لشيخنا أبي أوس لا يفيه حقه مقال أو مقالان أو أكثر، فلا بد من قراءته كاملًا، فهو جدير بالقراءة، حقيق بالدرس؛ ففيه كثير من شجون اللغة وشؤونها، وفيه إجابات مقنعة لعديد من التساؤلات والاستفسارات للعالم وطالب العلم على حد سواء.



الدكتور الشمسان وأقسام الكلام
بين اللغويين العرب والأرقام digitals

د.سلطان بن ناصر المجيول
أستاذ اللسانيات المشارك - جامعة الملك سعود

ثمة مقولة علمية معروفة في تاريخ الأوساط العربية بين المنطق والنحو؛ ومفادها: أن للغة منطقًا، وأن للنحو أساسًا في كل منطق، وقد يغلب النحوُ المنطقَ. وتتمثل هذه المقولة في القصة المشهورة التي غلب فيها أبو سعيد السيرافي (النحوي) متى بن يونس (المنطقي) في الجدال حول أيهما أكثر عمقًا في تفسير الواقع؛ المنطق أم النحو؟

ومررتُ كثيرًا بعد هذه القصة على سجالات طويلة بطول السنين القصيرة دارت بين اللغويين والنحويين المعاصريْن وبين أبحاث أجنبية على مدى عشر سنوات في أبحاث ومواقع شبكية حول أقسام الكلم (أو الكلام) لأحياز الوحدات المعجمية العربية في النص العربي. والاصطلاح على هذا التقسيم بـ(أقسام الكلم) قديم سابق لمصطلح (الكلام). ومصطلح (الكلم) قد أثبته سيبويه في كتابه (الكتاب)، ووظفه ابن مالك في عجز ثامن بيت في الألفية مع تقدم كلمة (كلام) في: "كلامنا لفظ مفيد كاستقم"، فكأن (الكلم) من اختصاص النحاة، و(الكلام) من اختصاص اللغويين. وتوالت الشروح في كتب النحويين واللغويين المعاصرين في التفريق بين مصطلحي (الكلم) و(الكلام)، وتلت ذلك كلَّه محاولاتٌ تضيف قسمًا رابعًا تارة وقسمًا خامسًا تارة ثانية إلى أن جعلها تمام حسان سبعة أقسام في كتابه: (اللغة العربية:

معناها ومبناها) تارة ثالثة. وظهرت في المنتديات اللغوية وفي قليل من الأبحاث تفسيراتٌ تُبرّر موقف تمام حسان من استعمال هذا المصطلح بديلاً عن مصطلح (الكلم) بكون الأول مميِّزًا لمقومات constituents الكلام ووحداتها المعجمية في النظم اللغوي الطبيعي الوصفي، وبكون (الكلم) مصطلحًا فلسفيًا مجرَّدًا لسلوك هذه الوحدات اللغوية ذات الوقع المنطقي من حيث الساكن (الاسم) والمتحرك (الفعل) والربط بينهما (الحرف). وعلى أية حال يكون الاتجاه إلى أن تقسيم الكلام إلى سبعة يعد في حد ذاته ناقصًا إن كانت القضية المدروسة هي قضية أصناف قواعدية لوحدات معجمية متنوعة بتنوع عناصر الكلام وبتنوع أبواب كتب النحو العربي القديمة ومباحثها وشروحها.

وفي مواقف التبنّي الأكاديمي للنظريات، تُؤثّر التجارب الأكاديمية وبيئاتها وأجواؤها المؤسسية على فكر الباحث، وعلى ما يناله الباحث نفسه في أوساطها، ومن هذا يتبين سبب تصنيف تمام حسان الكلام بسبعة أقسام، ففي مواقف تمام حسان في أثناء دراسته في بريطانيا، وتأثره بالمدرسة السياقية الفيرثية، واكتسابه تفسيرات هاليداي (تلميذ فيرث) للتنوع التصنيفي القواعدي للوحدات المعجمية، انعكس ذلك كله في كتابه المذكور، على الرغم من أن تلك المدرسة في حينها كانت لا تُبارح مضمار النحو العرفي (أو التقليدي) traditional grammar للغة الإنجليزية.

وفي الجهة المقابلة لكل ما ذكرناه آنفًا، لن نقع-نحن اللغويين العرب - على كلمة (الكلم) في السياقات الترجمية بين اللغتين العربية والإنجليزية، ولن نتصدى إلا لمصطلح (كلام) ومقابله في الإنجليزية

speech، ولو ترجمنا مصطلح (الكَلِم) إلى الإنجليزية لاستعملنا المقابل speech نفسه، والأخير مصطلح معلوم أثره في الإنجليزية لأنه دال مباشر لمدلولات: الكلام، والحديث، والخطاب (والخطاب هنا خاص ومحدود لبعض السياقات فقط لمصطلح speech). إذن؛ نحن هنا نحن أمام سياق دقيق الخصوصية للدرس اللغوي الإنجليزي، وعمومي الاستعمال للدرس اللغوي كله، ونقل مفاهيم على هذا المنول إلى العربية قد يعتريه لبس؛ لأن الإسقاطات التفسيرية والتعليلية لسلوكيات الوحدات المعجمية المختلفة باختلاف لغاتها (كونها سلوكيات استعمالية!) من حيث صنفها النحوي لن تكون متطابقة بشكل كامل.

كانت ظروف المدارس اللغوية الغربية للغات الأنجلوفرانكفونية والرومانية تحتكم لمناهج ذات نطاق واسع مفتوح لصالح التحليل الضملغوي (نظام اللغة ذاته) والتحليل الفولغوي (أنظمة اللغة الاجتماعية والنفسية والسياقية والبيئية) والتحليل البيلغوي (التحليلات التقابلية بين لغة ولغة أو بين مستوى لغوي وآخر داخل اللغة الواحدة)، ونتج عن ذلك تضخم متشعب وأبحاث كثيرة جدًّا ذات نفع كبير للغويات واللغويات التطبيقية وتقاطعاتها بين اللغة نفسها والمجتمع والنفس والآلة، ولم يكن حال البحث المتكدس فيها مقتصرًا على لغوي غربي دون الآخر، بل كان هذا التكدس المعرفيُّ الصعبُ الاستدراك يقود إلى تفسيرات إضافية أو نظريات لغوية/ تاريخية/ مقارنة/ بنيوية/ وصفية/ تقابلية تحمل مقولات شروحية تكوّن أولُ مقولة في جديدها نهايةً لمقولة سابقة في قديمها. ظهرت من بعدُ الوظيفية والسياقية والتحليلية، وتلتها النظرية التوليدية والتحويلية على يد نعوم تشومسكي Noam Chomsky،

وظهرت الأنحاء اللغوية المنطقية من شجرية وتوزيعية وغيرهما، ولم يكن منطلق تشومسكي فيها لغويًا، بل رياضيًا لاختصاصه في علم المنطق والفلسفة، لكونه طالبًا فيلسوفيًّا إلى أن نال الدكتوراه في الفلسفة في جامعة بنسلفانيا في عام ١٩٥٥م. وتربّعه على الفلسفة قد مكنه من القبول في معهد ماساشوستس للتقنية MIT بصفته زائرًا ومشاركًا وباحثًا ومن ثم أستاذًا بعد حين في قسم اللغويات والفلسفة قبل تخرجه بالدكتوراه. وفي التنظير المنطقي الرياضي اللغوي - ومن هنا كانت بداية تفسير المنطق (الأنطولوجي) الذي يستلزم وضع منظومات تنظيرية كلية - ظهرت مصطلحات مفاهيمية رياضية تنطلق من مناويل رياضية للتراكيب الفعلية والاسمية والاستفهامية وتحليلها من جهة: السعة التوليدية البيولوجية العقلية الإنسانية غير المحدودة ومِيْكِانِزْمَاتها العميقة (بدون تفسير كمي تعليلي طبعًا كما تطلبه لغويات المدونة الحاسوبية corpus linguistics) على مستوى الدلالة، ومن جهة الثانية: القدرة التحويلية الفطرية السطحية على مستوى الصوت والاشتقاق. ونظريات تشومسكي الكلية لم يعد لها مكانٌ في البحث التعليلي الكمي للنصوص اللغوية الرقمية الضخمة المحوسبة في المدونات الكبيرة حجمًا، لكنها تركت كليات جوهرية شبيهة بمن يقول: في الكون أفلاك وكفى، ومن بعد ذلك، يترك المجال للبحث الشمولي بأدوات فلكية حديثة تكشف لنا أجزاء تلك الأفلاك وأبعادها ووظائفها، وهذا ما يحدث الآن في مجال لغويات المدونات الحاسوبية .corpus linguistics

تطوّرت اللغات البرمجية الرقمية الحاسوبية لصالح التحليل اللغوي، وهنا حري أن يعلم القارئ أن الحاسوبيين المهتمين بمعالجة اللغات قد

استفادوا كثيرًا من نظريات تشومسكي في بداية انطلاقته في البحث عن كيفيات تفسيرية كليّة لعناصر اللغة ووحداتها. وفي مجال التزاوج بين الحاسوبيين واللغويين، وولادة حقل "لغويات المدونة الحاسوبية" corpus linguistics تبعًا لذلك التزاوج، بدأت الخطوة الأولى بتوسيم أقسام الكلام part-of-speech tagging، وهي خطوة أولى تلتها مراحل لاحقة معقدة وطويلة الصناعة البشرية والحاسوبية معًا، وتوسيم أقسام الكلام -وبغض النظر عن تطبيقاته ومبادئه المتعددة بتعدد الأساليب الحاسوبية- يتبني فكرة أولية أساسية؛ وهي: كيف يتعرف المعالج الحاسوبي لهوية الحيز slot للوحدة المعجمية (سواء كانت كلمة نوعية type أو كلمة فعلية token) مع أحيازها المتصاحبة والممتدة في سلسلة تركيبية محوسبة نصطلح عليها بالنغرامية (التتابع اللفظي n-grams) وتمتد بين كلمة و٥ كلمات قبل ذلك الحيز وبعده (أو ١٥ كلمة من قبل ومن بعد لغرض التحليل الخطابي النقدي) في نصوص عدد كلماتها بين المليون والمليار. بما أن لغةَ الحاسب رقميةٌ لا تفهم اللغة إلا بعد تحويلها إلى أرقام، ولا تُعالج اللغة إلا بعد مراحل الحوسبة، فإن مراحل التوسيم النحوي بالحوسبة قد يطول وقت العمل عليها؛ لأنها تتراوح بين خوارزميات الحاسب التي يعرفها الحاسوبيون وبين واقع اللغة العربية الذي يختلف فيه النحويون بمدارسهم ويتكبد فيها اللغويون، وما طرأ إلى الآن في حقل تحليل أقسام الكلام للعربية دقيق ومذهل تجاوز تقسيم تمام حسان، ففي واسمات اللغة العربية المشهورة مثل واسمات ستانفورد Stanford ومدى MADA وأميرة AMERA تراوحت التفسيرات لسلوك حيز كل وحدة معجمية في النص بين

الثلاثين والخمسين قسمًا.

وتتلخص المحصلة النهائية لكل هذا السياق بسجاله الطويل المشتت وسجاله العريض الصناعي في توظيف الدكتور الشمسان لمصطلحي (الكلم) و(الكلام) الذي تجاوز مفهوم (الكلم) نفسه بوصفه الأخص ومفهوم (الكلام) بوصفه الأعم، وذلك في مقالته التي نشرها في الصحيفة في يوم السبت بتاريخ ١١ يوليو ٢٠١٥ بعنوان: (القسمة الشجرية للكلم)؛ حيث استعمل الشمسان مصطلح (الكم) للكلم (التفسير الفلسفي) ومصطلح (الكيف) للكلام (التفسير الحاسوبي)، فالكيف التعليلي للكمّ المنطقي ليس مسألة تجريب أو احتمال كما يقول من ردوا على الدكتور الشمسان، ومصطلح (الكيف) الرياضي مختلف تمامًا عن المعمول به في معظم الدراسات الإنسانية التي تقتصر على كيفيات عشوائية (منحازة) غير تابعة لمجمل الكم وتعليل كيفيات هذا الكمّ.

نقل مازن الوعر في مقدمة كتابه (نحو نظرية لسانية عربية حديثة لتحليل التراكيب الأساسية في اللغة العربية) (١٩٩٢) تعليق تشومسكي على كتابه: "...لقد دهشت بشكل خاص بتلك التعليقات اللغوية التي وردت في أثناء هذه الدراسة، التي قالها اللغويون العرب القدماء!". إن كان ما ذكره تشومسكي صحيحًا فإن مازن الوعر قد قدم لنا الكليات باللغة العربية عن العربية وعن تشومسكي، وقدم لنا أبو أوس الشمسان مفهوم مصطلح (الكلم) بـ(الكم) ومصطلح (الكلام) بـ(الكيف) تقديمًا عميقًا للبحث اللغوي النحوي الجاد للعربية التاريخية والحديثة كي يتسعا لحقل لغويات المدونات الحاسوبية corpus linguistics، وما ضر اللغة

الصينية في تحليل مختصيها لها في قديمها الذي امتدّ ٣٠٠٠ سنة، وفي حديثها المعاصر والمتباين، فكلا التحليلين بامتدادهما ما زالا حاضرين حتى يومنا هذا بقوة الاقتصاد الصيني.



كتاب الجملة الشرطية عند النحاة العرب، للأستاذ الدكتور أبي أوس الشمسان عرض لجانب من العطاء المتفرد

د. سليمان يوسف خاطر
أستاذ النحو والصرف بجامعة القصيم

مقدمة:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد النبي الأمين، وعلى آل محمد وصحبه أجمعين، ومن اهتدى بهديه إلى يوم الدين.

أما بعد فقد عرفت أن جماعة من الأوفياء يأتمرون لإعداد كتاب احتفالي احتفائي تكريمي عن الأستاذ الدكتور أبي أوس إبراهيم الشمسان أستاذ النحو والصرف المعروف بجامعة الملك سعود في المملكة العربية السعودية، صاحب النشاط العلمي والثقافي الجمّ الذي يعرفه أهل التخصص بخاصة وأهل الثقافة والفكر والعلم بعامة؛ لما له من أياد بيضاء، ومشاركات واسعة وجهود كبيرة في خدمة العلم والفكر والثقافة.

كل ما سبق جعلني أسعى إلى المشاركة في الكتاب التذكاري التكريمي عنه، بهذا العرض الموجز لكتاب من أوائل إنتاجه العلمي الثر، وهو نموذج من العطاء العلمي الذي لا تخطئه العين في مسيرته العلمية والفكرية والأكاديمية المستمرة منذ ما يزيد على أربعين عامًا.

يسعدني جدًّا أن أهتبل هذه السانحة لأهدي هذا العرض المتواضع إلى صاحب الفضل فيه الأستاذ الدكتور الشمسان، وأنا بهذا لا أوفيه

حقّه أبدًا، وإنما هذا من باب:

فتشبهوا إن لم تكونوا مثلهم   إن التشبه بالرجال فلاح

أرجو أن يتكرم عليَّ بقبول هذا الإهداء مني ويسامحني في القصور والنقص والتجاوز فيه؛ فحقه على طلبة العلم والتخصص من أمثالي كبير جدًّا، نسأل الله أن يجزيه عنا وعن العلم وأهله في كل مكان وزمان خير الجزاء، كما أسأله - تعالى - أن يوفقني ويجعل في ما كتبته الفائدة العلمية والوفاء الإنساني؛ فهو وحده الموفق والمستعان.

هذا الكتاب يعد نموذجًا مهمًّا للعطاء العلمي الدقيق للأستاذ أبي أوس إبراهيم الشمسان، فهو أول كتاب ينشره من تأليفه، على ما يبدو لي؛ لأنه في الأصل بحثه للماجستير، من كلية الآداب بجامعة القاهرة التي تعد من أوائل الجامعات في العالم العربي والإسلامي، وقد ابتعث إليها أبوأوس بعد تخرجه في جامعته جامعة الملك سعود وتعيينه معيدًا فيها؛ للحصول على درجتي الماجستير والدكتوراه، وقد وفق في ذلك أيما توفيق، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو فضل عظيم.

فور مناقشة بحثه ومنحه الدرجة المطلوبة بأعلى تقدير سارع أبوأوس إلى طباعة بحثه في كتاب، على نفقته الخاصة؛ لأنه لم يكن مؤلفًا مشهورًا في تلك الأيام؛ لتتهافت إليه دور النشر والمطابع التجارية، ولم تكن الجامعات في تلك الأيام تملك ما تنشر به البحوث المتميزة لباحثيها، ولو كان الأمر كذلك لكان هذا البحث من أوائلها؛ لكونه بحثًا علميًّا رصينًا جامعًا في بابه شاملاً لموضوعه محكمًا في منهجه، وقد أشرف عليه وقدم له بكلمة جامعة الأستاذ الدكتور محمود فهمي

حجازي، وحسبك به من أستاذ عالم ومؤلف موسوعي وباحث قدير، وشارك في مناقشته أستاذان معروفان هما الأستاذ الدكتور النعمان القاضي والأستاذ الدكتور عبد الصبور شاهين، وقد أجمعوا على منحه درجة الممتاز، وهذا قليل في تلك الأيام، قبل سيلان التقديرات في جامعاتنا.

صدر الكتاب في طبعته الأولى من مطابع الدجوي بالقاهرة، عام ١٤٠١هـ - ١٩٨١م، في نحو ٦٠٠ صفحة من القطع المتوسط، بعد صفحة العنوان الخارجي والداخلي استهله بتعريف موجز جدًّا بالمؤلف ثم صفحة الإهداء الفريد الذي جاء فيه: "إهداء: إلى أستاذي من السودان الشقيق: عبد القادر محمد محمد علي، جزاء ما ثقفته من علمك وأدبك" ثم قائمة مختصرة للمحتويات ثم تقديم موجز جامع بقلم المشرف على الرسالة الأستاذ الدكتور العلامة محمود فهمي حجازي، أثنى فيه ثناء عطرًا على الكتاب ومؤلفه، وهو الخبير بهما.

جاء الكتاب كما قدم في رسالة الماجستير، مقدمة البحث ثم التمهيد ثم أربعة أبواب، فيها أحد عشر فصلاً مع خلاصة عامة لكل باب في نهايته، ثم خاتمة البحث ثم ملحق حوى معجم مصطلحات الجملة الشرطية، وهو معجم دقيق شامل يعد الأول من نوعه في هذا المجال، ثم قائمة بمراجع البحث ومصادره، ثم مسرد تفصيلي لمحتويات الكتاب ثم ثمانية فهارس للمصطلحات، والكتب، والأعلام، والشواهد الشعرية، وأنصاف الأبيات الشعرية، وفهرس الآيات القرآنية، وفهرس الأحاديث النبوية، وهذا غريب جدًّا؛ لأن الفهرس كله فيه حديث واحد فقط؛ فهل يحتاج إلى فهرسة؟ ثم قائمة الخطأ والصواب،

وختم الكتاب بملخص للكتاب باللغة الإنجليزية.

هذا وصف مجمل للكتاب، ولمزيد من التفصيل أذكر أن المقدمة التي جاءت في أربع صفحات احتوت على وظائف المقدمة المتعارف عليها في البحث اللغوي الحديث، من شرح موجز لموضوع البحث وبيان أهميته وأسباب اختياره، وهدفه ومنهجه وتقسيمه، وعرض جامع دقيق للدراسات السابقة في الموضوع، وبيان الجديد الذي يسعى إلى إضافته. وختم بشكر للمشرف والمناقشين. ويبدو أن المؤلف لم يجر أي تعديل أو تغيير على هذه المقدمة في صورته الأصلية، وكثيرًا ما يعدل الباحثون الرسالة الجامعية بعد المناقشة عندما يريدون نشرها في كتاب.

وجاء التمهيد في نحو ثلاثين صفحة (من ص١٧-٤٥)، شاملاً الحديث عن نشأة النحو وأسباب تقعيد القواعد، من تتبع الأخطاء اللغوية وتصحيحها ووضع قواعد الإعراب؛ لضبط اللغة، والاهتمام بالحركات والعوامل، وفصل المؤلف الحديث في ذلك متتبعًا التسلسل التاريخي للتأليف اللغوي في العربية، وأنماط تلك المؤلفات الأولى من كتب القواعد العامة، وكتب معاني الحروف، وكتب إعراب القرآن، وكتب معاني القرآن وعلومه، وكتب الأمالي ثم بعض المصادر اللغوية الثانوية، مثل كتب علم اللغة، وشروح الشواهد، وكتب الخلاف النحوي، وكتب القراءات القرآنية وتوجيهها، مصنفًا هذه المؤلفات في ست مجموعات ذاكرًا أمثلة كافية لكل مجموعة مع تحليل مختصر لكل ما يذكر، وبث بعض الآراء والنظرات الخاصة للمؤلف.

في الباب الأول كتب المؤلف عن الجملة الشرطية طبيعتها ومصطلحاتها، في مرحلة التكوين، ومرحلة النضج، ومرحلة التفسير

والتقليد، وختم برصد النتائج العامة لهذا الباب، في ثلاثة فصول استغرقت ما يقرب من مئة صفحة (ص٧٤ -١٣٩).

وجاء الباب الثاني شاملاً الحديث عن عناصر الجملة الشرطية، في فصلين الأول للحديث عن أدوات الشرط، والآخر عن جملتي الشرط والجواب. ولا أدري لم لم يجعل فصلاً لكل جملة؛ فيكون الباب في ثلاثة فصول؟ مع أن هذا الباب مطول جدًّا مقارنة بغيره، ونظرًا إلى عدد فصوله؛ إذ أخذ نحو مئة وثلاثين صفحة (ص ١٤١ - ٢٧١).

وجاء الباب الثالث عن تركيب الجملة الشرطية في أربعة فصول هي الربط والرتبة والحذف وأجوبة التراكيب الإنشائية، في نحو مئة وخمس عشرة صفحة (ص٢٧٣-٣٨٦). وهذا الباب أكثر أبواب الكتاب فصولاً وتفاصيل وجدة وطرافة.

الباب الرابع عن الجملة الشرطية والقضايا السياقية، وفيه فصلان الأول عن توسيع الجملة الشرطية، والآخر عن الجملة الشرطية في سياق الجملة العربية، وختم الباب بخلاصة عامة له، كما في الأبواب الماضية. وهذا الباب أيضًا في نحو مئة صفحة (ص٣٨٧-٤٧٥).

ولأن المؤلف قد لخص كل باب على حدة في آخره مع بيان أهم النتائج التي توصل إليها من خلال درسه، قد جعل الخاتمة العامة آخر البحث عبارة عن ملخص جامع لتلك الخلاصات التي سبقت في آخر كل باب؛ فكانت خاتمة البحث في أربع نقاط بعدد أبواب الكتاب، وهذا نمط لعله كان مستخدمًا في تلك الأيام، ولم يعد يستخدم اليوم في البحوث العلمية التي أصبحت فيها مناهج البحث وطرائقه أكثر نضجًا

وتوحدًا وتقدمًا مع استمرار البحوث وتوسع الجامعات العربية في الدراسات العليا وبحوثها.

ومما تميز به هذا البحث المميز حقًّا الملحق الوحيد في آخره، وهو عبارة عن معجم شامل لمصطلحات الجملة الشرطية في التراث النحوي العربي، وقد جاء في نحو سبع وثلاثين صفحة (ص٤٨٥-٥٢٢). وفيه نحو ٤٨ مصطلحًا نحويًّا استخدمها النحاة في هذا الباب، وهذا العدد لا يخلو من تكرار؛ لشدة التشابه أو التقارب بين بعضها، كما أن عد بعضها ضمن المصطلحات العلمية محل نظر لا يحتمله هذا المقال الموجز. وقد وضع المؤلف هذه المصطلحات في جداول صنعها لها، فبعد ذكر كل مصطلح يذكر على الترتيب التاريخي المصادر التي ورد فيها المصطلح مع ذكر الصفحة والجزء إن وجد، دون شرح له؛ لأن الشرح قد مضى عند أول ذكر كل مصطلح داخل البحث؛ فلا داعي لتكرار الشرح، في نظر المؤلف.

جاءت قائمة المراجع شاملة نحو مئة كتاب تراثي ورسالة جامعية وبحث حديث، من أقدم ما وصل إلينا متمثلاً في الكتاب، لسيبويه، إلى آخر ما يرى المؤلف أن التجديد بجميع أشكاله توقف عنده، متمثلاً في كتب السيوطي اللغوية، في أوائل القرن العاشر الهجري.

وبهذا توزعت مصادر الكتاب - وهي مصادر متنوعة، كما أسلفنا - على امتداد تاريخ النحو العربي من أقدم مؤلف وصل إلينا إلى أوائل القرن العاشر الهجري، حيث لم يعد بعد ذلك جديد يستحق الذكر، في نظر المؤلف.

وقد مضى الكلام عن فهارس الكتاب الثمانية بما يغني عن التكرار لكن أشير إلى أن المؤلف صنع في نهاية الكتاب مسردًا تفصيليًّا لجميع محتويات الكتاب موضوعًا موضوعًا، وبابًا بابًا وفصلاً فصلاً بل مسألة مسألة، فيما يقرب من ثلاثين صفحة. وهذا صنيع يذكر فيشكر له؛ إذ هو مفيد جدًّا، ويقتصر الوقت والجهد لمن يرغب في الاطلاع على مسائل الكتاب تفصيلاً دون قراءة شاملة لكامل المحتويات؛ فيختار ما يريد الاطلاع عليه تفصيلاً ويدرسه بعمق، دون ما يريد الاطلاع عليه اطلاعًا عامًا؛ فيا ليت جميع المؤلفين والباحثين يسلكون هذا المسلك في كتبهم وبحوثهم الكبيرة خاصة؛ فيسدون بذلك معروفًا للباحثين لا يقدر بثمن. والله الموفق.

هذا عرض موجز لهذا الكتاب الجامع لموضوعه، المتفرد في بابه، الشامل في منهجه. ولا أدعي أبدًا أني أوفيته حقه من العرض فضلاً عن القراءة الدقيقة والتحليل والنقد العلمي الذي يستحقه؛ فهو ما يزال كتابًا بكرًا في موضوعه ومنهجه، وقد حفل بآراء كثيرة لمؤلفه، ونظرات شخصية في كثير من المسائل والقضايا التي تحتمل أكثر من رأي، فحق تلك الآراء أن تجرد وتجمع وتدرس دراسة نقدية تحليلية بعد مرور نحو أربعين عامًا على صدور هذه الطبعة الأولى للكتاب.

ومما أقترحه أيضًا في خواتيم هذا العرض الموجز أن يتولى أحد طلاب الأستاذ أبي أوس النابهين - وهم بفضل الله كثر - دراسة موضوع الكتاب في ضوء الدراسات اللسانية الحديثة بعد أن درسه الأستاذ في ضوء الدراسات التراثية القديمة؛ فـ(الجملة الشرطية عند اللسانيين العرب المعاصرين) أو (الجملة الشرطية في ضوء الدراسات اللسانية الحديثة)

أراه موضوعًا ممتازًا لرسالة دكتوراه، خاصة إذا تولاه من له صلة وثيقة بتلك الدراسات اللسانية الحديثة، وكان تحت إشراف الأستاذ أبي أوس، كما يمكن إكمال عمل الأستاذ في البحث النحوي القديم بدراسة الجملة الشرطية عند النحاة العرب من القرن العاشر إلى العصر الحديث، مع التزام المنهج العلمي الدقيق الذي ترسمه الأستاذ أبي أوس في كتابه هذا؛ لأن البحث عن الجديد في القديم ما زال أمرًا مفيدًا نافعًا لأهل العلم والتخصص في العربية وعلومها، ولا أرى هذه المدة الطويلة من القرن الهجري العاشر بعد السيوطي إلى اليوم يخلو من جديد علمي أو موضوعي أو منهجي، يستحق التتبع بالدراسة والبحث والنقد والتقويم. والله وحده الموفق.

خاتمة العرض:

وبعد فهذا عرض سريع موجز لهذا الكتاب الكبير حجمًا وعلمًا وقيمة، بعد كلام قصير أيضًا عن سيرة هذا الرجل العالم المثقف الوفي المتواضع الواسع صدرًا وفكرًا ومعارف الكريم بماله وعلمه ووقته؛ جزاه عن العلم وأهله والمعرفة وطلابها بعامة والعربية وعلومها بخاصة خير الجزاء، وأكرمه في الدارين، بفضله العميم ورحمته الواسعة وتوفيه.

وأحب أن أختم هذا العرض ببعض التعليقات التي أراها مفيدة:

١- أدعو المؤلف إلى إعادة نشر هذا الكتاب القيم نشرة حديثة بما تطور من تقنيات صنع الكتاب الورقي، بعد قراءة دقيقة، بعد أن مضى على نشرته الأولى نحو أربعين عامًا، ونفدت نسخه من المكتبات التجارية. وقد حققت خلال هذا المدة الطويلة كتب تراثية كثيرة

وطبعت، كما أنجزت رسائل علمية عديدة في موضوع البحث وغيره مما له به وثيق الصلة، وكذلك معظم مراجع الكتاب أعيد تحقيقها ونشرها نشرات حديثة، وجرت مياه كثيرة تحت جسر التراث النحوي العتيق، وتعمقت الصلات بين الدراسات التراثية والدراسات اللسانية الحديثة؛ فلعل إعادة نشر هذا الكتاب ونحوه مما نشر قديمًا بعد إجراء التعديلات الضرورية عليه دون المساس بجوهره، يعد أمرًا مفيدًا جدًا للبحث اللغوي والباحثين فيه اليوم.

٢- من المؤكد أن المؤلف الفاضل قد راجع كثيرًا من العبارات القاسية والنقد العام في نقد التراث وكتبه وعلمائه طيلة القرون التسعة التي حاول البحث تغطية موضوع الجملة الشرطية فيها بالدرس، مثل وصف الدرس النحوي كله بأنه "مر في قرون طويلة لم ينل فيها كل ما يستحقه من العناية، والمتابعة المطورة؛ فجمدت أحكامه وقواعده جمودًا لا يتناسب وطبيعة اللغة المتغيرة"، (ص١٣ من مقدمة الكتاب)، وكالاتهام بـ"الازدواجية في النظرة إلى طبيعة الجملة الشرطية" و"الضيق والسطحية في مفهوم الجملة" ووصف استخدام النحاة للمصلحات عمومًا بالاضطراب. (ص ٤٧٧ في خاتمة الكتاب"، ونحو هذا من العبارات الشديدة والأحكام المطلقة التي يعج الكتاب بكثير منها في صفحاته المختلفة، فما كتب بحماسة الشباب في تلك الأيام لعله يقرأ اليوم بحكمة الشيوخ. وقد لحظت شيئًا من ذلك في كتب المؤلف ومقالاته التي صدرت لاحقًا، ولا يتسع المجال هنا لعرض نماذج من ذلك، هذا لأني أعرف المؤلف صاحب نظرة واسعة، ومراجعة مستمرة لغير

الثوابت، فهو دائم الاستعداد للتحاور العلمي مع الجميع.

٣- تميز هذا الكتاب بأمور علمية وموضوعية ومنهجية كثيرة، ما زلنا في حاجة شديدة إليها، مثل شمول التناول، والاطلاع الشامل على مظان المادة العلمية للموضوع ثم الصبر على قراءتها واستخلاص الحقائق منها، واتباع منهجية علمية دقيقة، والتوازن الدقيق في توزيع موضوعات القضية المتناولة على أبواب الكتاب وفصوله، ورصد الدراسات السابقة مع توضيح مكانة هذا البحث بينها، بيان الفرق بينها وبين هذا البحث، وصناعة المعاجم الدقيقة لمصطلحات البحث ومسائله ومراجعه.

وفي البحث أيضًا ما يستحق المناقشة والأخذ والرد، كالأحكام القاطعة، ووضع ملخص طويل لكل باب، فيما يشبه الخاتمة بنتائجها؛ مما جعل خاتمة البحث في الآخر مجرد اختصار وإيجاز وتكرار لها.

٤- على الرغم من أن البحث تناول موضوعًا محددًا هو باب واحد من أبواب النحو، جاء البحث تاريخيًّا ومنهجيًّا يدرس النظرية والمنهج من خلال الموضوع وليس العكس، كما هو الحال في كثير من البحوث المشابهة قبله وبعده؛ فكان من الميزات الكبرى لهذا البحث، وفوائده العظيمة تركيزه على الجانب المنهجي في النظرية النحوية، والتتبع التاريخي الدقيق للموضوع المدروس مع العمق في القراءة والمقارنة والاستنتاج والترجيح والمحاورة والمناقشة. وهذه أمور علمية ومنهجية وموضوعية ضرورية في البحث اللغوي، ويخلو منها كثير من بحوثنا اليوم، بشكل كامل أو شبه كامل، والله المستعان.

٥- هذا الذي قدمته يظل مجرد عرض موجز للكتاب مع شيء من سيرة صاحبه، وأبعد ما يكون عن النقد العلمي الذي محله البحوث العلمية المتخصصة؛ فهذا المقال صنع؛ لينشر في كتاب احتفائي تكريمي للمؤلف وتعريف بجهوده الكبيرة والكثيرة في مجال التخصص وغيره من المعارف، وليس لينشر في مجلة علمية محكمة أو مؤتمر علمي أو ندوة تخصصية.

ومن خلال قراءتي الدقيقة المكررة للكتاب ومسيرة صاحبه بدا لي أن الكتاب في حاجة إلى قراءة نقدية علمية فيها تتبع لآراء المؤلف وجهوده ونظراته الخاصة في كثير من القضايا المنهجية والعلمية والمسائل النحوية التي أطلق فيها أحكامًا عامة بأسلوب لا يخلو من الشدة والقطع والقسوة أحيانًا، وكل ذلك محل نظر علمي فسيح، بالتي هي أحسن؛ فلعلي أوفق لذلك قريبًا في بحث نقدي منصف، إذا مَنَّ ربي بمدد من التوفيق في الوقت والصحة والعلم، والله وحده الموفق.

بريدة القصيم، الثلاثاء ١٣/ ١٠/ ١٤٤٢هـ - ٢٥/ ٥/ ٢٠٢١م



القضايا اللغوية في كتاب شؤون لغوية

عرض د. صلاح الدين صالح حسنين

يحتوي الكتاب على ثلاثة فصول، الفصل الأول قضايا نحوية وصرفية ولغوية، والفصل الثاني قراءات في كتب لغوية وتاريخية، والفصل الثالث شهادات ومتابعات.

رأيت أن أنتقي مقالات خاصة بمستويات اللغة العربية المختلفة: الأصوات والنحو أو التركيب.

١ : الأصوات في الكتاب:

سأتناول قضايا فونولوجية خاصة بالتركيب الصوتي في العربية.

عرض د. أبو أوس لآراء الأصواتيين التوليديين مثل آراء الدكتور داود عبده، وقارنها بآراء النحاة العرب من ناحية وباللغويين المحدثين أنصار البنيوية الشكلية من ناحية أخرى.

١ : ١ الموضوعات الصوتية التي يناقشها الكتاب:

رسم الحروف صوتيا. التفسير الصوتي للتغييرات في الفعل الأجوف والتفسير الصوتي للتغييرات في الفعل المضاعف: الصيغة اثَّاقَلَ. الكلمات المعجمية التي تبدأ بصحيحين والوحدة النحوية (أل) التي تفيد التعريف.

١ : ٢ رسم الحروف صوتيًّا:

يستعمل د. داود عبده كلمة صوت في المواضع التي تسمى حرفًا، فرسم الأصوات متتابعةً منفصلةً، أما الحركات فكانت تظهر فوق

شرطات تحملها.

مثال: كَتَبَ ترسم صوتيًا: ك ـَ ت ـَ ب ـَ، وهكذا تتبين الأصوات المدغمة والأصوات التي لا تكتب رموزها في الكتابة العادية، مثل لكن، وهذا، ولا يُحتاج إلى رمز السكون لأنه ليس بصوت، وتتميز حالات الواو والياء في مثل (وَلد) بأنها صوت علة، أما الواو في نحو: "يَقُول" فَإنها حركة طويلة ويرمز لها بضمتين ـُ ـُ.

١ : ٣ التفسير الصوتي للفعل الأجوف:

كان د. إبراهيم أنيس يرى وهو من أنصار البنيوية الشكلية أن نحو (قامَ) لا يمكن أن يكون (قَوَمَ)، أما د. دواد عبده، وهو من أنصار التوليدية، فيرى أن جذر هذا الفعل (ق/و/م)، ومن ثمَّ نجد صيغة الماضي الأساسية: (قَوَمَ)، وهنا نجد التعبير عنها صوتيًا: ق ـَ و ـَ م ـَ، ونلاحظ أن الواو وقعت بين حركتين مثلين لذا حذفت ونشأت فتحة طويلة كُتبت ألفًا أي قام.

١ : ٣ : ١ التفسير الصوتي للفعل المضعف:

إذا تناولنا صيغة فعل مثل (رَدَّتْ) وأردنا كتابتها كتابة صوتية فتكون ر ـَ د د ـَ ت على مثال كَتَبَتْ، هنا التقى صوتان صامتان مثلان وهما: د د ـَ ؛ لذا أدغم الأول في الثاني وأصبحت الصيغة رَدَّتْ، إذن الدال المضعفة أصلها دالان.

ثم تعرض د. أبو أوس تبعًا لداود عبده لظواهر تضعيف أخرى كما في كَم مَّلَكَ، ومن ذلك أيضًا الفعل ثَقُلَ وهو على وزن فَعُلَ، وإذا صيغ هذا الفعل في وزن تَفَاعل فإن الصيغة ستصبح صوتيا ت ـَ ث ـَ ـَ ق ـَ ل ـَ،

وهنا تحدث مماثلة فتصبح التاء ثاءً، وبذلك يلتقي صوتان صحيحان ث ث ـَ ـَ ق ـَ ل ـَ، وتدغم الثاءان، وهنا تبدأ الصيغة بصوت ساكن لذا تجلب كسرة، ثم يضاف صوت عماد، وهو الهمزة فتصبح الصيغة اِثَّاقَلَ، ومن ذلك اِطَّرَدَ، وأصلها: ء ـِ ط ت ـَ ر ـَ د ـَ، وهنا تتحول التاء إلى طاء بسبب المماثلة ء ـِ ط ط ـَ ر ـَ د ـَ؛ لذا ينشأ التضعيف وتصبح الصيغة إطَّرَدَ.

الفعل مَدَّ أصله مَدَدَ، وإذا كتبناه كتابة صوتية تصبح الصيغة م ـَ د ـَ د ـَ. هنا وقع صوتان مثلان بينهما حركة قصيرة، لذا تحذف هذه الحركة، ومن ثم يلتقي الصوتان المثلان فتصبح الصيغة م ـَ د د ـَ، وهنا ينتج هذان الصوتان المثلان المتتابعان لذا عند النطق بهما ينطقان صوتًا واحدًا أدغم فيه الأول في الثاني، ويعزى ذلك إلى النبر فبعد أن كان النبر يقع على المقطع الأول في نحو الفعل الصحيح أصبح يقع على المقطع الثاني في الفعل المضاعف.

وبالمثل إسناد الفعل مَدَدَ إلى تاء الفاعل، وتاء الفاعل تسبق بصوت ساكن، ومن ثم يصبح أصل الصيغة م ـَ د ـَ د ـَ ت ـُ، وتاء الفاعل تتطلب أن تحذف الفتحة التي قبل التاء، ومن ثم تصبح الصيغة م ـَ د ـَ د ت ـَ، وهنا تتسبب المماثلة في تحويل الدال إلى تاء لتماثل التاء التالية فتصبح الصيغة م ـَ د ـَ ت ت ـَ، وهكذا ينطق الصوتان المثلان صوتًا واحدًا مدغمًا فتصبح الصيغة مَدَتُّ [في الخط: مَدَدتُّ].

وهذه الصيغة شائعة عند تميم. ومن ذلك رَدَدتُّ، وأدى ذلك إلى نقل النبر من المقطع الأول إلى المقطع الثاني.

ويحدث ذلك أيضًا في صيغة افتعل من الفعل طرد، أي اِطْتَرَدَ، وتكتب صوتيًا كالآتي:

ء ـِ ط ت ـَ ر ـَ د ـَ. هنا التقى صوتان مهموسان أولهما مفخم وثانيهما مرقق، وهنا يتسبب قانون المماثلة في تحويل التاء إلى طاء فتصبح الصيغة ء ـِ ط ط ـَ ر ـَ د ـَ، ومن ثم ينطق صوتا الطاء صوتًا واحدًا مدغمًا أي اطَّرَدَ.

١ : ١ : ٤ العلة الطويلة:

أ- العلة الطويلة تقابل علتين قصيرتين، فالعلة الطويلة في قال أصلها علتان قصيرتان، فأصل الفعل قال هو قَوَلَ أي ق ـَ و ـَ ل ـَ، وهنا وقعت الواو بين علتين مثلين قصيرتين؛ لذا حذفت الواو فأصبحت الصيغة ق ـَ ـَ ل ـَ، وتكتب: قال. أما فعل مثل: طَوُل، فالعلتان القصيرتان هنا غير مثلين، ومن ثم نجد أن الأصل الصوتي هو: ط ـَ و ـُ ل ـَ، هنا يتسبب قانون المماثلة في تحويل الضمة إلى فتحة، ومن ثم تصبح الصيغة ط ـَ و ـَ ل ـَ، لذا تحذف الواو وتنشأ فتحة طويلة، وتنشأ العلة الطويلة أيضًا عند تسهيل الهمزة كما في رَأس وراس.

ب- تقصر العلة الطويلة إلى علة قصيرة إذا وقعت في فعل مجزوم: مثال الفعل يَدْعُو إذا سبق بـ(لم) الجازمة ستصبح صيغته:

ل ـَ م ي ـَ د ع ـُ ـُ ---> ل ـَ م ي د ع ـُ = لَمْ يَدْعُ، وتقصر العلة الطويلة أيضًا إذا وقعت بين صامتين، فالفعل أراد، وهو فعل أجوف على وزن أَفْعَلَ، وعند إسناده إلى ضمير رفع مثل ضمير المتكلم، فإن الصيغة ستصبح صوتيا: ء ـَ ر ـَ ـَ د تُ، وهنا

ستتسبب المماثلة في تحويل الدال إلى تاء مثل: ء ـَ ر ـَ ـَ ت ت ـُ.

وهنا وقعت الحركة الطويلة بين صامتين هما الراء والتاء؛ لذا تقصر العلة الطويلة فتصبح:

ء ـَ ر ـَ ت ت ـُ، أي أرَتُّ [صوتًا لا رسمًا].

١ : ٥ الكلمات التي تبدأ بصحيحين متواليين في العربية:

يقول د. أبو أوس إن د. داود عبده عالج ثلاث مسائل: حركة همزة الوصل، وصياغة فعل الأمر، والأفعال الخماسية.

١ : ٥ : ١ حركة همزة الوصل:

الأصل عند البدء بصحيحين متواليين أن تضاف حركة كسر قبل الصحيح الأول، ثم يسبق نطق الحركة تذبذب الوترين الصوتيين وانغلاقهما بعد أن يجمع الهواء داخل الحنجرة وعند انفتاح هذين الوترين يُسمع انفجار هو ما يطلق عليه الهمزة إذن الذي حدث فنولوجيًّا هو اجتلاب كسرة ثم أُتي بالهمزة كصوت اعتماد.

هذه الظاهرة هي التي تسمى بظاهرة التخلص من التقاء الساكنين.

يُفهم مما سبق أن الأصل عند البدء بصحيحين متواليين إضافة حركة الكسرة ثم تتسبب المماثلة في تحويل الكسرة إلى ضمة كما في اُدْخُلْ.

تتصف همزة الوصل بأنها تسقط في درج الكلام[1] نحو: الولد انطلق، هنا تسقط همزة الوصل في انطلق، ونمثل لذلك صوتيًّا كالآتي:

---

(١) لعل همزة الوصل لا تحذف في الدرج لأنها غير موجودة فيه أصلًا؛ إذ يستغنى عنها. (التحرير).

ء ـَ ل و ـَـ ل ـَـ د ـُ ء ـِ ن ط ـَـ ل ـَـ ق، ثم تحذف همزة الوصل لذا تصبح الصيغة:

ء ـَـ ل و ـَـ ل ـَـ د ـُ ن ط ـَـ ل ـَـ ق ـَـ = الولدُ نْطَلَق.

(ال) أداة التعريف: يرى سيبويه أن أداة التعريف هي اللام الساكنة وإذا دخلت هذه الأداة على الاسم نحو لام التعريف والكلمة وَلَدٌ مثلاً وتكتب صوتيًّا كالآتي: ل و ـَـ ل ـَـ د ـُ. هنا التقى صامتان هما اللام والواو لذا تضاف حركة هي الفتحة وتعتمد على همزة العماد فتصبح الصيغة اَلولدُ وتسقط همزة الوصل في الدرج.

تتحقق همزة الوصل في الصيغ الآتية:

فعل الأمر من المجرد على وزن فَعَلَ:

من المعروف أن فعل الأمر يصاغ من المضارع المجزوم بعد حذف حرف المضارعة وحركته، فإن بُدئ الفعل بساكن اجتلبت له همزة الوصل المكسورة، إلاّ أن هناك بعض الأفعال المهموزة الفاء مثل أكل وأخذ وأمر يصاغ الأمر من المضارع بعد حذف حرف المضارعة وكذا حذف همزة فاء الفعل لذا يقال من أكل: كُلْ، ومن أَمَرَ: مُرْ. أما نحو سائر الأفعال المهموزة الفاء نحو أسر وأذن وأتى وأسف فإنه يُجْتَلب لها همزة وصل فيقال اِأْسَرْ و اِأْذنْ واِأْتْ [وإن بدئ بالفعل حذفت الفاء ومطلت الكسرة تعويضًا: اِيسر، اِيذن، اِيتْ، وفي الدرج تصحح الفاء لحذف همزة الوصل]، أما نحو سأل وهو مهموز العين فيقال في الأمر منه سَلْ بعد تسهيل همزة العين وكذلك يقال في الأمر من رَأى رَه.

فعل الأمر من وزن أَفْعَلْ يصاغ المضارع من هذا الوزن على

يُؤَفْعِلُ، ثم يحذف حرف المضارعة عند اشتقاق الأمر فتنتج الصيغة أَفْعِلْ.

فعل الأمر من الأوزان انفعل وافتعل واستفعل:

الهمزة في هذه الأفعال صوتيًّا هي همزة الوصل فالأصل في انْفَعَلْ هو (نْ + فَعَلَ)، وهنا تنتج الصيغة نْ ف ـَـ ع ـَـ ل ـَـ، فيلتقي صوتان مثلان لذا تضاف حركة الكسرة والهمزة فتنتج الصيغة اِنْفَعَل ويصاغ المضارع منه على وزن يَنْفَعِلْ، والأمر (ن ف ـَـ ع ـِ ل)، ثم تضاف همزة الوصل فيقال اِنْفَعَلْ.

وكذلك يقال في افتعَلَ إن الهمزة هنا هي همزة وصل والمضارع منه يفتعِلُ والأمر افْتَعِلْ. وكذلك استفعَلَ يقال اِسْتَفْعِلْ.

١ : ١ : ٦ القلب المكاني:

١ : ١ : ٦ : ١ القلب المكاني في الوحدات المعجمية بين صوتين صحيحين، نحو: جذب وجَبَذَ، طمأن وطأمن، وهو ناتج عن السرعة في النطق وليس بمطّرد.

القلب المكاني بين صوتين صحيحين:

قد يكون ذلك بين صوتين متجاورين مثل جذب وجبذ، وقد يكون بين صوتين متباعدين مثل اكفهرَّ/ اكرهفَّ.

١ : ١ : ٦ : ٢ القلب المكاني بين صوت صحيح وحركة:

يخضع مثل هذا النوع من القلب لقانون الحد الأدنى من الجهد، ويطبق في حالات مثل المضارع من مَدَدَ فصيغته الأساسية يَمْدُدُ وتكتب

هذه الصيغة صوتيًّا كالآتي: ي ــَـ م د ــُـ د ــُـ.

هنا يحدث نقل حركة الضمة التي تتبع الدال الأولى إلى جعلها تتبع الميم وهكذا تنتج الصيغة الآتية ي ــَـ م ــُـ د د ــُـ. وهذا يُؤدي إلى التقاء صوتين مثلين هما الدال والدال، فينطقان في لقاء واحد لأعضاء النطق وبذلك يتحقق قانون الحد الأدنى من الجهد.

١ : ١ : ٦ : ٣ ملحوظة لا يطبق قانون الحد الأدنى من الجهد على الفعل المتصل بنون النسوة نحو يَمْدُدْنَ ويكتب صوتيًّا كالآتي.

ي ــَـ م د ــُـ د ن ــَـ. لو طبقنا قانون الحد الأدنى من الجهد ونقلنا الحركة التي تتبع الدال الأولى لتتبع الميم لنشأ ثلاثة أصوات صحيحة هكذا ي ــَـ م ــُـ د د ن ــَـ.

وهذا لا يجوز في العربية لذلك لا يطبق هذا القانون منعا لالتقاء ثلاثة صوامت صحيحة.

١ : ١ : ٦ : ٤ القلب المكاني في صيغة افتعل:

سبق أن أوضح د. داود عبده أن حروف الزيادة في وزن انفعل وافتعل هي النون فقط والتاء فقط، لذا فأصل انفعل هو ن ف ــَـ ع ــَـ ل ــَـ، وكذلك افتعل: ف ت ــَـ ع ــَـ ل ــَـ، وأوضح كذلك أنه لا يجوز توالي صحيحين متتاليين في بداية الكلمة لذا تضاف همزة الوصل فتصبح الصيغة كما هو شائع اِنفعل واِفْتَعَل.

حدث في السامية الأولى قلب مكاني بين التاء وصوت من أصوات الصفير، ثم عُمِّم هذا القانون فيما بعد مثل: اِتزَهَرَ ---- > ا زْ تَ هـَ رَ، ثم تسببت المماثلة في تحويل التال إلى دال لتماثل الزاي في الجهر، وهنا

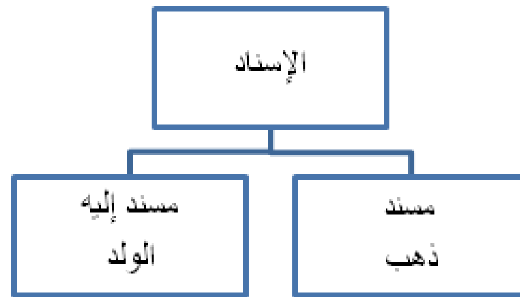
تجدر الإشارة إلى أن المماثلة خلفية وليست تقدمية، وهكذا أصبحت الصيغة ازدهر.

٢ التراكيب النحوية:

ناقش د. أبو أوس في كتابه شؤون لغوية التراكيب النحوية الآتية: المفعول به، والمفعول المطلق، والمفعول لأجله، والمفعول معه، والمفعول فيه، والحال، والتمييز.

سأدرس التركيب النحوي في ضوء ثلاثة عناصر: الوظيفة النحوية، والمقولة التي تشغل الوظيفة النحوية، ومعناها الوظيفي، وموقعها داخل بناء الجملة، والتطابق، والإعراب.

وسأبدأ أولًا بالإسناد في الجملة الفعلية، والرسم الآتي يوضح ذلك:



ملحوظات:

المسند في هذه الجملة هو الفعل ذهب والمسند إليه هو الولد. وظيفة الفعل أنه رأس تركيب الجملة ووظيفة المسند إليه هي أنه فاعل.

مقولة المسند الأساسية فعل، ومقولة المسند إليه الأساسية اسم. والمعنى الوظيفي للفعل ذهب أنه فعل يدل على حركة والمعنى الوظيفي

للمسند إليه هو المنفذ الذي قام بالحركة من مكان إلى مكان آخر، والفعل ماض مبني على الفتح والفاعل مرفوع بالضمة ويلاحظ أنه يتطابق مع الفعل في الإفراد والنوع.

٢ : ١ : ب ١ التعلق:

هناك عدد من علاقات التعلق تشمل ما يلي:

٢ : ١ : ب: ١ المفعول به: هذه العلاقة خاصة بالفعل المتعدي، والمفعول به هو الذي يقع عليه فعل الفاعل، ويرى النحاة المحدثون أن المفعول به يشرح معنى الفعل، فعندما أقول كتب الولد الدرس، فالمنفذ الذي قام بالكتابة هو الولد، والشيء الذي كتبه الولد هو الدرس.

والمفعول به منصوب ولا تطابق بينه وبين الفعل.

٢ : ١ : ب ٢ المفعول المطلق:

الفعل يدل على حدث وزمان، والمصدر يدل على الحدث فقط والمفعول المطلق يشترك مع فعله في الحروف والمعنى، وهو ثلاثة أنواع، نوع يُؤكِّد فعله نحو ضرب المدرس التلميذ ضربًا، ونوع يبين نوعه مثل ضرب المدرس التلميذ ضربَ المدير، أي مثل ضرب المدير، والمعنى المقصود ضربه ضربًا شديدًا، ونوع يدل على عدد، نحو ضرب المدرس التلميذ ضربتين. يتضح مما سبق أن مقولة المفعول المطلق أنه مصدر ويقع يسار الفعل وهو منصوب والمصدر المؤكد لفعله يلازم الإفراد مثل ضرب المدرس الولد ضربًا وضرب المدرس الولدين ضربًا وضرب المدرس الأولاد ضربًا.

٢ : ١ : ب ٣ المفعول لأجله :

مقولة المفعول لأجله مصدر وعامله هو الفعل وزمنه متزامن مع زمن الفعل، وهنا نُقل المصدر إلى الظرفية التي توضح سبب حدوث الفعل. والمفعول لأجله منصوب، وهو نكرة وقد يضاف أو يعرف بـ(ال) نحو: زرتُ المريض اطمئنانًا عليه، ألتزم الاعتدال رغبةَ السلامةِ، أسأل الخبير قصد الاسترشاد.

٢ : ١ : ب ٤ المفعول معه :

في المفعول معه نجد الاسم المنصوب يقع بعد الواو، نحو جلس الأب والأبناءَ؛ لذا يطلق على هذه الواو واو المعية؛ ولذا يكون المعنى جلس الأب مع الأبناء، ثم نُقل هذا الاسم إلى الظرفية لذا لازمه النصب والعامل فيه هو الفعل جلس وفي نحو سرت والطريق فإن المعنى يكون سرت موازيًا للطريق، وهنا يكون الطريق قد نُقل إلى الظرفية ويلازم النصب.

٢ : ١ : ب ٥ الحال :

الحال ظرف يوضح هيئة الفاعل أو المفعول أو هما معًا أو المبتدأ، أو ما يسد مسدَّ الخبر أو المضاف إليه.

يتضمن هذا التعريف شقين: الأول الهيئة والثاني الزمن.

يقصد بالهيئة الشكل الذي يظهر على صاحب الحال، ويقصد بالزمن أن الهيئة تكون متزامنةً مع وقت حدوث الفعل.

أمثلة:

١- جاء محمد راكبًا.
٢- ضرب المدرس التلميذ مكتوفًا.
٣- لقي محمد صديقه راكبين.
٤- الشمس - شديدةً - مؤذيةٌ.
٥- امتداحي الغلام مُؤدَّبًا.
٦- قال تعالى: ﴿إِلَيۡهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗاۖ﴾ [يُونس: ٤]

ملحوظات:

١- الحال في ١ راكبًا، وصاحب الحال الفاعل محمد.

٢- الحال في ٢ مكتوفًا، وصاحب الحال المفعول به التلميذ.

٣- الحال في ٣ راكبين، وصاحبًا الحال هنا الفاعل والمفعول محمد وصديقه.

٤- الحال في ٤ شديدة، وصاحب الحال الشمس، وهي مبتدأ.

٥- الحال في ٥ مُؤدبًا، وصاحبه الغلام، وهو مفعول به للمصدر وحل محل الخبر.

٦- الحال في ٦ جميعًا، وصاحبه الضمير (كُمْ)، وهو مضاف إليه والمضاف مرجع.

٧- إذا لاحظنا موقع الحال بالنسبة إلى صاحب الحال فسنجد أن صاحب الحال في الأساس هو فاعل أو مفعول في الجملة الفعلية، من ناحية ويرتبط به الصفة الواقعة حالًا من ناحية ثانية لذا نجد أن الصفة الواقعة حالًا تحتوي على ضمير مستتر يعود إلى صاحب

الحال، ويلاحظ كذلك أن الحال نكرة وصاحبها معرفة، وهناك تطابق بين الحال وصاحبها، لاحظ الحال في ١ و٢، فهي مفردة وصاحبها مفرد كذلك، أما في ٣ فالحال مثناه وصاحبها الفاعل والمفعول معًا؛ لذا جاءت الحال مثناه لأن صاحبها اثنان كذلك: الفاعل والمفعول.

هناك أسماء وقعت حالًا، فاستخدمت استخدام الصفة لذا نجد أن معناها هو معنى الصفة ويوصف ذلك بأنه المعنى المقصود من ذلك مثلاً: فر زيدٌ أسدًا. هنا أسدًا حال منصوبة، وهي بمعنى (شجاعًا)، وبعت الشعير يدًا بيدٍ، أي [مقابضة] بعت الشعير وتسلمت ثمنه مباشرةً، اشتريت الأرض مترًا بألف جنيه، أي اشتريت الأرض المتر مسعرًا بألف جنيه.

يميز النحاة بين نوعين للحال: حال مؤسسة وحال مؤكدة، فالحال المؤسسة تبين هيئة صاحبها، فتفيد معنى جديدًا هو إيضاح هيئة صاحبها مثل وقف الأسد في قفصه غاضبًا ثم هدأ حين رأى حارسه مقبلًا، هنا الحال (غاضبًا) وصاحب الحال الأسد. هنا أوضح الحال أن الأسد غاضب، ولكنه عندما رأى صاحبه مقبلاً هدأ، هذه هي الحال المؤسسة. فهي تبين هيئة صاحبها مدة مؤقتة، ثم تفارقه بعدها. لذا نجد العامل في هذا النوع من الخال يدل على حدث مؤقت أما لو قلنا إن العامل يدل على هيئة دائمة فالحال هنا تكون مؤكدة. قال تعالى: ﴿وَأَرۡسَلۡنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولٗاۚ﴾ [النِّسَاء: ٧٩] لاحظ الفعل أرسل والحال رسولًا، فالحال هنا تفيد التوكيد أي أن الإرسال دائم ليس لفترة قصيرة، وصاحب الحال هو المفعول به أي كاف الخطاب. إذن الفرق بين الحال المؤسسة والحال

المؤكدة هو أن الحال يفيد حدثًا مؤقتًا في الحال المؤسسة ويفيد حدثًا مؤكدًا في الحال المؤكدة. هناك تفاصيل أخرى لا تسعها المساحة المقررة لهذا البحث.

٢ : ١ : ب ٦ التمييز :

اسم نكرة يرفع إبهام مفرد أو جملة.

التمييز الذي يرفع إبهام مفرد يشمل :

الكلمات التي تدل على مقادير مثل : إردب وكيلة، أو وزن مثل : أوقية أو كيلو، أو مساحة مثل : فدان أو قيراط، أوعدد.

أمثلة :

عندي إردبٌ قمحًا. اشتريت جرامًا ذهبًا. زرعت قيراطًا قمحًا.

المصدر الواقع بعد أفعل التفضيل يعرب تمييزا، نحو : هو أشدُّ حُمْرةً من زيد.

- التمييز الذي يرفع إبهام جملة، والتمييز هنا ناتج عن تفكيك الفاعل المضاف أو المفعول المضاف أو المبتدأ المضاف.

- التمييز الناتج عن تفكيك الفاعل المضاف.

زاد مال التاجر ← زاد التاجر مالا

فاض نفط البئر ← فاضت البئر نفطًا

امتلأ ماء البحيرة ← امتلأت البحيرة ماءً

تَفَقَّأ شَحمُ زيد ← تفقأ زيدٌ شحمًا

تصبب عرق زيد ← تصبب زيدٌ عرقًا

- التمييز الناتج عن تفكيك المفعول المضاف:

نَسَّقْت أزهار الحديقة ← نَسَّقت الحديقةَ أزهارَها

وفَيتُ أجور العمال ← وفيتُ العمال أجورًا

- قد ينتج التمييز عن تفكيك المبتدأ المضاف:

وجهه أحسنهم ← هو أحسنهم وجهًا

عبد زيد أفرحهم ← زيد أفرحهم عبدًا



مقالٌ وكتبٌ ورجال*

أ.د. محمد بن محمود فجَّال
جامعة الملك سعود

تشرفت في يوم الجمعة ٢٧ ربيع الأول ١٤٤٢هـ الموافقه ١٣ نوفمبر ٢٠٢٠م بلقاء العلامة اللغوي فقيهِ النحاة والصرفيين أستاذ الأساتيذ الأستاذ الدكتور أبي أوس إبراهيم بن رشيد الشمسان، وسعدتُ بإهدائه لي الإصدار الجديد من كتابه القيِّم (مقال وكتبٌ ورجال)، فجزاه الله خيرًا ونفع به وبعلمه، وأطال عمره في الخير والصلاح.

وبعيدًا عن المضمون الأصلي للكتاب، أَوحَى إليَّ هذا العنوان بثلاث صفات رئيسة تجلَّت في أستاذنا الدكتور أبي أوس، فالصفة الأولى استوحيتها من كلمة (مقال) هي محاضراته العلمية وفتاواه اللغوية التي يتحف بها المتعلمين، ويجود عليهم بها في كل حين، ويتحلى في التعامل مع سائليه وقاصديه بتواضع ولين، مع ما يتبوّؤه من مكانة كبيرة علمية واجتماعية، وهذا خُلُقُ الكبار قدرًا ونَفْسًا.

أتذكر أني استشرته في بحث لي بعنوان «الانفتاح اللغوي وأثره في ضبط اللسان العربي» فإذا به يقرأ البحث كاملاً ويكتب لي رأيه في كل مسألة، ولعل غيره يقول لي رأيه بسطرين فحسب، ثم بعد مدة التمست منه إعطائي رأيه في تجربة من تجارب طباعة كتاب «فرائد القلائد في

(*) نشر في المجلة الثقافية، صحيفة الجزيرة، ع١٧٥٥٣، الجمعة/السبت ١٢/ ١٣ ربيع الآخر ١٤٤٢هـ، الموافقه ٢٧/ ١١/ ٢٠٢٠م.

مختصر شرح الشواهد» للبدر العيني، الذي حققته، وهو أكثر من (١٥٠٠) صفحة، فإذا به يوافيني بملحوظات وتنبيهات وتعليقات في ملف مستقل من صفحات كثيرة، بما يعني أنه قرأ الكتاب كاملًا، فأخجلني بكرمه، كرمٌ في العلم والوقت، مع كثرة الأعمال الأكاديمية لديه، وهذا يدل على خَصْلة الإيثار التي يتمتع بها، فيؤثر طلاب العلم بوقته وصحته، فلله درُّه!

أما الصفة الثانية التي استوحيتها من كلمة (كتب)، فإنه في كل عدة أشهر يجود على المكتبة العربية بكتاب نفيس، وكلها حَرِيّة بأن تُقرأ وتُدرس، ومنها: الجملة الشرطية عند النحاة العرب، والفعل في القرآن الكريم: تعديته ولزومه، وقضايا التعدي واللزوم في الدرس النحوي، وأبنية الفعل: دلالاتها وعلاقاتها، وحروف الجر: دلالاتها وعلاقاتها، وأخطاء الطلاب في الميزان الصرفي، وجداول التدريبات الصرفية، ودروس في علم الصرف، ومساحة لغوية، والإبدال إلى الهمزة وأحرف العلة في ضوء كتاب سر صناعة الإعراب لابن جني، ومعجم أسماء الناس في المملكة العربية السعودية، وجدلية المحفوظ والملفوظ، ومقدمة في تاريخ النحو، ودراسات لغوية، ودروس في اللغة الإدارية، ومسائل نحوية، ومسائل لغوية، وشهادات ومتابعات، ومن شجون اللغة. فأسأل الله أن ينفع به طلاب العلم وينفع بها صاحبها يومَ لا ينفع مالٌ ولا بنون.

أما الصفة الثالثة التي استوحيتها من كلمة (رجال) فهي صناعة الأجيال، فهو مدرسة خرَّج كثيرًا من طلاب العلم وطالباته، وربَّى أجيالًا بما يتحلى به في التعامل من صفات، على رأسهم نجله الأكبر

الأديب الأريب المبدع سعادة الأستاذ الدكتور أوس الشمسان، عميد كلية الصيدلة، ولا أدري هل يجوز لي أن أدَّعي أن نور القمر مقتبسٌ من الشمس، أم أنَّ القمر له نور نابع من ذاته، يبدو أنها مسألة خلافية، وعلى أية حال، فأستاذتنا الدكتورة أم أوس وسمية المنصور، زوج أستاذنا أبي أوس، قد أعلنت في أكثر من محفل علمي بأنها تدين بالفضل الكبير لزوجها العلامة أبي أوس، وما قابلتُ أحدًا من طلاب الدراسات العليا إلا وهو يعدد فضائل أستاذنا عليه.

وهناك ثلاثة أمور هي من باب صناعة الرجال:

الأول: في غلاف كتابه هذا نجد أنَّ الذي قدَّم للكتاب هو أحد طلابه، وهو الأستاذ علي بن سليمان البارقي، الذي أحسن القول في أول تقديمه إذا قال:

يا سيبويه العصر حبري ينزوي
خجلاً ويرعف بي على استحياء
قدمتني لمَّا أذنت لأنجمي
أن تستنير بشمسك الغراء
فلتهنَ يا (شمسان) كل عظيمة
جلَّت عن الحكماء والعلماء

وقد فعل ذلك مرارًا، أخلاقٌ لا تستطيع أن تفسرها إلا بالذهول أمام هذه الشخصية التي تحمل بين طيَّاتها النقاء والصفاء، وهكذا فليكن الأساتذة.

الثاني: حرصه على كتابة الإهداء في مؤلفاته لمعلميه، ثم والديه

وإخوانه وبعض أساتذته ثم أسرته، وكل إهداء يتميز بكلمات تفيض بالمشاعر وتنهض بالهمم، وهذا الكتاب كان هدية للابن (بدر)، حفظه الله.

الثالث: تنويهه بكاتبة شابَّة أصيبت بمرض السكري، دعمًا لها في مؤلفه هذا.

أولئك العلماء هم الذين يجب أن يُعتز بهم ويُفتخر بهم، ويستحقون أنْ تشدَّ إليهم الرحال، وأن يكرَّموا على أعلى المستويات.

الرياض الجمعة **٢٧** ربيع الأول **١٤٤٢**هـ



معجم لا كالمعاجم
معجم أسماء الناس في المملكة العربية السعودية*

محمد بن ناصر العبودي

صدر حديثًا (معجم أسماء الناس في المملكة العربية السعودية للدكتور إبراهيم الشمسان)، وعندما كنت أقرأ في هذا المعجم وجدتني أغوص في محيط ضخم من المعرفة الدقيقة القديمة حتى تصل إلى العصر الجاهلي، والحديثة إلى وقت تأليفه مما جعلني أسارع فأسميه: «المعجم المعجزة».

والمعجزة تطلق على معانٍ منها أن تكون أمرًا معجزًا خلقه الباري عزَّ وجل، هكذا من الصعب أن يؤتى بمثله، وما يكون دون ذلك مما يصعب على الناس من ذوي التفكير المتوسط أن يأتوا بمثله.

وقد عرفت مؤلف هذا المعجم الأستاذ الدكتور إبراهيم الشمسان عالمًا بل علمًا في عويص الألفاظ العربية، وضليعًا في النحو والصرف.

لذلك لم أستغرب أن يصدر عنه معجم حافل في أسماء الناس في بلادنا: المملكة العربية السعودية.

وليس ذلك من باب تدوين هذه الأسماء على كثرتها فقط، ولكن من نواح عديدة منها تصريف كلماتها واشتقاقها اللغوي وبيان ما تدل عليه، وذكر ما إذا كانت عربية الأصل أو أعجمية، وما إذا كان التسمي بها قديمًا أو محدثًا، وإذا كان قديمًا شمل ذلك ذكر صيغته أو صفته القديمة.

(*) نشر في صحيفة الجزيرة، في السبت ٠٧ رجب ١٤٣٩هـ، العدد ١٦٦١٣.

وعندما أمعنت في قراءته والاستفادة منه ذهلت من كثرة ذلك، وعجبت ثم أعجبت بما منح الله به صديقنا المؤلف الدكتور إبراهيم الشمسان من دقة في الفهم ومن الصبر والجلد، وعدم السأم من تحليل الأسماء.

إنني عندما رأيت ذلك وتأملت حجم المعجم الضخم الذي هو لباب لا قشور فيه وعباب محيط لا أعرف له نظيرًا في موضوعه، ذكرت كتاب ابن دريد رحمه الله في اشتقاق أسماء الشعراء والقبائل، وإن هذا المعجم الضخم يغطي على ما جاء في كتاب ابن دريد سواء من حيث الحجم أو الموضوع.

بل إن اشتقاق ابن دريد لا يمكن نسبة محتوياته إلى محتويات معجم أبي أوس الدكتور إبراهيم الشمسان، إلا كما ينسب مسمى بعض الأشياء المختصرة كالماء القليل إلى الأشياء التي من أقربها إلى أذهاننا (العباب في اللغة).

ولا يطعن هذا في كتاب ابن دريد رحمه الله، ولكنه يظهر بيان ملكة مؤلف هذا المعجم الضخم بالنسبة إلى كتاب ابن دريد الذي كان في فجر التآليف العربية الضخمة في القرن الثالث الهجري.

ومن المجزع أن نقول: إنه من المفزع أن هذا العمل الثقافي العظيم المتمثل في (معجم أسماء الناس في المملكة العربية السعودية)، ينشر مطبوعًا فلا يعرف كثير من المثقفين في بلادنا بنشره ونبحث عن السبب، أهو في إدارة الثقافة في وزارة الثقافة التي هي المسؤولة عن الثقافة في بلادنا أم هو في عدم مبالاة القراء بصدور الكتب العلمية في

بلادنا أم هو مزيج من هذا وذاك؟

ذلك بأن الكتاب الجيد بل الممتاز، بل الذي تجاوز أن يكون ممتازًا بعد أن كان ممتازًا، فصار لا يكاد يوجد له في بلادنا نظير هو مفخرة للبلاد التي يصدر منها بعد أن يكون فخرًا لكاتبه وللجهات المسؤولة عن الثقافة في بلادنا.

فالكتاب كما يراه المثقفون في العالم هو إنتاج وطني لا يمكن أن يوصف بأنه مجرد إنتاج وطني؛ وذلك لسبب غير غريب، وهو كونه عملاً فكريًا ثقافيًا يحتاج إلى صبر وجلد في جمع مادته ثم تمحيصها ثم عرضها هذا العرض الشائق العميق الذي قارب أن يصل إلى ألف صفحة، (٩٥٠).

وقد أردت أن أعطي القارئ الكريم أنموذجًا من صفحة أو صفحات منه فإذا بي أجد أنه كله يصلح أن يكون أنموذجًا للبحث الدقيق بل المضني من ألفه إلى يائه.

وعندما عجبت من ذلك ذكرت ما لم أكن أنسيته، وهو أنه من تأليف الإمام النحوي اللغوي الضليع الدكتور أبي أوس، إبراهيم الشمسان، وأن النفيس من معدنه لا يستنكر.

وقلت في نفسي: كيف يصدر مثل هذا المعجم المحقّق المدقّق من دون أن يعرف به إلّا عدد قليل من المتابعين لصدور الكتب الجيدة.

والكتب الجيدة قليل، لذلك صار قليلاً من قليل وليست عيبًا في الشيء النفيس، كما قال الشاعر:

تعيرنا أنا قليل عديدنا　　　فقلت لها: إن الكرام قليل

ونحن لا نقول ذلك بل إن في بلادنا قراءً نجباء، ولكن العيب في عدم العمل على الإعلان في إصدار الكتب الجيدة.

هذا وقد فتحت هذا المعجم من أجل نقل صفحة من صفحاته ليراها القارئ الكريم بمثابة الأنموذج لما احتواه، فوقعت على صفحة ٦٧٢ وهذا أكثر ما جاء فيها:

مْبَيرِك (ذ): [ب/ ر/ ك]

أي مُبَيرِك، منقول من مصغر ترخيمي لمبارك على بناء (مُفيعل) من البركة. أو مصغر مِبرك أي مُبْرك اسم الفاعل من أبرك أي جعله يبرك. والأحرى أن الاسم مرتجل لأن التسمية عندهم تستقصي معظم الإمكانات التصريفية للجذر، وهذا يكون في جذور مختارة كالدالة على الحمد والحسن والبركة والسعد.

مبْيرِك (ذ) [ب/ ر/ ك]

أي مُبَيرِك، منقول من مصغر (مبروك)

مْبَيرِيكة (أ): [ب/ ر/ ك]

أي مُبَيرِيكة، منقول من مؤنث مبيريك.

مَتّاع (ذ): [م/ ت/ ع]

منقول من اسم الفاعل للمبالغة من الفعل (متع)، جاء في (لسان العرب) «ومَتَعَ الرجُلُ ومَتُعَ جادَ وظَرُفَ وقيل كل ما جادَ فقد مَتُعَ وهو ماتِعٌ والماتِعُ من كل شيء البالغُ في الجَوْدةِ الغاية».

متْاعِب (ذ): [ت/ ع/ ب]

أي مُتاعِب، قد يكون مرتجلاً كاسم الفاعل من الفعل (تاعب) أي شارك غيره في التعب، وقد يكون صيغة صوتية للنطق البدوي للاسم (مُتَيعِب) مصغر (مُتعِب) اسم الفاعل من الفعل (أتعب). جاء في (تهذيب اللغة) «ويقال: أتعب فلان نفسَه في عمل يمارسه إذا أنصبها فيما حمَّلها وأعملها فيه».

مِتْبع (ذ): [ت/ب/ع]

أي مُتْبِع، منقول من اسم الفاعل من الفعل (أتبع) جاء في (تهذيب اللغة) «ويقال: أتبعت القوم مثال أفعلت إذا كانوا سبقوك فلحقتهم».

مَتْرَك (ذ) [ت/ر/ك]

أما ما ذكره المؤلف في معجمه النفيس هذا فإن منه ما ذكره في مقدمته من قوله:

بدأ اهتمامي بدراسة الأسماء منذ اختياري خبيرًا ميدنيًّا عن المملكة العربية السعودية للمشاركة في إعداد موسوعة السلطان قابوس لأسماء العرب، ولما صدرت الموسوعة بمجلداتها الثمانية، واطلعت عليها، وجدت أن أسماء بلادنا نالها الحيف في هذه الموسوعة، لأن ما أدخل فيها من الأسماء إنما اعتُمد فيه على نسبة السكان، وكان قد تبين لي أن تعريف بعض الأسماء غير دقيق في تلكم الموسوعة، لغياب المعرفة بالثقافة المحلية في بيئاتنا في الجزيرة العربية، إذ كانت الموسوعة تعدّ في جامعة القاهرة، ومن أجل ذلك كله رأيت من واجبي أن أجتهد في كتابة معجم يحاول ما أمكن استقصاء الأسماء وتفسير معانيها في منهج مختلف عن منهج الموسوعة.

أحاول في هذا المعجم بيان معاني أسماء الأفراد السعوديين، ورتبت الأسماء ترتيبًا هجائيًّا، معتبرًا المعرف بأل في حرف الألف. أبدأ بذكر مدخل بالاسم، ولم أفرق بين الذكور والإناث، بل أشير إلى جنس مسماه، ورمزت للذكر بـ(ذ) ورمزت للأنثى بـ(أ) فإن كان الاسم يستعمل للذكر والأنثى كان الرمز (ذ/أ) يليه الجذر اللغوي الذي أخذ منه اللفظ. انتهى.

وعلى أية حال، فإن هذا المعجم عمل جليل فريد في بابه، نسأل الله تعالى أن يثيب المؤلف على ما بذل من جهد فيه، وأرجو من إدارة الثقافة أن تحيطه بالعناية والرعاية.

والله الموفق.



القسم الثاني

أبحاث مهداة

هجرة المخطوطات العربية
أنموذج من القرن السابع الهجري*

أبو زكريا صالح الحِجِّي
الرياض

المقدمة:

لم يمض وقت طويل منذ ظهور الدعوة المحمدية في جزيرة العرب حتى امتدت الفتوحات الإسلامية شرقًا وغربًا، واستظلت الأصقاع المفتوحة بظل الدين الإسلامي، واعتنقه أهلها، والتزموا بتعاليمه، وتقبلوا ما حمله من منهج قويم للحياة، لتعيش أمم كثيرة مرحلة جديدة من تاريخها.

والامتداد الإسلامي لم يكن غزوًا لبسط النفوذ أو السيطرة على بلدان مترامية الأطراف، وإنما كان فتحًا حمل مشعل الدعوة للدين الحق، الذي جعل العلم فريضة على المسلم، ورفع قدر العلماء في كل زمان ومكان، ولهذا فقد واكب موجة الفتوحات الإسلامية انتشار منقطع النظير للتراث العلمي العربي، ساعد على تحقيقه جملة أسباب ارتبط بعضها ببعض، لعل من أبرزها:

١. انطلاق الفتوحات في اتجاهات مختلفة، فاتسعت رقعة الدولة الإسلامية شرقًا وغربًا، منذ القرن الهجري الأول.
٢. كون الدين الإسلامي دين العلم والفقه في كل شؤون الحياة، فأقبل

(*) مجلة الفيصل في المحرم/صفر، ١٤٣١هـ، يناير/فبراير ٢٠١٠، ع٤٠٣/ ٤٠٤، ص٥٠ - ٧٠.

الناس في البلدان المفتوحة على طلب العلم إقبالًا شديدًا، فنشأت المدارس، وحِلق[١] الذكر ومجالس العلم في المساجد، كما انتشرت المكتبات العامة والخاصة.

٣. تطور النهضة العلمية في ظل تلك المقومات والمعطيات، فبرز العلماء ومصنفو الكتب، وتبعًا لذلك نشأت حركة انتساخ الكتب بأقلام مؤلفيها، أو بأقلام النساخ الذين اتخذوا الوراقة مهنة لطلب الرزق.

٤. قيام مصانع الورق في كثير من المدن المنضوية تحت راية الإسلام، وما أدى إليه ذلك من التيسير على الوراقين والنساخ، والقائمين على أمور المكتبات العامة والخاصة، بتوفير مستلزمات الوراقة وأدوات الكتابة، مما ساعد على كثرة المؤلفات والنُّسَخ .

٥. اضطلاع المكتبات العامة بخدمة العلماء والمتعلمين على حد سواء، بإتاحتها أماكن للقراءة والاطلاع، وتوفير النُّسَخ من الكتب المختلفة، لتكون في متناول الأساتذة والطلاب، والمؤلفين أيضًا .

هذه العوامل مجتمعة وغيرها أدت لتبلور صناعة المخطوطات العربية، خاصة في القرون الأولى الهجرية، التي يرى الدكتور عبد الستار الحلوجي أنها "أخصب الفترات في تاريخ المخطوط العربي، لأنها هي التي شهدت تطور الخط العربي، والكتابة العربية، وشهدت أيضًا حركة التأليف والترجمة منذ نشأتها إلى أن بلغت قمة مجدها، وشهدت بعد ذلك تطور صناعة الكتاب العربي من أبسط صورها إلى أن

---

(١) هذا الجمع ذكره الأصمعي وأما غيره فبفتح الحاء واللام. (المحررون)

بلغت درجة من النضج الفني"[١]

وفي ظل هذه النهضة العلمية ازدهرت المكتبات العامة والخاصة، وزادت حركة انتساخ الكتب والمؤلفات، فاتسعت بذلك دائرة انتشار المخطوطات، لتكون جميع المواطن الإسلامية مظانَّ لها، وتنقلت بعض الكتب أو نسخ منها بين الأماكن التي انتسخت فيها وبين أماكن أخرى من البلاد المترامية الأطراف، مسايرةً بذلك تنقلات العلماء والمشايخ وطلاب العلم بين البلدان والحواضر في الدولة الإسلامية، عبر عصورها المختلفة، وليس أدل على ذلك الانتشار من حقيقة ذات جانبين:

الأول: الكمُّ الهائل من المخطوطات التي زخرت بها المكتبات في جميع أنحاء الخلافة الإسلامية في عصر ازدهارها قرونًا عديدة.

الثاني: التراث الضخم من المخطوطات الإسلامية التي تقتنيها المكتبات والخِزانات المعاصرة، ليس فقط في البلاد الإسلامية، بل في غيرها من دول الشرق والغرب.

والقاسم المشترك بين هذين الجانبين هو تعدد أماكن الكتابة والانتساخ، وكثيرًا ما تُظهر الفهرسةُ الدقيقة للمخطوطات أن مكتبة في أقصى الغرب مثلاً تضم نُسَخًا قد كتبت في أقصى الشرق، أو العكس، مما يمكن وصفه بالهجرة والهجرة المعاكسة للمخطوطات العربية، على مدى أربعة عشر قرنًا، ولم تزل.

كانت الدوافع العلمية في أغلب الأحوال من أهم الأسباب لانتشار

(١) عبد الستار الحلوجي، المخطوط العربي منذ نشأته إلى آخر القرن الرابع الهجري، ص٢٧٥.

المخطوطات وهجرتها زمن الخلافة الإسلامية بمختلف عصورها، حيث كانت النهضة العلمية سمة من سمات تلك الفترة التي شهدت تطورًا في حركة تأليف الكتب وانتساخها، كما كانت حدود العالم الإسلامي مفتوحة لتنقل العلماء وطلاب العلم بين المدن والبلدان، وما صاحب ذلك من تطور لمهنة الوراقة ونَسْخ الكتب بكميات كبيرة، أسهمت في قيام المكتبات العامة والخاصة، التي إن بقيت دهرًا في أوج نشاطها وسلامة حالها فإن ما مرت به بلاد الإسلام في الشرق والغرب أدّى إلى تردي أوضاع كثير من دُور العلم، كما حدث لأشهر مكتبةٍ في الشرق الإسلامي (بيت الحكمة في بغداد) التي "مثلما كانت على موعدٍ مع المجد والازدهار في عصر الخليفتين هارون الرشيد وابنه المأمون، في أوائل القرن الثالث هجري، كانت على موعدٍ مع الاضمحلال في نهاية القرن الرابع الهجري"[(١)].

وكما حدث لأشهر مكتبة في الغرب الإسلامي (مكتبة قرطبة في الأندلس) التي "كانت من أول ما تعرض للهدم والضياع والتشتيت إبّان الحروب والصراعات التي مهدت لسقوط غرناطة الإسلامية في يد الأعداء، بعد مجدٍ امتد سبعمئة وثمانية وسبعين عامًا"[(٢)].

أما في الوقت الحاضر فإن الأعداد الكبيرة من التراث الإسلامي المخطوط الذي تفرق أشتاتًا في مظانَّ كثيرة، يحمل على القول أنه، إذا استثنينا المكتبات التي تتصل بجذورٍ تاريخية، مثل: مكتبة الأزهر في

---

(١) أبوزكريا صالح الحجي، رحلة إذاعية في عالم المخطوطات العربية، ص ١٤.
(٢) أبوزكريا صالح الحجي، رحلة إذاعية في عالم المخطوطات العربية، ص ١٦ - ١٧.

مصر، وجامع الزيتونة في تونس، ومكتبة الحرم المكي، وغيرها، فإن آلاف المخطوطات العربية قد هاجرت إلى المكتبات المعاصرة في بعض البلدان هجرةً قسرية، يمكن عزوها إلى أسبابٍ، من أهمها:

١. نقلها من مكان إلى مكان آخر لإنقاذها من ويلات الحروب التي حدثت في السابق، وما زالت تحدث في مناطق كثيرة من العالم.
٢. نقلها من أماكنها الأصلية إلى أماكن أخرى على أيدي أفراد أو جماعات، بغرض المتاجرة بها وبيعها على المكتبات العامة والخاصة.
٣. سعي بعض المكتبات والمراكز العلمية المعاصرة لجلب المخطوطات من مظانها، بدافع المحافظة عليها وصيانتها، وإتاحتها للمهتمين بدراسات التراث الإسلامي.
٤. نقل كثير من المخطوطات العربية إلى بعض المكتبات في دول عديدة في الغرب والشرق، خلال فترة الاستعمار التي عانت منها بعض البلدان الإسلامية والعربية.

ولنا أن نزعم أنه لولا تلك الهجرة قديمًا وحديثًا لما انتشر الانتاج العلمي، بما يمثله من نُسَخ الكتب والمؤلفات المفردة والمجموعة، في أنحاء العالم الإسلامي قرونًا من الزمن، ولَمَّا حظي كثير من المكتبات، ومراكز البحوث المعاصرة، بملايين النُّسَخ المخطوطة خلال فترة طويلة.

هذا البحث يعرض أنموذجًا لما يمكن تسميته هجرة المخطوطات العربية، من خلال التعريف بإحدى المخطوطات التي انتُسِخت في القرن السابع الهجري ببلدة (كاشْغَر) في حدود الصين، ثم يقضى الله أن تتم هجرتها لتستقر في قلب جزيرة العرب (مدينة الرياض) في العقد الأخير من القرن الرابع عشر الهجري.

مدينة كاشْغَر قديمًا وحديثًا:

ذكَرها صاحب معجم البلدان بهذا اللفظ، وقال في تعريفها: "كاشْغَر بالتقاء الساكنين، والشين معجمة والغين أيضًا، وراء، وهي مدينة وقرى ورساتيق، يُسافَر إليها من سمرقند وتلك النواحي، وهي في وسط بلاد الترك، وأهلها مسلمون"[(١)].

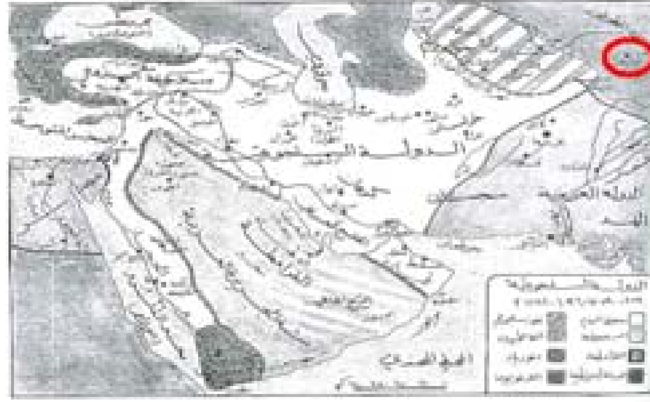
ويضم هذا البحث خريطتين جغرافيتين مأخوذتين من أحد الأطالس التاريخية المطبوعة حديثًا، تُظهِر الأولى منهما موقع هذه المدينة من العالم الإسلامي في القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي)[(٢)]، وفي الخريطة الثانية يتبين موقعها الحالي داخل الحدود الصينية غربًا[(٣)]، وهو ما انتهت إليه تبعيتها في القرن الخامس عشر الهجري (العشرين الميلادي) حين عرفت المنطقة التي تقع فيها هذه المدينة باسم (تركستان الشرقية) ويحدها من الجنوب: الباكستان والهند والتبت، ومن الجنوب الغربي والغرب: أفغانستان وتركستان الغربية، ومن الشمال: سيبيريا، ومن الشرق والجنوب الشرقي: الصين ومنغوليا، ومنذ العام ١٩٤٩م غيَّر الصينيون اسمها إلى (سينكيانج)[(٤)].

لقد امتد الفتح الإسلامي إلى منطقة (كاشْغَر) وما حولها منذ أواخر القرن الأول الهجري، بقيادة قتيبة بن مسلم الباهلي، الذي توفي سنة ٩٦هـ، والذي يُعدّ فاتح بلاد ما وراء النهر، وموطد أركان الدولة الإسلامية

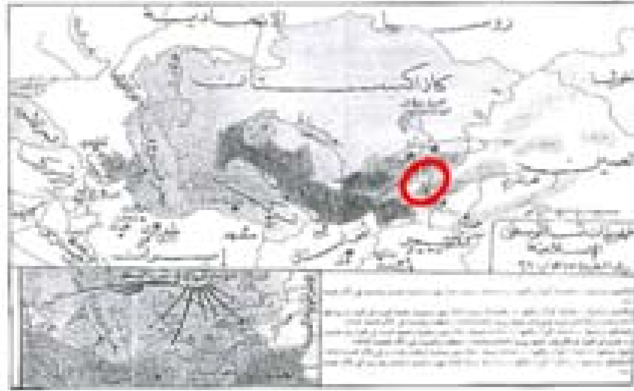
(١) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ٤: ٤٣٠.
(٢) محمود عصام الميداني، الأطلس التاريخي للعالم الإسلامي، ص ٣٥.
(٣) محمود عصام الميداني، الأطلس التاريخي للعالم الإسلامي، ص ٥٩.
(٤) محمود شيث خطاب، فتح كاشغر، مجلة الأمة (القطرية)، العدد ٥٠، صفر ١٤٠٥هـ (نسخة إلكترونية).

فيما يعرف اليوم بأوزبكستان، وتركمنستان، وطاجكستان، وقيرغبزيا[١].

خريطة تبين موقع مدينة كاشْغَر من العالم الإسلامي في القرن الخامس الهجري
(الأطلس التاريخي الإسلامي: ٣٥)



خريطة أخرى تبين موقع مدينة كاشْغَر داخل الحدود الصينية حاليًا
(الأطلس التاريخي الإسلامي: ٣٩)



(١) عبد اللطيف سمرقندي، خزائن الكتب في بلاد ما وراء النهر، مجلة عالم الكتب، مج ٢٦، ع٥ - ٦، ص ٦٢٢.

الحركة العلمية في (كاشْغَر) بعد الفتح:

كانت الدعوة إلى الإسلام ضمن مهام الجيوش الإسلامية في غزواتها وفتوحاتها لبلاد ما وراء النهر، وكان للدعاة أثر كبير في إسلام سكان تركستان الشرقية(١) حيث تقع مدينة (كاشْغَر) التي ظلت عاصمتها الأولى ردحًا من الزمن.

ولمّا كانت اللغة العربية هي لغة الدين أقبل سكان تلك البلاد على تعلمها "للاستزادة من العلم والثقافة الإسلامية حتى صاروا أنفسهم من العلماء، وتوالت أجيال منهم حذقوا مختلف العلوم الإسلامية، وقصدهم الناس من سائر الأقطار لتلقي المزيد من العلم على أيديهم"(٢).

نالت مدينة (كاشْغَر) فيما بعد، نصيبها من النهضة العلمية، في ظل تزايد الإقبال على طلب العلم، وازدهار حركة التأليف، وانتساخ المصنفات مما ألَّفه علماء تلك المدينة أو غيرهم من أهل المناطق الإسلامية المجاورة، كما هو حال المجموع المخطوط الذي يتناوله البحث، الذي انتُسِخ في هذه البلدة خلال سنتي ٦٢٧هـ و٦٢٨هـ، وكان أُلِّف في مدينة سمرقند، قبل ذلك بأكثر من سبعين سنة.

أنموذج من المخطوطات المهاجرة:

الأنموذج الذي يعرضه هذا البحث، لهجرة بعض المخطوطات العربية من موطنها الأصلي إلى مناطق أخرى؛ مجلد يضم بين دفتيه

---

(١) إلهام أحمد عبد العزيز عبد المحسن البابطين، الحياة الاقتصادية في بلاد ما وراء النهر، العصر العباسي الأول، ص ٥٤.

(٢) إلهام أحمد عبد العزيز عبد المحسن البابطين، الحياة الاقتصادية في بلاد ما وراء النهر، العصر العباسي الأول، ص ٥٦.

كتابين، يقعان فيما مجموعه مئةٌ وثمان وتسعون ورقة، ومثل هذا المجلد يصنف في علم فهرسة المخطوطات ضمن المجاميع، التي عادة ما يحوي الواحد منها "عدة رسائل، أو مؤلفات"(١)، وتتعدد أشكال المجاميع حسب محتواها، على النحو الآتي:(٢)

١- المجموع المشتمل على عدة رسائل أو كتبٍ مختلفة الموضوع، لأكثر من مؤلف .

٢- المجموع المشتمل على عدة رسائل أو كتب مختلفة الموضوع، لكنها لمؤلف واحد.

٣- المجموع المشتمل على جملة رسائل أو كتب تعالج موضوعًا واحدًا، لعدة مؤلفين.

٤- المجموع الذي كتبه نساخ مختلفون في تواريخ مختلفة.

٥- المجموع الذي كتب بخطوط مختلفة ولكن تاريخ الكتابة واحد أو متقارب .

الوصف المادي للمخطوطة (المجموع):(٣)

التجليد:

حالته جيدة، وهو مصنوع من الورق المقوى المكسو بالجلد الأحمر، وتبرز في ظاهر دفتي الجلدة زخارف مضغوطة محلاة بماء الذهب، لكن التلف واضح في مواضع متفرقة منهما، والأرجح أن

---

(١) عابد سليمان المشوخي، المخطوطات العربية مشكلات وحلول، ص ٨١.

(٢) أبوزكريا صالح الحجي، رحلة إذاعية في عالم المخطوطات العربية، ص ٢٣.

(٣) أُدرِجَت خلال البحث صور صفحات من الأصل الخطي للمجموع، فلتنظر.

هذا التجليد كان في عصر متأخر عن الفترة التي انتسخ فيها المجموع.

الورق:

يحوي المجموع مئة وثمان وتسعين ورقة (أي ٣٩٦ صفحة) حالتها بشكل عام حسنة، وتغلب عليها الدكنة قليلاً، تأثرًا بعامل الزمن، وبما تعرضت له من الرطوبة والبلل، وبعض المواضع بها أكل أرضة بسيط، وترميم قليل، وفي بعض الهوامش شروح وتعليقات، ويظهر اضطراب في ترتيب عدة ورقات في بداية المجلد، الذي ألحقت بأوله وآخره فوائد فقهية، ربما أنها بخط ناسخ المجموع.

مقاس الورق ١٨,٥ سم ارتفاعًا و١٥ سم عرضًا، وعدد السطور في الصفحة الواحدة ١٧ سطرًا.

الخط والكتابة:

الخط تدويني معتنًى به في غالب الصفحات، ومستعجل في بعض المواضع، ولون الحبر أسود، باستثناء بعض أسماء الأبواب ورؤوس الفقر والوقفات والفواصل فهي مكتوبة بحبر أحمر غامق.

الناسخ وتاريخ النسخ:

الكتابان اللذان حواهما هذا المجموع نمقهما ناسخ واحد، هو علي بن محمد بن علي الملقب بفخر البستاني، وقد ذَكَر اسمه وتاريخ فراغه من الكتابة في آخر النسختين على النحو الآتي:

في نهاية الكتاب الأول قال ما نصه:

"وقد تم الكتاب بعون الملك الوهاب، على يد عبده الضعيف

المذنب الخاطئ الجافي الراجي إلى رحمة الله وغفرانه علي بن محمد بن علي الملقب بفخر البستاني، غفر الله له ولوالديه ولمن نظر فيه، ولمن قرأ عنه، ولمن قال آمين، في نصف ليلة الجمعة، في بلدة كاشغر، في غرة صفر سنة سبع وعشرين وستمائة".

أما في آخر الكتاب الثاني فقد جاء ما رسمه:

"وقع الفراغ من تسويده يوم الثلاثاء في سلخ ربيع الأول، في بلدة كاشغر، على يد العبد الضعيف المذنب الراجي رحمة ربه علي بن محمد بن علي، سنة ثمان وعشرين وستمائة"

جلدة المجموع من الظاهر

محتوى المجموع

الكتاب الأول: (يحتل أغلب صفحات المجموع، حيث يقع في ١٦٤ ورقة أي ٣٢٨ صفحة)

العنوان: الفقه النافع

هذا هو العنوان الذي أثبته المؤلف في ديباجته، إذ قال:

"الحمد لله رب العالمين حمدًا أمده الأبد وعدده أن لا يحصيه العدد، ... سألتموني أن أصوغ لكم في الفقه كتابًا نافعًا... وسميته **الفقه النافع**...".

وفي الفائدة المدونة في وجه الورقة الأولى من المخطوطة، كُتِب بخط أحدث من خط الفائدة وخط النسخة: كتاب النافع (في أعلى الصفحة) و(النافع في الفقه) أسفلها.

كما أن صاحب كتاب (الهادي للبادي) الذي يلي هذا الكتاب في المجموع، قد ذكر في مقدمته أنه لما رأى "كتاب النافع الذي صاغه السند الإمام الأجل ناصر الدين...إلخ." أي إنه سمى كتاب السمرقندي بهذا الاسم، وربما هذا ما حدا بصاحب كشف الظنون أن ينفرد بذكر الكتاب بعنوان (النافع في الفروع)[1].

أما المصادر التي ترجمت للمؤلف، والفهارس التي حوت وصف نسخ خطية للكتاب، فقد أوردت العنوان الذي أثبته المؤلف

(١) حاجي خليفة، كشف الظنون، ٢: ١٩٢١.

لكتابه (الفقه النافع).

المؤلف:

اشتهر بالسَّمَرقندي وهو محمد بن يوسف بن محمد بن علي بن محمد العلوي الحسني، أبو القاسم، ناصر الدين المدني، السمرقندي، فقيه حنفي، عالم بالتفسير والحديث والوعظ، من أهل سمرقند، وقد حج سنة ٥٤٢هـ، وأقام في عودته مدة ببغداد، ومات بسمرقند، سنة ٥٥٦هـ.

وجاء في كشف الظنون عن وفاته سنة ٦٥٦هـ وهو خطأٌ طباعيٌّ، لأن المؤلف يثبت له تاريخ ٥٥٦هـ عند ذكر كتب له أخرى، ولأن الناسخ الذي كتب هذه النسخة من (الفقه النافع) سنة ٦٢٧هـ قد ترحَّم على المؤلف، في خطبة الكتاب، وهذا تأكيد لوفاته قبل تلك السنة والله أعلم.

مؤلفاته:

له عدة تصانيف غير كتابه هذا، منها:[(١)]

(جامع الفتاوى) و(بلوغ الأرب من تحقيق استعارات العرب) و(رياضة الأخلاق) و(مصابيح السبل) مجلدان، في فروع الحنفية، و(الملتقط في الفتاوى الحنفية) ويسمى (مآل الفتاوى)

تحقيق الكتاب ونشره:

فيما ظهر للباحث أن الكتاب، بما له من نسخ خطية في غير مكتبة، لم يحظ باهتمام المعنيين بالتحقيق العلمي للمخطوطات العربية ونشرها،

---

(١) حاجي خليفة، كشف الظنون، ٧: ١٤٩.

حتى جاء العام ١٤٠٩هـ (١٩٨٩م) حققه إبراهيم بن محمد بن إبراهيم العبّود في ستة مجلدات؛ أطروحة للدكتوراه في كلية الشريعة بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض(١). ونشرت مكتبة العبيكان الكتاب عام ٢٠٠٠م. في ثلاثة أجزاء.

نُسَخ الكتاب:

لم يكن من أهداف البحث استقصاء جميع النسخ المخطوطة لهذا الكتاب، غير أنه نُظر في بعض فهارس المخطوطات، ولم يظهر فيها إلا ثلاث نسخ، هي كالآتي:

النسخة الأولى: هي التي ضمن المجموع محور البحث، وهي من مقتنيات مكتبة جامعة الملك سعود بالرياض، محفوظة بالرقم ٦١٧٩م، وقد مر ضمن الوصف المادي للمجموع بيان حالة هذه النسخة، من حيث الورق والخط والكتابة. . .إلخ.

النسخة الثانية: محفوظة بالرقم ١٤٢ في مكتبة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض، وقد وردت لها فهرسة شاملة في (الفهرس الوصفي لمخطوطات الفقه الإسلامي وأصوله)(٢).

أما النسخة الثالثة، فهي من مقتنيات مكتبة الملك عبد العزيز العامة بالرياض، محفوظة بالرقم ٢١٤٨خ، ولها وصف موجز في فهرس المكتبة الإلكتروني(٣).

---

(١) فهرس مكتبة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية (النسخة الإلكترونية).

(٢) الفهرس الوصفي لمخطوطات الفقه الإسلامي وأصوله، ص ٣٨٨ - ٣٩٠.

(٣) فهرس مكتبة الملك عبد العزيز العامة بالرياض (النسخة الإلكترونية).

الصفحتان الأولى والثانية من الكتاب الأول في المجموع



نهاية الكتاب الأول وبداية الكتاب الثاني في المجموع



الكتاب الثاني: (يقع في الثلاث والثلاثين ورقة الأخيرة في المجموع: ق ١٦٥ - ١٩٨).

العنوان: الهادي للبادي

وهو شرح لكتاب (الفقه النافع) المذكور آنفًا، فقد قال مؤلفه في مقدمته: "... إني لما رأيت كتاب النافع الذي صاغه السند الإمام الأجل ناصر الدين... فأردت فتح إغلاقه، وتقليب أجزائه وأوراقه، ليسهل دَرْكُه... وسميته **الهادي للبادي**..."

المؤلف: أبو بكر بن محمود (كذا قال عن نفسه في المقدمة التي دبج بها كتابه) وكذا ذكره صاحب كشف الظنون في سرد الشروح على كتاب (الفقه النافع للسمرقندي)[١].

لم تسعفنا المصادر التي بُحث فيها بترجمة له، والظن قوي بأنه عاش في الفترة بين منتصف القرن السادس ومنتصف القرن السابع الهجريين، إذا عرفنا أن هذه النسخة من كتابه (الهادي للبادي، شرح الفقه النافع للسمرقندي) قد انتُسِخت سنة ٦٢٨هـ، وتوفي صاحب الكتاب المشروح سنة ٥٥٦هـ.

ومما يلاحظ أن اسم المؤلف جاء مختصرًا في المقدمة، ولم يُذكر في آخر النسخة، خلاف المألوف في الكثير من المخطوطات، أن يَذكرَ الناسخُ اسمَ المؤلف وعنوانَ الكتاب في حرد المتن.

أما وفاته فهي مجهولة، حتى في كشف الظنون، وقد ذكره مؤلفًا

(١) حاجي خليفة، كشف الظنون، ٢: ١٩٢٢.

لكتاب (الهادي للبادي) على أنه أحد شروح (النافع في الفقه) للسمرقندي.

نُسَخ الكتاب:

لم يثمر البحث في مظان الكتب المخطوطة والمطبوعة وتراجم الأعلام، عن توفر معلومات كافية لنُسَخ أخرى من هذا الكتاب، أو ترجمة وافية لمؤلفه، عدا النبذة التي مرت الإشارة إليها، نقلاً عن كتاب (كشف الظنون) ونص ما جاء فيها: "ولأبي بكر بن محمود، المتوفى سنة. . . كتاب (الهادي للبادي) على كتاب (النافع) لعله من شروحه"[١].

وأمام الشح في المعلومات عن الكتاب ومصنِّفه، تكاد تكون هذه النسخة منه هي الوحيدة المعروفة حتى الآن، وقد سبق القول إنها تقع ضمن المجموع محور البحث، المحفوظ بالرقم ٦١٧٩م، بقسم المخطوطات، مكتبة جامعة الملك سعود بالرياض، وقد مر في فقرة سابقة بيان أبرز الملامح المادية لها، من حيث حالة الورق، والخط، والكتابة، وما ظهر من آثار الرطوبة والبلل، وغير ذلك.

ولعل هذا البحث، بالإشارة إلى هذه النسخة، يسهم بالتعريف بمخطوطة ربما تكون مجهولة لدى الباحثين، ويضع اليد على أحد الشروح الجديدة لكتاب (الفقه النافع، للسمرقندي) ليلتفت إليه نظر المهتمين بتحقيق المخطوطات وفق المنهج العلمي الحديث، للعمل على طباعته ونشره محققًا، تعميمًا للفائدة.

---

(١) حاجي خليفة، كشف الظنون، ٢: ١٩٢٢.

الصفحتان الأخيرتان من الكتاب الثاني في المجموع





التحقيب السياسي للعصور الأدبية
نظرات ومراجعات

أ.د. عبدالله بن سليم الرشيد
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية - الرياض

دأب الباحثون ودارسو الأدب العربي على إسقاط الأدب العربي وتاريخه وتحوّلاته في تقسيم عُرف باسم (التحقيب السياسي)(١)، وجعلوا نظرهم في الأدب قديمه وحديثه منُوطًا بهذا التقسيم، فنقل لاحقٌ عن سابقٍ، حتى استقرّ في الأذهان أنْ لا معوَّلَ إلا عليه، وتطرّق إلى العقول أنْ لا سبيلَ إلى استيعاب تحوّلات الأدب وتاريخه ومعرفةِ رجاله وفنونه إلا به، حتى غدتْ مراجعته ضربًا من الحرْث في أرضٍ أنهكها الزُّرّاع، وحتى ظُنَّتْ تقحُّمًا في مسألة (عُرفيّة) لا يُستطاعُ زحزحتُها وإبدالُ ما هو خيرٌ منها بها.

وقد كنتُ منذ حينٍ أراود نفسي على مراجعة ذلك التحقيب، وآطِرُها على تأمّلٍ ونظرٍ؛ لعلي أقترحُ ما هو خيرٌ، أو ما هو أبعدُ عن الإشكالات التي أورثنا إياها.

وها هي مقالتي هذه تسعى إلى مقاربة المسألة، وتقليب وجوه النظر فيها، مفيدًا من جهد علماء ونقّادٍ ودارسين سبقوني إلى دراستها ونقدها. وقبل أن أفصّل القول أعرضُ عرضًا موجزًا للعصور الأدبية التي يحتجِنُها

---

(١) التحقيب مشتق من الحِقْبة، وهي مدة من الدهر، قيل: ثمانون سنة، وقيل: لا حدّ لها. انظر: اللسان (حقب).

ذلك التحقيب؛ لأهمية إدراكها في كشف بعض الإشكالات.

تقسيم العصور الأدبية:

إن عصور الأدب الكبرى عند جمهرة من الباحثين ثلاثة أقسام:

١. الأدب القديم، الذي يبدأ من أقدم ما نعرفُ من زمان الجاهلية إلى آخر العصر الأموي. ويُلحظُ أنْ لا بداية جليّةً له.

٢. الأدب المُحدَث، ويبدأ من سقوط الدولة الأموية إلى نحو بداية القرن الثالث عشر الهجري (نحو مطلع القرن التاسع عشر للميلاد).

٣. الأدب الحديث، ويُبتَدأ به من مطلع القرن التاسع عشر إلى اليوم(١) .

ثم قُسِّمت هذه العصور أقسامًا واختُلِف في تحديد بعضها على هذا النحو:

١- العصر الجاهلي: وبدايته غير معروفة، ولكن أكثر الدارسين يذهب إلى أنه لا يزيد عن مئتي سنة قبل الإسلام، اتكاءً على استظهار الجاحظ الذي ردّه إلى نحو مئتي سنة أو خمسين ومئة(٢)، أما أحمد حسن الزيات فجعل مبدأَه استقلالَ العدنانيين عن اليمنيين في منتصف القرن الخامس للميلاد(٣).

٢- عصر صدر الإسلام: ويبدأ بظهور الإسلام، وينتهي بنهاية عهد الخلفاء الراشدين، بمقتل علي رضي الله عنه عام ٤٠هـ.

---

(١) انظر: المنهاج في الأدب العربي وتاريخه، ١١.

(٢) انظر: الحيوان، ١/ ٧٤. وراجع: تاريخ آداب العرب، ٢/ ١٥ - ١٧.

(٣) انظر: تاريخ الأدب العربي (الزيات)، ٥. ولا شكّ في أنه عوّل على تاريخ مجهول.

٣- العصر الأموي: ويبدأ عام ٤٠هـ بتولي معاوية رضي الله عنه الخلافة، وينتهي بسقوط الدولة الأموية عام ١٣٢هـ.
وبعض الدارسين يجعل العصرين الثاني والثالث باسم واحد هو (العصر الإسلامي)[١].
٤- العصر العباسي، وهو ثلاثة أقسام:

- العباسي الأول، ويسميه بعضهم (حقبة بغداد) من عام ١٣٢هـ حتى عام ٢٣٢هـ، وجعله بعضهم إلى مقتل الخليفة المتوكل عام ٢٤٧هـ[٢].
- العباسي الثاني، ويسميه بعضهم (حقبة الدُّوَيلات)، وينتهي بخلع الخليفة المستكفي عام ٣٣٤هـ، واستيلاء البُويهيين على مقاليد الحكم[٣].
- العباسي الثالث، وينتهي عام ٦٥٦هـ، باجتياحِ التتار بغدادَ، وسقوطِ الدولة العباسية[٤]، وبعضهم يسمّيه (الحقبَة السُّلجوقية).

٥- عصر الدول المتتابعة[٥]، أو عصر الدول والإمارات[٦] أو عصر

(١) انظر: العصر الجاهلي، ١٤، والعصر الإسلامي، ٩، ١٣٧.
(٢) انظر: العصر الجاهلي، ١٤.
(٣) انظر: العصر الجاهلي، ١٤.
(٤) انظر: العصر الجاهلي، ١٤.
(٥) وممن ارتضى هذه التسمية حسن العدل وأحمد الإسكندري ومصطفى عناني وعمر موسى باشا. وانظر: أدب الدول المتتابعة الزنكية والأيوبية والمماليك، سامي يوسف أبو زيد، ٢٠١٢م.
(٦) وأشهر من ارتضى هذا المصطلح شوقي ضيف، جاعلًا إياه عنوانًا متفرّعًا لثلاثة أجزاء من كتابه الكبير (تاريخ الأدب العربي)، وانظر كتابه في تلك السلسلة: العصر الجاهلي، ١٥.

الدول المتزامنة[١]، ويدخل فيه دول قامت قبل سقوط بغداد، وبعض الدارسين يقسمه أعصرًا أدبية يندرج فيها:

- العصر السلجوقي من عام ٤٢٩حتى عام٦٣٩هـ.
- عصر الحروب الصليبية من عام ٤٨٩هـ حتى عام ٦٤٨هـ.
- العصر الأيوبي من عام ٥٥٥هـ حتى عام ٧٣٢هـ.
- العصر المملوكي، وهو قسمان: عصر المماليك البحرية من عام ٦٤٨هـ حتى عام ٧٨٤هـ، وعصر المماليك البُرْجية من عام ٧٨٤هـ حتى عام ٩٢٣هـ.
- العصر العثماني، ويبدأ عام ٩٢٣هـ حتى بداية ما سُمّي (العصرَ الحديث).

٦- العصر الحديث، وفي بدايته أقوال:

١) أنه بدأ عام ١٢١٣هـ/ ١٧٩٨م مع الغزو الفرنسي لمصر (حملة نابليون)[٢].

٢) أنه بدأ مع ظهور المطابع والصحف في لبنان وسورية ومصر مع مطلع القرن التاسع عشر الميلادي، ويوافق النصف الأول من القرن الثالث عشر الهجري.

٣) أنه بدأ باستيلاء محمد علي باشا (ت ١٢٥٦هـ/ ١٨٤٩م) على حكم مصر[٣].

---

(١) اقترحه خالد الجديع. انظر: عصر الدول المتزامنة المفهوم والمصطلحات البديلة، خالد الجديع، جريدة الرياض، العدد ١٥٢٣٥، ٢٥/ ٣/ ١٤٣١هـ، ١١/ ٣/ ٢٠١٠م.

(٢) قال فيصل أصلان: إن انتهاء ما سمي العصر العثماني بنابليون لا بالحرب الأولى أثرٌ من الرؤية الاستشراقية، والنزعة المركزية الأوروبية. انظر: إشكالية التحقيب الأدبي، العصر العثماني مثالًا، ص ١٦٣.

(٣) انظر: تاريخ الأدب العربي (الزيات)، ص ٥.

٤) أنه لم يبدأ في سنة أو نحوها، بل كانت بدايته في خلال مئة عام (من منتصف القرن الثاني عشر إلى منتصف القرن الثالث عشر الهجريين) وذلك عندما نشطت بضع حركات إصلاحية في العالم العربي، وكان لها أثر في نهضة العرب[١]. غير أن لعمر فروخ رأيًا في مفهوم (الأدب الحديث) خالف فيه من سبقه، ولم يتابعه عليه أحد، على ما رأيت، إذ جعله مبتدئًا بمطلع القرن العاشر (٩٠١هـ) منتهيًا بنهايته (١٠٠٠هـ)[٢].

٥) ولدارسين آخرين اجتهادات مختلفة في التحقيب، لم أر ضرورة تتبعها؛ لأن المعوّل على نقد فكرة (التحقيب السياسي) بعيدًا عن تفصيلاتها وتعدد الآراء فيها. غير أني أشير إلى أن المستشرقين الذين عُنُوا بالتحقيب اختلفوا في تقسيم العصور أيضًا، وأكتفي بذكر تقسيم بروكلمان الذي جعله في مرحلتين:

٦) الأولى: أدب الأمة العربية من أوليته إلى سقوط الأمويين سنة ١٣٢هـ، وجعلها في أقسام:

٧) الأدب العربي إلى ظهور الإسلام.

٨) محمد [ﷺ] وعصره.

٩) عصر الدولة الأموية.

والثانية: الأدب الإسلامي باللغة العربية، وجعله أقسامًا:

١) عصر ازدهار الأدب في عصر العباسيين بالعراق منذ نحو ٧٥٠م إلى سنة ١٠٠٠م.

---

(١) انظر: رسالة في الطريق إلى ثقافتنا، ص ٨٦.

(٢) انظر: معالم الأدب العربي في العصر الحديث، ١/ ٥.

٢) عصر الازدهار المتأخر للأدب منذ سنة ١٠٠٠ إلى سقوط بغداد.
٣) عصر الأدب العربي منذ سيادة المغول إلى فتح مصر على يد السلطان سليم.
٤) عصر الأدب العربي من سنة ١٥١٧ حتى أواسط القرن التاسع عشر.
٥) الأدب العربي الحديث[١].

وبروكلمان - وإن اقترح التقسيم المشار إليه أعلاه - لا يدع بعض المصطلحات غير المستقرة أو غير المجمَع عليها، فهو يستعمل مصطلح (العصر الطولوني)، و(العصر الإخشيدي)[٢].

ويشير شوقي ضيف إلى أن أكثر من أرّخوا للأدب العربي وزّعوا حديثهم على خمسة عصور أساسية، هي المذكورة أعلاه، (الجاهلي فالإسلامي، فالعباسي، فالدول المتتابعة، فالعصر الحديث) أما عصر العباسيين (١٣٢-٦٥٦هـ) فأشار إلى أنه يُجعل عند بعضهم قسمين: عصرًا أولَ، يمتدّ نحو مئة عام، وثانيًا يمتدّ إلى سقوط خلافة العباسيين[٣]، وربما أضاف بعضهم عصرًا عباسيًّا رابعًا، وذلك بجعل العصر الثالث المذكور فيما سلف قسمين: قسمًا ينتهي بدخول السلاجقة بغداد عام ٤٤٧هـ، ويمتد الرابع إلى سقوط بغداد[٤]. وضيفٌ شديد الانتقاد لمن مدّوا العصر العباسي؛ ولهذا آثر جعله في قسمين فحسب،

(١) انظر: تاريخ الأدب العربي (بروكلمان)، القسم الأول، ١/ ٩٦ - ٩٧.
(٢) انظر: المصدر السابق، ١/ ٤٢٠.
(٣) انظر: العصر الجاهلي، ص ١٤.
(٤) انظر: المصدر السابق، ص ١٤.

الأول ينتهي بسنة ٢٣٢هـ، والثاني ينتهي باستيلاء البويهيين على بغداد سنة ٣٣٤هـ[١].

ومن الدارسين من سمّى القرون الثلاثة بعد سقوط بغداد باسم (العصر المغولي)، وهو مذهب عرَض لنقده شوقي ضيف، قائلاً: إن سلطان المغول في تلك القرون لم يتجاوز إيران والعراق، فمن الخطأ تسميته بذلك. وعليه رأى دمج العصر المغولي في عصر الدول والإمارات؛ لأن هذه التسمية ألصق بالعصر، وأدقّ، وأكثر صدقًا على الواقع[٢]. وضيف يقِرّ بأن عصر الدول والإمارات طويل جدًّا، متعدّد البيئات والأقاليم، ولكنه يرى أن هذا الطول وذلك التعدّد لم يحملا تفاضُلاً بين الشعوب في الثقافة والشعر[٣].

وأشار ضيف إلى مذهب بعضهم في تسمية حكم العثمانيين لأغلب البلاد العربية باسم (العصر العثماني)، وانتقده، ذاهبًا إلى أنه تصوّر مخطئ؛ وعليه رأى إدراج ما يسمى العصر العثماني في عصر الدول والإمارات أيضًا[٤].

أما مصطلح (عصر الدول المتزامنة) فهو اقتراح خالد الجديع الذي علّله بكلام منطقي مقنع، إذ قال: إنه يساعد في حلّ هذه القضية الشائكة آملاً أن يَدخُل تقسيماتِ العصور عوضًا عن الأسماء السالفة

---

(١) انظر: الشعر وطوابعه الشعبية على مرّ العصور، ١٣٢، والعصر الجاهلي، ١٤ - ١٥.
(٢) انظر: عصر الدول والإمارات (ج٥)، ص ٥.
(٣) انظر: الشعر وطوابعه الشعبية على مرّ العصور، ص ١٣٢.
(٤) انظر: عصر الدول والإمارات (ج٥)، ص ٥.

(يعني المتتابعة وغيره)؛ لأنه يصدق على دول العصر الوسيط، فهي متزامنة في مدة وجودها، فالدولة الزنكية (٤٨٠ - ٥٧٧هـ) كانت في زمن الدولة الفاطمية (٣٥٨ - ٥٦٧هـ)، وفي تلك المدة أيضًا كانت الدولة العباسية قائمة (١٣٢- ٦٥٦هـ)، ولكنها لم تستطع في جميع مراحلها أن تُحكِم السيطرة حتى على العراق وحده؛ فنفوذ الدولتين البويهية والسلجوقية كان أقوى منها، وكانت في ذلك الزمن دول أخرى متاخمة لها مستقلّة عنها، كالدولة السامانية والدولة الزيارية والدولة الغزنوية، وهذا يؤكد أن التزامن حاصلٌ على امتداد تاريخ تلك الفترة الطويلة بالنظر إلى أنه لم توجد دولة واحدة تسيطر على بقاع العالم الإسلامي قاطبة، ومن هنا يُلِحُّ مصطلح (الدول المتزامنة) لتقديم نفسه بديلاً عن تلك التسميات[١].

على أني رأيتُ في صَنيع ابن ظافر الأزدي (ت٦١٣هـ) ما يستدعي النظر، فإنه قد سمّى كتابه (الدول المنقطعة) يعني بها دولًا مثل الطولونية والإخشيدية والعُبيدية والصَّنهاجية. فإن أبقينا هذا التحقيب، فهل نسمي هذا العصر عصرَ الدول المنقطعة؟

عصور الأدب في الأندلس[٢]:

شهدت بلاد الأندلس ازدهارًا في الأدب العربي، واصطبغ الإنتاج الأدبي فيها بصبغة جعلت الدارسين يُفردونه بتقسيمٍ آخر، مندمِجٍ زمنيًّا

(١) انظر: عصر الدول المتزامنة المفهوم والمصطلحات البديلة، خالد الجديع، جريدة الرياض، العدد ١٥٢٣٥، ٢٥/ ٣/ ١٤٣١هـ، ١١/ ٣/ ٢٠١٠م.

(٢) وليس من الصواب أن يوسم الأدب كلّه في الأندلس بأنه (العصر الأندلسي)؛ ففي هذا خروج عن التحقيب نفسه، وإبعاد للنَّجْعة بنسبة العصر إلى إقليم.

في العصور الأدبية في المشرق. وعصور الأدب الأندلسي هي:

١. عصر الولاة (أو عصر سيادة قرطبة) من عام ٩٢هـ حتى عام ١٣٨هـ.

٢. عصر الدولة الأموية من ١٣٨هـ حتى عام ٤٢٢هـ، ويجعله بعضهم قسمين:

- عصر الإمارة من عام ١٣٨هـ حتى عام ٣١٦هـ.
- وعصر الخلافة من عام ٣١٦هـ حتى عام ٤٠٠هـ .

٣. عصر ملوك الطوائف من عام ٤٢٢هـ حتى عام ٤٨٤هـ.

٤. عصر المرابطين من عام ٤٨٤هـ حتى عام ٥٤٣هـ.

٥. عصر الموحِّدين من عام ٥٢٤هـ حتى عام ٦٧٤هـ.

٦. ثم العصر الذي شهد بعض الدويلات حتى سقوط غرناطة عام ٨٩٧هـ .

جذور التحقيب وبداياته:

لهذا التحقيب جذور وأصول وردت في بعض مدونات الأدب القديمة، نستنبطها من استعمال العلماء والأدباء لبعض المصطلحات التي استقرّت في هذا المنهج، كالتعبير بـ(شعراء الجاهلية)، و(الإسلامي)، و(الخضْرمة)، ولكنها لم تستوِ تقسيمًا ذا حدودٍ وأُطُرٍ، إلا في إطلاق أوصاف مثل الجاهلي والإسلامي والمخضرم ونحو ذلك، ومن هذا القبيل قول أبي عَمْرو بن العلاء: "لو أدرك الأخطل يومًا واحدًا من الجاهلية ما قدّمتُ عليه أحدًا"[1]، فهذا يعني أنه يرى فصلَ ما بين زمان

(١) الأغاني، ٨/ ٢٨٤.

وزمان. ومثله قولُ ابن سلاّم: "ففصّلنا الشعراءَ من أهل الجاهلية والإسلام والمخضرمين الذين كانوا في الجاهليةِ وأدركوا الإسلام"[١]، ونقلُه قولَ ابنِ أبي إسحاق: "أهل الجاهلية... وأهل الإسلام"[٢]، ولما جاء إلى ذكر شعراء ما سُمّي العصرَ الأموي قال: (طبقات الإسلام)، وأشار المحقق إلى أنه في بعض النسخ (الطبقة الأولى من الإسلاميين)[٣]، والإسلاميون عنده هم الذين عاشوا بعد زمن الخلفاء الراشدين. ونجد عند ابن قُتيبة قوله المُردَّد عن بعض الشعراء: إنه كان جاهليًّا إسلاميًّا[٤]، ونراه يستعمل لفظ (جاهليّ) كثيرًا[٥]. وكذلك نجد الثعالبيّ يذكر مصطلحات (الجاهليين والإسلاميين، والمحدَثين، والمولَّدين، والعصريين)[٦]، وقريبٌ منه الميكاليّ الذي استعمل المصطلحات نفسها، إضافة إلى مصطلح (المتقدمون من الإسلاميين)[٧]. وكل ذلك يكشف بعضَ جذور هذا التحقيب.

أما التحقيب في العصر الحاضر فمنشؤه عند المستشرقين، إذْ هو أوروبي النشأة، في عام ١٧٣٣م حين ألّف الفرنسي أندري دوشيسن (Du chesne) كتابه (تاريخ فرنسا الأدبي)، وفيه قسّم الأدب الفرنسي

(١) طبقات فحول الشعراء، ٢٣ - ٢٤.
(٢) طبقات فحول الشعراء، ٥٢.
(٣) انظر: طبقات فحول الشعراء، ٢٩٦. وانظر استعماله لفظ (الإسلاميين) في ص٥٥.
(٤) انظر: الشعر والشعراء، ٦١٣، ٦٣٣، ٦٣٥، ٦٥٣.
(٥) انظر: الشعر والشعراء، ٦٤٨ مثلًا.
(٦) انظر: يتيمة الدهر، ١/٣ - ٤.
(٧) انظر: المنتَخَل، ١/٥١ - ٥٤.

على العصور والأحداث السياسية[١]. وبدايته الواسعة كانت في القرن التاسع عشر، بتنظيم تاريخ الأدب في إطار التسلسل الزمني المرتبط بالأحداث السياسيّة.

ومبدأ التحقيب جاء مقترنًا بالمقاربة اللغوية للنصوص، فهما أهم دعامتين نشأ عليهما مفهوم تاريخ الآداب الأوروبي في القرن التاسع عشر، وأغلب المؤلفات التي أرّخت للآداب الأوروبية -في هذه الفترة- تستوحي هذا المبدأ[٢].

أما أول من نهج هذا التحقيب في دراسة الأدب العربي فهو النمساوي بورجستال (Purgstall) في كتابه (تاريخ الأدب العربي إلى نهاية القرن الثاني عشر) الذي طُبع عام ١٨٥٠م[٣]. وسار بعض المستشرقين على هذا النهج مثل أربتنوت (Arbuthnot)، وفون كريمر (Von kremer) الذي أثنى بروكلمان (Carl Brockelmann) ثناءً حسنًا على كتابه عن (تاريخ عمران المشرق في عصر الخلفاء) مثلما أثنى على عمل نيكلسون (Nicholson) الذي نظر إلى الأدب العربي في ضوء التاريخ السياسي والعمراني للعرب والإسلام، واقتفى أثره ميتز (Metz) بنظراته الحصيفة في تناوُل العصر العباسي[٤].

(١) انظر: المنهج التاريخي في نقد الأدب العربي، ٩.

(٢) انظر: التاريخ الاستشراقي للأدب العربي، وإشكالية المركز والهامش، محمد مريني. عن موقع www.alhiwartoday.net.

(٣) انظر: تاريخ الأدب العربي (بروكلمان)، القسم الأول، ١/ ٩١.

(٤) انظر: تاريخ الأدب العربي (بروكلمان)، القسم الأول، ١/ ٩١. وينبغي التوجّسُ من ثناء بعض المستشرقين على بعض، فإن عند بعضهم من الأوهام، والخلط =

ثم أخذ بعض العرب بهذا المنهج، فصدرت لهم كتب عدّة نعتها بروكلمان بضآلة القيمة، وأن مقصِد أكثرها إلى أغراض التعليم[١]، ومنهم محمد دياب في (تاريخ آداب اللغة العربية)، وجرجي زيدان في (تاريخ آداب اللغة العربية) وفيه يقول: إنه قسّم تاريخ الآداب إلى عصور على حسب الانقلابات السياسية[٢]، فجعلها بعد الإسلام هكذا: صدر الإسلام فالأموي فالعباسي فالمغولي فالعثماني فالعصر الحديث، وجعل من غاياته بيان تاريخ ثمار عقول أبناء العربية، ونتائج قرائحهم، والكشف عن تاريخ كل علم من علومهم، ووصف الكتب على اختلاف موضوعاتها[٣]، وقد يكون من هذه الغايات ما يجعله غير مشابهٍ لما تسير عليه أغلب كتب تاريخ الأدب، ويقرّبه من كتب (تاريخ العلوم أو تاريخ التأليف).

وممن سلك هذا المسلك حسن توفيق العدل في كتابه (تاريخ آداب اللغة العربية)، وفيه قسّم تاريخ الأدب خمسة أقسام (عصر الجاهلية، فابتداء الإسلام، فالدولة الأموية، فالعباسية والأندلس، فالدول المتتابعة إلى هذا العهد). وأحمد الإسكندري ومصطفى عناني في كتابهما (الوسيط في الأدب العربي وتاريخه) وقِسْمة العصور عندهما على هذا

= والاضطراب، وضعف الرؤية العلمية ما يستدعي الحذر. وحسبنا أن ننظر إلى تقسيمات نيكلسون للعصور، ففي بعضها تكلف ووهن، وقد أشار فيصل أصلان في مقالته المحكمة إلى أنه اخترع عصرًا عجيبًا سماه (من الغزو المغولي إلى العصر الحاضر)! انظر: إشكالية التحقيب الأدبي، العصر العثماني مثالًا، ١٦٤.

(١) انظر: تاريخ الأدب العربي (بروكلمان)، القسم الأول، ١/ ٩٢.

(٢) انظر: تاريخ آداب اللغة العربية، ١/٩.

(٣) انظر: تاريخ آداب اللغة العربية، ١/٨.

النحو: (الجاهلي فصدر الإسلام إلى نهاية العصر الأموي، فعصر بني العباس، فالدول المتتابعة منهييْن إياها بعام ١٢٢٠هـ، فعصر النهضة الأخيرة التي تبدأ بحكم محمد علي باشا). ووافقهما أحمد حسن الزيات، ولكنه سمّى ما بعد سقوط بغداد بالعصر التركي[١]، وفي أثناء كتابه عرَض لما سمّاه (عهد الفاطميين)[٢].

ولستُ في مقام استعراض من سلكوا هذا المنهج، ولا من غايتي أن أبسط وجهاتِ أنظارهم في طرائق التحقيب، فلهذا مقامٌ آخرُ، فالذي يعنيني هنا أن أشير إلى أن من آثروا منهج التحقيب يرون أن إخضاع الأدب للسياسة مبنيّ على أساس أن السياسة هي التي تتحكّم في قوة الأدب أو ضعفه، فضلاً على أنه يقدّم إطارًا تاريخيًّا عامًّا للأدب، فيه ما هو سياسي واجتماعي واقتصادي وديني وحضاري ولغوي، وأن هذا المنهج يستعين بما هو فني في قسمة الأدب إلى شعر ونثر وغير ذلك[٣]. فهو قائمٌ على أهمية العامل التاريخي، والبحث عن القوانين المتحكّمة فيه، وأثر المنعطفات التاريخية الكبرى في التغيّرات المعرفية والأدبية والفنية[٤]، وذلك مبنيٌّ أيضًا على أن التاريخ مفتاحٌ لفهم ظواهر الثقافة والأدب؛ ولهذا شمل بعضُهم بدراسته تاريخ النصوص الجاهلية القديمة من زاوية التحقيب للأوضاع الحضارية للعرب القدماء[٥].

---

(١) انظر: تاريخ الأدب العربي (الزيات)، ٥.
(٢) انظر: تاريخ الأدب العربي (الزيات)، ٣٤٦.
(٣) انظر: المنهج التاريخي في نقد الأدب، ٦٦.
(٤) انظر: التاريخ الاستشراقي للأدب العربي، http://www.alhiwartoday.net
(٥) انظر: النص والمنهج، ١٠٤.

وإلى ذلك المعنى أشار كُرُوْتْشِيه (croce)؛ إذْ أقرّ بأن الحقبة مواضعة فحسب، وقال وِيْلِكْ: إن الحقبة ليست كياناتٍ، ولكنها تُشِيدُ بنسق معايير أدبية وبمواضعات، وذهب بِرْكِنْسْ إلى أنها حكاية ضرورية[(١)].

وعلى ذلك فالتحقيب قائم على ربْطِ الأدب بالسياسة وحركة التاريخ العام، وجَعْلِ أقسام التاريخ أقسامًا لتاريخ الأدب، فالنصوص -في رأي المحقّبين- تحمل طابع السياسة، والحدث السياسي كفيلٌ بنقل الأدب من حال إلى حال، وعصور التاريخ السياسي الراقية -على ما يرون- هي عصور الأدب الراقية، والضدُّ صحيح[(٢)]، ومن أجل هذا قال الزيات: "التاريخ الأدبي وثيق الصلة بالتاريخ السياسي والاجتماعي لكلِّ أمة... بل إن كليهما لازمٌ للآخر"[(٣)]. وهذا مسلك في فهم غاياته يوافق ما قيل عن أن منتهجي التحقيب يسوّغون الوظائف الاجتماعية للتواريخ الأدبية أكثر مما يقدّمون وصفًا حقيقيًّا لما كان عليه الحال[(٤)].

ويوصَف التحقيب بأنه يساعدُ على التقطيع والتجزيء، لقصد تبسيط الأدب وفهم سيرورته وتطوّره[(٥)]، وأنه وسيلة لتسهيل بيان سير الآداب في مدارج الترقّي أو رجوعها القهقرى، وما الحدود السياسية -في رأي

---

(١) انظر: المفاهيم معالم، ١٢١.
(٢) انظر: في تأريخ الأدب مفاهيم ومناهج، ٩١.
(٣) تاريخ الأدب العربي (الزيات)، ٥.
(٤) انظر: المفاهيم معالم، ١٢٢.
(٥) انظر: مفهوم التاريخ الأدبي، ١٥٤.

بعضهم- إلّا كالأعلام التي يُهتَدى بها في الصحراء[١]، ولهذا رُئِي أنه يفيد "في النظر إلى الفعل الإنساني الأدبي والجمالي، بحيث يضبطُ أزمنةَ الخصب الإبداعي، أو أزمنةَ جدبه"[٢]، وأن له أهميةً إجرائية من حيث اعتمادُه أداةَ تصوّر نظري لمعالجة موضوع تاريخ الأدب[٣]. ولهذا لُجِئَ إليه لإقامة تصوّر للأعمال الأدبية المنجزة في الماضي، فله قوة تشييدية، تعين على فهم موضوع تاريخ الأدب[٤].

ولكن سوف يستبين أن اكتشاف أزمنة الخصب والجدب إبداعيًّا ليس مَنُوطًا بالتحقيب، وأن السبيل المُثلى لتتبع مظاهر الأدب وتطوره هي بعزله عن التقلبات السياسية .

من إشكالات التحقيب:

إن التحقيب السياسي لتاريخ الأدب أورث عددًا من الإشكالات، وكانت له نتائج علمية وتاريخية رهنت الإبداع العربي لتقلبات السياسة والسلطة وصراعاتها[٥]. وهو، وإن كان عُرفيًّا، ولا بدّ منه أحيانًا – على ما يقول عُمر فرّوخ – ذو ثغراتٍ لا حيلة للمؤلف في سدّها[٦].

والثغرات أو الإشكالات التي يشير إليها هو وآخرون كثيرة، منها

(١) انظر: تاريخ الآداب العربية من الجاهلية حتى عصر بني أمية، دار المعارف، القاهرة، ط الثانية، د.ت، ٦٤، (نقلًا عن المنهج التاريخي في نقد الأدب، ٣٩).

(٢) العرب وتاريخ الأدب، ٤٩.

(٣) انظر: العرب وتاريخ الأدب، ٥٠.

(٤) انظر: العرب وتاريخ الأدب، ٥٠.

(٥) انظر: العرب وتاريخ الأدب، ١٢٢.

(٦) انظر: تاريخ الأدب العربي (فروخ)، ٥/٥.

الاختلاف في عدد العصور، والاجتهادُ في تقسيم كل عصر أقسامًا ثانوية، وهذا بادٍ في تقسيم العصر العباسي ثلاثة أقسام عند أكثرهم، وفي تقسيم جرجي زيدان العصرَ الأموي ثلاثةَ أدوار، والعباسيِّ أربعةً.

وما وقع هذا الاختلاف إلا لأن المحقِّبين تنكّروا للمنطلقات النظرية التي أقاموا عليها منهجهم لمّا وجدوا الواقع لا يسايرها، ولا يخضع لها، وربما دفعهم إلى هذا التنكّر أن من العصور عصورًا لا يختلف الأدب فيها عنه في عصور سابقة أو لاحقة، فالفارق السياسي واضح بين الجاهلية وصدر الإسلام، ولكنّ الفارق بين الأدب في هذين العصرين لم يكن كذلك[١].

والمنطلقات النظرية المشار إليها غير مستقرّة علميًّا وواقعيًّا؛ ولنأخذ مسألة تغيّر الأدب وانتقاله من حال إلى حال، ولْنُعمِلها في الموازنة بين (العصر العباسي الأول) و(العباسي الثاني)، فهل نقف على تغيرات تكشف أن الأدب تطوّر أو تغيّر أو انحدر؟ إن ما بين أيدينا من أدب هذين العصرين أدب واحد في فنونه وأجناسه، بل في أساليب جُلّ أدبائه، ولم يكن لمقتل المتوكل وانتقال السلطة إلى من بعده أثر يستحقّ أن يُجعل لأجله عصرًا مستقلاً. وعليه فأكثر ما يُزعَم من خصائص للعصور الأدبية كلِّها غير مقنع[٢]. والحقُّ أن ثمار تأثير بعض الأحداث في الآداب لا تظهر إلا بعد حقبة، وبعض المحقِّبين يقرّ بهذا، وعليه فأيُّ نفعٍ لمؤرّخ الآداب في جعل المعالم بين العصور السياسيةِ معالمَ

(١) انظر: في تأريخ الأدب، مفاهيم ومناهج، ٩٢، ٩٤ - ٩٥.
(٢) انظر: في تأريخ الأدب، مفاهيم ومناهج، ١٠٠ - ١٠١.

بين عصور الأدب؟[١].

إن الإبداع واستخدام الوسائل الفنية وتطور الرؤية الشعرية لا تخضع من فورها للتغيرات السياسية والاجتماعية، فهي غالبًا بطيئةٌ جدًّا في تكيّفها مع التغييرات[٢]. ولضمور التغيرات المزعومة وغياب الاختلافات بين العصور رأى عز الدين إسماعيل في قسمة بعض العصور عصورًا أو أقسامًا داخليّةً، رآها حيلةً لتغطية بعض الإشكالات، ذاهبًا إلى أن التغيرات السياسية لم تكن ذات أثر كبير في الحياة العقلية والفكرية والأدبية، يقول: "ولأن العصر العباسي قد امتدّ في التقسيم التاريخي للزمن حقبةً طويلةً. . .فقد درج مؤرّخو أدب هذا العصر على تقسيمه داخليًّا إلى عدد من العصور، ودراسة كلّ عصر منها دراسةً مستقلّة، على أن مسوّغاتِ هذا التقسيم - الذي يرتبط بأحداث تاريخية أو تغيّرات في بعض مظاهر الحكم - لم تعدْ مقنعةً"[٣].

وذلك التقسيم الداخلي للعصور هو تفتيت -على ما عبّرت خيرية السقاف- وفيه تكون قوة الأدب - على مذهبهم - مستمدّةً من قوة الدولة، ووهَنُه مرتبطًا بوهنها، وفي ذلك جورٌ على طبيعة الأدب وأثر الأدباء، والعوامل المتضافرة لخلق الفكر الإنساني[٤].

إن هذه النظرية التحقيبية تقسّم التراث الأدبي في عصور، مراعاةً للسُّلَّم التعليمي، ولكنّها ربطت الفكر بصفة عامة بالعامل السياسي،

---

(١) انظر: في تأريخ الأدب، مفاهيم ومناهج، ٩٧.
(٢) الاتجاهات والحركات في الشعر العربي الحديث، ٢٠٩.
(٣) انظر: المنهاج في الأدب العربي وتاريخه، ١١. بتصرف يسير.
(٤) انظر: مناهج دراسة الأدب العربي، ١/ ١٢٩.

ومنطق هذه النظرية يقتضي أن ينتهي الفكر والنشاط الأدبي بزوال دولة، وقيام أخرى محلَّها، وهذا يعني أن يُنسب النشاط إلى الدولة الجديدة، ويُمحى أثر الدولة الذاهبة، وهذا الافتراض غير معقول؛ لأن منحاها التاريخي أفقد النص الأدبي أهم هدف من أهداف تدريسه، وهو تذوق النص[(١)].

إن هذا الإشكال عميقٌ جدًّا؛ ومن أجل هذا -على ما بدا بيانه سلفًا- كثُر منتقدو التحقيب، حتى قالت سلمى الجيوسي: "إن تقسيم تاريخ الشعر في مصر إلى فتراتٍ دقيقة التحديد [تعني التقسيم المرتبط بالثورات]. . . هو **عبثٌ في عبثٍ، وتعليبٌ تعسّفيٌّ للنمو الفني،** فالثوراتُ توقظ الدوافع العاطفية لدى الشعب، لكن النشاط المباشر الذي يظهر في مجال الفن، كنتيجة [كذا!] للفورة السياسية يجب ألا يُربط مباشرة بالنموّ الفني الحقيقيّ"[(٢)].

ومن إشكالات التحقيب إقامته على مبدأ التصنيف الأدبي الذي لا يخضع لضوابط التصنيف المنطقي، مثل علاقة الخاص بالعام، والتراتبية والتدرّج والاستقلالية، وإنما هو تصنيف يعتمد على عومل مثل التقليد والاهتمامات المذهبية (الأيديولوجية) والمنطلقات الجمالية والمؤسسات[(٣)].

ويستبين ما ذُكر بما أشار إليه فيصل أصلان من غرابة تصنيف بعض

---

(١) انظر: نحو رؤية جديدة في تدريس الأدب العربي، يحيى عبدالرؤوف جبر، عن موقع .staff - old.najah.edu تاريخ النظر فيه ١٩/ ٧/ ١٤٣٩هـ، ٥/ ٤/ ٢٠١٨م.

(٢) الاتجاهات والحركات في الشعر العربي الحديث، ٢٠٩.

(٣) انظر: المفاهيم معالم، ١٢٢ - ١٢٣.

الأدباء، فالمعرّي (ت٤٤٩هـ)، وابن النقيب الحسيني (ت١٠٨١هـ)، وعبدالغني النابلسي (ت١١٤٣هـ) جُعِلوا في عصر واحد عند شوقي ضيف، هو (عصر الدول والإمارات) على ما بين أزمنتهم من التفاوت الواسع! قال أصلان: ويلزم من ذلك في المنهج التاريخي الذي عمل به، أنه لم يستجدّ شيءٌ ذو بالٍ في سبعة قرون[١]!

بل صار بعض الدارسين -ولا سيما من كَلِفوا بالوصل بين الأدب من جهة والأديب وعصره من جهة أخرى- صار ينسب ما في العصر للشعر، وما في الشعر للعصر، بلا مراعاة لما بينهما من فروق[٢]، وذلك الوصل بينهما هو من آثار التحقيب الذي بالغ في إظهار سطوة العصور وتقلباتها على الأدب.

ومن إشكالات هذا المنهج اضطراب دارسي الأدب من حيث استعمال المصطلحات، فهم مختلفون على ما بدا من العرض السالف، فالرافعيُّ مثلاً عبّر بـ(أدب الأندلس)[٣]، وغيره يستعمل (الأدب الأندلسي)، وبروكلمان استعمل (العصر الطولوني) و(العصر الإخشيدي)[٤]، والإسكندري جعل (عصر صدر الإسلام) شاملاً زمن بني أمية، وجعل (العصر الحديث) باسم (عصر النهضة الأخيرة)، ومثله نالّينو، أما حسن العدل فعبّر عن العصر الأخير بقوله (عصر الدول المتتابعة إلى هذا العهد)، ولو شئتُ استقصاء الاختلاف لطال بي المقام.

---

(١) إشكالية التحقيب الأدبي، العصر العثماني مثالًا، ١٥٩ - ١٦٠.
(٢) مدخل إلى شعر المتنبي، ٣٣.
(٣) انظر: تاريخ آداب العرب، ٢/ ٢٢٥.
(٤) انظر: تاريخ الأدب العربي (بروكلمان)، القسم الأول، ١/ ٤٢٠.

وذانِك المصطلحان اللذان استعملهما بروكلمان (الطولوني والإخشيدي) يثيران إشكالاً آخر، فما الاستمرار الزمني الكافي لأن يُعدّ حقبة؟ إن حكم الطولونيين استمرّ من ٢٥٤ إلى ٢٩٢هـ أي إنه في نحو ثمان وثلاثين سنة، وحكم الإخشيديين من ٣٢١ إلى ٣٥٨ أي نحو سبع وثلاثين سنة فحسب! فهل يمكن عدّ هذه السنوات القلائل عصرًا أوحقبةً؟ وهل يوازي امتدادها وتأثيرها امتداد حكم الأمويين، مثلاً، وتأثيرهم؟ فجَعْلُهما حقبتين لم ينبنِ على مظهَرٍ أدبي مخصوص، زَيدا على أنهما جزءٌ مما دُعي (العصرَ العباسي).

والغالب أن توسم المدة بأنها عصر أو حقبة، إذا ظهر فيها من التفرّد السياسي أو الاجتماعي، أو التشابهات المذهبية أو اللغوية أو الأسلوبية أو الموضوعاتية ما يسوِّغها، فتحديد الحقبة إذن هو إظهار لها، وإبراز لمكانتها[١]، فأين ذلك كله في تحقيب تلك المدد القصار التي لم يتّسم الأدب فيها بخصائص تفصلها عما سبقها وما تلاها؟

بل إن بعضهم -وهو ينتقد بعض الاصطلاحات- ينسى ذلك، كشوقي ضيف الذي نحا إلى تسمية (عصر الدول والإمارات) لما كان بعد عام ٣٣٤ حتى العصر الحديث، ولكنّه في أثناء بعض كتبه يورد مصطلح (العصر الأيوبي) وربما سمّاه (العهد الأيوبي)[٢].

وفي كتب المستشرقين التي نُهِج فيها التحقيب نجد من حافظ على المصطلح الشائع (العصر الجاهلي، العصر الإسلامي، العصر

(١) انظر: العرب وتاريخ الأدب، ٥٢ - ٥٣.
(٢) انظر: عصر الدول والإمارات (٥)، ١٩، ٢٤.

العباسي...)، ونرى من اعتمد مصطلحات أخرى، فالمستشرق جِيب (Gibb)، مثلاً، يسبغ على العصور السياسية صفاتٍ يرى أنها طغت على العصر، فيسميها على هذا النحو: العصر البطولي (يريد به العصر الجاهلي)، ثم عصر الغزو والتوسع (يريد به العصر الإسلامي) وهكذا[(١)]. بل إن هؤلاء المستشرقين مختلفون في تَعْداد العصور -وقد سبق الإلماع إلى هذا- فهي عند بروكلمان ستة، وعند نالّينو وجِيب خمسة، وعند نيكلسون وهْوار (Huart) سبعة[(٢)]. وهذا الاختلاف يُضاف إلى ما سبق من خلاف أكثر حدّة وظهورًا عند الدارسين العرب.

ومن إشكالات التحقيب ما ذكره خالد الجديع أيضًا، إذْ عرض لمصطلح (الدول المتتابعة) فقال ناقدًا مسلك عمر موسى باشا في هذه التسمية التي سايره عليها كثير من مؤرخي الأدب: إنه حين يُطْلِق هذه التسمية لا يبرهن عليها علميًا، فهي لا تصمد للفحص منذ الوهلة الأولى -على رواجها- ذلك أن كلمة المتتابعة تعني أن دولاً تقوم وتسقط في وقت سريع، وهذا ما لم يحدث، ولا يكاد يَصْدُق هذا المصطلح إلا على الدولة الزنكية (٤٨٨-٥٧٧هـ)، أما الدولة الفاطمية فقد حكمت في مصر ما يزيد على قرنين من الزمان (٣٥٨-٥٦٧هـ)، وأطول منها دولة المماليك التي أربت على قرنين ونصف (٦٤٨ - ٩٢٢هـ) أي إن امتدادها يقربُ من مجموع ثلاثة أعصر هي الجاهلي وصدر الإسلام والأموي، فكيف بعد ذلك يصحُّ أن يسمى العصر عصر الدول المتتابعة[(٣)]؟

---

(١) انظر: التاريخ الاستشراقي للأدب العربي، www.alhiwartoday.net

(٢) انظر: التاريخ الاستشراقي للأدب العربي.

(٣) انظر: عصر الدول المتزامنة المفهوم والمصطلحات البديلة، خالد الجديع، جريدة الرياض، العدد ١٥٢٣٥، ٢٥/٣/١٤٣١هـ، ١١/٣/٢٠١٠م.

وفي هذا التحقيب رسخت ظاهرة (المركز والهامش)، فالعناية عند المحقّبين بالمدن الكبرى والبلدان ذات الشأن السياسي، كالعراق ومصر والشام، وباهتمام أقل ببعض أصقاع الغرب الإسلامي والأندلس، وأما ما عداها فأكثره منسيّ مهمل. كنجد وأطراف الجزيرة العربية وأعالي بلاد النيل والنوبة والسودان (بدلالتها القديمة لا الحديثة) وغيرها.

ومن المصطلحات التي أشاعها هذا التحقيب مصطلح (عصور الانحطاط)[(١)]، وهو موضع نقدٍ عند طائفة من النقاد والدارسين، فعمر فروخ يقول: إن في هذه التسمية قليلاً من الصواب والحقّ، وكثيرًا من الخطأ والباطل[(٢)]، وليس من المعقول ولا من المألوف أن نصف بالانحطاط الفكري والأدبي عصرًا كان فيه القرطبيّ وابنُ عصفور وابنُ مالك وابنُ خَلدون وغيرهم[(٣)].

وذهب نوري القيسيّ وحاتم الضّامن إلى أن التعبير بالفترة المظلمة وعصر الانحطاط وضعت هذا العصر موضع العُزلة، وجعلتْه بعيدًا عن الدّارسين، وأوهمت أنّه متخلّف فكرًا وأدبًا، وبسببه عُزِلت جهود رائدة، وقُتلت إبداعات، وتُنُوسيت أعداد غفيرة من العلماء والأدباء، وطُمست تآليف، فلم ترَ النّور، وأثّرت في تلقي الدارسين لنتاج هذا العصر[(٤)].

---

(١) استعمل هذا المصطلح جرجي زيدان. انظر: تاريخ آداب اللغة العربية، ١/ ٨، وكارلو نالّينو. انظر: تاريخ الآداب العربية من الجاهلية حتى عصر بني أمية، دار المعارف، القاهرة، ط الثانية، د.ت، ٦٤، (المرجع الثاني نقلًا عن المنهج التاريخي في نقد الأدب، ٣٩).

(٢) انظر: تاريخ الأدب العربي (فروخ)، ٣/ ٥.

(٣) انظر: تاريخ الأدب العربي (فروخ)، ٦/ ٥ - ٦.

(٤) انظر: التّذكرة الفخريّة، مقدمة المحقّقين، ص١٠ - ١١.

وكذلك رفض الطناحيّ هذا المصطلح، رائيًا أنّ تقسيم حركة الفكر العربي بعامة إلى عصور علوّ وانحطاط خطأ تاريخي؛ "إذْ لم يفضُل عصرٌ أو مصرٌ سواهما إلا ما يكون من بعض الفروق الهيّنة التي تفرضها طبائع الزمان والمكان، أما حركة الفكر العربي من حيث هي فلم تخمد جذوتها"[(١)]. وينتقد إبراهيم النجار هذا المصطلح، مشيرًا إلى أن أتباع المدرسة التاريخية الحديثة الذين درسوا روما في العهد الامبراطوري قد اصطدموا بالمفهوم نفسه، أي الانحطاط، وهو مصطلح غائم ملتبس المعنى غير مستقر، فصاروا يميلون إلى تعويض مفهوم (العصور القديمة المتأخرة) بمفهوم (الانحطاط الروماني)[(٢)].

وكان بروكلمان قد أشار إلى هذا الضعف والجمود الذي علِق بالأدب العربي، ولكنه لم يسمّه بهذا الاسم[(٣)]. أما خيريّة السقّاف فذهبت إلى أن هذا المصطلح نشأ بسبب الإيغال في ربط الأدب بالسياسة، وجعْلِه يكتسبُ منها صفاتِه[(٤)]، وهذا هو عينُ الصواب، فإن انحطاط الأوضاع السياسية في تلك الأزمنة هو الذي دعا بعض مؤرخي الأدب وغيرهم إلى ادّعاء انحطاط الفكر والأدب.

ويرى خالد الجديع أن هذا المصطلح - وسواه من تسميات كعصور الضعف والجمود والتخلّف - لم يعد ذا ظهور في الدراسات النقدية

(١) مدخل إلى تاريخ نشر التراث العربي، ٢٠.
(٢) انظر: شعراء عباسيون منسيون، ١/٥٦، الحاشية١. و: الأدب العربي بين عصرين المملوكي والعثماني، ٤١.
(٣) انظر: تاريخ الأدب العربي (بروكلمان)، القسم الأول، ١/٩٦.
(٤) انظر: مناهج دراسة الأدب العربي، ١/١٣٢.

والأدبية بعد أن خرجت إلى النور مخطوطات ذلك الزمن، واستبان فيها لبعض الدراسين أن في السرديات (الوسيطة) مادّة بكرًا وآثارًا ثرّة قادرةً على جذب القارئ وإثارة الناقد(١).

ومن مصطلحات التحقيب (الخضرَمة والمخضرَمون)، وهما مصطلحان قديمان، إذ ورد ذكرهما عند ابن سلاّم والجاحظ وأبي الفرج الأصفهاني والميكاليّ مثلاً -وقد ألمعتُ سلفًا إلى بعض هذا-(٢)، وورد التعبير بـ(مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية) عند ياقوت مثلاً(٣). ولكنّ المشكلة فيهما أنهما حيلةٌ لوصف من أدركوا عصرين مختلفين، كالجاهلية والإسلام، فيقال عنهم (مخضرمون)(٤)، أو الأموي والعباسي، فيقال عنهم: (مخضرمو الدولتين). ثم يُنسى مخضرمو الدول اللاحقة فلا يوصفون بهذا الوصف، فلم أجد مثلاً من وصف شاعرًا بأنه مخضرم في دولتي المرابطين والموحّدين في الأندلس والمغرب! أو مَن هو مخضرمٌ في العصر العثماني والعصر الحديث! والحقّ أن لّيس لهذا المصطلح، أي الخضرمة، ما يستدعيه سوى حلّ مشكلة منْ أدركوا

(١) انظر: عصر الدول المتزامنة المفهوم والمصطلحات البديلة، خالد الجديع، جريدة الرياض، العدد ١٥٢٣٥، ٢٥/ ٣/ ١٤٣١هـ، ١١/ ٣/ ٢٠١٠م.
(٢) انظر: طبقات فحول الشعراء، ٢٤، والحيوان، ١/ ٣٣٠، والأغاني، ٢٢/ ٣٨، والمنتَخَل، ١/ ٥١.
(٣) انظر: معجم الأدباء، ١٠/ ١٦٧، ٢٠٩، ٢٦٧.
(٤) يدلُّ كلامُ الجاحظ عن الخَضْرمة أنها ليستْ خاصةً بالشعراء، إذ ذكر من المخضرَمين بعضَ الرجال المشهورين من غيرِ الشعراءِ، ثم قال: "ومن الشعراء النابغة الجعدي وابنُ مقبل". ثم إنه عدّ هذا اللفظ من الكلمات الإسلامية المحدَثة. انظر: الحيوان، ١/ ٣٣٠ - ٣٣١.

عصرين. ولو بحث دارس الأدب عنْ فائدة له لما وجدها. فلا قيمة له في تتبّع التطور التاريخي، ولا أثر له في ضبط حدود مدوّنةٍ، لأنّ الخضرمة صفةٌ مهَلْهَلَة، ففي دراسة هؤلاء الباحثين للمخضرمين يُدرَج من أدرك من العصر الثاني شطرًا طويلاً، ومن أدرك جزءًا قليلاً بلا ضابط منهجي.

ويبدو اضطراب المصطلح في اختلاف حياة من وُسموا بالمخضرمين، وتباين مواقفهم، فمن مخضرمي الجاهلية والإسلام من أسلم وتأثر بالإسلام كلبيد، ومن عاند الإسلام ومات كافرًا كأربد بن قيس الذي لم يدرك من عصر النبوّة سوى سُنيّات، ومن همّ بالإسلام ولم يسلم كالأعشى، ومن أدرك زمنًا طويلاً في الإسلام ولم يسلم، كأبي زُبيد الطائي، ومن أسلم وضعف تأثير الإسلام في أدبه كالحُطيئة(١). ومن المخضرمين من كان أكثر عمره في الجاهلية كأمية بن حُرثان بن الأسكر(٢)، ومنهم من لم يدرك من الجاهلية إلا القليل، بل إن بعضهم كالأُقَيشر الأسدي ولد في الجاهلية وعاش حتى أدرك خلافة عبدالملك ابن مروان!(٣) فأين نضعه في ذلك التصنيف المربِك؟ ثم كيف يثق الباحث أو القارئ بصدق نعت الشاعر بالمخضرم، مع اختلاف الآراء في تحديد

---

(١) انظر: معجم الشعراء المخضرمين والأمويين، ٤٠٣، ١٨، ،٣٢، ١٠٩، ١٦٥.

(٢) انظر: معجم الشعراء المخضرمين والأمويين، ٤٨.

(٣) انظر بعض أخباره الدالّة على هذا في الأغاني، ١١/ ٢٤٠، ٢٤٤. قال أبو الفرج: "عُمّر عمرًا طويلًا، وما أخلقه بأن يكون ولد في الجاهلية، ونشأ في أول الإسلام". الأغاني، ١١/ ٢٣٥. وقدّر الزركليّ وفاته في نحو ٨٠هـ. انظر: الأعلام، ٧/ ٢٧٧.

زمانهم، وجهالة حياة كثير منهم، إذْ كثيرًا ما نقف على شعراء مختلَف فيهم، أعاشوا في الجاهلية فحسب، أم أدركوا الإسلام[(١)].

وفي ذكرهم لمخضرمي الدولتين الأموية والعباسية يُدرَجُ من أدرك بضع سنين من الدولة الثانية[(٢)]، ومن لا يوثق بزمنه، كأمية بن أبي عائذ الذي عُدّ من مخضرمي الجاهلية والإسلام، وقيل: إنه أموي[(٣)]، فإلى أي عصر يُنسب شعره؟

وإن رضينا جَعْلَ ما سُمّي العصر الإسلامي في قسمين (عصر صدر الإسلام وعصر بني أمية) فبِمَ يوصف من أدرك الجاهلية وصدر الإسلام وزمن الأمويين كعَمْر بن الأهتم؟ أيكون له ولأمثاله نعتٌ خاصٌّ أو خَضْرمة ذات صفات مُباينة لغيرها؟

إن كثيرًا من الأدباء عاشوا عصرين، وأنشؤوا أدبهم فيهما، فهل ما قالوه في العصر الأول يختلف عما قالوه في العصر الثاني إلا في بعض المعاني؟ انظر في أشعار أبي ذؤيب الهذلي وحسان بن ثابت ومالك بن حَريم الهمْداني من مخضرمي الجاهلية والإسلام تجدْ ما يصدّق هذا الرأي، وتأمّل شعر بشار بن برد وأبي حيّة النميري من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية، واحكم: هل كان لاختلاف الحقبة أو النظام السياسي أثر يذكر سواء في لغة أشعارهم أو في صورها الفنية أو معانيها؟[(٤)].

---

(١) انظر: معجم الشعراء المخضرمين والأمويين، مثلًا ٦٢، ٢٩١.

(٢) انظر: معجم الشعراء المخضرمين والأمويين، ٢١.

(٣) انظر: معجم الشعراء المخضرمين والأمويين، ٤٨.

(٤) انظر: نحو رؤية جديدة في تدريس الأدب العربي، يحيى عبدالرؤوف جبر، عن موقع .staff - old.najah.edu تاريخ النظر فيه ١٩/ ٧/ ١٤٣٩هـ، ٥/ ٤/ ٢٠١٨م.

نعم، قد نصادف ضمن المداخل النظرية لهذه المؤلفات التاريخية عند المستشرقين، بعض الأقوال والشواهد التي تكشف عن إدراكٍ للاختلاف الحاصل بين التحقيب السياسي والتحقيب الأدبي. لكن الممارسة العملية لا تخرج عن الإطار الذي يقوم على تسويد التحولات السياسية على التحولات الأدبية(١). يقول نالّينو: "إن هذه الحدود التي ذكرتها لكل عصر من الأعصر الستة ليست إلا حدودًا صناعية اصطلاحية أثبتها على التقريب، فإن عصرًا من التاريخ السياسي أو من تاريخ الآداب لا يحصر في مواقيت معينة بدقة... وقُصارى القول: إن قسمة تاريخ الآداب أقسامًا محصورة محدودة إنما هي وسيلة لتسهيل بيان سير الآداب في مدارج الرقيّ أو رجوعها القهقرى. فالحدود المعيِّنة لكل عصر هي كالأعلام التي كان أهل البدو ينصبونها في البراري والقفار، ليهتدي بها ابن السبيل"(٢). ويقول عمر فروخ: "الأعصر الحضارية (والأعصر الأدبية) لا تنطبقُ في العادة على الأعصر السياسية"(٣). وهذا يفضي إلى القول بتناقض المحقِّبين، فالزيات مثلاً عدّ ظهور الإسلام فاصلاً بين الجاهلية وصدر الإسلام، ومع هذا فهو يرى أن الشعر العربي ظلّ على حاله في الجاهلية وفي العصر الأموي!(٤)، وفرّوخ -على أنه أكثر دقّة من غيره- يقول: اتخذت تعاقب الدول أساسًا للانتقال من

(١) انظر: التاريخ الاستشراقي للأدب العربي، www.alhiwartoday.net

(٢) تاريخ الآداب العربية، كارلو نالّينو، ٤٨ - ٤٩. (نقلًا عن: التاريخ الاستشراقي للأدب العربي، www.alhiwartoday.net)

(٣) انظر: تاريخ الأدب العربي(فروخ)، ٤/ ٥.

(٤) انظر: في تأريخ الأدب مفاهيم ومناهج، ٩٦.

عصر إلى عصر؛ لأني أحببتُ أن أستفيد من الوضوح في تعاقب العصور، مع العلم أن عددًا من الخصائص الأدبية يظلُّ مستمرًّا مع انتهاء عصر ومجيء عصر آخر(١)!

ويؤخذ على منهج التحقيب أيضًا أنه يغلّب الجانب التاريخي، ويُنحّي النص الأدبي، ويعمّم الأحكام، ولذلك وُصِف بأنه تحقيب غير أدبي(٢)، وأنه قد يغلّب الجوانب الذوقية في الحكم على النصوص، بلا مراعاة للمعايير العلمية الصارمة(٣)، وإن كان لبعضهم فضيلة الجمع بين عدة عوامل متضافرة على تكوين الأدب، منها حال الإنسان الفرد، وتأثير الجماعة والمجتمع، ولم يكتفِ بإسقاط الأدب على التاريخ السياسي، وهذا ما سار عليه نالّينو(٤).

ومما نُقِد به هذا المنهج، بالنظر إلى ارتباطه بالطريقة المدرسية، أنه "يبدأ من التاريخ القديم إلى التاريخ الحديث، وفي ذلك ما فيه من صعوبة على الطالب في فهم البعيد قبل القريب، والصعب قبل اليسير، أفلا ترون إلى عالم الآثار يبدأ البحث من الطبقة العلوية ثم ينتقل تدريجيًّا إلى السفلية، ولا يفعل العكس؟ ذلك أن القريب أسهل تناولاً وأيسر فهمًا"(٥).

---

(١) انظر: تاريخ الأدب العربي (فروخ)، ١/ ٢٧.
(٢) انظر: مفهوم التاريخ الأدبي، ١٥٠.
(٣) انظر: المنهج التاريخي في نقد الأدب، ٦٧.
(٤) انظر: مناهج دراسة الأدب العربي، ١/ ١٨٦.
(٥) نحو رؤية جديدة في تدريس الأدب العربي، يحيى عبدالرؤوف جبر، عن موقع staff - old.najah.edu. تاريخ النظر فيه ١٩/ ٧/ ١٤٣٩هـ، ٥/ ٤/ ٢٠١٨م.

ومن إشكالاته افتراضه أن كل عصر مستقلٌّ، منبتٌّ عما قبله وما بعده، ولكن النظر العاجل يكشف هشاشة هذا الافتراض، فالتداخلُ واضحٌ بين العصور، ووضعُ حدودٍ بينها بما يميز الأدب بميزاتٍ تخصُّ كلَّ مرحلةٍ أمرٌ متعذّر[١]. لأنّ "الأدب لا يعرف في تاريخه تلك الانقلابات الفَجْئيّة التي تحدث أحيانًا في التاريخ السياسي، وحركةُ الأدب. . .بطيئةٌ يسبقها تمهيدٌ يطولُ أحيانًا"[٢].

إن الجاهلية لم تنقطع بظهور الإسلام، وكيف تنقطع انقطاعًا مفاجئًا، وأعرافها ونُظُمها وتقاليد أهلها استمرّت بعد ظهور الإسلام زمنًا؟ وكفى شاهدًا على ذلك الردّة التي وقعت بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم، فهل كانت إلّا انتفاضةً من جمرٍ جاهليّ لم يخْبُ؟ ثم هل شمل الإسلام كلَّ قبائل العرب فأماط بقايا الجاهلية منها، وهذّبها وأقرّ في قلوب أهلها معانيه الروحانية وشريعته في زمن الخلفاء الراشدين؟ إن ما وصلنا من شعرهم يكشف أن كثيرًا من الشعراء لم يتأثروا بالإسلام وإن أسلموا، فبقيت لغتهم وأخيلتهم وأنماط إنشائهم للشعر جاهليةَ المبنى والمعنى.

بل إنّ ابتداء (عصر صدر الإسلام) مضطرب، أفَبالبعثة النبوية بدأ أم بالهجرة أم بفتح مكة ودَينُونة قبائل الجزيرة لسلطان الإسلام بعد السنة التاسعة؟ ومهما تكنْ بدايتُه عند المحقّبين فهي غير متفقة في الأقاليم كلّها، فصدر الإسلام في المدينة النبوية غيره في مكة، وهو في نجد

(١) مناهج دراسة الأدب العربي١،/ ١٢٧.
(٢) في تاريخ الأدب، مفاهيم ومناهج، ٩٧ - ٩٨.

وعُمان واليمن وتخوم العراق والشام متأخر عنهما.

ثم إن الناظر في آداب أواخر القرن الأول وثلث القرن الثاني (أي في العصر الأموي) يجد أن نتاج جمهرة من الشعراء لم يتجاوز طبيعة الشعر الجاهلي ولم يغادر أغراضه ولا عصبيته القبلية، ولا لغته إلّا في النادر الذي لا يُقاس عليه، وانظر إن شئت في شعر الفرزدق وجرير والطرمّاح بن حكيم ورؤبة والعجاج وغيرهم تجدْ ما يصدّق هذا الحكم. فكيف يُجعل هذا عصرًا قائمًا بنفسه، وتُدّعى له خصائص مخالفة للنتاج الشعري فيما قبل الإسلام؟ إن بعض دارسي تاريخ الأدب على منهج التحقيب يُقِرّون بأن خصائص الشعر في (عصر الأمويين) لم تختلف اختلافًا كبيرًا عما كانت عليه في العصر الجاهلي، يقول بروكلمان: "لم يؤثّر الإسلام تأثيرًا عميقًا في شعراء العرب، كما يريد النقاد العرب أن يقنعونا بذلك، فقد سلك شعراء العصر الأموي دون مبالاة في مسالك أسلافهم الجاهليين"[(١)]. وحكمه صحيح، إلّا في مظاهر تتصل بالمعاني أكثر من اتصالها بالرؤى الفنية وسُبُل القول. فكيف ساغ إذن جعلهما عصرين منفصلين؟

ومن جناية التسمية أن إطلاق اسم (العصر الإسلامي) - وهو استعمالٌ قديم - على المدة من ظهور الإسلام إلى نهاية حكم بني أمية أورثنا ضربًا من المفارقة العجيبة، فالأخطل (النصراني) هو شاعر (إسلامي)[(٢)]، بل الأعجب من ذلك أن تجد جَحْدرًا اللصَّ وعُبيد بن

---

(١) تاريخ الأدب العربي (بروكلمان)، القسم الأول، ١/ ٩٥.

(٢) انظر مثلًا: حديث الأربعاء، ١/ ١٠٠.

أيوب العنبري موصوفًا كلاهما بأنه "لصٌّ إسلامي"!

ثم لننظر فيما يسمى العصر العباسي؟ ما حدوده التاريخية؟ قيل: إنه بدأ بانهيار الدولة الأموية عام ١٣٢هـ واستمرّ حتى عام ٦٥٦هـ بسقوط بغداد. فلنتأمل هذا:

إن سلطان بني العباس انتهى بمقتل المتوكل عام ٢٤٧، أما القرون التي وَلِيَتْه فكان السلطان فيها صوريًّا معنويًّا على بعض البلدان، ولا سلطان لهم على أكثرها. فكيف يسوغ وصف تلك القرون بالعباسية؟ ثم هل كانت الحياة العقلية والأدبية تتغيّر بتغير الحُكم وأهله؟ "إن كلّ المتغيّرات التي كانت تطرأ على حياة المجتمع في هذه الدولة لم تُحدث انقلابًا حقيقيًّا في شتى وجوه هذه الحياة"[(١)]، بل إن أكثر ما رصده الدراسون من تغيّراتٍ في الأدب لم تكن متصلة بالسياسة لا من قريبٍ ولا من بعيد، كالثورة مثلاً على المقدمة الطللية، والمذهب البديعي عند صريع الغواني وأبي تمام ومن سار سيرتهما الفنية. فضلاً على ما جدّ في أنماط التعبير واستحداث أجناس وتطوير أجناس أخرى.

إن ناهجي التحقيب يقرّون بأن تحديد العصر العباسي هو تحديد عرفي قليل الصلة بالحقيقة التاريخية، بل إنه بَطَلَ أن يكون هذا العصر عباسيًّا منذ أيام المتوكل نفسه، حين صار التُّرك يملكون الدولة، ويتحكمون فيها، ثم إنّ العصر العباسي بعد المتوكل شهد قيام دول ودويلات[(٢)]. ولكن الخصائص العباسية -في رأي من ارتضى التسمية-

---

(١) انظر: في الشعر العباسي، الرؤية والفن، ٥.

(٢) انظر: تاريخ الأدب العربي (فروخ) ٢/ ٣٣، وعصر الدول والإمارات (٥)، ٥.

ظلت سائدة -على ما يرون- في الأدب حتى سقوط بغداد[١]، ولهذا قبلوا أن يُدعى العصر العباسي بهذا الاسم مع اقتناعهم بأن دولة العباسيين انتهت بمقتل المتوكل.

بل إن هذا الزمن الممتد بعد مصرع المتوكّل نحو أربعة قرون شهد -على ما سلف- دولاً ودويلاتٍ، نُسب الأعصر إليها، فثمّ العصر الأيوبي وعصر الحروب الصليبية، وشهد دويلاتٍ مستقلةً كالدولة الحمدانية والدولة الإخشيدية، وثَمّ دول كبيرة زامنت ما سُمّي العصرَ العباسي، كدولة العُبيديين الباطنية (وتسمى خطأً الفاطمية)[٢] التي بسطت سلطانها على مصر وإفريقية (القيروان وما صاقبها) والشام والحجاز، فالذي يدرس أدب أحد هذه الأقاليم في هذا العصر الذي كانت فيه أَبالعُبيدي يَسِمُه أم بالعباسي؟ وإن وسمه بأحدهما فهل يُقبَل منه، والأوضاع السياسية تتقلّبُ اختلافًا وتغيُّرًا؟

إن الدولة الإسلامية انحلّت انحلالاً كاملاً في أثناء القرن الخامس، ونشأت في شتى الأقاليم ممالك مستقلة عن بني العباس[٣]، بل إن بين العصور نفسها أزمنةً انتقالية ربما لا تدخل في هذا العصر ولا ذاك، سكت عنها مؤرّخو الآداب، فجاءت الأقسام متواليةً بلا تعليل، وجاءت

---

(١) انظر: تاريخ الأدب العربي (فروخ)، ٢/ ٣٣.

(٢) قال الذهبي: "وكانوا أربعة عشر متخلّفًا لا خليفة". سير أعلام النبلاء، ١٥/ ٢١٢، وقال السيوطي: "ولم أورد أحدًا من الخلفاء االعُبيديين؛ لأن إمامتهم غير صحيحة". تاريخ الخلفاء، ٦٦. ومن قرأ سيرة الحاكم بأمر الله فحسب - وهو أحدهم - استبان له بعض بلوى المسلمين من تلك الدولة.

(٣) انظر: تاريخ الأدب العربي (بروكلمان)، ١/ ٣٢٨.

العصور تتلو العصور دونما عنايةٍ بمنطق توالد العصور، ومجيءِ بعضها في إثر بعض، ومن أسباب هذا الاضطراب والنقص أن بعض المؤرّخين نظروا إلى التاريخ السياسي نظرةً حدَثيّةً تسوقُ الوقائعَ، ولا تتساءلُ عن أسبابها[(١)].

ومن جهة أخرى تأمّل كيف جنت التسمية بـ(العصر الأيوبي) مثلاً على الدقة، إذ إن هذا الذي يسمى عصرًا لا يصدق إلّا على ما شمله سلطان بني أيوب، وهو الشام والحجاز واليمن ومصر، على ما خامر سلطانَهم من امتداد وانحسارٍ، ومثله (عصر الحروب الصليبية) الذي لا يشمل إلّا ما بلغه عتُوّ الصليبيين والملاحمُ بينهم وبين المسلمين، أي بلاد الشام وأطراف مصر، فهل يُجعل العصر أو بعض العصور محدودًا بأقاليم؟ وإن قُبل هذا فهل تكون العصور متزامنة أو متتابعة؟ وأي تداخل واضطراب سوف نرِثُ بعد ذلك؟ وهَبْ أديبًا عاش شطرًا من حياته في مصر أيام الأيوبيين، ثم هاجر إلى العراق وعاش فيه باقي عمره، فهل يكون أدبه ضمن ما يُدرَس في (العصر الأيوبي)، أو يكون ضمن ما يُدرَج في (العصر السلجوقي)؟ حقًّا إن هذا التقسيم تعسّفي مرتبط بالاهتمام بالأحداث أو بالأسر الحاكمة[(٢)]، وهو غير صالح لأن يُدرَس به الأدب وتاريخه.

ويُلحق بذلك ما يتصل بـ(العصر العثماني)، فهو أوضح مثال على الاضطراب لا من حيث اختلاف الرأي في تحديد بدايته، ولا من حيثُ

---

(١) انظر: في تأريخ الأدب مفاهيم ومناهج، ٩٩.

(٢) انظر: شعراء عباسيون منسيون، ١/٧٣، المتن والحاشية.

نهايتُه، ومن المحقّبين من جعله باسم (العصر التركي)، ومنهم من أدرجه في الدول المتتابعة، وكلّ ذلك جعل هذا العصر مضطربًا، لا معايير واضحة لعدّه عصرًا[(١)].

ومن طريف النقد لهذه التسميات قول خالد الجديع: "من تلك التسميات ما له علاقة بطبيعة الصراع مع الآخر، مثل عصر الحروب الصليبية، وقد رَوَّج لهذا المصطلح أحمد بدوي في كتابه (الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية)، ثم رُئي أن فترة الحروب الصليبية تمتدُّ في نحو قرنين من الزمان ولا تغطي المرحلة، فأضيف إلى التسمية عصر المماليك، فصارت كثيرٌ من مناهج الأقسام الجامعية تدرس هذه الفترة بعنوان (عصر الحروب الصليبية والعصر المملوكي)، وعلى ما في هذا التقسيم من خطأ منطقي يقوم على اختلال التقسيم -لأن جزءًا من العصر المملوكي قد دخلته الحروب الصليبية - فإن الحروب الصليبية ليست عصرًا؛ ولذا لا يصحُّ أن نصنع في العصور الأدبية ذلك، فنقول عصر حروب الرسول ﷺ، أو عصر حروب الأمويين"[(٢)].

ومن الإشكالات تسمية (العصر الحديث) بهذا الاسم، وجعله عصرًا واحدًا، مع أنه ممتدٌّ في نحو قرنين (منذ ١٢١٣هـ/١٧٩٨م)، وهما، من حيث التغيّرُ والتطوّرُ والاتصالُ بالآداب الأجنبية وثراءُ المنجَز الأدبي وتعدُّدُ أجناسه، يَعدِلان عصورًا من الأدب القديم، ولو أن

(١) انظر: إشكالية التحقيب الأدبي، العصر العثماني مثالًا، ١٦٠.

(٢) انظر: عصر الدول المتزامنة المفهوم والمصطلحات البديلة، خالد الجديع، جريدة الرياض، العدد ١٥٢٣٥، ٢٥/٣/١٤٣١هـ، ١١/٣/٢٠١٠م. (عن النسخة الإلكترونية يوم الخميس ١٦/٦/١٤٣٩هـ)، بتصرف يسير.

منتهجي التحقيب أعادوا النظر، لوجدوا أنه يمكن جعله في عصور، والخمسون سنةً الأخيرةُ حتى يوم الناس هذا شهدتْ ما لم يشهده ما قبلها، فقد تطوّر السرد والشعر معًا، وبزغتْ حركات تجديد، ومظاهر تمرّد، وتُرجِمت آداب، وتقلّب الأدب في أطوار، فحقُّ هذه الخمسين سنةً أن تُجعل عصرًا بمعيار المحقِّبين، بل إن حقَّ العشرين سنةً الأخيرة (١٤٢٠-١٤٤٠هـ) أن تُجعل في عصر منفرد يُدعى (العصر الرقْمي)! أليس هذا هو ما يقتضيه إخضاع الأدب وتاريخه للتطور التاريخي والتحوّلات السياسية والاجتماعية؟

ثم متى ينتهي العصر الحديث؟ وماذا سوف يسمّى العصر الذي يليه؟ أليس في هذا التحقيب رجمٌ بالغيب؟ وكأن الزمن سينقضي! وكأنْ ليس بعد هذا العصر عصرٌ!

ومن ثمار التحقيب الفجّة أن نشأتْ مسلّماتٌ وحتميّاتٌ يُراد بها إخضاع الحياة الأدبية لأحكام ثابتة مكرورة محفوظة؛ لأن جمهرة المحقّبين اعتمدوا (العامل) الواحد في تفسير الأدب[١]. وطبيعة الأدب تأبى أن يُخضَع للمسلّمات. وطرقُ تلقّيه وسبل تداوله تكشف أنه مستعصٍ على ما قَوْلَبَه فيه المحقّبون.

ويتصل بهذا أنِ انحصر الاهتمام في أدب البلاط؛ ذلك أن التحقيب مرهون بأدب الحواضر التي تجتمع فيها السلطة السياسية، وعليه فقد

---

(١) انظر: منهجية تاريخ الأدب العربي بين الأصالة والتجديد، عدنان العلي، مجلة البيان، العدد ٢٣٣ (آب ١٩٨٥م)، ٤٤ (نقلًا عن: مناهج دراسة الأدب العربي، ١/ ١٣٤).

عرفنا من كانوا في بلاط الأمويين والعباسيين وغيرهم، وغفلنا عن أدب الأقاليم البعيدة عن تلك الحواضر، التي كان لبعضها خصائص إقليمية مختلفة، فأين أدب أقاصي الجزيرة عمانَ واليمنِ ووسطِها نجدٍ وما تاخمها في سجلّ التحقيب؟ وأين أدب العرب في بلاد النوبة ومصر العليا؟ لقد جُعِل الأدب في (بغداد) مثلاً مقياسًا للأدب العربي في الأقاليم الأخرى، وفي هذا من إغفال العامل الإقليمي ما فيه، فهو من العناصر المهمة في درس الأدب وتطوره(١).

وقد كشفت المدوّنات الكبرى التي رصدت حركة الشعر بخاصة أننا جاهلون أو متغافلون عن أدب غزير، ليست سماتُ كثير منه مندرجةً فيما نزعم من (خصائص الشعر العامة) في عصر من العصور، ولهذا "نتجت عن تطبيق هذا المنهج.. .آثار سيئة في فهم معنى الأدب ورسالته؛ لارتباطه في أذهان الطلاب دائمًا بالحاكم والتيارات السياسية المصطرعة في كلّ عصر"(٢). وعلى ما شهدته العصور من مظاهر ارتباط الأدب بالسياسة؛ فإن ذلك يبقى مقصورًا على فئة من أدباء البلاط أو السلطة الحاكمة، ولا يصدقُ على الأدباء الذين يحملون لواء الإخلاص لأدبهم(٣).

---

(١) انظر: النقد العربي الحديث، أصوله، قضاياه، مناهجه، ٢٧١.

(٢) نظريات في دراسة المنهج الأدبي، السيد عبدالحليم حسين، منشور في شبكة الألوكة في ٢٠/ ٢/ ١٤٣٣هـ، ١٥/ ١/ ٢٠١٢ (http://www.alukah.net)، تاريخ النظر فيه: ١٣/ ٧/ ١٤٣٩هـ، ١/ ٤/ ٢٠١٨م.

(٣) انظر: نحو رؤية جديدة في تدريس الأدب العربي، يحيى عبدالرؤوف جبر، عن موقع .staff - old.najah.edu تاريخ النظر فيه ١٩/ ٧/ ١٤٣٩هـ، ٥/ ٤/ ٢٠١٨م.

ويكشف تهافتَ التحقيب ما ذكره شوقي ضيف -وهو من المحقِّبين- من أن مصنّفي الكتب القديمة -ولا سيّما كتبُ التراجم- يجمعون فيها النابهين في كلّ صقع، متناسين الفواصل السياسية والجغرافية بين الأقاليم والبلدان، وكأنها عندهم لا تدلّ على فروقٍ علمية أو أدبية[(١)]. وهذا يعني أيضًا أن تلك الفواصل السياسية التي يُزعَم بها انتقال الأدب من طور إلى طور لم تكن إلّا نتاج رؤية مدرسية[(٢)] سطحية لم تأخذ سوى ظواهر عابرة، مسقِطةً إياها على النتاج الأدبي كله، فكم دارسٍ أو مؤلِّفٍ قال: (إن من خصائص الشعر في العصر الفلاني كذا وكذا)، وهو لم ينظر إلا في نتاج ثُلّة قليلة، وقد كشفت الدراسات المتجدّدة في شعر المشهورين أو المغيّبين أو المغمورين أن تلك الخصائص محض ادّعاء، نعم قد يجتمع جمهرة من الأدباء في بعض سُبُل القول، وطُرق الإبداع، ولكنّ لكل منهم شخصيته المتفرّدة، حتى بعض الأغفال غير المعروفين. وهذا بعض ما أشار إليه أحد النقّاد إذ قال: إن التحقيب جنى "على مئات الأدباء الذين أغرقتهم هذه النظرية في تيّار التعميم السطحي الذي لا يثبت عند التحقيق والفحص العميق"[(٣)].

إن نظرية التحقيب السياسي أثمرتْ دراساتٍ سطحيةً ليس لها منهج

---

(١) انظر: عصر الدول والإمارات (٥)، ٦.

(٢) إن عددًا من المؤلفات المتّبعة لمنهج التحقيب أُلّفت للطلاب، وأشهرها كتاب الزيات الذي كُتب أسفلَ عنوانه الرئيس (للمدارس الثانوية والعليا).

(٣) نظريات في دراسة المنهج الأدبي، السيد عبدالحليم حسين، منشور في شبكة الألوكة في ٢٠/ ٢/ ١٤٣٣هـ، ١٥/ ١/ ٢٠١٢ (http://www.alukah.net)، تاريخ النظر فيه: ١٣/ ٧/ ١٤٣٩هـ، ١/ ٤/ ٢٠١٨م.

واضح مُبِينٌ للتعمّق في تقييم[١] الأدب القديم وتاريخه؛ لأن المؤرخين لهذا الأدب يُخضعونه للعوامل السياسية مكتفين بذلك، مع ذكر نُبَذ عن الأدباء وأنسابهم، وبعض جوانب حياتهم، ونماذج من آدابهم[٢]. وإن كانت أثمرتْ نتائج تربوية مهمة، فإنها لم ترق إلى إيجاد تصور نظري خاص يميّز مفهوم (تاريخ الأدب)[٣].

وعلى ذلك فمنهج التقسيم التاريخي هذا لا يؤدي مهمته المرتجاة، مهما تكن الوشائج بين التاريخ والأدب، ثم إن مقاييسه تظلّ رهن المعايير التاريخية القديمة المتوارثة. ومن إخفاقها أنها وضعت حدودًا فاصلة بين الآداب، تبعًا لحدود العصور، والعصور تتداخلُ وتشتبك والنماذج تختلط، ثم إنها أهملت -إلاّ قليلاً- الأساس المكاني وتأثير البيئة في النتاج الأدبي[٤].

ومن إشكالاتها أنها أهملت النوازع الفردية وخصائص الإبداع الذاتي عند الأدباء، لطغيانِ المقياس الزمني الأفقي، وجمودِ الرؤية[٥]، وتحوّلِ

(١) الأصل اللغوي يقتضي أن يُقال (تقويم)، ولكنّ التطوّر اللغوي يقضي بسلامة استعمال (التقييم)؛ لسببين، الأول: القياس على قولهم: تعييد من (عِيد) وأصله من عاد يعود، وقولهم: (ديّمت السماء)، وهو من ديمة وأصلها الواو: دام يدوم، والثاني: أن من طبيعة اللغة الحيّة التطور والجنوح إلى الدقة في الاستعمال، فالتقويم على هذا يحمل معنى التعديل، والتقييم ينطوي على معنى بيان القيمة.

(٢) انظر: النقد العربي الحديث، أصوله، قضاياه، مناهجه، ٢٧١.

(٣) انظر: العرب وتاريخ الأدب، ٥٨.

(٤) انظر: نظريات في دراسة المنهج الأدبي، السيد عبدالحليم حسين، منشور في شبكة الألوكة في ٢٠/ ٢/ ١٤٣٣هـ، ١٥/ ١/ ٢٠١٢ (http://www.alukah.net)، تاريخ النظر فيه: ١٣/ ٧/ ١٤٣٩هـ، ١/ ٤/ ٢٠١٨م.

(٥) انظر: نظريات في دراسة المنهج الأدبي.

الآراء العابرة الفَطِيرة إلى أحكام قارّة لا يُعاد فيها النظر، ولا يُغيّر فيها ولا يُبدّل، وانظر في بعض الكتب المدرسية التي ينقل بعضها من بعض تجدْ تَصداقَ ذلك. ولهذا كان من النقد الموجّه إلى هذا المنهج أنه لا يرتقي بالذائقة الأدبية، بل يحدّ الملكة النقدية[(١)]، لأن متلقيَه -التلميذ غالبًا- يحفظ الأحكام العامة على آداب العصور، ويردّدها ترديد العجماوات، ويحفظ -إن كان ما يزال يحفظ- شواهد وأسماء شعراءَ لا تتغير، ويغيّب عقله بذلك عن إعمال الفكر، ويساعد على ذلك المَوات الإبداعي في الدرس ترادفُ التأليف في تاريخ الأدب العربي على نمط مدرسي مكرور، لا تكاد تجد في لاحقه مخالفة لسابقه.

يضاف إلى ذلك أننا إذا حاولنا البحث في النصوص الأدبية دون الاهتمام بالعصور، فإننا كثيرًا ما نقع على قصائد تنتمي لأزمنة تاريخية متباعدة، ولكن أسلوبها وألفاظها ومعانيها متقاربة جدًّا[(٢)]، ومن دلالات هذا أن التحقيب لم يصل إلى فصل الآداب وبيان اختلافها على مَرّ العصور، وعليه فقد يُعدّ عدمُه خيرًا من وجوده.

إن مواهب الأدباء وقدراتهم ونبوغ أفراد منهم في ابتكار أجناس، أو تطوير أخرى هو الذي ينبغي أن يكون عليه المُعوَّل، و"الأدب نتاج تفاعل نفسي على مدى طويل من الزمن، وهو خاضعٌ لخصائص

---

(١) انظر: نحو رؤية جديدة في تدريس الأدب العربي، يحيى عبدالرؤوف جبر، عن موقع staff - old.najah.edu. تاريخ النظر فيه ١٤٣٩/٧/١٩هـ، ٢٠١٨/٤/٥م

(٢) انظر: نحو رؤية جديدة في تدريس الأدب العربي، يحيى عبدالرؤوف جبر، عن موقع staff - old.najah.edu. تاريخ النظر فيه ١٤٣٩/٧/١٩هـ، ٢٠١٨/٤/٥م.

الأشخاص وصفاتهم، أكثرَ مما هو خاضعٌ للنظام السياسي السائد"[١]، وانظر مثلاً: أكان لعَيشِ بديع الزمان والمعرّي فيما سمّوه العصر العباسي أثرٌ في ابتكار الأول للمقامات وعناية الثاني باللزوميات، أو في إنشائه (رسالة الغفران)؟ أوَ كان لعيش مخترعِ الموشّحات مقدّم بن معافى القبري أو مُزامنه وبلديّه محمد بن محمود القبري في القرن الثالث في الأندلس صلةٌ بالوضع السياسي؟[٢]، أو أكان لبلديّه عُبادة بن ماء السماء الذي أدرك القرن الخامس أن يتأثر بالحدث السياسي، وهو يطوّر الموشحات[٣]، أم أن الطبع الفني عند الأديب، وقوّة ملَكته، والبيئة التي عاش فيها، هي التي تؤزُّه إلى الابتكار؟ إن الموشّح مثلاً لم ينشأ إلا بأثر طبيعة الحياة في الأندلس، من شيوع لمجالس اللهو، مع تفشّي اللغة الوسطى التي يرتضخها جمهرة من الوَشّاحين، وميلِ الأندلسيين إلى الابتكار؛ منافسةً للمشارقة[٤]، ولا صلة لنشأتها بمؤثرات سياسية. وعلى ما سبق بسطُه يكون تقسيم الأدب على العصور السياسية ضربًا من توهّم وقوع تحوّلات وتغيّرات أدبية، تبعًا للتغيرات السياسية، وذلك إن صدق في بعضها، لم يصدق في بعضها الآخر، هو الذي يكوّن الجزء الأكبر من أدبنا العربي.

---

(١) انظر: نحو رؤية جديدة في تدريس الأدب العربي، يحيى عبدالرؤوف جبر، عن موقع .staff - old.najah.edu تاريخ النظر فيه ١٩/٧/١٤٣٩هـ، ٥/٤/٢٠١٨م.

(٢) اختُلف في مبتكر الموشّحات، حتى إن ابن بسّام بعد أن ذكر أنه محمد بن محمود القبري، قال: قيل إنه ابن عبدربِّه. انظر: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ١/٣٦٢، وانظر: دراسات في الأدب الأندلسي، ١٧٢ - ١١٧٥.

(٣) انظر: الذخيرة، ١/٣٦١.

(٤) انظر: دراسات في الأدب الأندلسي، ١٧٧.

إن خلاصة ما يوجّه إلى هذا التحقيب من نقدٍ أن أصحابه غير متفقين على عدد العصور، ولا مخلِصين لمنطلقاتهم النظرية، وأنهم متجاهلون لطرقِ الانتقال من عصر إلى عصر، وعواملِه وأسبابِه؛ ولذا لم يفلحوا في تمييز العصور تمييزًا يجعل كلَّ عصر قائمًا بنفسه، مستقلاًّ عن غيره. ولأنهم لم يفهموا حركة الأدب التاريخية فهمًا صائبًا، جهلوا أسرار الرقيّ والتقدم فيه، فأوقعهم ذلك في عناوين عامّة أطلقوها على العصور، فجعلوا بعضها عصورَ انبعاثٍ، وبعضَها عصورًا ذهبية، وبعضَها عصورَ انحطاط، فأدّى ذلك كلُّه إلى إخفاقهم في وضع تاريخ للأدب[١].

وبعد: فهل الأجدى أن يُدرس تاريخ الأدب بهذا المنهج التحقيبي الذي كثُرت إشكالاتُه، أو أن يُدرس بتتبع المراحل التي تعدّ منعرجاتٍ في التاريخ الأدبي، وهي التي ينشأ فيها جنس أدبي أو يزول فيها جنس آخر، أو تتغير فيها بنية أدبية عما كانت عليه حالها من قبل[٢]؟

إن مما يضيء لنا السبيل هنا ما ذكره إبراهيم النجار عن تقديم جاك لوقوف (Le goff) تقسيمًا جديدًا للعصور الوسيطة -يعني في الأدب الأوروبي- مختلفًا عن التقسيم الذي أقرّه الدارسون القدامى، ثم قال -أي النجار-: "وبإمكاننا أن نستوحي من المنهج نفسه تقسيمًا جديدًا للعصور الإسلامية يختلف عما جاء في التقاليد المدرسية، فنضيف للفترة التي اعتبرها التقسيم القديم منعرَجًا من منعَرَجات الأدب العربي

(١) انظر: في تأريخ الأدب مفاهيم ومناهج، ١٠٥.
(٢) انظر: مقالات في التاريخ الأدبي، ٦.

نصف قرن"[١].

واقترح النجار في درسه لبعض الأدب القديم ألاّ نتقيد بالتقسيمات التقليدية، مشيرًا إلى أنه يخرج بمدوّنته عن حدود التقسيم الصارم المرتبط بعام واحد (كان يتحدث عن مقتل المتوكل عام ٢٤٧هـ)، ثم قال: "فهذا الحيِّزُ الزمني منعرَج تاريخي حضاري عرف تشتُّتَ مركزية بغداد وبروزَ عواصم الأقاليم الكبرى، وذلك سيكون له أبعد الأثر في التطورات اللاحقة"[٢]. وهو بذا يرى الإبقاءَ على شيء من التحقيب، مشروطًا بأن تُراعى التحوّلات والمنعرجات الكبرى في تاريخ الأدب. ولكني أرى أن هذا قد يفضي إلى إهمال الأدباء أنفسهم، ولاسيّما أصحاب التأثير الكبير؛ لأن بعض التحوّلات أو المنعرجات لم ترتبط بأديب واحد فحسب، وذكرُ جمهورهم متعذّر. ثم إن المؤرخين لن يتفقوا على ما يمكن عدّه تحوُّلاً أو منعَرَجًا جديرًا بالذكر، وحينئذ تصبح كتابة تاريخ الأدب خاضعةً لأذواق شتى، ومذاهبَ متعددة في النظر والتدوين. ولا ضير من ذلك بدءًا، غير أنها قد تُدخل تاريخ الأدب في دوّامات من الاضطراب. وهي في كلّ حال- خيرٌ من التحقيب السياسي.

إن دراسة تاريخ الأدب لن تكون ناجعة إلّا بإلغاءِ التحقيب، ودراسةِ الفنون والأجناس الأدبية مفصولةً عن الدول والتقلبات السياسية، وهي دعوة ليست جديدة، أشار إليها جمهرة من دارسي الأدب وناقديه. وكان لجرجي زيدان أوّليّة الإشارة إلى درس الأدب بفنونه، إذ قال: "ترددنا

---

(١) شعراء عباسيون منسيون، ٤١/١، الحاشية١.
(٢) شعراء عباسيون منسيون، ٤١/١.

كثيرًا في الخطة التي نتخذها في تقسيم هذا الكتاب، بين أن نقسمه حسب العلوم أو حسب العصور، ومعنى قسمته حسب العلوم أن نستوفي الكلام في كل علم على حدةٍ من نشأته إلى الآن، على أن نبدأ بأقدمها، فنذكر تاريخ الشعر مثلاً وتراجم الشعراء، وما تقلّب على الشعر من أول عهده إلى الآن، ونفعل مثل ذلك بالخطابة وغيرها من آداب الجاهلية، وهكذا في العلوم الإسلامية كالفقه والتفسير والنحو واللغة"[١]، هذا ما قال، ولكنه اختار التأليف على حسب العصور السياسية. ومع ذلك فمصطلح (تاريخ الآداب) الذي سار عليه زيدان مرادٌ به الإنتاجُ العقلي والشعوري للأمة في المجالات العلمية والفلسفية والأدبية، أي ما يصوّر الجانب الحضاري لها، وهذا هو المفهوم الشائع عند الغربيين[٢]. وللرافعي أيضًا مذهب في عرض شيءٍ من تاريخ الأدب يمكن عدّه من إرهاصات هذه الطريقة، فقد عرض لأولية الشعر وفنونه وبعض أغراضه، وبعض الفنون والأوزان المحدَثة.

ولباحثين آخرين جهد في تقديم مقترحات جديدة لدراسة تاريخ الأدب، منهم مرسل بن فالح العجمي في كتابه (عصور الأدب العربي، تحقيب جديد) الذي طالعت منه كتابين، الأول (أدب العصر العتيق، زمن الأسطورة)، والثاني (أدب العصر القديم، زمن الشعر)، وفيهما محاولة لتقديم رؤية جديدة، تُعرِض عن التحقيب السائد، وتقترح بناء النظر على المؤثرات الكبرى وسيادة الأجناس والفنون.

---

(١) تاريخ آداب اللغة العربية، ١/ ٩.

(٢) تاريخ آداب اللغة العربية، ١/ ١٣ الحاشية، وهي من تعليق شوقي ضيف.

ومنهج الدراسة المقترحة مزيجٌ من (منهج الفنون الأدبية) و(منهج المدارس الأدبية) مع دراسة التحوّلات الكبرى ذات الأثر البيّن في تطور الأدب ومُضِيّه قُدُمًا في الزمان علوًّا أو انحدارًا، وذلك بالنظر في كلّ فنٍّ أو جنسٍ على حِدة، وكَشْفِ ما طرأ عليه من تغير وتطوّر وضعف وخمودٍ أو قوّة وتجدّد على تقلب الزمان، دون نظرٍ إلى العصور السياسية وتقلبات الأحداث، إلّا حين يكون لها أثرٌ في نشوء فنٍّ أو غرضٍ أو جنسٍ أدبي، كأن يُدرَس رثاء الدول والممالك، فحينئذٍ لا بدّ من لفت النظر إلى الأحداث السياسية التي هيّأت لهذا الغرض أن يظهر ويتطوّر. أو أن يُدرس ما له صلة بالتحولات الاجتماعية، فحينئذ يُستعان بالتحليل الاجتماعي للعوامل المؤثرة في الأدب؛ لأن التاريخ الأدبي لا بد أن يكون تاريخيًا أدبيًا اجتماعيًا[١]. وصاحب هذا القول -وإن عبّر بالتاريخ الأدبي- يريد تاريخ الأدب، ولمناقشة الفروق بين المصطلحين حديث آخر، ولكني أقبلهما هنا بوصفهما تعبيرين مختلفين عن شيء واحد، متجوِّزًا تجوّزًا مؤقّتًا.

وقد أعملَ هذه الطريقة في الدرس الجامعي جمعٌ من العلماء والنقاد، منهم سيد نوفل في (شعر الطبيعة في الأدب العربي)، ومحمد محمد حسين في (الهجاء والهجّاؤون)[٢]، وشكري فيصل في (تطور الغزل بين الجاهلية والإسلام)، و(شعر الحرب في أدب العرب) لزكي

(١) انظر: التحليل الاجتماعي للأدب، ١٦٢ - ١٦٣.

(٢) انظر: نظريات في دراسة المنهج الأدبي، السيد عبدالحليم حسين، منشور في شبكة الألوكة في ٢٠/ ٢/ ١٤٣٣هـ، ١٥/ ١/ ٢٠١٢ (http://www.alukah.net)، تاريخ النظر فيه: ١٣/ ٧/ ١٤٣٩هـ، ١/ ٤/ ٢٠١٨م.

المحاسني، ويمكن أن ندرجَ في هذا ما صدر من سلاسل موجزة عن الفنون الأدبية والأجناس، عرَض مؤلفوها للحِكَم والأمثال في كتاب، وللرثاء في كتاب، وللفكاهة في ثالث، وللسيرة الذاتية في رابع، وهكذا.

إن لهذه الطريقة في درْس الأدب وتاريخه من المحامد ما يمكّنُ من مراعاة التسلسل الزماني والعوامل الإقليمية المؤثّرة، وما يعين على تتبع التطور الفني دون أن يستأثر باهتمامها المشهورون(١)، إذْ هي تعتمد على فحص النتاج الأدبي كله، وتستقري وتصف وتحلّل، لكي تصل إلى وصف صادقٍ لحال الأدب والأدباء على مرّ الزمان. وهي بذلك ترفض الأحكام العامة التي تستغرق عصرًا كاملاً، غيرَ مرتبطةٍ بالتاريخ السياسي ارتباطًا سلبيًّا، بل هي تعدّه عنصرًا من عناصر كثيرة تتفاعل فتؤثر في الأدب والأدباء(٢).

إذن فالسبيل الناجعة لتصور تاريخ الأدب العربي هي في درسه على حسب الفنون والأجناس، على هُدًى من التتبع التاريخي، وهو المنهج الذي ألمعتُ فيما سلف إلى تسمية بعضهم إياه (نظرية الفنون والأجناس الأدبية)، وهاهنا نماذج:

يمكن أن ندرس (الشعر الغنائي) مقسَّمًا إلى أغراضه الكبرى،

---

(١) يقول لوسيان غولدمان: "إن العمل الأدبي لا يعبّر عن مؤلف فرد، وإنما عن الجماعة التي ينتمي إليها الأديب". انظر: التحليل الاجتماعي للأدب، ١٧٠.

(٢) انظر: نظريات في دراسة المنهج الأدبي، السيد عبدالحليم حسين، منشور في شبكة الألوكة في ٢٠/ ٢/ ١٤٣٣هـ، ١٥/ ١/ ٢٠١٢ (http://www.alukah.net)، تاريخ النظر فيه: ١٣/ ٧/ ١٤٣٩هـ، ١/ ٤/ ٢٠١٨م.

فندرس (القصيدة المادحة) مثلاً ونتتبع تاريخها مبتدئين بشعراء الجاهلية (الأعشى والنابغة الذبياني والحارث بن حلّزة وغيرهم)، ثم نمضي في الزمان قُدُمًا، فنعرّج على ما طرأ عليها من تغيرات عند حسانَ وكعب بن زُهير ومن في زمانهما، ثم ننطلق إلى قصائد شعراء أواخر القرن الأول وبداية القرن الثاني كجرير والفرزدق والأخطل والبعيث وعبيدالله بن قيس الرقيات، ملحّين على مظاهر التطور، والثبات، ونمرّ في الزمن قُدُمًا حتى نبلغ قصائد بشار وأبي نواس فأبي تمام والبحتري فالمتنبي فابن المعلم والأبله البغدادي وابن عُنين. . .وهكذا حتى نصل إلى القرون الثلاثة الأخيرة فنعرّج على القصيدة المادحة عند شوقي وحافظ والجواهري وأبي ريشة وغيرهم من شعراء المناسبات والمهارج الاحتفالية، آخذين في الحسبان ألا نهمل جماهير الشعراء الذين حفلت المدونات بنتاجهم.

وفي كل مرحلة من تلك المراحل لا صلة لنا بتسميات العصور وتحقيبها، بل صلتنا بالقصيدة نفسها، تحولاتها في البناء والمعاني والألفاظ، وتطوّرها، وعلى أيدي من تطوّرت، ومظاهر تأثرها بما جدّ من صلة بآداب الأمم الأخرى.

وهذا مثال آخر:

يمكن أن ندرس المقامة، مبتوتة الصلة بكل تحقيب سياسي، فنبحث في جذورها عند ابن دريد، ثم نشير إلى رائدها الأول بديع الزمان الهمَذاني، وسمات المقامة عنده، ونمضي إلى الحريري رائدها الثاني، فندرس سمات أسلوبه المقامي، وهكذا نمرّ بجمهرة من المقاميين مشيرين إلى المقامات العلمية عند الزمخشري والسيوطي،

ذاكرين في مسيرة الدرس عددًا من المقاميين الذين سعى كثيرٌ منهم إلى صبغ مقاماته بشخصيته وأسلوبه، حتى نبلغ (مجمع البحرين) لناصيف اليازجي الذي كان مقلدًا جيدًا للحريري، ولا نغفل عن (حديث عيسى بن هشام) للمويلحي الذي كان مذبذَبًا بين الانتماء للمقامة والخروج عليها، ونعرّج على مقامات حفني ناصف، وما يشبه المقامات عند حافظ إبراهيم (ليالي سطيح)، ثم نشير إلى موتها غير المعلن في زماننا هذا، وإن حاول بعض المتأدّبين إنشاء مقامات.

ومثال ثالث:

يمكن أن ندرس أدب الرسالة ابتداءً من نصوصها التي وصلتنا من الجاهلية، على أن يُحقّق أمر صحتها من زيفها، ثم ننتقل إلى رسائل النبي، فرسائل الخلفاء الراشدين ومن زامنهم، ثم نلتفت إلى مظاهر التطور في رسائل عبدالحميد وابن المقفع، حتى نبلغ الجاحظ فنشير إلى تطور فن الرسالة عنده، وننتقل بعده إلى جمهرة من المترسلين في القرون التي تليه، عند البديع والمعرّي والقاضي الفاضل وابن الأثير وابن حزم وابن زيدون مثلاً، ونقف عند مدرسة الترسل الإنشائي التي خلت من التكلف، ومدرسة البديع التي عُنيت بالزخرف البديعي، إلى أن نبلغ غروبَ الرسالة في مصطلحها القديم، ووراثة المقالة إياها في زمان الناس هذا.

وفي المنهج المقترح لدرس تاريخ الأدب ينبغي ألاّ يكون الإلحاح على الأدباء بل على الأدب نفسه، ولا على الأحداث السياسية والتقلبات الاجتماعية، ما لم يكن لذلك أثر في تكوّن الأدب وتطوّره.

وفيه سوف نتخلّص من الأحكام العامة، وادّعاء الإحاطة، ونتخل آراء أنضجها التأمّل، ونستعين بالتتبع التاريخي على اكتشاف المنعرجات والتحولات الكبرى في الأدب وتاريخه، ولن يؤدي بنا ذلك إلى الجهل بالأدباء؛ لأن تتبّع الفنون والأجناس وتحولاتها لا بد من أن يكون مقرونًا بذكر الأعلام في كل فن وجنس، ولن يكون حديثنا مخصوصًا بالمشهورين دون الأغفال؛ لأن هذا التتبع سوف يتيح لنا الوقوف بكل مظهر فني وكل إبداع.



مِنْ قِيَمِ التَّعَايُشِ فِي المَثَلِ العَرَبِيّ*

د.علي بن معيوف المعيوف
جامعة الملك سعود-الرياض

الأمثال والحكم من أهم الموروثات اللغوية للشعوب والمجتمعات التي تُلخِّص ثمار تجاربها ورؤيتها للحياة، والأمثال العربيةُ هي جزء من الموروث اللغوي للمجتمع العربي الذي ينقلُ صورةً من صور تجربته ورؤيته وتفكيره وقيَمِه، ويمكننا باستقراء هذا الموروث أن نصلَ إلى فهم أعمق للقيم الحضارية في هذا المجتمع منذ القديم، فمن المشهور أنَّ العربي منذ الجاهلية كان معتزًّا بقيمه الأصيلة، وكان من هذه القيم قيمٌ إنسانية عالية حَرَصَ عليها العربُ وجعلوها في قمة هرم قيَمِهِم العليا، يُصدِّقُ ذلك قولُ الرسول ﷺ: "إنما بُعثتُ لأُتمِّم حسن الأخلاق" [أخرجه مالك ٢/ ٩٠٤، رقم ١٦٠٩] وفي رواية "إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق" [أخرجه أحمد ٢/ ٣٨١، رقم ٨٩٣٩. والبخاري في الأدب المفرد ١/ ١٠٤ ٢٧٣]، وقوله عليه الصلاة والسلام لما سمع شعر أمية بن أبي الصلت: "إن كاد ليُسلِمُ"[أخرجه مُسلِم ٢٢٥٥، والبخاري في الأدب المفرد ٧٩٩]، وفي رواية: "إن كاد ليُسلِمُ شعره" ؛ وذلك لما في شعره من ذكرٍ للقيم والمبادئ السامية التي تتوافق مع مبادئ الإسلام، ومن شعره:

(*) نشر في كتاب الملتقى العلمي العالمي الثاني عشر للغة العربية والمؤتمر السادس لاتحاد مدرسي اللغة العربية بإندونيسيا الذي عقد في جامعة باجاجاران - إندونيسيا في ١٦ - ١٨ أوكتوبر ٢٠١٩م.

لا تخلِطَنَّ خبيثاتٍ بِطَيِّبَةٍ   واخلَع ثيابكَ منها وانجُ عُريانا
كلُّ امرئٍ سوفَ يُجْزَى قرضهُ حَسَنًا   أو سيِّئًا ومَدِيْنًا كالذي دانا

ومنه قوله:

وقد عَجِبْتُ وما بالموت من عَجَبٍ   ما بالُ أحيائنا يبكون موتانا
يا ربّ لا تجعلَنِّي كافرًا أبدًا   واجعل سريرةَ قلبي الدَّهرَ إيمانا

والذي يتتبَّع المثل العربي يجدُه بالغَ الإيجاز ومصقولًا بشكل لافتٍ، فمعظم الأمثال العربية لا تتجاوز جملةً واحدة موجزة مصوغةً بصور يسيرة تُمكِّنُ من الحفظ، ولعل هذا يُساعد المثلَ في الرسوخ ليُمثِّل ذاكرةً لا تشيخ للمجتمع العربي؛ وهذا يدفعني لأصِفَ المثل العربيَّ بأنَّه يُشبه المنحوتات الجمالية التي لا تبلى، لكنها منحوتاتٌ لغوية رسخت في ذاكرة المجتمع، ولا تزال تُروى إلى اليوم.

وعلى الرغم من قصر المثل العربيّ يحملُ كل مَثَلٍ معه قصةً كاملةً مضمَرةً، وربما حمل أكثر من قصة يحكيها، بل ربما حمل سلوكًا في حياة كاملةٍ لشخص أو لجماعة، وذلك حين يرتبط المثل بصفة من صفات شخصٍ ما أو مجموعة ما، فيصبح هذا الشخص مضربَ مَثَلٍ في تلك الصفة كقولهم: "أكرمُ من حاتم"، لكنَّ هذه القصص لا تحكى عند ضرب المثل، بل يحكى المثل وحده، ويبقى المثل حاملاً لتلك القصة أو القصص المُضَمَّنة فيه التي لا تُحكى معه.

والمثل يُطلَق في وقتٍ معيَّنٍ في موقفٍ معيَّنٍ وسبب معيَّنٍ، ومن هنا فإنه يُمكنُ أنْ يُنظرَ إليه بوصفه توثيقًا تاريخيًّا لقصةٍ ما، وهو بهذا يكونُ وثيقةً يمكنُ بها دراسة المجتمعات وممارساتها وقيمها، لكنّ المثل لا يقف عند هذا الأمر فحسب، بل إنَّ رسوخَ المثلِ ووروده في

المواقف والقصص المشابهة لسبب ضربه تجعلُ منه ذاكرة لا تشيخ، وأداةً من الأدوات المؤثرة التي لا يتوقف تأثيرها ما دام المثلُ سائرًا وحيًّا؛ وهذا يعني أنَّ للمثل وجهين: وجهًا تاريخيًّا ثابتًا وهو مضرب المثل الذي قيل فيه، ووجهًا متحركًا باستمرار وذلك في الاستحضار المستمر للمثل وأثره في تكوين قيم المجتمع وتصوراته. أو كما عبَّر صاحب كتاب (الأمثال العربية في العصر الجاهلي) بقوله: "الأمثال في حياة الشعوب لها بعدان: بعد سكوني وبعد متحرك وكلاهما مرتبط بالآخر أيّما ارتباط"(١).

وفي هذه الأوراق أحاول أنْ أقدِّم صورةً مختصرةً تنقل شيئًا من القيم العربية التي نظرَ إليها العربُ بوصفها قيمةً عاليةً في مجتمعهم، وهي قيمٌ تُسهِمُ في تكاتف المجتمع، وتقوِّي أُسُس التعايش والأمن بين أفراده. وقد ركَّزت في هذا العمل على صورةٍ واحدة من صور صياغة المثَل العربيّ وهي الصياغة التي بُنيَت على قولهم: "هو أَفْعَلُ من كذا"، وكان الاعتمادُ في نقل أمثاله من كتاب (الدرة الفاخرة في الأمثال السائرة) الذي بناه صاحبه على اختيار هذه الصورة من صور صياغة المثل العربي، فقال: "هذا كتاب أودعته فنًّا من الأمثال السائرة عن العرب... [إلى أن قال:] وهو ما جاء من الأمثال على قولهم: هو أفْعَلُ من كذا"(٢). وهي أمثالٌ سائرةٌ كما وصفها صاحب الكتاب، فهي

(١) أبو علي، محمد توفيق، الأمثال العربية والعصر الجاهلي، دار النفائس، بيروت، ط١، ١٤٠٨ - ١٩٨٨م، ص ٧.

(٢) الأصبهاني، حمزة بن الحسَن، الدُّرة الفاخرة في الأمثال السائرة، تحقيق عبدالمجيد قطامش، دار المعارف بمصر، ١٩٧١، ج١/ ص ٥٥.

ذائعة ومتداولة باستمرار، وقد صرَّح المؤلف بوصف الأمثال التي جمعها في كتابه بأنها أكثرها سيرًا على ألسنة الفصحاء والبلغاء وأئمة البيان فقال: "هي أكثر ما يجري منها على ألسن الفُصَحَاء، ويختلط بخطاب البلغاء، ويدخل في نوادر الأدباء وبدائع الشعراء"[(١)].

وقد اخترت هذه الصيغة من صيغ سبك المثَل؛ لما فيها من صورة واضحة على كون مضرب المثَل يُشكِّلُ نموذجًا للفعل المضروب فيه المثل، وهذا يعني أنَّ هذا النموذج صار يُنظرُ إليه بوصفه خطًّا مثاليًّا يمكن التشبيه به والاحتكامُ إليه في الوصف، وحين يُصاغُ المثل على "أفعل التفضيل" فهذا يعني أنَّ الموصوف أو الممدوح الذي يُقارنُ به في المثل السائر قد بلغ منزلةً عالية في التلبُّس بتلك القيمة.

ومن الأمثال العربية التي أوردُها في هذه الأوراق لتسليط الضوء على عددٍ من قيم التعايش في المجتمع العربي ما يأتي:

أمثال في الأمن:

الأمن هو أحد الأهداف السامية للتعايش، وقد يكونُ الهدف الأول والأهم لقيم التعايش، وهو أحد ضرورات الحياة؛ لذلك فإنَّ أول نموذج لنماذج الأمثال التي أسوقُ بعدها بعض القيم هو أمثالٌ في الأمن، من ذلك قولهم:

"آمَنُ من غِزلان مكةَ"[(٢)]، و "آمَنُ من حَمَامِ مكة"[(٣)]، و"آمَنُ من

(١) الأصبهاني، الدرة الفاخرة في الأمثال السائرة، ج١/ ص ٥٥.
(٢) الأصبهاني، الدرة الفاخرة في الأمثال السائرة، ج١/ ص ٦٥.
(٣) الأصبهاني، الدرة الفاخرة في الأمثال السائرة، ج١/ ص ٦٩.

ظَبْي بالحرم"(١). وتعني هذه الأمثالُ الأمن التام في مكة والحرم، فالغزلان والظباء والحمام كلها لا تُثارُ ولا يُعتدى عليها، فاعتادت هذه الحيوانات ذلك من الناس حتى ألفتهم، وصارت تقترب منهم بلا خوفٍ، فالأمنُ في مكةَ هو غاية الأمن، حتى الصيد يأمنُ حين يدخلُ الحرم، وضربُ المثلِ بهذا يُعطي إشارة إلى نموذج الأمن المفضَّل الذي يُضرَبُ فيه المثل العربيّ، بل هو الأمن الحلم الذي يحلم به كل مجتمع من المجتمعات، إنَّه الأمنُ الذي لا يخالطه أي خوف.

ومما يؤكِّدُ أنَّ الأمن يُمثِّلُ قيمةً عاليةً الشواهد الشعرية التي تتحدث في ذلك، ومنها قول الشاعر:

"لا والذي أمَّنَ الغِزلانَ يمسحُها   رُكبانُ مكةَ بين الغِيْلِ والسَّنَدِ"(٢)

إذ يُقسم الشاعرُ بالله الذي أمَّن الغِزلان في الحرم حتى أمنت واطمأنت فكانت تقترب من الناس الذين كانوا يمسحون عليها بأيديهم من شدة إلفها واقترابها منهم، وقد كانت الخيارات المتاحة للشاعر في اختيار اللفظ المقسم به كثيرة جدًّا، لكنه اختار من بينها هذا اللفظ تحديدًا الذي يُشيرُ إلى القيمة العالية للأمن في نفسه وفي ذاكرة المجتمع.

لقد صار الأمن في مكةَ مضرب مثلٍ للعرب، بل إنَّ أهل مكة قد أخذوا الميثاق من العرب ألا يمسَّ أحدٌ القوافلَ التجارية التي تخرج من مكة وإليها، وهو ميثاق أمنٍ جاء ذكرُه في القرآن الكريم في سورة

(١) الأصبهاني، الدرة الفاخرة في الأمثال السائرة، ج١/ ص ٦٩.
(٢) الأصبهاني، الدرة الفاخرة في الأمثال السائرة، ج١/ ص ٧٠.

قريش، وهذا الأمنُ في ذاته يمثِّلُ قيمة عالية (فهو نِعمةٌ وفضلٌ من الله)، ونموذج مرغوب فيه لولا طبيعة البيئة الصحراوية وندرة مقومات الحياة فيها؛ ولكون بيئة مكة آمنةً، والأمن الذي تنعم به هذه البيئة الاجتماعية في هذا المكان المقدَّس فإنَّ أبرز مثَلٍ في إلف المكان والبقاء فيه والألفة مع ما فيه ومن فيه هو المضروب في حمام مكة، إذ قالت العربُ: "آلَفُ من حَمَام مكة"[(١)]، وذلك لكل من ألف مكانًا وألف ما فيه فلم يعد يحتاج أو يفكر في مغادرته؛ لذلك فإنَّ حمام مكةَ لا تغادر مكة ولا تخاف من أهلها وزوَّارها.

قيمة الشعور بالأمن والسلم الذاتي:

إنَّ قيَمَ التعايُش والسِّلم تبدأ من الأمن والسلم الداخليّ للإنسان نفسه، فينشأ ذلك الشعور معه ابتداءً في بنية المجتمع الصغرى وهي الأسرة، لذلك نجد قيمتين مهمتين تضمنان الأمن الداخلي في بيئة الأسرة، وهما: العطف والحنان على الطفل، والبرُّ والتوقير للكبير، ومن الأمثال العربية التي تُعطي صورةً لهما:

في حنان القلب ورقته:

تقول العربُ في أمثالها: "أحنُّ من شارِف"[(٢)]، والشارف "هي الناقة المُسِنَّة، وهي أشدُّ حنينًا على ولدها من غيرها"[(٣)]. ومعروف لدى العَالَم أجمع حنان الأمِّ في جميع المخلوقات بوصفه شيئًا فطريًّا غريزيًّا؛

(١) الأصبهاني، الدرة الفاخرة في الأمثال السائرة، ج١/ ص ٦٩.
(٢) الأصبهاني، الدرة الفاخرة في الأمثال السائرة، ج١/ ص ١٦١.
(٣) الأصبهاني، الدرة الفاخرة في الأمثال السائرة، ج١/ ص ١٦١ - ١٦٢.

والعربُ في مشاهداتها وتجربتها في بيئتها وجدت الناقة أشد البهائم عطفًا على أولادها، فالناقة لا تكاد تحتمل الأذى يصيب ولدها؛ وهي إذا حُرمت منه أو مات فقد يصيبها ألم فقده بالأذى وربما الموت، وهناك قصص كثيرة لذلك، وقد أدى هذا إلى محاولة العرب اكتشاف طرقٍ لمعالجة مشكلة موت ولد الناقة لكي لا تتأذى به، ومن حيلهم في ذلك أنهم يأتون بحُوَارٍ(١) ماتت أمه، ويوهمونها أنها تلده، وذلك بتعريضها لحالة تشبه حال المخاض، ويربطون فوق أنفها قماشًا قد تَشَبَّع برائحة الحُوَارِ اليتيم؛ لتألف رائحته أثناء عملية الإيهام بالولادة، ثم يطلقون الحوار اليتيم بجانب الناقة، وينتظرون نجاح عمليتهم في التوفيق بين الأم الثكلى والحوار اليتيم، لتتحوَّل الأم الثكلى إلى أم جديدة للحوار اليتيم، وبذلك يعالجون احتمال موت الناقة أو جفاف ضرعها بسبب فقد ابنها.

في البِرِّ:

تقول العرب في أمثالها: "أبرُّ من فَلْحسٍ"(٢)، وفلحسُ رجلٌ بارٌّ، قال فيه صاحب الدرة الفاخرة: "وأما قولهم: أبرُّ من فَلْحسٍ؛ فإنه رجلٌ من بني شيبان، ومن حديثه أنه حمَلَ أباه، وكان خَرِفًا كبيرَ السِّنِ، على عاتقه فحجَّ به"(٣).

فالعرب حين ضربت المثل بهذا الرجل ليس لأنه كان بارًّا فحسب

---

(١) الحوار: ولد الناقة.

(٢) الأصبهاني، الدرة الفاخرة في الأمثال السائرة، ج١/ ص ٨١.

(٣) الأصبهاني، الدرة الفاخرة في الأمثال السائرة، ج١/ ص ٨١.

فالبارُّون غيره كثير؛ بل لأنَّ صورةَ برٍّ فلحس بأبيه جعلَت من برِّه مثالًا يحتذى، فأبوه قد بلغ من العمر أرذله، فضعُفَ وخَرِفَ، وكما هو معلوم أنَّ مَن فقد عقله سقط عنه التكليف، لكن ذلك كلَّه لم يمنع ابنه فلحس من أن يحمله على عاتقه ويحجّ به بِرًّا ووفاءً ورجاء الخير لأبيه في آخر عمره، وأن يتعرَّض لرحمة الله في أطهر وأعظم مقام.

إن حنان القلب ورقته الذي يوجَّه إلى الطفل في أسرته، والبرّ الذي يوجَّه إلى الوالدين وعلى وجه الخصوص في حال كبرِهما وهرمهما - يعمقان الشعورَ بالأمْن والسلم الداخلي في البنية الاجتماعية الصغرى "الأسرة الواحدة"، وذلك لأنَّ مرحلتي الضعف "الطفولة والهرم" سيكون الإنسان فيهما في حالِ حاجة إلى الرعاية والأمن الذي يوفره له من هم في مرحلة القوة والقدرة من أفراد الأسرة؛ والشعور بالأمن الذاتي في المجتمع الصغير "الأسرة" له انعكاسه وأثره المؤكد في التعاطي مع المجتمع الأكبر.

أما القيم الاجتماعية التي تدعم التعايش والسلم والأمن الاجتماعي في المجتمع فمنها:

الجودُ والكرم وحُسنُ الجوار:

من أمثال العرب في الجود والكرم: "أَجْوَدُ من حاتم"[١]، وحاتم هو حاتم الطائي المشهور بكرمه بين العرب، وله قصص في الكرم مشهورة، ومن قصصه أنه في ليلة من الليالي أخذ يعلل ابنه عديًّا، وزوجه تعلل ابنتهما سفانة حتى نام الابن والبنت، ثم بقي حاتم يعلِّل

(١) الأصبهاني، الدرة الفاخرة في الأمثال السائرة، ج١/ ص ١٢٦.

زوجه بالحديث لتنام، فرأت زوجُه تعبه فرقَّت له لما به من الجَهد، فادعت النوم، فنظر من فتق الخباء "فإذا شيء قد أقبل، فرفع رأسه فإذا امرأةٌ تقول: يا أبا سفَّانة، أتيتك من عند صِبيةٍ جياع، فقال: هاتيهم، فوالله لأُشبعنَّهم، فلما جاءت بهم قام إلى فرسه فذبحها واشتوى، فأشبَعَنا، ثم قال: والله إنَّ ذا للؤمٌ أن تشبعوا وأهلُ الصِّرمِ حالهم كحالكم، فجعل يأتي الصِّرمَ بيتًا بيتًا، ويقولُ: عليكم النارَ، فاجتمع عليه من العدد مقدارٌ لم يتركوا منه شيئًا، وهو متقبِّعٌ في كسائه قد قعد حَجرَةً، ما ذاق منه شيئًا"[١].

فهذه القصة من قصص كرم حاتم تدل على الكرم وحسن الجوار وقيمة المشاركة، فقد احتمل حاتم وزوجه قلة ما يجدون، فتصبَّروا وصبَّروا أولادهم ونوموهم بلا عشاء، لكنَّ حاتمًا لم يحتمل إقبال جارته على بيته شاكيةً جوع أولادها، فأقسم بالله أن يشبعهم، وأقبَلَ على فرسه فذبحها، ولم يكن من عادة العرب ذبح خيلهم إلا في الضرورة القصوى حين لا يجدون غيرها، ثمَّ لما ذبح حاتم فرسه وشوى منها لهم رأى أنَّه من العيب أن تأكل المرأة وبنوها وزوجه وبنوه ويشبعوا ومَن حولهم من أهل البيوت لم يأكلوا، فذهب ليدعوهم بيتًا بيتًا ليشاركوهم في الطعام، فأكل كل من دُعي وبقي هو لم يأكل من فرسه شيئًا.

ومن قصص كرمه أنه كان يوقد نارًا في رأس جبلٍ يدلُّ بها الأضياف على منزله، وله أبياتٌ مشهورة يُغرِي بها غلامه على إيقاد النار في ليلة باردة من ليالي الشتاء فيقول:

---

(١) الأصبهاني، الدرة الفاخرة في الأمثال السائرة، ج١/ ص ١٢٧ - ١٢٨.

أَوْقِدْ فإنَّ الليل لَيلٌ قرٌّ والريحُ يا غلامُ ريحٌ صِرُّ
عسى يرى نارك مَنْ يَمرُّ إن جَلَبَتْ ضيفًا فأنْتَ حرُّ

ومن أمثال العرب في ذلك أيضًا: "أجودُ مِن كَعب"[١] وهو كعبُ بن مامة الإيادي، ومن خبره أنه إذا جاورَه رجلٌ فمات وداه (أي دفع ديةً لأهله، وهو أمرٌ لا يلزمه، ولكنه إكرام لجاره)، وإذا هلك له بعيرٌ أو شاة أخلفه بدلها، وجاورَه أبو دؤاد الإياديّ الشاعرُ، ففعل معه كعبٌ مثلَ ذلك؛ فصارت العربُ إذا حَمِدَت جارًا لحُسن الجوار قالوا: "كَجارِ أبي دؤاد"[٢].

وهذا المثلُ في الثناء على حُسن الجوار كما أنَّ فيه مدحٌ لصفة الكرم من وجهٍ آخر، ومما ورد في إشارة العرب إلى كعبٍ في كرمه وحسن جواره قول الشاعر:

أُطوِّفُ ما أُطوِّفُ ثم آوي إلى جارٍ كجارِ أبي دؤادِ[٣]

وقول طَرَفَة:

إني كفاني من همٍّ هممتُ به جارٌ كجارِ الدؤادي الذي اتصفا[٤]

أتصف: أي صار وصفًا، أي مثلاً يُضرَبُ في حُسنِ الجوار.

ما مضى من الأمثال في الكرم يحكي قصص كرَم المقيم في مكانٍ ويَرِدُ عليه الضيف في مكانه، وقد وردت أمثالٌ عربيةٌ تتحدَّث عن الكرم

(١) الأصبهاني، الدرة الفاخرة في الأمثال السائرة، ج١/ ص ١٢٩.
(٢) الأصبهاني، الدرة الفاخرة في الأمثال السائرة، ج١/ ص ١٣٠.
(٣) الأصبهاني، الدرة الفاخرة في الأمثال السائرة، ج١/ ص ١٣٠.
(٤) الأصبهاني، الدرة الفاخرة في الأمثال السائرة، ج١/ ص ١٣١.

في الصحبة أثناء السفر، ومن الأمثال العربية في الكرم والمشاركة في حال الارتحال والتنقُّل: "قولهم: أقرى من زاد الرَّكب، فزعم ابن الأعرابي أنَّ هذا المثل من أمثال قريش ضربوه بثلاثة من أجوادهم: مُسافرِ بن أبي عمرو بن أمية، وأبي أمية بن المغيرة، والأسودِ بن المطَّلب بن أسد، سُمُّوا أزواد الرَّكب؛ لأنهم كانوا إذا سافروا مع قوم لم يتزَّودوا"(١)، أي اكتفاء بما تزود به أحد هؤلاء الثلاثة، وهذا جامعٌ للكرم والمشاركة، ومن المعروف صعوبة السفر في ذلك الزمان في أرض قاحلة قاسية، وهم مع ذلك يكفون أصحابهم في السفر مؤونة الزاد.

ولا تزال هذه الصفة إلى اليوم لدى بعض عرب الجزيرة حين يترحلون في بقاعها، فبعض الناس قد اعتاد أن يكون "أقرى من زاد الرَّكب" كما جاء في المثل، فيكفي كل من يصاحبه مؤونة الزاد ومستلزمات السفر كاملة عدة وطعامًا.

إنَّ الكرَم وحسن الجوار يُلطف القلوب، ويربط بعضها على بعض، والكريمُ يكون له عند العرب منزلة معنوية عالية، فهو يُشفَّعُ ويُقدَّمُ ويُعدُّ من وُجَهاء قومه. كما أنَّه يمكن النظر إلى الكرمِ العربيّ بوصفه جزءًا من نظام الحياة، وقد يكونُ في بعض الأحيان وفي بعضِ المواقع والمواقف ضرورةً وشرطًا للبقاء بسبب طبيعة الصحراء التي تكون فيها مقومات الحياة شحيحة.

حماية المستجير:

من أمثال العرب في ذلك: "أَحْمَى من مجير الجَرَاد"، ووضّح

(١) الأصبهاني، الدرة الفاخرة في الأمثال السائرة، ج٢/ ص ٣٥٦.

صاحب (الدرَّة الفاخرة) قصة هذا المثَل فقال: "وأما قولهم: أحمى من مُجِيْرِ الجراد، فإنَّه مُدلج بن سويد الطائي"[١] وقصة هذا المثل "فيما ذكر ابن الأعرابي، عن ابن الكلبي، أنه خلا ذات يومٍ في خيمته، فإذا هو بقومٍ من طيِّئ ومعهم أوعيتهم، فقال: ما خطبكُم، قالوا: غَزَوْنَا جارَكَ، قال: أيّ جيراني؟ قالوا: جرادًا وقعَ بفنائك فجئنا لنأخذه، فقال: أما وقد سميتموه لي جارًا فلا سبيلَ إليه، ثم ركب فرسه، وأخذ رمحه، وقال: والله لا يقربه منكم أحدٌ إلا قتلته، أنتم رأيتموه في جواري ثم تريدون قتله وأخذه؟ فلم يزل يحرسه حتى حميت عليه الشمسُ وطار، فقال: شأنكم الآن وقد ترحَّل عن جواري.

ففيه يقول شاعر طيِّئ:

ومنَّا ابنُ مُرٍّ أبو حنبلٍ أَجَارَ من النَّاس رَجْلَ الجراد
وزيدٌ لنا ولنا حاتِمٌ غياثُ الورى في السِّنين الشداد"[٢]

فمن المعروف في بلاد العرب أنَّ الجرادَ مما يؤكَل، وهو إحدى الميتتين اللتين يجوز أكلهما: السمك والجراد، ومن المعروف أيضًا في حيلة العرب لصيد الجراد أنهم يتبعونه حتى يتوقف ليلاً ويبيت، ومع برد الليل لا يتمكن الجراد من الحركة في آخر الليل وأول النهار، وكأن البرد يقيده، والجراد لا يتحرك حتى تطلع الشمس وتبعث دفأها فيه، وإلا فإنه لا يستطيع الطيران والقفز؛ لذا فإنهم ينتظرون حتى الفجر لينطلقوا إليه في مكانه الذي رصدوه فيه ويجمعوه، وفي قصة هذا المثل

(١) الأصبهاني، الدرة الفاخرة في الأمثال السائرة، ج٢/ ص ١٦٦.
(٢) الأصبهاني، الدرة الفاخرة في الأمثال السائرة، ج٢/ ص ١٦٦.

أن الجراد بات في مكان قريب من بيت أحد العرب، وقد رصدَه قومه، فلما أصبحوا انطلقوا لجمع الجراد، فلما أبصرهم صاحب البيت مقبلين يحملون أوانيهم التي سيجمعون الجراد فيها تفاجأ، فقال: ما شأنكم؟ قالوا: جئنا غازين جارك، فقال: أي جارٍ؟ وكان يظنهم جادّين، فبينوا له أنهم يقصدون جرادًا وقع في فنائه، فقال قولته، وفعل فعله كما في القصة.

فهذا العربي قد ركب فرسَه، وحمل رمحه، وبقي حاميًا للجراد، ومنع قومه من أن يقتربوا منه حتى طلعت الشمس وأحس الجراد بالدفء فطار من فناء داره، وخرج من جواره. وعلى الرغم من احتمال أنَّ قومه كانوا مازحين حينما قالوا: غزونا جارك، فإنَّ العربيّ أخذ الأمر على محمَل الجد، فنهض من ساعته، وحمى جاره الجراد، فمنع قومه منه جادًّا صادقًا، وذلك عملاً بنظام حماية المستجير في الثقافة العربية، وربما غضب قومه من فعله في حينها، لكنهم في الحقيقة قد افتخروا بفعله من حيث هو تمسكٌ بقيمة أصيلة لديهم، حتى افتخر بفعله شعراؤهم.

وحماية المستجير من الأخلاق التي أقرَّها الإسلامُ ونظَّمها في إطار يجعلها متفقة مع تعاليمه، ومن قصص إقرار هذا الخُلُق أنَّ أمَّ هانئ رضي الله عنها قالت: ذهبت إلى رسول الله ﷺ عام الفتح، فوجدته يغتسِلُ، وفاطمةُ ابنتُه تستره، فسلَّمتُ عليه، فقال: من هذه؟ فقلتُ: أنا أمُّ هانئ بنت أبي طالب، فقال: مرحبًا بأمِّ هانئ، فلمَّا فرِغ من غُسلِه قامَ فصلَّى ثمان ركعاتٍ ملتحفًا في ثوبٍ واحدٍ، فقلت: يا رسولَ الله، زعم ابنُ أمي عليٌّ أنه قاتلٌ رجلاً أجرته، فقال رسول الله ﷺ: "قد أجرنا مَنْ أجَرْت

يا أُمَّ هانئ" ، وذلك ضُحى. [أخرجه البخاري ٣١٧١، ومسلم ٣٣٦]، وكانت هذه القصة في فتح مكة.

الوفاء وحفظ الأمانة:

من أمثال العرب في ذلك قولهم: "أوفى من السموءل" وهو السموءل بن عادياء[(١)]، "ومن وفائه أنَّ امرأ القيس لما أراد الخروج إلى قيصر استودع السموءَلَ دروعًا. . . ، فلما مات امرؤ القيس غزاه ملكٌ من ملوك الشام، فتحرَّز منه السموءَلُ، فأخذ الملكُ ابنًا له كان مع ظئره خارجًا من الحصن، ثم صاح الملكُ بالسموءلِ: فأشرف عليه فقال: هذا ابنك في يدي، وقد علمتَ أنَّ امرأَ القيس ابنُ عمي، ومن عشيرتي، فأنا أحقُّ بميراثه، فإن دفعتَ إليَّ الدروع وإلاّ ذبحتُ ابنَك، فقال: ما كُنتُ لأخفِرَ أمانةً، فاصنع ما أنتَ صانعٌ، فذبح الملكُ ابنَه وهو ينظر، وانصرَفَ الملكُ بالخيبَة. فلما دخلت أيامُ الموسم وافى السموءل بالدروع الموسمَ، فدفعها بيد ورثة امرئ القيس، وقال في ذلك:

وفيتُ بأدرعُ الكنديِّ إنّي ... إذا ما خانَ أقوامٌ وفيتُ
وقالوا إنه كنزٌ رَغيبٌ ... ولا والله أغدرُ ما مَشَيْتُ"[(٢)]

وقد اشتهر عدد من العرب بهذه الصفة فضرب بهم المثل أيضًا، ومن أمثالهم في ذلك: "أوفى من أبي حنبل"[(٣)]، و"أوفى من

---

(١) الأصبهاني، الدرة الفاخرة في الأمثال السائرة، ج٢/ ص ٤١٥.
(٢) الأصبهاني، الدرة الفاخرة في الأمثال السائرة، ج٢/ ص ٤١٥ - ٤١٦.
(٣) الأصبهاني، الدرة الفاخرة في الأمثال السائرة، ج٢/ ص ٤١٧.

الحارث"[١]، و"أوفى من عوف بن ملحم"[٢]، و"أوفى من خُماعة"[٣]، و"أوفى من فُكَيهة"[٤]، و"أوفى من أمٍّ جميل"[٥]، وكلها أمثالٌ تحمل قصصًا في الوفاء والأمانة كانت محل إعجابٍ وتقديرٍ من العرب؛ فضربوا بهم المثل بسببها.

والأمانة تعكسُ سلوكًا محبَّبًا ومرغوبًا فيه في المجتمعات، وهي صفة تدل على سمو الخلق وجودة التربية، وامتلاء النفس بالعفَّة واحترام صاحب الحق، وحفظِ غيابه، وحفظ حقوقه. وهي أيضًا سلوكٌ يجعلُ الناسَ يثق بعضُهم في بعض، ويطمئنُ بعضهم إلى بعض، ويأمنُ بعضهم بعضًا، ويثق واحدهم بأن ما هو له سوف يصلُ إليه.

ولفظُ الأمانة من الأمن، وفيها تحققٌ لأحد معاني الأمن، وقد أكَّد الإسلام على هذا الخلق العظيم، ودعا إلى التمسُّك به، ونهى عن ضدِّه وهي خيانة الأمانة.

الحِلْم:

من أمثال العرب في الحلم قولهم: "أَحْلَمُ من الأحنَفِ" و"هو الأحنف بن قيس، سارَ في قبائل العرب بحلمه المثلُ، وسُئلَ الأحنَفُ: هل رأيتَ أحْلَمَ منك؟ قال: نعم، وتعلَّمت منه الحلم، قيلَ: مَنْ؟ قال:

---

(١) الأصبهاني، الدرة الفاخرة في الأمثال السائرة، ج٢/ ص ٤١٧.
(٢) الأصبهاني، الدرة الفاخرة في الأمثال السائرة، ج٢/ ص ٤١٩.
(٣) الأصبهاني، الدرة الفاخرة في الأمثال السائرة، ج٢/ ص ٤١٩.
(٤) الأصبهاني، الدرة الفاخرة في الأمثال السائرة، ج٢/ ص ٤١٩.
(٥) الأصبهاني، الدرة الفاخرة في الأمثال السائرة، ج٢/ ص ٤٢٠.

قيس بن عاصم، حضرتُهُ يومًا وهو محتَبٍ يُحدِّثُنا إذ جاؤوا بابنٍ له قتيلاً، وابن عمٍّ له كَتيفًا، فقالوا: إنَّ هذا قتل ابنك هذا، فلَم يقطعْ بنا حديثَه، ولا نقضَ حَبْوَتَه، حتى إذا فرغ من الحديث التفت إليهم وقال: أينَ ابني فلان؟ فجاءَهُ، فقال له: قم يا بُني إلى ابن عمك فأطلقه، وإلى أخيك فادفنه، وإلى أمِّ القتيل فأعطها مائةً من الإبل، فإنها غريبة، لعلها أن تسلو عنه، ثم اتكأ على شقِّه الأيسر وأنشأ يقول:

إنّي امرؤٌ لا يَعْتَري خُلُقي دَنَسٌ يُفَنِّدُهُ ولا أَفَنُ
مِن مِنْفَرٍ في بيت مَكْرمةٍ والغصن يَنبُتُ حولَه الغصنُ
خُطبَاءُ حينَ يَقومُ قائلُهم بيضُ الوجوهِ أَعِفَّةٌ لُسُنُ
لا يفطنون لعيبِ جارِهمُ وهمُ لحفظِ جواره فُطُنُ"(١)

فهذه صورةٌ عالية من صور الحلم، والحِلمُ صفةٌ تدعو صاحبها إلى الرِّفق والتريُّث والإمهال وأن يملك الإنسانُ نفسه عند الغضب، وتدعو صاحبها إلى التسامُح. والتحلي بهذا السلوك يزيدُ في تقبُّل الناس بعضهم بعضًا. وقد أشاد الرسول ﷺ بهذه الصفة، فمدَح أشجَّ عبد القيس إذ قال له: "إنَّ فيك خصلتين يحبهما الله: الحلمُ والأناة" [رواه مسلم]، فأخبر عليه الصلاة والسلام أنَّ الله تعالى يحبُّ الحِلمَ، فالحلم من مكارم الأخلاق التي يدعو الإسلام إلى التخلُّق بها لما لهذا الخلق الكريم من أثرٍ كبير في صبر الناس بعضهم على بعض، واحتمالهم الأذى الذي قد يصدرُ من بعضهم؛ لما في ذلك من النتائج المحمودة لهذا الخُلُق من ترسيخ التآلُف والتراحم بين أفراد المجتمع الواحد.

(١) الأصبهاني، الدرة الفاخرة في الأمثال السائرة، ج١/ ص١٦٤ - ١٦٥.

الشكر:

من أمثال العرب قولهم: "أَشْكَرُ من كَلْب"[(١)]، وذلك لما يتصف به الكلب من وفاء لصاحبه وشكرٍ لنعمته عليه وحفاظ وحراسة وخدمة...، ونُقِلَ نعتُ أحد البلغاء للكلب حين سُئِلَ عن كلب له فقال: "إنه يكفُّ عني أذاه، ويمنعني أذى سواه، ويشكرُ قليلي، ويحفظ مبيتي ومقيلي، فهو من بين الحيوان خليلي"[(٢)]، قال ناقل هذا الوصف: "فتمنيت والله أن أكون كلبًا له؛ لأحوز هذا النعت منه"[(٣)]. فقد ضربت العرب المثل في الشكر بالكلب لأنها وجدت هذه الخصلة ظاهرة فيه تجاه صاحبه، فهو يشكر نعمته ويتودد إليه بسبب نعمة أنعمها عليه ولو كانت يسيرة.

والشكرُ قيمةٌ من القيم التي تتسبَّب في الاستمرار ودوام كل القيم الأخرى، وكأن هذه القيمة تشكِّل مع كل قيمةٍ أخرى دائرة الديمومة، فالإكرام يتبعه شكر، والشكرُ يجلب الإكرام مرة أخرى، فيتبعه الشكر... وهكذا.

الحكمة:

الحكمة هي من أهم قيم ومقومات التعايش، وللحكمة عدد من التعريفات، لكن الذي يهمنا هنا في هذا الموضوع هو ثمرة الحكمة بتوظيف الخبرات والتجارب والمعارف في إيجاد التوازن الذي يسمح

---

(١) الأصبهاني، الدرة الفاخرة في الأمثال السائرة، ج١/ ص ٢٥٨.
(٢) الأصبهاني، الدرة الفاخرة في الأمثال السائرة، ج١/ ص ٢٥٩.
(٣) الأصبهاني، الدرة الفاخرة في الأمثال السائرة، ج١/ ص ٢٥٩.

لجميع أفراد المجتمع بالتعايش مهما كانت الصعوبات والتحديات.

ومن أمثال العرب في الحكمة: "قولهم: أحكَمُ من لقمان، وأحكَمُ من زرقاء اليمامة"(١).

تلك كانت أمثال على صيغةٍ واحدة، أُخِذَت من مصدرٍ واحدٍ هو "الدرة الفاخرة في الأمثال السائرة"، صيغت على بناء التفضيل، وهناك أمثالٌ أخرى فيها من التعبيرات التي يمكنُ وصفها بأنها توجيهات وإرشادات لعلاقةٍ جيدة مع أفراد المجتمع، منها قولهم: "إذا عزَّ أخوك فَهُن"(٢)، فيه إرشادٌ إلى أنَّه إذا اختلف صاحبان في إنفاذ أمرٍ واشتد أحدهما في رأيه، ورأى الآخر أنَّ في النزول على رأي صاحبه حفاظًا على المودة بينهما؛ فإنه ينزل على رأي صاحبه فيجاريه فيما أراد إبقاء لذلك الود.

ومنها قولهم: "رُبَّ أخٍ لك لم تلده أمك"(٣)، وهو مثَلٌ يبعث على التفاؤل تجاه التعامل مع النَّاس، فقد تجد في أفراد المجتمع من يُعاملك معاملة الأخ في حرصه على ما ينفعك، وتطلُّعه إلى ما تكون فيه فائدة لك، ويُقدِّمك، ويقف معك، ويدفع عنك... فكأنه أخ لك في سلوكه هذا، فالعرب يشيرونَ إلى أنك قد تجد في الناس من هو كالأخ لك وإن لم يكن أخًا من النسب.

(١) الأصبهاني، الدرة الفاخرة في الأمثال السائرة، ج١/ ص ١٦٢.
(٢) عبدالغني، محمد، والعشري، عبدالسلام، من أمثال العرب، مطبعة مصر، القاهرة، ص ١١.
(٣) عبدالغني، محمد، والعشري، عبدالسلام، من أمثال العرب، ص ٩٤.

ومنها قولهم: "الظُّلم مرتعه وَخِيمٌ" المرتع المكان الذي تطلق فيه الدواب لترعى، وإذا كان ذلك المرتع ذا عشب صالح للرعي لا يضر الدواب ولا ينفرها فهو مرتع طيب، وإذا كان ذا عشب ضار يؤذي الدواب وينفرها فهو مرتع وخيم، وهكذا يصنع الناس ويصنع بهم، فمن عمل الخير وأحسن كان كمثل الدابة التي ترعى في المرتع الحسن لا يناله الشر إن لم ينله الخير، أما الظالم الذي يرعى بظلمه في أموال الناس وأعراضهم ويسلبهم حقوقهم وكدهم فمثله كمثل الدابة التي ترعى في المرتع الوخيم[١]، وسيعود عليه ضرر ذلك المرتع، كما يعود على الدابة التي ترعى في المرتع الوخيم ضرر أكلها منه.

ومنها قولهم: "لعل له عُذرٌ وأنتَ تلومُ"[٢]، وفي هذا دعوة إلى التماس العذر للصاحب، وإن لم يُصرّح به، وهذا أدعى إلى أن يكون لك من صاحبك نفسٌ أخرى حين يكون في نفسه لوم لك على فعلٍ أو قول، فتدعوه نفسه إلى تأمل احتمالات العذر التي قد لا تظهر لك.

ومنها قولهم: "المِنَّةُ تهدِمُ الصنيعة"[٣]، وفي هذا تنبيه وإشارة إلى من فعلَ معروفًا بألا يُتبعه بالمن؛ لأنَّ المنَّ قد يُحزِنُ نفسَ من صَنَعْتَ له معروفًا، ويجعله يشعرُ بالدون وبمنزلة أقل، فالعرب تُحذِّرُ من المنِّ بعد فعل المعروف؛ لأنه يُفسِدُ المعروفَ ويجعلُه كأنه لم يُصنَع، فالمعروف بناء في العلاقة الجيدة بين من صنع المعروف والمصنوع له، والمنة تهدِمُ هذا البناء.

---

(١) عبدالغني، محمد، والعشري، عبدالسلام، من أمثال العرب، ص ١٢٦.
(٢) عبدالغني، محمد، والعشري، عبدالسلام، من أمثال العرب، ص ٢١٧.
(٣) عبدالغني، محمد، والعشري، عبدالسلام، من أمثال العرب، ص ٢٩٧.

وبعد فهذه بعض الملحوظات في الأمثال العربية، وقد يصدق بعضها على الأمثال في سائر اللغات والثقافات:

- تُقدّم الأمثال العربية نموذجًا على الإيجاز عند العرب.
- إن سيرورة المثل وانتشاره وإعادة استخدامه في كل موقف أو حَدَثٍ مشابه لقصته الأولى يُشيرُ إلى أنَّ هذا المثل تمكن من النجاح في التعبير عن تجربة إنسانية، لذلك يعيد المجتمع استخدامه في كل قصة أو حدث مشابه.
- تقدِّم الأمثال صورة عميقة لحياة المجتمعات، يمكن بها اكتشاف كثير من سمات مجتمع ما.
- يمكن أن يُنظَر إلى الأَمثال بوصفها وثائق تاريخية أنصفت جميع فئات المجتمع، حتى البسطاء من الناس الذين قد لا يلتفت المؤرخون إليهم وثَّق المثلُ قصصًا لهم لا تُنسى.
- للأمثال بعدٌ تربويّ، فكثير من القصص التي تعبِّرُ عنها الأمثال تحملُ في طيها أحداثًا مثيرة، وتعبِّرُ عن قيم عالية، فهي تصلح لأن تُنتقى منها قصص لتكون ضمن النصوص التي تُستخدم في التدريس، سواء في القراءة، أو في التربية على القيم والآداب.
- يُلمحُ من الأمثال أنَّ المجتمع يراقب سلوكه، فيُشيدُ بالعمل الذي يراه جيدًا، ويُحقِّرُ أو يسخرُ من العمل الذي يراه سيئًا؛ فيُمكنُ أن يُنظرَ إلى المثَل بوصفه أحد أدوات المجتمع في الترقِّي.
- من الأمثال ما يُشيرُ تلميحًا إلى السلوك المرغوب فيه، ومنها ما يُصاغ في صورة توجيه مباشر إلى ذلك.



قراءة نصية لمعاني حروف الجر عند الشمسان(*)

د.محمد عبدو فلفل
جامعة حماة - سورية

المطلع على السيرة العلمية والثقافية لأبي أوس إبراهيم الشمسان يدرك أنه شخصية علمية أكاديمية لم ترتض لرسالتها أن تكون حبيسة أسوار الجامعة مكتفية بالتدريس وإعداد الكتب والبحوث العلمية فحسب، بل حرصت أيضًا على أن تمد جسور التواصل العلمي والثقافي بين الجامعة والأوساط المجتمعية والثقافية العامة، لذا يجد المرء نفسه مع الشمسان أمام تجربة تحرص على أن تكون ذات رسالة لغوية في المجتمع الثقافي عامة بقدر ما تحرص على معاودة القول في قضايا العربية بمستوياتها الصوتية والصرفية والنحوية والدلالية، ومن إسهامات الرجل في هذا الجانب كتابه (حروف الجر: دلالاتها وعلاقاتها).

فهذا الكتاب على صغر حجمه، يكتسب أهميته من أهمية الموضوعات التي يعالجها، ومما أنجزه في سبيل ذلك، ومن الأمداء أو الآفاق التي أشار إليها، أو سلط الضوء عليها، أو حاول اكتشاف معالمها. وهو ما أرجو أن أوضحه في القادم من هذه القراءة لهذا الكتاب الذي جاء في مقدمة وفصلين، الأول (دلالات حروف الجر). والثاني (علاقات حروف الجر).

(*) نشر في مجلة العرب، دار اليمامة للبحث والنشر والتوزيع/ الرياض، ج٧/٨، س٥٦، محرم/صفر ١٤٤٢هـ.

أما المقدمة فأهم ما جاء فيها تحرير القول في طبيعة معاني حروف الجر، وفي الآلية التي تعتمدها هذه الحروف في التعبير عما تحمله من دلالات في مختلف أسيقة استعمالاتها، والمؤلف في هذا الصدد يرى أن دلالات حروف الجر دلالاتٌ تركيبية سياقة، ليس للمعجم من دور في توضيحها سوى ما تقدمه إليه التراكيب السياقية من دلالات، وفي ذلك يقول: "السؤال الذي يحتاج إلى إجابة الآن هو: ألهذه الحروف معنى؟ والجواب: أنه ليس لها معنى إذا قصدنا بالمعنى المعنى المعجمي للكلمات، فالمعجم في الغالب ليس له عمل في هذه الحروف، وما هو على شاكلتها من الأدوات التي ينحصر معناها في قيمتها الوظيفية ودلالاتها التي يكتسبها في السياق، فالحروف لها معان وظيفية تظهر في السياق، وتنفك عنها إذا خرجت من السياق إلا ما يبقى لهذه الحروف من دلالة عامة مبهمة كدلالة (إلى) على الاتجاه، و(على) على الاستعلاء، ولكن هذه الدلالات التي قد تُلْمَح في هذه الحروف مجردة من سياقها لا يمكن أن تخطر على الذهن إلا مستصحِبَة سياقاتٍ مألوفة، أي: إن الحروف التصقت بدلالاتها الوظيفية بعد استخدامها متلازمة معها تلازما يُسْتَصْحَبُ في الذهن بعد فك التلازم، ويَظْهَر هذا الاستصحاب عن إنشاء تلازم جديد من حروف الجر وسياق جديد، لم يكن قبل مألوفا، فيكون الاستخدام قد خرج إلى دائرة المجاز، أو جاء الحرف نائبًا عن غيره في تقدير بعض النحويين"(١).

وكلام الشمسان هذا يثير قضايا أساسية في فهم المعنى الذي يحمله

(١) أبو أوس إبراهيم الشمسان، حروف الجر: دلالاتها وعلاقاتها، ط١، مطبعة المدني، جدة، ١٩٧٨م. ص٨ - ٩.

حرف الجر، وفي مقدمة هذه القضايا طبيعة دلالة هذا الحرف، وحدودها وثباتها أو تغيرها، فهل لحرف الجر معنى محدد في الأصل، أو أنه ليس له ذلك، وأن ما يُظَنُّ أنه معنى له إنما هو شيء اكتسبه من السياق؟ وهذا تساؤل يمكن أن يُطرَح بحق دلالات الألفاظ اللغوية عامة، لا بحق دلالة حروف الجر فقط، فدلالات الألفاظ عامة تترجَّحُ في نظر المعنيين -وهذ ما يمثل ثانية القضايا التي يطرحها الشمسان في نصه السابق- بين المعنى الإفرادي المعجمي، والمعنى التركيبي النصي، وأما القضية الثالثة التي يثيرها الشمسان في هذا النص فهي مفهوم مصطلح راج عنده كثيرًا، وهو مصطلح المعنى الوظيفي، أو الاستعمال الوظيفي للعنصر اللغوي، ونبادر إلى القول بأن أهمية الحديث عن مفهوم هذا المصطلح عند الشمسان تكمن في كون حديثه عنه وثيقَ الصلة بما جاءت به اللسانيات الموسعة بتجلياتها المتداخلة والمتكاملة: النصية والوظيفية والتداولية، أي وثيق الصلة بالمعنى النصي، أو المعنى التداولي، وهو ما سنحاول فيما سيأتي التدليل عليه. أما الآن فننصرف إلى النظر في أولى القضايا التي أثارها الشمسان في نصه السابق، وهي المسألة المتعلقة بدلالة حروف الجر بين الإفراد والتركيب.

دلالة الألفاظ بين الإفراد والتركيب

قبل أن نتحدث عمّا إذا كان معنى المفردة اللغوية عامة، وحروف الجر خاصة معنى معجميًّا مفردًا يدركه المرء لدى سماعه المفردة في غير تركيب، أو أنه معنى سياقي تركيبي تكتسبه المفردة في النص من تفاعلها الدلالي مع مختلف دلالات العناصر اللغوية التي تربطها بها علاقة بنيوية نصية، وهو ما ترجحه هذه القراءة، أقول: قبل ذلك لعله

من المفيد في مناقشة ما نحن فيه أن نفرِّق بين الفروض العلمية المنهجية التي لا بد من افتراضها نظريًّا في دراسة الظاهرة اللغوية، وبين الواقع اللغوي، أو الحال العملية للغة، فمن المسلم به نظريًّا أن الكلمات في أصل وضع الإنسان لها في أية لغة من اللغات كانت ذات معان إفرادية، وهو ما يسمى بالمعنى الوضعي أو المعنى الأصلي، فهذا الافتراض النظري مطلوب منهجيًّا، ومقنع علميًّا وعقليًّا، وذلك في ضوء ربط الألفاظ بوظيفتها المتمثلة بكونها رموزًا للتعبير عن أشياء أو معان محددة، وعاها الإنسان مقترنة برموزها الصوتية التي تشكل ما يعرف بالكلمات، على أنَّ هذا الافتراض أكثرُ ما ينطبق على مرحلة موغِلة في القدم من حياة اللغات عامة، والعربية خاصة، مرحلةٍ لا تمثلها بالدقة العلمية المطلوبةِ المدونة اللغوية العربية التي نعتمدها في دراسة دلالة مفردات هذه اللغة، فتحديد المعنى الأصلي أو الوضعي لمفردات اللغة عملٌ غير قابل للإنجاز العلمي، لذلك ثار بعض اللغويين على الفكرة القائلة بأن للكلمة معنى أساسيًّا ومحددًا[(١)]، ولذلك أيضًا وَصفَ ستيفن أولمان المعنى الأصلي للكلمة بالخرافة[(٢)].

على أن القول بمعنى أصلي للكلمة بحد ذاته إقرارٌ عملي بتعدد معاني الكلمة الواحدة فيما بعد، حتى بات القول بندرة وجود كلمات وحيدة الدلالة أمرًا مطروحًا ومقبولًا[(٣)]، شأنه في ذلك شأن القول بأنه

---

(١) انظر: ستيفن أولمان، دور الكلمة في اللغة، تر. كمال بشر، ط ١٢، دار غريب، القاهرة، ص٢٥٢.

(٢) انظر: ستيفن أولمان، دور الكلمة في اللغة، ص٢٥٢.

(٣) انظر: كلماير وآخرون، أساسيات علم لغة النص، تر. سعيد حسن بحيري، ط١، مكتبة زهرة الشرق، القاهرة، ٢٠٠٩، ص ١٦٤.

لا معنى للكلمة خارج النص، وأن معرفة معنى الكلمة مشروطةٌ بمعرفة سياق استعمالها، وهو ما يعرف عند علماء لغة النص بتنصيص الكلمة حتى يعرف معناها، ف"معرفة المعنى المعجمي لوحدة معجمية مفردة يمكن أن ترجع إلى معرفة إمكانات استخدامها (إمكانات إلحاقها) في نصوص، أي: إلى معرفة معانيها النصية إجمالاً، ولا تكون الوحدات المعجمية قابلة للاستقلال، ومن ثم لجعلها معجمية إلا لأنها ترِدُ في نصوص مختلفة"(١)كما يرى النصّيون الذين يرون أيضًا أن للوحدات المعجمية... معاني معجمية، ومعاني نصية، وأن المعنى المعجمي للوحدة هو في النهاية إحالة مفترضة، أما معناها النصي فهو تحقيق فعلي لذاك المعنى الافتراضي، ويمكن أن يحدد المعنى المعجمي المُفترَض لوحدة ما بأنه مجموع معانيها الفعلية، ويُحَدَّد طبقًا لذلك كلُّ معنى من معانيها الفعلية النصية بأنه جعلُ الافتراض فيه ذا فائدة اتصالية خاصة(٢)وكل ذلك يجعلنا نرجح أن المعوَّل عليه في تحديد معاني مفردات اللغة هو سياقات استعمالها، وليس المعجمات ما لم تكن هذه الأخيرة مؤيَّدة بالاستعمالات النصية لهذه المعاني.

فالراجح عمليًا في ضوء ما تَقَدَّمَ أن الإنسان إنما يكتسب الألفاظ منذ طفولته مصحوبة بمعانيها في سياق استعمالها، فالطفل لا يستقبل في أول أمره اللغة في صورة المعجم بل "يسمع نصوصًا، ويعني هذا أنه يجب عليه أن يتفاعل في أول الأمر مع معان سياقية، وفي العادة تضم نصوصًا توجِّه إلى الطفل مباشرة - على الأقل في المرحلة الأولى لتعلم

(١) كلماير وآخرون، أساسيات علم لغة النص، ص ٢٠١. وانظر: ١٤٧.
(٢) كلماير وآخرون، أساسيات علم لغة النص، ص ١٨٥.

اللغة- عددًا محدودًا من الوحدات المعجمية، يمكن أن يدركه الطفل، بل لا تضم في الغالب إلا وحدة واحدة، ولذلك يحدِّد معاني هذه الوحداتِ. . .الموقفُ في المقام الأول. . .فالطفل يستوعب معانيها النصية من سياق الموقف، ويتطلع إلى أن يعيد استخدام الوحدات المعجمية المُتَعَلَّمَة في مواقف مماثلة"[(١)]

والراجح عمليًّا أيضًا في الأعم الأغلب أن ما تشحن به الكلمات من معان ليس شيئًا قارًّا فيها بقدر ما هو شيء تكتسبه من السياق نتيجة تفاعلها الدلالي مع سائر العناصر اللغوية التي تشاركها في تكوين النص، ففي اللحظة التي تُنَصَّصُ فيها وحدة معجمية معينة كما يقال تحصل هذه الوحدة. . . بالنظر إلى جيرانها في النص على وضع سياقي، يُفْتَرَضُ أنه يصدر عنه تأثيرٌ تحديدي، ذلك أن هذه الوحدات المتجاورة تؤكد في العادة. . .أنها وحدات متعددة المعاني. . .لا تخضع للتحويل إلى معنى مفرد إلا في النص، أي في سياقاتها، وبعبارة أخرى لا تَعْرِفُ الوحداتُ المعجميةُ مع تنصيصها تحديدًا فقط، بل تُؤَثِّر هي ذاتها في وحدات معجمية أخرى مجدَّدًا أيضًا، وبذلك تخضع مكونات، أيِّ نصٍّ من الناحية الدلالية لتحديد متبادل"[(٢)].

ولعل في الوقوف على معاني الفعل (أخذ) ما يؤيد ويوضح العلاقة الدلالية التفاعلية المسؤولة عن تحديد المعاني النصية للمفردات التي تختلف دلالتها باختلاف طبيعة ما ترتبط به في النص، فمعاني هذا الفعل

---

(١) كلماير وآخرون، أساسيات علم لغة النص، ص ١٨٨.

(٢) كلماير وآخرون، أساسيات علم لغة النص، ص١٧٧.

مثلاً تختلف باختلاف طبيعة ما يرتبط به من فاعل، ومفعول وغيرهما، فأخذ الشيءَ.. حازه، وحصَّله.. وتناوله.. وأخذ القاضي المتَّهَمَ حبسه.. أو عاقبه.. وأخذ الله فلانًا أماته، وأخذ الجيشُ جنودَ الخصم أسرهم، وأخذ أخْذَ فلانٍ تخلق بأخلاقه، وسار سيرته، وأخذ يفعل كذا، بدأ، أو صار(١). وسنلاحظ فيما سيأتي الدورَ الأساسي الذي تؤديه حروف الجر في تنوع معاني هذا الفعل وغيره، على أن ما يعنينا الآن تأكيد وتوضيح دور العلاقة التفاعلية الدلالية بين مختلف العناصر اللغوية النصية المسؤولة **عن إنتاج دلالة ليس من الدقة نسبتها إلى أحد هذه العناصر مفردًا كان أو مركبًا**، ولعل هذه المقولة تسهم في حل ما اسْتُشْكِلَ في التحليل الدلالي لمعاني حروف الجر عامة كما سنرى، ومن هذا القبيل قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [الشورى: ٢٥] فقد قيل: إن(عن)هنا جاءت بمعنى (من) والمعنى: يقبل التوبة من عباده(٢)، والراجح أن التفاعل الدلالي بين الفعل (يقبل) ومفعوله (التوبة) أنتج معنى التجاوز عن ذنوب العبد، لذلك جيء بحرف الجر(عن) لأن التجاوز أو المجاوزة معنى أساسي من معاني هذا الحرف. وقد يكون من تبعات التفاعل الدلالي بين عناصر التركيب ما يراه الشمسان(٣) من دلالة التركيب (هل لك) في قوله

(١) انظر: اللسان (أخذ) والوسيط (أخذ).

(٢) انظر: الهروي، الأزهية في علم الحروف، تح. عبد المعين الملوحي، ط٢، مجمع دمشق، ١٩٨٢، ص ٢٧٨.

(٣) انظر: أبو أوس إبراهيم الشمسان، قضايا التعدي واللزوم، ط١، دار المدني، جدة، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧، ص ١٧٠.

تعالى: ﴿فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾﴾ [النَّازعَات: ١٨] على معنى (أدعوك) وكأنَّ مجيء حرف الجر (إلى) بعد ذلك التركيب هو الذي جعله دالا على هذا المعنى.

ولمعترض أن يعترض على ترجيح كون معنى المفردة معنى نصيًّا تركيبيًّا في المقام الأوّل بما يتبادر إلى ذهن السامع من معنى إفرادي لدى سماعه مفردة ما من لغة يعرفها، كأن يتبادر إلى ذهنه صورةُ الجبل أو معناه عند سماعه هذه اللفظة، ولعل الجواب عن ذلك يكمن في أن هذا التلازم بين الصورة السمعية (الدال) والمدلول الذي تحيل إليه في الذهن إنما يكون في أكثر الكلمات استعمالاً في تجربتنا الحياتية بمعان محددة، فكلمة العين مثلاً أولُ ما يتبادر إلى أذهاننا لدى سماعها العضوُ المبصِرُ مع علمنا بأن للعين معاني أخر كالينبوع، والمُخْبِر، والوجيه، وغير ذلك، فكثرة استعمال الكلمة بمعنى ما في تجاربنا الشخصية تجعل مدلولها هو الأسبق حضورًا إلى أذهاننا لدى سماعنا لها، وهذا يتفق وما يشي به تفسير الشمسان لما يبقى لحروف الجر في الذهن من دلالات عامة، فهذه الحروف - كما يقول - "لها معان وظيفية تظهر في السياق، وتنفك عنها إذا خرجت من السياق، إلا ما يبقى لهذه الحروف من دلالة عامة مبهمة كدلالة (إلى) على الاتجاه، و(على) على الاستعلاء، ولكن هذه الدلالات التي قد تُلْمح في هذه الحروف مجردة من سياقاتها لا يمكن أن تخطر على الذهن إلا مُسْتَصْحِبَة سياقات مألوفة، أي إن الحروف التصقت بدلالاتها الوظيفية بعد استخدامها متلازمة معها تلازمًا يُسْتَصْحَبُ في الذهن بعد فك التلازم"[(١)].

---

(١) أبو أوس إبراهيم الشمسان، حروف الجر، ص٩.

وما رجحناه من نصّية دلالات المفردة أو اللفظ في اللغة أشدُّ ما ينطبق على الأدوات، أو ما يعرف بحروف المعاني في اللغة العربية، ولا سيّما حروف الجر، وهو ما يوضحه ويؤكده تعريف بعض السلف للحرف بأنه ما دل على معنى في غيره[١]، فهذا التعريف يعنى أمرين: أولهما أن الحرف لا معنى له ما لم يكن في علاقة تركيبية مع عنصر آخر من عناصر جملة، والآخر أن حروف الجر خاصة تسهم بالفعل في إظهار المعاني المختلفة الكامنة بالقوة فيما تدخل عليه من أسماء، وما يسبقها من أفعال، فحرف الجر هو ما يكسب مثلاً الاسم الذي يجره معنى الظرفية في قولنا: (في الحقيقة) وهو ما يجعل الاسم علة للحدث في (جئت للعلم) أو أداة له في (كتبت بالقلم)، بل هو الذي يحدد طبيعة معاني بعض الأفعال التي كثيرًا ما تتعدد معانيها بتعدد ما يتصل بها من حروف الجر، فالفعل (أخذ)[٢] مثلاً تتعدد معانيه بتعدد ما يرتبط به من حروف الجر، فأخذ فلان فلانًا بذنبه عاقبه، وأخذ بالرأي اعتقده، وآمن به، وأخذ برأس فلان أمسكه، وأخذ على يده منعه من فعل أمرٍ ما، وأخذ على فمه منعه من الكلام، وأخذ عليه كذا عابه عليه، وأخذ في الأمر بدأ به، وهكذا يتضح أن في الأفعال معاني مختلفة كامنة بالقوة، كثيرًا ما تسهم حروف الجر في إظهارها بالفعل، فالفعل كما

---

(١) قال الزجاجي في الإيضاح في علل النحو، تح. مازن المبارك، ط٣، دار النفائس، بيروت، ١٩٧٧: "الحرف ما دل على معنى في غيره . . . (مِن) تدخل في الكلام للتبعيض، فهي تدل على تبعيض غيرها، لا على تبعيض نفسها، وكذلك إذا كانت لابتداء الغاية كانت غاية غيرها... وكذلك (إلى) تدل على المنتهى، فهي تدل على منتهى غيرها".

(٢) انظر: اللسان (أخذ) والوسيط (أخذ).

يقال: قد يتعدى بعدة حروف من حروف الجر على مقدار المعنى المراد منه، لأن هذه المعاني كامنة فيه، وإنما يثيرها، ويظهرها حروف الجر[١]، ولذا قيل: "إن معنى حرف الجر الذي يتعدى به الفعل إنما هو سمة من السمات الدلالية المكوِّنة لدلالة الفعل"[٢]، وكل ذلك يعني أن الوظيفة الدلالية لأحرف الجر لا تقتصر على أن الإفضاء بمعاني الأفعال إلى الأسماء، وذلك خلاف لما قد يوهم به كلام النحاة هذه البابة[٣].

وبعد ففي ضوء ما رجحناه من نصية دلالة المفردات اللغوية، ولا سيما حروف الجر سنتفاعل مع ما أثاره الشمسان من قضايا تتعلق بطبيعة معاني هذه الحروف بين الأحادية والتعددية في كتابه (حروف الجر، دلالاتها وعلاقاتها) وقبل ذلك لا بد من النظر في أمر ذي صلة بما نحن فيه عند الرجل، وهو ما سماه بالمعنى الوظيفي للعنصر اللغوي، أو الاستخدام الوظيفي للغة، فماذا يعني بهذا المصطلح؟ هذا ما سنحاول الإجابة عنه في الفقرة التالية.

الاستخدام الوظيفي للغة عند الشمسان

عُنِيَ الشمسان بما عرف لديه بالمعاني الوظيفية للعناصر اللغوية، أو

---

(١) انظر: صلاح الدين الزعبلاوي، مسالك القول في النقد اللغوي، ط١، دمشق، ١٩٨٤م، ص٢٩.

(٢) عقيل بن حامد الزماي الشمري، ومنصور بن مبارك ميغري (محرران)،التصورات الشعبية عن اللغة العربية، ط١،الرياض ١٤٣٨، - ٢٠١٧، ص١٧٦.

(٣) ومن هذا القبيل قول الزمخشري مبينا سبب تسمية حروف الجر بحروف الإضافة في (المفصل ص٢٨٣): "سُمِّيَتْ بذلك لأن وضعها على أن تفضي بمعاني الأفعال إلى الأسماء" وعلى ذلك نص أيضا ابن يعيش في (شرح المفصل ٨/ ٧).

بالاستخدام الوظيفي للغة، واللافت أنه عرض غير مرة لهذا الضرب من المعاني، أو هذا الضرب من الاستخدام للغة في كتابيه (قضايا التعدي واللزوم في الدرس النحوي)[١]، و(حروف الجر دلالاتها وعلاقاتها) الصادرين عام ١٩٨٧، بل بنى على أساس من هذا المفهوم للاستعمال اللغوي ثاني هذين الكتابين، فقصر فصله الأول الموسوم بـ(دلالات حروف الجر) على الحديث عن المعاني الوظيفية لهذه الحروف، فقال "أما الفصل الأول فهو للمعاني الوظيفية التي اكتسبتها الحروف في السياقات المختلفة"[٢].

وعلى أهمية مفهوم مصطلح المعنى الوظيفي أو الاستخدام الوظيفي للغة في بنية هذا الكتاب لم يحظ فيه بما يحتاج إليه من التوضيح، فقد ذُكر هذا المصطلح فيه ثلاث مرات، ذكرنا إحداها قبل قليل، وأما الثانية ففي حديث المؤلف عن طبيعة معاني حروف الجر حيث قال: "المعجم في الغالب ليس له عمل في هذه الحروف، وما هو على شاكلتها من الأدوات التي ينحصر معناها في قيمتها الوظيفية ودلالاتها التي تكتسبها في السياق، فالحروف لها معان وظيفية تظهر في السياق، وتنفك عنها إذا خرجت من السياق"[٣] ففي هذا النص يشير الشمسان إلى الاستعمال الوظيفي للعنصر اللغوي، ولكنها إشارة مجملة، لا تجلو بوضوح مراده بهذا المصطلح. ومما يقدم شيئًا من التحديد لمفهومه لهذا المصطلح في

(١) انظر: أبو أوس، إبراهيم الشمسان، قضايا التعدي واللزوم في الدرس النحوي، ط١، دار المدني، جدة، ١٩٨٧م، ص١٧٠.
(٢) أبو أوس إبراهيم الشمسان، حروف الجر دلالاتها وعلاقاتها، ص ٩.
(٣) أبو أوس إبراهيم الشمسان، حروف الجر دلالاتها وعلاقاتها، ص ٨ - ٩.

هذا الكتاب ما في حديثه عن معاني الباء الجارة حيث أيَّد المالقيَّ فيما ذهب إليه من دلالتها على التشبيه في نحو قولهم: (لقيتُ به الأسدَ، وواجهتُ به الهلالَ) يقول الشمسان: "الحقُّ أن المالقي مصيب من حيث دلالة مثل هذا التركيب على التشبيه، ولكن هذا هو المعنى الوظيفي الظاهر. أما المعنى الأساسي، أو لعله ما يكون أساسيًّا ما نجده عند أبي حيان، وتلميذه المرادي. قال المرادي: وأما الباء في (لقيت به الأسد، وواجهت به الهلال) فهي عند التحقيق باء السببية، والمعنى لقيت بسبب لقيه الأسد، وواجهت بسبب مواجهته الهلال"[1]، فالشمسان هنا يفرق بين المعنى الأساسي الذي تفيده مكونات التركيب المعجمية والصرفية والنحوية، وهو عنده هنا كون رؤيتنا للمجرور بالباء سببًا لرؤيتنا القمر، وذلك على سبيل المجاز، وبين ما أسماه بالمعنى الوظيفي، أو ما يمكن تسميته بمعنى المعنى، أو بالمعنى التداولي كما سنلاحظ، وهو تشبيه الرجلِ المرئيِّ بالأسد شجاعة، وبالهلال جمالًا.

والجدير بالذكر أن هذا النص يقدم شيئًا من التوضيح الإجرائي التطبيقي لما عرف عند الشمسان بالمعنى الوظيفي، أو الاستعمال الوظيفي للغة، ولعل عدمَ حرص المؤلف على التأصيل المرجعي أو التنظيري لمفهوم هذا المصطلح مَعْلَمٌ من معالم حاجة كتاب (حروف الجر دلالاتها وعلاقاتها) إلى قدر أكثر من التأطير أو التأصيل النظري

(١) أبو أوس إبراهيم الشمسان، حروف الجر، ص ٢٣، وانظر: المالقي، رصف المباني في شرح حروف المعاني، تح. أحمد محمد الخراط، ط. مجمع دمشق، ١٩٧٥، ص١٤٧، والمرادي، الجنى الداني، تح. فخر الدين قباوة، ومحمد نديم فاضل، ط٢، دار الآفاق الجديدة بيروت ١٩٨٣، ، ص٤٨.

الذي يقوم عليه، فالمصطلح الذي نحن بصدد الحديث عنه على أهميته في بنية الكتاب الذي بين أيدينا لم يحظ فيه بما يحتاج إليه من التوضيح مع أنه مصطلح مغرق في الخصوصية، أو هكذا يفهم على الأقل من عدم ذكر صاحبه لما يُفِيد أن أحدًا غيره استعمله من قبل، والذي يؤكد هذا الذي نراه من غموض في مفهوم هذا المصطلح في الكتاب الذي بين أيدينا على الأقل حرصُ صاحبه بعد ثلاث سنوات على تحرير مفهوم هذا المصطلح، وذلك في بحثه المنشور سنة ١٩٩٠م، والموسوم بـ(جوانب من الاستخدام الوظيفي للغة)[(١)] فقد استهل هذا البحثَ بالتفريق بين المعنى الإفرادي المعجمي للمفردة، ومعناها الوظيفي الذي لا يستفاد من المعجم، بل من الاستعمال السياقي للمفردة موضحًا أن معاني حروف الجر تنتمي إلى ثاني هذين الضربين من المعاني، يقول الشمسان "أبأبو عثمان الأبأما النحويون بعد ذلك فقالوا: إن الحرف هو الذي ليس له معنى في نفسه، ولكن له معنى في غيره، ومفاد هذا أن الحرف ليس له معنى معجمي، ولكنه يكتسب معناه من السياق الذي يوضع فيه، أي إن له دلالة وظيفية في السياق، وهي دلالة مرهونة بوجوده في السياق، فحروف الجر على سبيل المثال لا تفيد دلالة معجمية، ولكنها ذات قيمة وظيفية في الجملة، إذ هي تُسْتَخْدَم استخدامًا وظيفيًا، ويباين هذا الاستخدامُ الوظيفيُّ للحروف استخدامَ

(١) نشر في (المجلة العربية للعلوم الإنسانية)، جامعة الكويت، ١٩٩٠م، ع٣٧، مج ١٠، ص ص ٣٢ - ٦٥. ثم نشر مرة أخرى بعد تنقيح بعنوان (الاستعمال الوظيفي للغة) في كتاب (جدلية الملفوظ والمحفوظ)، مركز حمد الجاسر الثقافي، الرياض، ٢٠٠٩م، ص ص ١٥ - ٧٨.

الأسماء والأفعال، فتلك حينما تستخدم في الجملة إنما تَجْتَلِبُ معنى معجميًا يفهم منها، وهي خارج السياق. وعلاقة اللفظ بمعناه قد تكون علاقة اعتباطية لا مفسِّر لها، وقد تكون علاقة اشتقاقية في تلك الألفاظ التي تولدت وأُخِذَت من غيرها. هذه الدلالة المعجمية هي دلالة حقيقية على معانيها"(١).

واللافت في هذا النص جعلُ الشمسان لمعاني حروف الجر كلها معاني وظيفية، أو من قبيل الاستخدام الوظيفي للغة، وهذا ما يؤيده ويوضحه قسمته فيما بعد معاني العناصر اللغوية إلى ثلاثة أقسام "١- الاستخدام المعجمي الذي يستحضر المعنى المعجمي، أي الدلالة الحقيقية ٢- الاستخدام المجازي الذي يستحضر المعنى المجازي الذي هو فرع على الأول مقرونًا بالمناسبة بينهما. ٣- الاستخدام الوظيفي، وهو استخدام القسم الثالث من أقسام الكلام، وهي الحروف، فالحروف لا يقال عنها: إنها ذات دلالة حقيقية أو مجازية، فلا مدخل للمجاز فيها، لأن وضْعَها على أن تدل على معان في غيرها، فلابد من اعتبار الغير في دلالتها"(٢).

واضح في هذا النقل وسابقه أن معاني الحروف عامة عند الشمسان، أي حروف المعاني ولا سيما حروف الجر معان وظيفية، وهو ما يباين في الظاهر على الأقل ما نقف عليه في الكتاب الذي خصص فصله

(١) أبو أوس إبراهيم الشمسان، جوانب من الاستخدام الوظيفي للغة، المجلة العربية للعلوم الإنسانية، ص ٣٥.

(٢) أبو أوس إبراهيم الشمسان، جوانب من الاستخدام الوظيفي للغة، المجلة العربية للعلوم الإنسانية، ص ٣٦.

الأول للمعاني الوظيفية التي اكتسبتها الحروف في السياقات المختلفة، كما خصص فصله الثاني لما ليس وظيفيا من معاني حروف الجر[١]. فتخصيص الشمسان في كتابه هذا لفصل خاص بالمعاني الوظيفية لحروف الجر، وفصل لما ليس من المعاني الوظيفية لهذه الحروف يباين ما لاحظناه قبل قليل من تأكيده وظيفية معاني حروف الجر عامة، وهو تباين يُتَفَهَّمُ في ضوء ما هو مألوف من تطور آراء الباحث في مسيرته العلمية عامة، وفي ضوء ما لاحظناه قبلاً من غموضٍ أو عدمِ اتضاح مفهوم المعنى الوظيفي للعنصر اللغوي عند الشمسان في كتابه (حروف الجر)؛ لذلك نراه شديد الحرص على توضيح مفهوم هذا المصطلح توضيحًا يشي بنضج مفهومه عنده في البحث الذي خصصه للاستخدام الوظيفي للغة، حيث يقول "أما المعنى الوظيفي الذي نعنيه فليس هذا المعنى السياقي المؤقت، بل هو المعنى العملي الذي يفهم من ظاهر اللفظ أو التركيب بمعزل عن أصل اللفظ أو التركيب، ذلك الأصل الذي كان سببًا في اللفظ أول مرة، ثم نُسِيَ أو غُفِلَ عنه بعد ذلك، كاستخدام لفظ (حنش) عَلَمًا على رجل، فالمستخدِم العادي في موقف عادي لا يخطر بباله المعنى المستكره للاسم لأنه يستخدم اللفظ استخدامًا وظيفيًّا، وهو استحضار صورة صاحب هذا العَلَم إلى الذهن، ومن هنا ليس بغريب أن تفخر عائلة مثل السكران باسمها"[٢]، وهكذا يستمر[٣]

(١) انظر: أبو أوس إبراهيم الشمسان، حروف الجر، ص ٨.

(٢) أبو أوس إبراهيم الشمسان، جوانب من الاستخدام الوظيفي للغة، المجلة العربية للعلوم الإنسانية، ص ٦٠. ح١٠.

(٣) انظر: أبو أوس إبراهيم الشمسان، جوانب من الاستخدام الوظيفي للغة، المجلة العربية للعلوم الإنسانية، ص ٣٨، ٤٦ - ٤٨، ٥٧.

الشمسان بحرص على تحديد مراده بمصطلح المعنى الوظيفي للعنصر اللغوي، أو الاستخدام الوظيفي للغة، وهو حرص يشي بأنه مفهوم مصطلحي له من الخصوصية الشخصية الاجتهادية ما حمل صاحبه على النأي به ما أمكن عن مقولات اللسانيات الموسعة ممثلة بالنصية، والتداولية والوظيفية. فما علاقة هذا المفهوم بما جاءت به اللسانيات الموسعة؟ هذا ما سنحاول الإجابة عنه في الفقرة الآتية؟

آلمعنى الوظيفي، أم المعنى التداولي؟

يلاحظ المتابعُ لمفهوم المعنى الوظيفي للعنصر اللغوي عند الشمسان أن ما جاء به في هذه البابة وثيق الصلة بما جاءت به اللسانيات الموسعة، ولا سيما التداولية، ومع ذلك يميز الرجل ما عناه بالاستخدام الوظيفي للعنصر اللغوي عما جاءت به اللسانيات الموسعة، وهو ما يشي به حرصه على توضيح خصوصية مفهوم مصطلح الاستخدام الوظيفي للغة عنده قائلا: "لا نعني بالاستخدام الوظيفي ما يُطْلَقُ عليه في علم الدلالة عند الغرب نظرية السياق، أو نظرية الاستخدام، وإن كان يلتقي معها بعضَ الالتقاء، وإنما نعني به استخدام الأدوات التي لا يكون لها مدلول خارج السياق أو الجملة، وكذلك استخدام تلك الألفاظ أو التراكيب بعيدًا عن معناها المعجمي أو المجازي، أو ما لابسَ تركيبها الأساسي من ملابسات تبين علة الاستخدام الأول. والخلافُ بين الاستخدام الوظيفي ونظرية السياق أو الاستخدام هو أن النظرية تحاول تفسير الألفاظ اعتمادًا على السياق الذي ترد فيه، حيث يتعدد المعنى بتعدد السياقات، ذلك التعدد الذي يفرض ضمائم جديدة تُضَمُّ مع اللفظ، ولكن هذا التعدد في المعنى قد لا يبتعد باللفظ عن معناه

المعجمي، ولكنه قد يعطيه خصوصية من بعد تعميم، وقد يُدْخِل في هذا المعاني المجازية، أمَّا ما نذهب إليه .... فهو ليس المعنى المعجمي، وهو ليس المعنى المجازي الذي يفترض العلاقة بين المجاز والحقيقة، ولكنه معنى سياقي تكون له وظيفة الدال"[(١)] ويضيف الشمسان إن "المعنى الوظيفي المباشر للغة مطلب المتحدث العادي الذي لا يحفل بتحليل اللغة، ولا معرفة أسرار التراكيب.... ولعل ذلك إنما يكثر في جانب اللغة الاتصالي اللصيق بالتعبير عن الحاجات الاجتماعية"[(٢)].

يريد الشمسان بذلك أن المعنى الوظيفي هو المعنى الذي لا يمثله مجموع المعاني المعجمية والصرفية والنحوية للتركيب، بل يمثله ما يقصده المتكلم، ويفهمه المتلقي في سياقات محددة سواء أكانا يدركان أبعاد البنية المعجمية أو الصرفية أو النحوية أو لم يكونا يدركانها، وهذا ما يؤيده قول الشمسان "والسؤال الآن: أخاصٌّ الاستخدام الوظيفي بالحروف، أم يشاركها غيرها؟ والحق أن ذلك ليس خاصًّا بالحروف وحدها، بل هو عام لكل لفظ أو تركيب يستخدمه متكلم اللغة دون وعي بالنظام الداخلي له، أو استخدام اللفظ بعيدًا من أصل معناه المعجمي دون قرينة تشير إلى ذلك الأصل"[(٣)]، لهذا رأى الشمسان كما

(١) أبو أوس إبراهيم الشمسان، جوانب من الاستخدام الوظيفي للغة، المجلة العربية للعلوم الإنسانية، ص ٣٨.

(٢) أبو أوس إبراهيم الشمسان، جوانب من الاستخدام الوظيفي للغة، المجلة العربية للعلوم الإنسانية، ص٥٧.

(٣) أبو أوس إبراهيم الشمسان، جوانب من الاستخدام الوظيفي للغة، المجلة العربية للعلوم الإنسانية، ص٣٦.

لاحظنا أن المعنى الوظيفي لعبارة (هل لك) من قوله تعالى ﴿فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ۝١٨﴾ [النَّازعَات: ١٨] هو معنى جملة (أدعوك)[١].

فالمعنى الوظيفي إذن كما يتراءى عنده ليس محكومًا في الدرجة الأولى بالبنية الصرفية أو المعجمية للتركيب، بل بقصد المتكلم، وبفهم المتلقي له في ضوء منظومة محددة من الأعراف والتقاليد الاجتماعية والسياقية العامة، ومن هذا القبيل عنده المعنى الوظيفي الاجتماعي لعبارات التحية، كـ"الأدعية في الصباح والمساء، نلتقي في الصباح فنتبادل (صباح الخير) تعوَّد كل منا أن يقول ذلك ويسمع، وليس في ذهن أحدنا أن يدعو للآخر بأن يكون صباحه صباحَ خير، فالقضية لا تعدو أن تكون التعبيرَ عن حاجة اتصالية، جسرٍ نمده إلى الآخر، وبالجملة هي مصافحة لغوية قد تنوب عن مصافحة الأيدي، وقد توازيها"[٢] وقد يتمثل المعنى الوظيفي بأن تكون وظيفة التركيب تقريع المخاطب لا تحيته، ومن هذا القبيل عند الشمسان عبارة (إللي اختشوا ماتوا)[٣] فالمعنى الوظيفي لهذه العبارة بغض الطرف عن مناسبة استعمالها الأول، وبغض الطرف عن معرفتنا لمكوناتها المعجمية والصرفية والنحوية إنما هي توبيخ المخاطَب، ووصفه بقلة الحياء. مع أن المعنى السياقي الأول الناجم عن مناسبة إطلاق هذه العبارة بعيدٌ كلَّ

---

(١) انظر: أبو أوس إبراهيم الشمسان، قضايا التعدي واللزوم، ص ١٧٠.

(٢) أبو أوس إبراهيم الشمسان، جوانب من الاستخدام الوظيفي للغة، المجلة العربية للعلوم الإنسانية، ص٤٧.

(٣) أبو أوس إبراهيم الشمسان، جوانب من الاستخدام الوظيفي للغة، المجلة العربية للعلوم الإنسانية، ص٤٦.

البعد عن هذا المعنى[١].

والملاحظ أن المعنى الوظيفي إن صحَّ فهمنا له عند الشمسان وثيق الصلة بما جاءت به التداولية المعنية بعلم استخدام اللغة، فهي عند بعضهم "دراسة اللغة من وجهة نظر وظيفية"[٢] وهي معنية بالأصول التخاطبية المفسِّرة لمقاصد المتكلمين، والمفسرة لآلية فهم المتلقي لهذه المقاصد. وذلك لحرصها على دراسة اللغة في الاستعمال، فمن أبرز مقولاتها كما هو معروف أن المعنى النهائي للتركيب ليس شيئًا متأصلاً في الكلمات وحدها[٣]، بل هو ابن الاستعمال، فمعنى العبارة من الوجهة التداولية رهن استعمالها في سياق ما، وذلك في ضوء قصد المتكلم. والمعاني من هذه الوجهة لا تبدو مستقرة، أو واضحة دائمًا في البنية التركيبية للعبارة، فالمتكلم كثيرًا ما يعنى أكثر مما تقوله كلماته[٤]، لذا عني التداوليون بدراسة المعنى كما يعبر عنه المتكلم... ويؤوله السامع... فالتداولية تهتم بتحليل ما يرمي إليه المتخاطبون من ملفوظاتهم أكثر مما تعنى بما يُحْتَمل أن تعبر عنه الكلمات أو الجمل نفسها[٥] فـ"التداولية دراسة لمقاصد المتكلم" علمًا أن المتكلم لا يتقيد بحرفية اللغة في كثير من الأحيان، وهو ما يجعل المخاطب في حاجة

---

(١) انظر لذلك: أبو أوس إبراهيم الشمسان، الاستعمال الوظيفي للغة، ص ٤٥ - ٤٦.

(٢) محمود أحمد نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، دار المعرفة الجامعية، ٢٠٠٢، ص١٢.

(٣) انظر: محمود أحمد نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص١٤.

(٤) انظر: محمود أحمد نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص ١٢ - ١٣.

(٥) انظر: جواد ختام، التداولية، أصولها واتجاهاتها، ط١، كنوز المعرفة، عمان، ٢٠١٦، ص١٧.

إلى عوامل عديدة أخرى تساعده في فهم حديث المتكلم، ومن هذه العوامل السياق الثقافي والاجتماعي والنفسي، وجملة الاستنتاجات التي يُهْتَدى إليها منطقيًا أو عرفيًّا عن طريق القرائن، والأعراف الاجتماعية التي تجعل من المستساغ أن نقول أحيانًا شيئًا، ونقصد به شيئًا آخر مخالفًا، أو مناقضًا لما يعنيه ظاهر كلامنا.

والملاحظ أن ما قدمه الشمسان من تأصيل نظري لمفهوم مصطلح الاستعمال الوظيفي للغة، ومن النماذج التطبيقية التي حللها في بحثه الرائد المعني بالاستعمال الوظيفي للغة وثيق الصلة بالتداولية مفهومًا ومقاصدَ وميدانَ بحث، فالمعنى الوظيفي عنده كما اتضح من نماذجه التطبيقية لا يعدو أن يكون ضربًا من ضروب المعاني التداولية للعناصر اللغوية.

وما يحسن التنبيه عليه أنه ليس الغرض من المقارنة بين ما جاء به الشمسان في معرض حديثه عن الاستخدام الوظيفي للعنصر اللغوي، وبين ما يُعْرَف بالمعنى التداولي في اللسانيات الموسَّعة أن نبين مدى الأسبقية أو التبعية، بل الغرض من ذلك أمران: أولهما توضيح وتأكيد أن ما جاء به الرجل في معالجته لما أسماه المعنى الوظيفي للعنصر اللغوي تناولٌ علمي واقعي لأداء اللغة لوظيفتها في الاستعمال الحي بمختلف سياقات الحياة وميادينها، وفي ذلك ما فيه من تنازل مطلوب[(١)]

(١) يأخذ بعض الدارسين على البلاغة العربية عدم عنايتها بخطابات الحياة اليومية، أو الشعبية، وعنايتها فقط بالنصوص الرفيعة الرسمية الخاصة أو الأدبية ونحوها. انظر: عقيل بن حامد الزماي الشمري، ومنصور بن مبارك ميغري (محرران)، التصورات الشعبية عن اللغة العربية، ط١، الرياض، ١٤٣٨ - ٢٠١٧، ص١٢٤ - ١٢٥.

من الدرس اللغوي عن رسميته أو انتقائيته في دراسة المدونة اللغوية العربية، وأما الأمر الثاني فهو أيضًا توكيد وتوضيح ما سبق أن رجحناه من أن معاني العناصر اللغوية مفرداتٍ وتراكيب في الأعم الأغلب معان تركيبية نصية في المقام الأول، **لذا لا يصح في كثير من الأحيان نسبتها إلى عنصر لغوي دون غيره، سواء أكان في حالة الإفراد أو التركيب،** وهو ما سننظر من خلاله فيما يلي إلى ما قاله الشمسان في معالجته لمعاني حروف الجر، وما أثاره في خلال ذلك من قضايا الدلالة والنحو ولا سيما التضمين النحوي البلاغي.

معاني حروف الجر عند الشمسان

الملاحظ أن الشمسان في كتابه (حروف الجر: دلالاتها وعلاقاتها) يعبر عن مواقفه تجاه ما هو فيه إجرائيًّا أكثر مما يعبر عنها نظريًّا أو تنظيريًّا، ولعل هذا يفسر عدم حرصه على استخلاص النتائج التي يمكن أن تستخلص من فصلي الكتاب معًا، أو كلًّا على حدة، فالفصل عنده يبدأ بشيء من العرض النظري الذي يومئ بإجمال إلى بعض المقولات النظرية المطروحة لدى المعنيين بمعاني حروف الجر، وينتهي من العرض التطبيقي بلا حرص على إجمال ما يمكن أن يستخلص من مقولات نظرية تُعْتَمد في التحليل الدلالي لمعاني هذه الحروف، وأهمية استخلاص هذه المقولات، أو أهمية التأصيل النظري في تناول معاني حروف الجر في كتاب، خُصِّصَ لها تكمن في أننا مع مسألة اختلفت الآراء فيها اختلافا يستوجب من المعنيِّ بهذه القضية أن يبين تجاهها نظريًّا وتنظيريًّا موقفًا محددًا واضحًا ومعللاً، وهذا ما لم يكن على درجة من الكفاية لدى الشمسان في هذا الكتاب، على أن ذلك لا يعني أنْ

ليس للرجل رأي في هذه البابة، بل يعني أن تعبيره عن المقولة الأساسية التي يصدر عنها في معالجته لما هو فيه كان في الأعم الأغلب تعبيرًا إجرائيًّا تطبيقيًّا يتطلب من المعنيِّ بهذه المقولة أحيانًا أن يكتنهها من ثنايا التناول التطبيقي، وهو ما سنعنى به فيما يأتي.

بهدي المقدمة

ختم الشمسان مقدمة كتابه (حروف الجر، دلالاتها وعلاقاتها) كما لاحظنا بالتفريق بين ضربين من معاني حروف الجر، فجعل بعض هذه المعاني وظيفية، على تعددها أحيانًا، وهي عنده[(١)] الدلالة أو الدلالات الأساسية للحرف مثل دلالة (إلى) على الاتجاه، و(على) على الاستعلاء و(عن) على المجاوزة، و(في) على الظرفية، أي هي المعاني التي شُهِرَتْ أو عُرِفَتْ بدلالة الحرف عليها أكثرَ من دلالته على غيرها، وأكثر من دلالة أي حرف آخر عليها في المدونة اللغوية، وهذه المعاني هي ما يعرف بالمعنى الوظيفي أو الاستخدام الوظيفي للغة عند الشمسان، فحروف الجر عنده لها معان وظيفية تظهر في السياق، وتنفك عنها إذا خرجت منه، وقد عني في الفصل الأول بهذا الضرب من معاني حروف الجر[(٢)].

أما الضرب الثاني من المعاني التي يراها الشمسان لحروف الجر في هذا الكتاب فهو المعاني التي تكتسبها الحروف من تلازم جديد يضمها وعناصرَ لغوية أخرى، تلازمٌ لم يكن مألوفًا من قبل، فيكون الاستخدام

(١) انظر: أبو أوس إبراهيم الشمسان، قضايا التعدي واللزوم، ص ١٧٠.
(٢) انظر: أبو أوس إبراهيم الشمسان، قضايا التعدي واللزوم، ص٩

قد خرج إلى دائرة المجاز، أو جاء الحرف نائبًا عن غيره في تقدير بعض النحويين كما يقول الشمسان الذي خصَّص لهذا الضرب من معاني حروف الجر الفصل الثاني من كتابه هذا(١). وسنحاول فيما يأتي توضيح ما يريده الشمسان بهذين الضربين من المعاني التي يراها لحروف الجر من خلال النظر فيما جاء لديه في فصلي كتابه اللذين خصص كل واحد منهما لضرب دون غيره من معاني حروف الجر.

الفصل الأول: (دلالات حروف الجر)

عرض الشمسان في هذا الفصل لأكثر المعاني شهرة في استعمال سبعة من حروف الجر، وهي (إلى- الباء- على- عن - في- اللام- من) فكان يبدأ الحديث عن المعاني الوظيفية لهذا الحرف أو ذاك بالمعنى الأكثر شهرة في استعمال الحرف، كدلالة (إلى) على انتهاء الغاية، ودلالة الباء على التعدية والإلصاق والاستعانة، ودلالة (على) على الاستعلاء، و(عن) على المجاوزة، وقد تراوح ما أسماه الشمسان بالمعاني الوظيفية لهذه الحروف بين المعنى الواحد(٢) كما في حديثه عن (إلى) و(على) والخمسة عشر، كما في الحديث عن معاني اللام. وأما المعاني التي تنسب إلى حروف الجر، ولكنها ليست مما أسماه معنى وظيفيًّا، فينبه على أنه سيعرض لها في الفصل الثاني من الكتاب(٣) أي فصل (علاقات حروف الجر).

---

(١) انظر: أبو أوس إبراهيم الشمسان، قضايا التعدي واللزوم، ص٩

(٢) أقول: معنى واحد، لأن المعنى الثاني الذي ذكر هنا لـ(إلى) و(على) وهو الزيادة ليس من معاني الأدوات.

(٣) انظر: أبو أوس إبراهيم الشمسان، حروف الجر، ص ١٢، ٣٤، ٣٧، ٤٠، ٤٥.

والظاهر أن مراد الشمسان بالمعاني الوظيفية التي نسبها إلى حروف الجر في هذا الفصل أمران: أولهما أن هذا المعنى يشتهر به حرف الجر أكثر من حروف الجر الأخرى، حتى كأنه يستبد بهذا المعنى دون تلك الحروف، وإذا ما دل غيرُه على هذا المعنى يكون داخلاً عليه في ذلك، والثاني أن دلالة الحرف على ما سُمِّيَ معنى وظيفيًا يجب ألا يشاركها في ذلك دلالته عليه معنى آخر، في السياق نفسه، وهذا ما يفهم من حديث الشمسان عن دلالة الباء على التعدية، فقد خالف النحاةَ في ذلك معلِّلاً مخالفته بعدم توافر الأمرين اللذين ذكرناهما في دلالة الباء على هذا المعنى، يقول الشمسان "قال المالقي: إذا كان الفعل لا يتعدى فأدخلتَها صار يتعدى، نحو قوله: قام زيد، فهذا لا يتعدى، ثم تقول: قام زيد بعمرو، فيصير يتعدى"[١]. ثم ردَّ الشمسان دلالة الباء على التعدية قائلا: "الحق أن التعدية لا تُعَدُّ من معاني الباء، وذلك لأمرين: الأول أنها لا تستبد بهذا المعنى دون غيرها من حروف الجر، والثاني أن التعدية يصاحبها معنى للباء آخرُ، ففي (قام زيد بعمرو) المصاحبة هنا هي معنى الباء"[٢].

الفصل الثاني: علاقات حروف الجر

يقوم هذا الفصل على بيان طبيعة العلاقة الدلالية بين حروف الجر نفسها، وقد تمثلت هذه الطبيعة في رؤية الشمسان بعلاقتين: علاقة ائتلاف، وعلاقة اختلاف، وصفها الشمسان الثانية بأنها "قضية تأتي في

(١) أبو أوس إبراهيم الشمسان، حروف الجر، ص ١٤، وانظر: المالقي، رصف المباني، ص ١٤٣.

(٢) أبو أوس إبراهيم الشمسان، حروف الجر، ص١٤.

نحو عارض في الكتب النحوية، ولا يدرجونها في دراسة معاني حروف الجر على نحو بارز، ومثلُ هذا اختلاف الحرف (في) عن الحرف (عن) في اتصال كل منهما بالفعل (رغب) حيث يقال: رغبت في الشيء إذا أردتُه، ورغبت عن الشيء إذا لم أرده"[(١)].

أما علاقة الاتفاق التي رآها الشمسان بين معاني حروف الجر، فهي اتفاق الحرفين في المعنى اتفاقًا يسمح بإحلال أحدهما محل صاحبه مع الدلالة على المعنى نفسه، ورأى أن هذه مسألة خلافية، كان للنحاة فيها ثلاثة[(٢)] مذاهب، أولها أن حروف الجر يأتي بعضها بمعنى بعض، وثانيها إنكار هذه القضية ليس من حيث وجودها، وإنما من حيث تفسيرها، وذلك بِعَدِّ ما جاء منها ليس من دخول الحرف على الحرف، وإنما لعلة أخرى، وهي التضمين، وثالثها القول بإحلال حرف جر مكان آخر، بشرط تقارب المعنى بين الحرفين. ومثَّل الشمسان للرأي الثالث بابن جنى الذي لم ينف احتمال أن يأتي حرف جر بمعنى حرف آخر، ولكنه رأى أن ذلك إنما يكون في سياق دون غيره، يقول في باب (استعمال الحروف بعضها مكان بعض): "هذا باب يتلقاه الناس مغسولاً ساذجًا من الصنعة، وما أبعد الصوابَ عنه... ولسنا ندفع أن يكون ذلك كما قالوا، لكنا نقول: إنه يكون بمعناه في موضع دون موضع، على حسب الأحوال الداعية إليه، والمسوِّغة له، فأما في كل موضع، وعلى كل حال فلا"[(٣)].

(١) أبو أوس إبراهيم الشمسان، حروف الجر، ص٦٥ - ٦٦.
(٢) أبو أوس إبراهيم الشمسان،حروف الجر، ص٦١.
(٣) ابن جني، الخصائص، تح. محمد علي النجار، ط٢، دار الهدى، بيروت، ٣٠٦/٢، ٣٠٧.

والشمسان إجرائيًّا يميل ممال ابن جني في هذه المسألة، وهو ما يؤيده واقع الاستعمال، ويبدو أن النظر إلى العلاقة الدلالية بين حروف الجر في ضوء العلاقات الدلالية بين مختلف مفردات اللغة يُمَكِّنُ من الوقوف على الحقيقة فيما نحن فيه، فالأصل في العلاقات الدلالية بين المفردات اللغوية إنما هو التباين؛ لأن الأصل في الوضع أن يختلف المبنى للاختلاف في المعنى، وذلك لكي تتمكن اللغة من القيام بوظيفة التعبير عن مختلف الأفكار والمعاني، وهو ما نجده من اختلاف بين معاني حروف الجر عامة اختلافًا لا يسمح بإحلال أحدها مكان الآخر بإطلاق، ولكن واقع استعمال مفردات اللغة أفضى إلى وجود ما يعرف بالترادف الذي يسمح باستعمال كلمة مكان أخرى، وهو ما نجده أيضًا في حروف الجر التي يربط أحيانًا بعضها ببعضها الآخر علاقة ترادف تسمح بأن يقال مثلا: أقمت في المكان، كما يقال: أقمت به، ولكن من المؤكد أن مختلف العلاقات الدلالية بين المفردات بما فيها من تباين أو تضاد أو ترادف محكومة بطبيعة العلاقات التركيبية النصية بين مختلف مفردات النص، مما يشي بأن هذه العلاقات نتاج التفاعل الدلالي بين مكونات التركيب، مما يسمح بوجود علاقات تباين دلالي بين حروف الجر، وهو الأصل، ووجود علاقات ترادف بينها، وهو ما يفهم من كلام ابن جني، وهو أيضًا ما اتخذه الشمسان عمليًّا في كتابه (حروف الجر دلالاتها وعلاقاتها) ولا سيما في فصله الثاني الموسوم بـ(علاقات حروف الجر).

فقد استهل الشمسان هذا الفصل بالنص كما أوضحنا على وجود علاقتين بين حروف الجر: الأولى الاتفاق بالمعنى، والثانية الاختلاف.

وقد وضح هذا الذي نص عليه عمليًّا في بيان طبيعة العلاقة الدلالية بين حروف الجر. فمعنى الظرفية مثلاً معنى وظيفي أساسي من معاني (في) أما دلالة الباء على ذلك فمعنى فرعي لها دخلت فيه الباء على (في) يقول "يرى النحويون أنها اكتسبت هذه الدلالة لأنها جاءت بمعنى (في) أي إن هذا المعنى ليس أصلاً فيها، قال المبرد كما تقول فلان في الموضع وبالموضع، فيدخل الباء على (في) ولكنا نحس أن فريقًا آخر لا يذهب هذا المذهب، منهم المرادي. . . وسوف نناقش علاقة الباء بـ(في) في موضعه"[1] ولدى حديثه فيما بعد في الفصل الثاني عن علاقة الباء الدلالية بـ(في) لم يزد على[2] أن وضح بمزيد من النصوص والنقول استعمال الباء بمعنى الظرفية التي شهر في الاستعمال به الحرف (في) دون غيره من حروف الجر. و نص الشمسان مثلا في الفصل الأول على أن ل(إلى) معنى وظيفيًّا واحدًا، شهرت بالدلالة عليه دون غيرها من حروف الجر، وهو انتهاء الغاية، منبهًا على أن لها معاني أخرى، لكنها ليست من معانيها الوظيفية، لأن هذه المعاني شهرت بها حروف أخرى، أو غلبت عليها حروف أخرى، و استعمال (إلى) بأحد هذه المعاني يكون من قبيل دخول (إلى) في ذلك على هذه الحروف في ذلك، ثم يستعرض من الأمثلة ما يدلل به على دخول (إلى) على معان اختصت بها سائر حروف الجر حرفًا حرفًا، فتحت عنوان (إلى وعلاقاتها بالحروف الأخرى) يستعرض علاقة (إلى) بالباء مشيرًا إلى استعمالها

---

(١) أبو أوس إبراهيم الشمسان، حروف الجر، ص٢٨. وانظر: المبرد، المقتضب، تح. محمد عبد الخالق عضيمة، ط، عالم الكتب، بيروت، ٢/ ٣٣١.
(٢) انظر: أبو أوس إبراهيم الشمسان، حروف الجر، ص ٧٥ - ٧٦.

بأحد معانيها، فيقول: "تكون (إلى) مكان الباء... واستشهد الهروي بقول كثير:

ولقد لهوت إلى الكواعب كالدمى بيض الوجوه حديثهن رخيم

أراد لهوت بكواعب"[١]، ثم أشار إلى اتفاق (إلى) و(حتى) في الدلالة على انتهاء الغاية، وإلى مجيئها بمعنى (عند).

ولا يكتفي الشمسان في حديثه عن علاقة حروف الجر الدلالية فيما بينها ببيان مدى اتفاق بعضها مع بعضها الآخر، بل يشير أيضًا إلى ما يختلف فيه الحرفان، كما في حديثه عن علاقة (على) بسائر حروف الجر، فبعد أن أشار إلى استعمالها دالة على أحد معاني (اللام) أشار إلى اختلافهما التضادي، فقال "قال ابن جني في الخصائص ألا تراهم يقولون: هذا لك، وهذا عليك، فتستعمل اللام فيما تؤثره، و(على) فيما تكرهه"[٢].

والملاحظ في حديث الشمسان عن طبيعة معاني حروف الجر، وعن العلاقات الدلالية بين مختلف هذه الحروف الأمور التالية:

أولا: عدم الحديث عن حروف الجر كلها، وكأن المؤلف اكتفى بالحديث عن جمهور هذه الأحرف توضيحًا لمقولته أو نظريته في معالجته لما هو فيه، وتدليلاً على صحة هذه النظرية أو تلك المقولة.

ثانيا: عدم الحرص على تسمية المعنى الذي اسْتُعْمِلَ فيه الحرف

---

(١) أبو أوس إبراهيم الشمسان، حروف الجر، ص٦٦.

(٢) أبو أوس إبراهيم الشمسان، حروف الجر، ص ٨٣. وانظر: ابن جني، الخصائص، ٢/ ٢٧١.

بمعنى حرف آخر تسمية مصطلحية، بل اكتفى كما لاحظنا إجرائيًّا بالتدليل نصيًّا على استعمال الحرف بمعنى حرف آخر، مما يؤكد ما يلاحظ في العمل من التعبير في الأعم الأغلب، عن الرأي تعبيرًا إجرائيًّا عمليًّا، لا تعبيرًا تنظيريًّا.

ثالثا : أن القول بتعدد معاني حرف الجر على نحو يشي بأن للحرف معنى أساسيًّا أو معاني أساسية شُهِر بها وشُهِرَت به دون سائر حروف الجر قول نجده إجرائيًّا على الأقل عند بعض القدماء، ومن هذا القبيل ما نجده مثلا في (الأزهية في علم الحروف) للهروي الذي عرض في أبواب متفرقة من كتابه هذا لمعان أساسية لبعض حروف الجر[١] (على، حتى، مِنْ) ثم عقد فيما بعد[٢] بابًا خاصًّا، وَسَمَه بـ(باب دخول حروف الخفض بعضها مكان بعض) عرض فيه لمجيء حروف الجر لمعان لم يذكرها لدى حديثه عن المعنى الأساسي أو المعاني الأساسية للأحرف التي عرض لها من قبل، و يرى رفيق عبدالحميد بن حمودة[٣] أن النحاة إنما يصدرون في تصورهم لمعاني أحرف الجر على هذا النحو عَمَّا يُعْرَفُ لديهم بمفهوم أم الباب، فـ"الواو مثلا أم باب أدوات العطف الدالة على معنى الجمع، و(في) أم الباب في حروف الجر الدالة على الظرفية"[٤] لذلك يرى النحاة أن حرف جر آخر كالباء مثلاً عندما يدلُّ

(١) انظر: الهروي، الأزهية في علم الحروف، ص١٩٣، ٢١٤، ٢٢٤.

(٢) انظر: الهروي، الأزهية في علم الحروف، ص٢٦٧ - ٢٩٠.

(٣) انظر: عقيل بن حامد الزماي الشمري، ومنصور بن مبارك ميغري (محرران)، التصورات الشعبية عن اللغة العربية، ص ١٩٤ - ١٩٥.

(٤) عقيل بن حامد الزماي الشمري، ومنصور بن مبارك ميغري (محرران)، التصورات الشعبية عن اللغة العربية، ص١٩٥.

على الظرفية إنما يكون في ذلك دالاً على معنى (في) أو داخلاً عليه في دلالته على هذا المعنى.

التضمين من وجهة نصية

التضمين بالمفهوم[١] النحوي البلاغي كما هو معروف أن يدل الفعل أو ما في منزلته على معنى فعل آخر، فيعامل معاملته من حيث التعدية واللزوم[٢]، وهو مما فسَّر به النحاة بعض ما استوقفهم من استعمال الأفعال استعمالاً يخالف ما ألفوه في جمهور المدونة اللغوية العربية في هذا الباب، والذي يعنينا من أمر التضمين فيما نحن فيه هو الوقوف على رأي الشمسان في هذه القضية، وذلك لما لهذا الرأي من أهمية في الدعوة إلى إعادة توصيف وتصنيف، وموضعة هذه الظاهرة في فكرنا النحوي والبلاغي والنقدي.

والملاحظ عمليًّا أن موقفه من التضمين يتجلى في أمرين: أولهما عدم اعتراضه على اعتماد هذه الظاهرة في تخريج ما اسْتُشْكِل من استعمالات حروف الجر، لذا تراه يعرض استعمال أحد حروف الجر بمعنى ما، ثم يتبعه باعتراض بعض النحويين لهذا الاستعمال بحمل

(١) لمصطلح التضمين كما هو معروف مفاهيم متعددة في مختلف علوم العربية من نحو و بلاغة ونقد للشعر، انظر: آفاق اللسانيات، إشراف وتحرير هيثم سرحان، ط١، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت٢٠١١، ، مبحث (تأسيسًا للمعجم التاريخي، منزلة التضمين من التطور اللغوي، ومن الأساليب والأسلوبية) لمحمد رشاد حمزاوي، ص٢١٨وما بعدها، و محمد عبدو فلفل، التضمين النحوي البلاغي[في] مجلة جامعة البعث، مج٢٥،ع٢٠٠٣،١١، ص١٠.

(٢) انظر: محمد عبدو فلفل، التضمين النحوي البلاغي، ص ١١.

معنى التركيب على التضمين، فقد علق مثلاً على القول بزيادة (إلى) في قراءة من قرأ: ﴿تهوَى إليهم﴾ [إبراهيم ١٤/ ٣٧] بنصب الواو بمعنى تهواهم قائلاً: "قال المرادي إنها خُرِّجَتْ على تضمين (تهوى) معنى (تميل) ولعله يقصد قول الزمخشري: وتهوى إليهم من هوى إذا أحبّ، ضُمِّنَ معنى تنزع فعدي تعديته"(١) ولهذا المثال نظائر(٢) ينقل فيها الشمسان حملَ النحاة بعض ما استشكلوه في باب التعدية واللزوم على التضمين دون أن يعترض على صنيعهم هذا، مما يشي بقبوله مقولة التضمين هذه.

واستكمالًا لموقف الرجل مما نحن فيه نعرض لموقفه من مسألة خلافية ذات صلة بالتضمين، عرض لها في كتابه (قضايا التعدي واللزوم في الدرس النحوي) وهي القول بقياسية التضمين، فقد أيَّدَ عباس حسن في رفضه(٣) إقرارَ المجمع القاهري لقياسية ظاهرة التضمين، فقال: "أنا أوافق عباس حسن في بعض ما ذهب إليه، من ذلك إنكارُ عدِّ التضمين قياسًا، وربطُ التضمين على نحوٍ ما بالمجاز... وأنكرتُ قياسية التضمين لا لأنه سماعي، بل لأنه ليس مما يوصف بأنه قياسي أو سماعي، والسبب أنه ليس قاعدة لغوية، وليس قانونًا لغويًا، وإنما هو

---

(١) أبو أوس إبراهيم الشمسان، حروف الجر، ص ١٢، وانظر: المرادي، الجنى الداني، ص٣٨٩. والزمخشري، الكشاف، تح عادل أحمد عبد الموجود، وزميليه، ط١، مكتبة العبيكان، الرياض، ١٩٨٨، ٣/ ٣٨٦.

(٢) انظر: أبو أوس إبراهيم الشمسان، حروف الجر، ٣٠، ٣٤، ٦٣ - ٦٤، ٧٢، ٧٧، ٧٧ - ٨٧، ١٠٤.

(٣) انظر، عباس حسن، النحو الوافي، ط٣، دار المعارف بمصر، ١/ ٥٩٤ - ٥٩٥.

وسيلة تفسير مثل المجاز. . . وأما ربط التضمين بالمجاز فمن حيث إنهما يقومان على فك التلازم الذي يحدث عادة بين التراكيب والمفاهيم، وإعادة تركيبها تركيبًا خلقيًّا جديدًا"[١] ويستمر الشمسان في بيان موقفه لما يعرف بالتضمين وإقرار المجمع لقياسيته قائلا: "قرارُ المجمع عَامَلَ التضمين معاملة القاعدة المعيارية التي يمكن تطبيقها، وليس الأمر كذلك، فالتضمين من خصائص اللغة الفنية فصيحة، أو غير فصيحة، أي هو متصل بالخلق الفني، شأنه شأن المجاز، ولا أحسبه من خصائص اللغة الإشارية، ولذلك فليس أمامنا سوى أن نصفه فقط دون أن نقرر قياسيته أو سماعيته. . . التضمين والمجاز ليسا من قواعد اللغة كقواعد الإعراب والرتبة وقواعد الصرف، بل هما يمثلان كسرًا للقاعدة، وبعدَ كثرة تداول ما فيه تضمين أو مجاز تُنْسَى مخالفته للقاعدة، فمن المعروف أن المجازات بالاستخدام تصبح حقائق"[٢].

ولا شك أن الشمسان في توصيفه وتصنيفه للتضمين وفي موقفه من قياسيته يصدر عن وعي علمي موضوعي لمسيرة اللغة التاريخية، وعي يأخذ بعين الاعتبار تبعات قيام اللغة على مر الأيام بالتعبير عن مختلف المعاني والأشياء والتجارب والانفعالات، مما يتطلب ضروبًا من تطورِ أو تجدُّدِ أساليب التعبير، التي يعد التضمين واحدًا منها، لذلك نظر محمد رشاد الحمزاوي إلى مكانة التضمين من مفهومي التطور اللغوي

---

(١) أبو أوس إبراهيم الشمسان، قضايا اللزوم والتعدي، ص١٦٨ - ١٦٩. والجدير بالذكر أن عدَّ التضمين ضربًا من المجاز قال به بعض القدماء، كالزركشي في (البرهان في علوم القرآن) تح. محمد أبو الفضل إبراهيم، ط١، ١٩٥٨، ٣/ ٣٣٩.

(٢) أبو أوس إبراهيم الشمسان، قضايا اللزوم والتعدي، ص ١٧١ - ١٧٢.

والأساليب مؤكدًا أن التطور اللغوي أوسع من التضمين الذي يراه الحمزاوي من الوسائل التي اعتمدها اللغويون على اختلاف مقاصدهم لمقاربة قضايا هذا التطور[١]. فالتضمين إذن ضرب من ضروب الاستعمال الإبداعي أو الجمالي للغة، لذا جعله الشمسان كما لاحظنا من خصائص اللغة الفنية، لا من خصائص اللغة الإشارية، ورَبَطَه بالخلق الفني، وكأني به يريد من ذلك أمرين، لهما ما لهما من المشروعية في فهم مسألة التضمين، أولهما تأكيد ما رآه من عدم قابلية طبيعة التضمين للحكم عليها بالقياسية أو عدمها، لأن التضمين في النهاية ضرب من الاستعمال الإبداعي للغة، والإبداع يقوم على التجريب الذي قد ينجح، فيقبل، أو يخفق، فيرفض، وثانيهما أن التضمين وسيلة من وسائل التعبير الإعجازي أو الفني عن المعاني، وليس معنى من المعاني.

وفي ضوء ما رجحناه من القول بالدلالة النصية للمفردات نميل إلى القول بافتقار هذا المصطلح إلى الدقة في التعبير عما نحن فيه، فهذا المصطلح أي التضمين يعنى وهو ما أكده غير واحد[٢] من المعنيِّين أن يدل الفعل على معنى فعل غيره، أو على معناه ومعنى فعل غيره، مما يسوغ إعطاء الأول المضمَّن حكم الثاني من حيث التعدي واللزوم، والذي نميل إليه ما أشار إليه عباس حسن من عدم إقرار البعض لما عرف بالتضمين[٣]، وذلك إيمان منا بأن الفعل في علاقته التركيبية

---

(١) انظر: هيثم سرحان وآخرين، آفاق اللسانيات، ص١٠٣ - ١٠٤.
(٢) محمد عبدو فلفل، التضمين النحوي البلاغي، ص١١، ١٣ - ١٤.
(٣) انظر، عباس حسن، النحو الوافي، ط٣، دار المعارف بمصر، ١/ ٥٩٤ - ٥٩٥.

الجديدة مع هذا الحرف الجار أو ذاك يدل على ما يدل عليه من معنى نصّي بحكم الأصالة، وكأن الارتباط بهذا الجار هو الذي أقدر الفعل على أن يدل على هذا المعنى السياقي النصي العارض، فالفعل (قتل)[١] مثلاً في قول الفرزدق:

كيف تراني قالبًا مجني   قد قتل الله زيادًا عني

إنما دلَّ على معنى الصرف بحكم الأصالة، وذلك لتعديه بـ(عن)، أي إنه لم يعدَّ بـ(عن) لأنه تضمن كما يقول النحاة[٢] معنى الفعل (صرف) وإنما اختار الفرزدق في هذا السياق الفعل (قتل) دون الفعل (صرف) لما في الأول ما ليس في الثاني من التجديد الأسلوبي، والتكثيف الدلالي والإيحاء والبوح، وتلك سمات أساسية من سمات اللغة الفنية عامة، واللغة الشعرية خاصة، فزياد بن أبيه لم يمت مقتولًا، ومع ذلك عبَّر الفرزدق عن موته بالفعل (قتل) وذلك من قبيل إقامة السبب مقام المسبَّب وسببه معًا، لأن القتل سبب الصرف، إضافة إلى أن الفعل (قتل) أقدرُ من الفعل (صرف) على التعبير عما كان في نفس الفرزدق من مشاعر الضيق بعدوه والخوف منه قبل موته، ومشاعر الفرح بموته، وكأن الفرزدق يتمنى لو كان زياد قد مات مقتولًا. ولا شك أنه ما كان للفعل (القتل) أن يدل على هذه الحمولة الدلالية والانفعالية لولا تعديه غير المألوف بـ(عن) وهي دلالة نصّية تركيبية عبر عنها مصحوبًا بـ(عن) على سبيل الأصالة، لا على سبيل تضمينه معنى الفعل (صرف)

(١) انظر: محمد عبدو فلفل، التضمين النحوي البلاغي، ص ١١ - ١٢.
(٢) انظر: ابن هشام الأنصاري، مغني اللبيب، تح. مازن المبارك، ومحمد علي حمد الله، ط٢، دار الفكر بيروت، ٧٦٤.

فحرف الجر كما وضّحنا من قبل هو المسؤول عن الكشف عن الدلالات المتعددة للفعل.

ومن هذا القبيل أيضًا جعل الباء الجارة للفعل (شرب) دالًّا بالضرورة على الرِّيِّ أو الارتواء في نحو قوله تعالى ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ﴾ [الإنسان: ٦] وقول الشاعر[١] شربن بماء البحر. . . ، فالمعروف اختلاف[٢] النحاة والمفسرين في معنى الباء مع هذا الفعل، ومما قيل في ذلك أنها بمعنى (مِنْ)، أي: يشرب منها، أو من ماء البحر، وقيل: إنها للتبعيض، أي: يشرب بعضها، أو بعض ماء البحر، وقيل إن الفعل (شرب) هنا إنما عدي بالباء لأنه ضمن معنى الفعل (روي) والراجح أن الباء هنا تدل على معنى أساسي من معانيها، وهو السببية، فالفعل (شرب) هنا لتعديه بها دلَّ على سبيل الأصالة، لا على سبيل التضمين على معنى الري أو الارتواء، وذلك من قبيل إقامة المسبَّب مقام سببه أيضًا، فالارتواء إنما ينجم عن الشرب، علمًا أن الفعل (شرب) متعديًا بنفسه لا يدل بالضرورة على الارتواء، وذلك بخلاف ما إذا عدي بها، مما يعني أن تعديته بالباء هي التي أكسبته معنى الري على سبيل الأصالة، لا على سبيل تضمينه معنى الفعل (روي).

---

(١) هو أبو ذؤيب الهذلي، وتتمة البيت: متى لججٍ خضر لهن نئيج. ابن هشام الأنصاري، مغني اللبيب، ص١١١، ٣٧٢.

(٢) انظر: أبو أوس الشمسان، حروف الجر، ص ٧٧ - ٧٨. والمرادي، الجنى الداني، ص ٤٣ - ٤٤.

بهدي العلل الأرسطية

من القضايا الخلافية التي أثارها الشمسان تحاشي بعض النحاة استعمال مصطلح الاستعانة في الحديث عن معاني الباء الجارة وذلك لأسباب عقدية، فقد نقل[١] عن المرادي أن ابن مالك في (شرح التسهيل) لم يذكر باء الاستعانة، بل آثر على ذلك التعبير عن ذلك بالسببية من أجل الأفعال المنسوبة إلى الله تعالى، فإن استعمال السببية فيها يجوز، واستعمال الاستعانة لا يجوز، ثم علق الشمسان على ذلك قائلا "هذا من تداخل الموقف اللغوي والموقف العقائدي، وهو من المواطن التي يجد فيها بعض اللغويين حرجًا، وربما يجرهم هذا إلى الجور على الموقف اللغوي دون حكمة ظاهرة، ففي مثل هذا الموضع لمَ جاز السببُ، ولم تجز الاستعانة؟ كلاهما في حق الله مجاز يقتضيه التعبير اللغوي، إذ لا مفر منه، وكل الموضوعات مهما بلغت من الجلالة إذا عُبِّرَ عنها بلغة خضعت لشروط وقواعد اللغة دون أن ينال قداسة وجلال الموضوع شيء"[٢] ويرى الشمسان أن "قول النحويين: إن الباء للاستعانة لا تعني ضعف الفاعل ولا هوانه، فهي لا تعني سوى جعل مدخول الباء أداة للفعل كما قال المرادي، وجدير بابن مالك أن يمنع السبب كما منع الاستعانة، فإذا لم يجز أن يستعين الله بشيء من خلقه فليس يجوز أن يكون غيره سببا لأفعاله، وإذا كانت الاستعانة صفة من الخلق فله ما يليق به من الاستعانة"[٣] .

---

(١) انظر: أبو أوس إبراهيم الشمسان، حروف الجر، ص ١٧، والمرادي، الجنى الداني، ص ٣٨، وابن مالك، شرح التسهيل، ٣/١٤٩ - ١٥٠.

(٢) أبو أوس إبراهيم الشمسان، حروف الجر، ص١٨.

(٣) أبو أوس إبراهيم الشمسان، حروف الجر، ص ١٨.

ولا شك أن في معالجة الشمسان لما هو فيه هنا أبعادًا تنويرية، ما يزال الفكر اللغوي العربي بحاجة إليها، وذلك نتيجة تداخل العقدي باللغوي في أحيان غير قليلة في هذا الفكر. على أن النظر إلى علاقة السببية بالاستعانة في معاني الباء في ضوء ما يعرف بالعلل الأرسطية(١) قد يفضي إلى القول بأن معنى الاستعانة لا يخرج عن معنى السببية، لأن مجرور الباء فيما يعرف بباء الاستعانة عند القائلين بها هو علة الفاعلية للحدث المنجَز في التقسيم الأرسطي للعلل، وفي حديث ابن مالك نفسه عما نحن فيه ما يؤيد ويوضح ما نراه من أن معنى باء السببية يؤول عند التحقيق حقيقة أو مجازًا إلى علة الفاعلية، يقول ابن مالك "باء السببية هي الداخلة على صالح للاستغناء به عن فاعل مُعَدَّاها مجازًا نحو قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ [البَقَرَة: ٢٢] فلو قُصِدَ إسنادُ الإخراج إلى الهاء لحسن، ولكنه مجاز... ومنه كتبتُ بالقلم، وقطعتُ بالسكين، فإنه يقال: كتبَ القلمُ، وقطعتِ السكينُ"(٢) الأداة إذن هي علة الفاعلية للحدث سواء أمرفوعة كانت أم مجرورة، علمًا أن حرفًا كالباء يمكن أن يكون في التركيب نفسه لضربين من العلل الأرسطية، وذلك نحو قولنا: (هاجم السلطان بجنوده بعض المتمردين بتمردهم) فالباء في (بجنوده) تدل على علة الفاعلية للحدث

---

(١) جعل أرسطو العلل أربعًا: مادية، وصورية، وفاعلية، وغائية، فالعلة المادية هي التي يجاب بها عن (ما الشيء؟) والصورية عن (كيف؟) والفاعلية عن (من فعل الشيء؟) والغائية (عن لمَ؟). انظر: عبده الراجحي، النحو العربي والدرس الحديث، ط، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٧٩، ص ٧٩.

(٢) ابن مالك، شرح التسهيل، ٣/ ١٥٠.

الذي تقيده، لأنها في الحقيقة جواب عن سؤال من قام بالفعل؟ فالمجرور بها - وهو الجنود - هو الذي أوقع عمليًّا الهجوم على المتمردين، لأن المعنى هو: هاجم جنود السلطان بعض المتمردين، أما الباء في عبارة (بتمردهم) فتدل على العلة الغائية لأنها تمثل مع مجرورها جوابًا للسؤال لمَ وقع الفعل؟

وبناء على ما تقدم نرى أن القول بدلالة الباء على الاستعانة في قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾ [الأنعام: ٤٢] يفضي إلى القول بدلالتها على علة الفاعلية مجازًا لأن البأساء هي التي حلت في القوم، فأخذتهم. أما الباء في (بذنوبهم) من قوله تعالى ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١١] فتدل على علة الغائية، لأنها جواب عن السؤال: لمَ أخذهم الله؟

وبعد فقد كانت تلك قراءة في الفكر اللغوي والنحوي لأبي أوس إبراهيم الشمسان، وهي قراءة تستمد مشروعيتها من أمرين: أولهما وجدانيٌّ يتمثل بالوفاء لقامة علمية مجتهدة، لها من النتاج العلمي ما هو جدير بالاهتمام والمدارسة، وثانيهما مهني يتمثل بأن هذه القراءة أتاحت الفرصة للقول في مسائل كان تناولها يراود النفس، وينتظر الفرصة المناسبة لذلك.



مصادر البحث ومراجعه

أبو أوس إبراهيم الشمسان، "الاستعمال الوظيفي للغة"، جدلية الملفوظ والمحفوظ، مركز حمد الجاسر الثقافي، الرياض، ٢٠٠٩م. ص ص ١٥-٧٨.

أبو أوس إبراهيم الشمسان، "جوانب من الاستخدام الوظيفي للغة" (المجلة العربية للعلوم الإنسانية)، جامعة الكويت، ١٩٩٠م، ع٣٧، مج ١٠، ص ص ٣٢-٦٥.

أبو أوس إبراهيم الشمسان، حروف الجر: دلالاتها وعلاقاتها. ط١، دار المدني، جدة، ١٩٨٧.

أبوأوس إبراهيم الشمسان، قضايا التعدي واللزوم في الدرس النحوي، ط١، دار المدني، جدة، ١٩٨٧.

ابن جني، الخصائص، تح. محمد علي النجار، ط٢، دار الهدى، بيروت.

جواد ختام، التداولية، أصولها واتجاهاتها، ط١، كنوز المعرفة، عمان، ٢٠١٦م.

الزجاجي، الإيضاح في علل النحو، تح. مازن المبارك، ط٣، دار النفائس، بيروت، ١٩٧٧م.

الزركشي، البرهان في علوم القرآن، تح. محمد أبو الفضل إبراهيم، ط١، ١٩٥٨.

الزمخشري، الكشاف، تح عادل أحمد عبد الموجود، وزميليه، ط١، مكتبة العبيكان، الرياض، ١٩٨٨م.

الزمخشري، المفصل في علم العربية،ط٢، دار الجيل، بيروت، د.ت.

ستيفن أولمان، دور الكلمة في اللغة، تر.كمال بشر، ط ١٢، دار غريب، القاهرة.

سيبويه، الكتاب، تح . عبد السلام محمد هارون، ط٢، مكتبة الخانجي، الرياض، ١٩٨٢م.

صلاح الدين الزعبلاوي، مسالك القول في النقد اللغوي، ط١، دمشق، ١٩٨٤م.

عباس حسن، النحو الوافي، ط٣، دار المعارف بمصر.

عبده الراجحي، النحو العربي والدرس الحديث، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٧٩م.

عقيل بن حامد الزماي الشمري، ومنصور بن مبارك ميغري (محرران)، التصورات الشعبية عن اللغة العربية، ط١، الرياض، ٢٠١٧م.

كلماير وآخرون، أساسيات علم لغة النص، تر. سعيد حسن بحيري، ط١، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، القاهرة، ٢٠٠٩م.

المالقي، رصف المباني في شرح حروف المعاني، تح. أحمد محمد الخراط، ط١، مجمع دمشق، ١٩٧٥م.

ابن مالك، شرح التسهيل، تح. عبد الرحمن السيد، ومحمد بدوي المختون، ط١، هجر للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٩٠م.

المبرد، المقتضب، تح. محمد عبد الخالق عضيمة، ط، عالم الكتب، بيروت .

محمد عبدو فلفل، التضمين النحوي البلاغي، مجلة جامعة البعث، مج٢٥، ع١١، عام ٢٠٠٣م.

محمود أحمد نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ط، دار المعرفة الجامعية، ٢٠٠٢م.

المرادي، الجنى الداني في حروف المعاني، تح. فخر الدين قباوة، ومحمد نديم فاضل، ط٢، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ١٩٨٣م.

الهروي، الأزهية في علم الحروف، تح. عبد المعين الملوحي، ط٢، مجمع اللغة العربية بدمشق، ١٩٨٢م.

ابن هشام الأنصاري، مغني اللبيب، تح. مازن المبارك، ومحمد علي حمد الله، ط٢، دار الفكر بيروت.
هيثم سرحان (محرر)، آفاق اللسانيات، ط١، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ٢٠١١م.
ابن يعيش، شرح المفصل، ط. دار صادر، بيروت، د.ت.



الخوف في سياقات قصة موسى في القرآن الكريم مثيراته وتأثيراته

أ.د. وسمية عبد المحسن المنصور

توطئة

البحث في القرآن الكريم سياحة إيمانية روحانية، تشف فيها النفس ويشتد بها العزم؛ لأنها تُخرج الباحث من عصف اليأس إلى غيث الأمل، ومن ضيق الصدر إلى رحابة الفكر.

فالبحث في القرآن يدفع الباحث إلى فضاءات متعددة من المعارف والعلوم؛ وهو الأمر الذي قد يُنسي الباحث نفسه وغاياته، فينصرف عن غرضه الأول إلى ميادين يجد فيها جمالاً يسر الروح، ويأسر اللُّبَّ، تأنس لها النفس وتطرب لها الحواس.

يتصل الدرس القرآني بمجالات معرفية تتفرع مساربها، وتتناداح دوائرها في تيارات من التكثيف اللغوي والإشارات الإيحائية، مما يجعله يتكئ على معالجات أهل التفسير؛ فنظراتهم وجهودهم تلازم أي درس رصين في مبحث قرآني، لأن التفسير واكب نزول القرآن الكريم وهو غضٌ رطب. سمعه الصحابة الأوائل نضرًا حيًا على لسان المصطفى ﷺ.

فالتفسير هو الابن البكر للدرس القرآني، وبه ومنه وعليه اعتمدت كثير من الدراسات اللغوية. فالنص القرآني ذو تميز خاص في تشكل تراكيبه، وسبك مفرداته، يرفده إبداعات الأداء بجماليات الترتيل والتجويد.

يتضافر الأداء والسبك اللغوي لإضاءة النسق التصويري، وكشف

أستار الظل الإيحائي تأملاً وتدبرًا. تعتمل آثاره في جنبات القلب مستودع العقل وحصنه ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾ [محمد: ٢٤].

وروي عن الحسن قال: قال رسول الله ﷺ: «لكل آية ظهر وبطن ولكل حرف حد ولكل حد مطلع»[(١)] .

وقال ابن النقيب: إن ظاهرها ما ظهر من معانيها لأهل العلم بالظاهر وباطنها ما تضمنته من الأسرار التي أطلع الله تعالى عليها أرباب الحقائق[(٢)] .

يواجه الباحث المتتبع لموضوع ما في نص القرآن بحارًا عاتية، يركبها وجلاً ويستمتع أنسًا، ويتفكر وعظًا، ويتأمل تدبرًا؛ لأنها تحمله إلى كهوف متشعبة يأنس إلى مداخلها وتنتهي إلى واحات وفيافي بعيدة المدى. وهو بين هذا وذاك يلاحق موضوعه بعد أن أدخله البحث غمار التيه لا يتبين خطوط نهاية تلزمه التوقف إلى أن يلتقط أنفاسه فيودع كثيرًا مما أنس به.

ولكن لا بد مما لا بد منه، فهدف هذا البحث دراسة الخوف في سياقات قصة موسى في القرآن الكريم، فنتوكل على الله؛ فهو المستعان وعليه التكلان.

(١) الضياء؛ أبو أحمد محمد عبد الله الأعظمي، الكامل في الحديث الصحيح الشامل المرتب على أبواب الفقه (ط١، دار السلام للنشر والتوزيع/ الرياض ٢٠١٦ م) ١٠/ ١٨.

(٢) الألوسي؛ محمد شكري البغدادي، روح المعاني في تفسير القرآن الكريم والسبع المثاني، (دار إحياء التراث/ بيروت ٢٠٠٧م) ١/ ٨.

قبل الولوج

تنازعني سؤالان: لم اخترنا غريزة الخوف؟ ولم قصة موسى دون غيرها؟

الخوف سمة من سمات الضعف البشري، فهو: "شعور نفسي مؤلم مزعج، ويكون من توقع حلول مكروه، أو فوات محبوب أو مرغوب فيه"(١).

ويقول الدكتور محمد بني يونس: "الخوف: ظاهرة طبيعية أو سوية، ولا يدل على أي اضطراب نفسي أو انحراف في الشخصية طالما أن هناك أسبابًا معقولة له، وأن مستوى الخوف الذي يبديه الشخص الخائف يتناسب مع حجم المثير المخوف. والخوف في حد ذاته ليس شيئًا رديئًا يجب القضاء عليه، أو يجب الاستغناء عنه تمامًا في مجالات التربية والمجالات الاجتماعية العادية(٢).

وثمة اتجاه عند العلماء بأن غريزة الخوف متوارثة: "وهي التي اعتبرناها تمركزًا أو تبلورًا لجماع المخاوف التي سبق أن تلقاها الجنس البشري. فالواقع أن هناك علاقة تفاعل تبادلية بين مخاوف اليوم ومخاوف الأمس البعيد"(٣).

---

(١) الميداني، عبد الرحمن حسن حبنّكة: معارج التفكر ودقائق التدبّر (ط١، دار القلم/ دمشق ٢٠٠٢م.) مج٨ ص ٥/ ١٧٣.

(٢) "بني يونس، د. محمد محمود: سيكولوجية الدافعية والانفعالات (ط١، دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة/ عمّان، ٢٠٠٧) ص ٢٤٤ - ٢٤٥.

(٣) أسعد؛ يوسف ميخائيل، سيكولوجية الخوف، (نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع/ القاهرة ١٩٩٠) ص ١٢.

"ويؤكد العلماء أن الطفل حديث الميلاد ليس صفحة بيضاء كما دأب علماء النفس التقليديون على النظر إليه. إنه كائن يحمل كثيرًا من الخبرات، كما أنه يكون جاهزًا للامتداد بالخبرات التي سبق له اكتسابها في بطن أمه"(١).

وللخوف صور: إفراط واعتدال وقصور(٢).

ومن سياقات قصة موسى نمثل للإفراط في هلع أم موسى بعد أن ألقته في اليم: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾﴾ [القَصَص: ١٠]؛ فقد نال منها الخوف منالًا بالغًا، فأفرغ قلبها من كل ما يشغله من أمورها، واستحوذ الهلع على كيانها ووجدانها؛ حتى كادت تصرخ في الناس أنها ألقت ابنها. فتكون كمن فرّ من الرمضاء إلى النار؛ لكن رحمة ربي تداركتها. فبعد أن أوحى إليها أن تلقيه في اليم، ربط على قلبها. فسبحان من حول إفراطها في الخوف والهلع إلى أمنٍ واطمئنان.

ويكون الحذر المصاحب للخوف مثالًا للاعتدال؛ إذا قاده الحذر الواعي المحتسب لعواقب كل تصرف، فلا ينساق وراء جموح العاطفة. سياسته لا إفراط ولا تفريط. منه خوف أخت موسى عندما تيقنت أن من في القصر قد التقطوه ﴿فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ

---

(١) أسعد؛ يوسف ميخائيل، سيكولوجية الخوف، ص ٧.

(٢) بن قدامة المقدسي؛ نجم الدين، أبو العباس، أحمد بن عبد الرحمن (ت ٦٨٩هـ) مختصر منهاج القاصدين (مكتَبَةُ دَارِ البَيَانْ / دمشق ١٣٩٨هـ) ص ٣٠٣.

نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾﴾ [القَصَص: ١١-١٢] فهي تلبي طلب أمها المكلومة (قُصِّيه)؛ لكن دون اندفاع متهور لا في السؤال عنه، ولا في إظهار الفرح بعد أن علمت بسلامته، ولا بسرعة إبداء النصح للقوم أنها تعرف من يمكنه الإيفاء بمهمة إرضاعه. بل تركت القوم يواصلون بحثهم عن المرضع التي يتقبلها الوليد الصغير، وحين أعيتهم الحيلة أبدت مساعدتها بعرض يشوبه الحذر.

وأما القصور في الخوف فهو ناتج عن شيء من التهور الذي يغلب على ردّ الفعل دون التفكير في عواقب الاندفاع، واحتساب نتائجها. من ذلك واقعة قتل القبطي في المدينة ﴿فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾﴾ [القَصَص: ١٥]. (فوكزه) الفاء للتعقيب المباشر ولم تكن (ثم) التي تتحمل التراخي، فالفاء أشعرت بالتعجل الذي صاحب الحدث.

وإنما كان اختيارنا للخوف دون غيره من حالات الانفعالات الإنسانية لنجيب عن سؤال يلامس إشكالية: هل الأنبياء يخافون وهم الذين اصطفاهم رب العزة والجلال بالنبوة وتبليغ رسالاته؛ فتأتي الإجابة: أن ننظر إلى حقبتين: ما قبل الرسالة ينتاب الأنبياء فيها ما ينتاب غيرهم من البشر من ضعف بشري، والحقبة الثانية بعد التكليف برسالة الرحمن؛ تتجلى حكمة الله في ذلك الضعف الذي قد يظهر؛ فالمولى عز شأنه ينزع الخوف عن أنبيائه، ويقلعه بالبشارات المتلاحقة تكريمًا للخائف، يتحقق ذلك بالتثبيت، وترسيخ اليقين ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ﴾ [التوبة: ٤٠] ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا﴾ [غافر: ٥١] ﴿لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾﴾ [النمل: ١٠] وقد استجاب الرب سبحانه لسُؤل موسى

أن يشرك معه أخاه هارون، ﴿وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِي ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِيٓ أَمْرِي ﴿٣٢﴾ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾﴾ [طه: ٢٩-٣٦]. ومما عزز قوة التثبيت ما نقله أبوحيان: أنه "رُوِيَ أَنَّ اللهَ أَوْحَى إِلَى هَارُونَ وَهُوَ بِمِصْرَ أَنْ يَتَلَقَّى مُوسَى. وَقِيلَ سَمِعَ بِمَقْدَمِهِ. وَقِيلَ: أُلْهِمَ ذَلِكَ"(١).

ومن مسوغات اختيار قصة موسى:

أن موسى أكثر الأنبياء تردد ذكر في القرآن، فقد بلغ ١٣٦ مرة(٢) كما أن موسى أرسل إلى (فرعون) الذي احتسبه القرآن الكريم من حيث القيمة العددية في عداد الأقوام لا الأفراد؛ فهو قد بلغ شأوًا في طغيانه يتضح تكرر ذلك في أنْ أمر الله سبحانه موسى منفردًا ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾﴾ [طه: ٢٤] وأعاد إليه الأمر شريكًا مع أخيه هارون﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾﴾ [طه: ٤٣].

وفي ذكر فجور الأقوام في تكذيب الرسل جاء ذكر فرعون منفردًا ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ﴿١٣﴾﴾ [ق: ١٢-١٣]. وعندما عدد الأقوام من المكذبين الكافرين عد فرعون ولم يقل قوم فرعون أو قوم موسى جاء في تفسير الخازن: "ذم الله عز وجل قوم تبع ولم يذمه، وذم (فرعون) لأنه هو المكذب المستخف لقومه

---

(١) أبو حيان؛ محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي، (ت ٧٤٥هـ). البحر المحيط، تحقيق: صدقي محمد جميل، (دار الفكر بيروت / ١٤٢٠هـ) ٧/ ٣٣٦.

(٢) انظر: عبد الباقي؛ محمد فؤاد (ت ١٣٨٨هـ). المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم (دار الكتب المصرية/ القاهرة ١٣٦٤هـ).

فلهذا خص بالذكر دونهم"[١].

وَخَصَّ فِرْعَوْنَ وَإِنْ كَانَ مَبْعُوثًا إِلَيْهِمْ كُلِّهِمْ لِأَنَّهُ رَأْسُ الْكُفْرِ وَمُدَّعِي الْإِلَهِيَّةَ وَقَوْمُهُ تُبَّاعُهُ.[٢] ولقد جابه جميع الأنبياء الفتن إلا أن فتنة موسى كانت أعظم الفتن - ليتسلى قلب الرسول ﷺ ويصبر على المكاره"[٣].

ومما زاد شغفنا بقصة موسى أن التعدد والكثرة والمبالغة سمة غالبة في قصته نذكر منها: تعدد مسميات الخوف ما كان منه متحدًا في الدلالة وما كان متباينًا. ولقد كانت سمة الخوف متحققة في القصة مع اختلاف حدتها وآثارها. ذلك أن طبيعة الأحداث أدت إلى تعدد الشخوص المشاركة التي اختلفت أدوارها؛ منها: من قاسمته الخوف أو تصدر عن الخوف عليه. ومنها من كان سببًا مثيرًا للخوف، ومنها من تأثر بالخوف فكانت له ردود فعل بينة ظاهرة وسيأتي تفصيلها في فقرة (الفعل والانفعال).

ولأن قصة موسى تنتقل في الآن والأين زمانًا ومكانًا، مما تتشعب بسببه الأحداث وتتنوع فيها الشخوص، فهي قصة ديناميكية متلاحقة الصور والحدث، إذ طال امتدادها في الزمان فقد بدأت القصة قبل ولادة موسى، وتنامت أحداثها إلى ما بعد عصر موسى﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ﴾ [البَقَرَة: ٢٤٦].

---

(١) الشيحي؛ علي بن محمد بن إبراهيم (ت ٧٤١ هـ)، لباب التأويل في معاني التنزيل تصحيح: محمد علي شاهين (ط١، دار الكتب العلمية/ بيروت ١٤١٥هـ) ٤/ ١٨٧.

(٢) أبو حيّان؛ محمد بن يوسف، تفسير البحر المحيط، ص ٣٢٦/٧.

(٣) الخطيب؛ محمد الشربيني، السراج المنير (دار نور المعارف، مطبعة بولاق/ القاهرة ٩٧٧هـ) ٢/ ٤٥١.

وكان تعدد المراحل فاعلاً في تنامي الأحداث مما نَوَّع تمددها في الزمان، واختلاف مسرح الأحداث في المكان، فالأحداث يحكمها التنقل واختلاف البيئة المحيطة بالحدث. وكذلك كثرة المعجزات والآيات البينات والنعم التي أكرم الله نبيه موسى عليه السلام بها، وما يقابلها من عقوبات تحل على خصومه ومعارضيه: (نجاته من الذبح ورجوعه لأمه، اختياره للجمرة وتركه للياقوتة، العصا، بياض اليد)، ومن النعم: (عيون الماء، تنوع الأطعمة، النور، الرؤية، كليم الله، وجيه عند الله، حادثة البقرة، صحوة المقتول بعد ضربه ببعضها، تدمير عجل السامري، انفلاق البحر، إطفاء سورة قلق قوم موسى بعد أن تفرقوا في شقوق البحر فسألوا موسى عمن غاب عن مرمى بصرهم، فأنعم الله عليهم أن فتح لهم نوافذ على جميع المسارب. فكانوا يشاهدون بعضهم إلى أن تم اللقاء في أرض الميعاد)، ومن تعدد العقوبات التي حلت بقوم فرعون: (غرق فرعون ومن معه عندما دخلوا مفلق البحر يطاردون موسى ومن معه من بني إسرائيل، خسوف الأرض بقارون. تشتت بني إسرائيل في التيه بعد ردتهم عما أمرهم موسى وسَخْط بعضهم قردة). وقوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾﴾ [البَقَرَة: ٦٥] قَالَ بَعْضُهُمْ: حولت صورتهم وجسدهم صورة القردة، وكانت عقولهم على حالها عقول البشر لم تحول؛ ليعلموا تعذيب الله إياهم وما أصابهم بهتكهم حرم الله. وقال قائلون: حول طباعهم طباع القردة، وأما الصورة والجسد على حاله. وليس لنا إلى معرفة ذلك حاجة»[1].

---

(١) الماتريدي؛ محمد بن محمد بن محمود، أبو منصور (ت ٣٣٣هـ)، تأويلات أهل السنة تحقيق مجدي باسلوم (ط١، دار الكتب العلمية/ بيروت، لبنان، ٢٠٠٥م) ٥/ ٧٤.

وأما تعدد العهود والمواثيق فنذكر منها: العهد مع أبي البنتين في مدين/ مع هارون /مع السامري / مع فرعون/ ومع قومه.

وقد تعددت التساؤلات والحوارات منها: حواره مع الرب سبحانه، حوار أخت موسى مع أهل القصر حول إرضاع موسى، حواره مع الذي استصرخه طالبًا من موسى أن ينصره في المرة الثانية، فيرد عليه موسى (إنك لغوي مبين) ثم حواره مع الرجل الذي جاء ساعيًا ينصح موسى بالهرب، حواره مع ابنتي شعيب، ثم حواره مع شعيب في مدين، حواره مع فرعون، وحواره مع السحرة، حواره مع أخيه هارون، حواره مع السامري، وما ورد من حوار حول البقرة، وآخرها حواره مع الرجل المعلم الصالح (الخضر). والملاحظ أن الحوارات متفاوتة في الكم وفي استيفاء ذكر أطراف الحوار فقد يذكر طرف ويغيب الطرف الآخر وقد يطول الحوار أو يكون مبتسرًا. ولسنا بمعنيين بالتفصيل في قضايا الحوار على ما فيها من إثارة وتشويق لكننا سنقف فيما بعد عند نماذج من الحوار التي يسكنها الخوف ظاهرًا بلفظه أو مستبينًا في سياق نص القرآن.

ونذكر في سياقات المتعدد تعدد الأساليب خبرية وإنشائية تقريرية، وثمة جمل تتكرر، وجمل مكتملة العناصر وجمل فيها حذف يستقيم المعنى رغم الحذف، وجمل تتكئ على المحذوف وجمل تتعدد دلالاتها، وجملة بعضها يفضي إلى ما بعدها، وجمل تتقدم بالذكر على حدث يسبقها زمنًا لأن المتقدم بالذكر سيكون علة لكشف مسببها (لماذا ذبحت البقرة). والاكتفاء بذكر قول أحد المتحاورين وإغفال رد الآخر، ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ

لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾﴾ [القَصَص: ٢٠-٢١]. كان رد موسى على الرجل الناصح مباشرة تحقق الفعل التالي المترتب في الحوار (فَخَرَجَ).

ونهتم بتعدد المثيرات للخوف، وتباينها: منها المذكور لفظًا منصوصًا عليه، ومنها ما ينطق به السياق وإن لا ذكر للفظه. ومن الآثار منها ما يقف عند انفعال الخوف، ومنها ما يتجاوزه بما نطلق عليه رد الفعل.

القصة في القرآن

من المسلمات أن الإخبار والقص في القرآن الكريم له غاياته؛ وهي كثيرة منها: تعزيز الدعوة للتوحيد، وتثبيت الرسول والتسلية عنه، والتشريع وأحكامه، والوعظ والإرشاد والاعتبار؛ إلا أن كتابة التاريخ لم تكن من غاياته(١).

لم تأتِ قصة موسى كاملة وإنما جاءت متفرقة في أثناء سور متعددة، كما لم تفرد لها سورة تروي تسلسل أحداثها، وكذلك لم تُسمَّ سورة باسم موسى.

ومما يلاحظ الاختلاف البنائي في بداية ذكر الأحداث عند ورودها في أي سورة، وكذلك تعدد المفاصل الدقيقة لمجراها. وليس بناء القصة

(١) علي الطنطاوي؛ مجلة الرسالة، كتاب الدين الإسلامي، العدد ٣٣٦، ١١ ديسمبر ١٩٣٩م، وانظر: محمد خير شيخ موسى، النزعة القصصية في الأدب العربي، حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية - جامعة الكويت، الرسالة ٢٤٥ - الحولية ٢٦/ يونية ٢٠٠٦م. ص ١٩ - ٢١.

فنيًا مصب اهتمامنا في هذا العرض.

وبالنظر إلى ترتيب أحداث القصة في القرآن الكريم فهو لا يأخذ بذكر المتقدم منها على الأحداث الأخرى. وإنما نجد تفرده بأسلوبه ونظامه، فهو ليس حكايات تروى، ولا إبداعات بشرية تُسرد، وإنما هو قرآن يتلى وبيان معجز يُتَدَبَّر.

نحاول في قصة موسى تلمس مظاهر الخوف، مثيراته وآثاره على موسى وعلى غيره من الشخوص الفاعلة في الحدث، وتطوره أو إنهائه انطلاقًا إلى مفصل آخر في قصة موسى. ولا نتجاوز موقف الخوف أكان بحضور موسى أم كان موسى غائبًا.

ونُطَوِّف بعرض الخوف في قصة موسى في القرآن الكريم في محاور نسرد فيها: السور التي ذكرت فيها القصة - الشخوص- الفعل والانفعال - مشاهد وشواهد.

السور التي ذكرت فيها القصة

تفرقت أحداث قصة موسى أو ما له صلة بها في ٢٧ سورة، وتباينت في عدد المواضع وعدد الآيات وطولها، وتفاصيل الحدث.

نلحظ أن هذه السور منها ما حفل بآيات تحكي أحداث القصة وتفاصيل تطورها، (الأعراف وطه والقصص) ومنها ما يشير إلى حدث خاص كما في سورتي البقرة والكهف أو يشار إلى رمز (صحف موسى) [الأعلى ١٩] أو مخاطبًا (بني إسرائيل).

والملاحظ أن اسم موسى الذي تكرر ذكره ١٣٦ مرة قد يرد الاسم دون ذكر لأي حدث وإنما في سياق قرآني يتصل بأحداث القصة (النجم

- و(الأعلى) وكذلك يرد ذكر اسم بني إسرائيل في سياق آخر ليس حدثًا في قصة موسى [النمل].

وقد ذكرت القصة في:

١) سورة البقرة ٤٠-٩٦ خطاب لبني إسرائيل وتذكيرهم بالنعم، وتكذيبهم لأنبيائهم، وعصيانهم لموسى، وجدالهم عندما أمرهم بذبح البقرة.

٢) سورة النساء ١٥٣ - ١٥٥، ١٦٤ فجور قوم موسى وعبادتهم العجل وخيانتهم للمواثيق.

٣) سورة المائدة ٢٠ - ٢٦ تقاعس بنو إسرائيل عن دخول الأرض المقدسة خوفًا من القوم الجبارين وخذلانهم موسى، وإحلال العقوبة عليهم بالتيه وتحريم الأرض المقدسة عليهم.

٤) سورة الأنعام وصف كتاب موسى١٥٤.

٥) سورة الأعراف: بعد خروجه من مدين ١٠٣ -١٦٨.

٦) سورة يونس: مواقفه مع فرعون ٧٨- ٩٢.

٧) سورة هود: وقفة موجزة عند قصة موسى مع فرعون٩٦-٩٩.

٨) سورة إبراهيم: دعوة للتوحيد والتذكير بأيام الله ٥- ٨.

٩) سورة الإسراء: الكتاب هدى لبني إسرائيل ٢- ٨ والآيات التسع ١٠١- ١٠٤ .

١٠) سورة الكهف لقاء موسى بالعبد الصالح الخضر وطلب العلم منه ٦٠- ٨٢.

١١) سورة مريم طلب الاستعانة بهارون ٥١- ٥٣.

١٢) سورة طه: بعثة موسى والاستعانة بهارون وقصة السامري ٩- ٩٨.
١٣) سورة الأنبياء: ٤٨ ابتعاث موسى وهارون.
١٤) سورة الحج: ٤٤ إشارة وامضة عن تكذيب القوم لموسى للوعظ والتسرية عن نبينا محمد ﷺ.
١٥) سورة المؤمنون: عن بعثة موسى وهارون ٤٥ - ٤٩
١٦) سورة الفرقان ٣٥ - ٣٦ تأييد هارون وموسى بالكتاب.
١٧) سورة الشعراء: مواقفه مع فرعون ولقاء السحرة١٠ - ٦٨ ثم ١٩٧ - ٢٠٧
١٨) سورة القصص: تفاصيل القصة؛ الولادة والإرضاع والتنشئة والفتنة التي بسببها فرّ خائفًا، ثم لجوؤه إلى مدين وابتعاثه، ومواجهة سحرة فرعون، والحكم على فرعون بالغرق هو ومن معه ٣- ٨٣ .
١٩) سورة غافر: الجدل في مجلس فرعون ومشهد من مشاهد الفرعونيين في النار ٤٣- ٥٥، وجدال مع الرجل المؤمن الذي يكتم إيمانه.
٢٠) سورة فصلت: إشارة إلى اختلاف قوم موسى حول الكتاب [فصلت: ٤٥]
٢١) سورة الزخرف: تكرار طغيان فرعون وإصراره على الكفر٤٦ - ٥٦.
٢٢) سورة الدخان ١٧- ٣٦ فتنة قوم فرعون.
٢٣) سورة الأحقاف: الاستشهاد بكتاب موسى الذي أقره اليهود في عصر نبينا محمد ١٢و ٣٠.
٢٤) سورة الذاريات: ٣٨- ٤٥ وقفة للاعتبار بما عاناه موسى من تكذيب فرعون ومن معه فأحق الله عليهم عقابه بالغرق.

٢٥) سورة الصف معاناة موسى مع قومه ٥ .

٢٦) سورة النازعات: إشارة وامضة إلى رسالة موسى ١٥-١٦ .

٢٧) سورة الحاقة: مرحلة ما بعد نجاة موسى ومن معه، وجحودهم النعم التي أغدقها المولى عليهم ٩-١٢ .

٢٨) سورة الأعلى: الاستشهاد بصحف موسى١٨- ١٩ .

الشخوص

نستعرض في هذه الفقرة تعريفات موجزة بالشخوص التي شكلت تطورَ حدثِ الخوف في قصة موسى. وتلك الشخوص على فئتين: فئة الأفراد وفئة الجماعات. ونخص موسى عليه السلام بشيءٍ من التفصيل لأنه الشخصية المحورية وتدور الشخصيات الأخرى في فلكه. وأما فئة الجماعات فهي ما جاء مسماها في التصنيف الصرفي دالاً على (اسم الجمع) الذي لا واحد له من لفظه، ومما ورد في قصة موسى: قوم، وآل، والملأ، وأُمّة. أو جاء مركبًا من مضاف دال على ملحق بالجمع ومضاف إليه مثال (بني إسرائيل) الذين ينحدرون من جد واحد. فالقوم هم جمع من النَّاس تجمعهم جامعة يقومون لها، أي يشتركون في اللغة والثقافة ولا تقال إلا للبشر. فقوم موسى هم بنو إسرائيل، وأما الآل (آل فرعون) فهم ما يجمعهم قرابة المنحدر أي الآباء والجدود والنسب فكل من كان من (الآل) يدخلون في (القوم) وليس كل من كان من (القوم) يدخلون في (الآل). أما الأمة (أمة من الناس) ففيها دلالة التكثير العددي، فقد يجتمع فيها من (القوم) و(الآل) والأجناس المختلفة. أما الملأ فهم الخاصة من صفوة الأشراف والحكماء وعلية القوم المقربين،

الذين يحظون بشرف المداومة في مجلس الحاكم. وقد كان (فرعون) يستشيرهم ويعمل برأيهم.

وأسماء الجموع هذه تكون الدلالة العددية فيها مبهمة وإن تحملت التفاوت في القيمة العددية بينها فالأمة أكثر من القوم والقوم أكثر من الآل.

موسى

يذكر أن التي أسمته بهذا الاسم آسيا امرأة فرعون، قالت: "سميته موشا لأنّا وجدناه في الماء والشجر، فـ(مو) هو الماء، و(شا): هو الشجر"[١].

وفي نسبه قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَمُوسَى هُوَ مُوسَى بْنُ عِمْرَانَ بْنِ يَصْهَرَ بْنِ قَاهِثِ ابن لاَوِي بْنِ يَعْقُوبَ إِسْرَائِيلَ[٢] وأخبرنا القرآن أن محبة الله قد ألقيت على موسى في قلب كل من يشاهده، ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾ [طه: ٣٩] فأمه رأت النور بين عينيه، وكذلك امرأة فرعون، وأخته التي غامرت بالتقصي والسؤال "وَأَحَبَّتْهُ حُبًّا زَائِدًا، وَكَانَ مُوسَى عَلَيْهِ

---

(١) الثعلبي؛ أبو إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم، (ت ٤٢٧هـ)، الكشف والبيان عن تفسير القرآن. تحقيق الإمام أبي محمد بن عاشور (ط١، دار إحياء التراث العربي/ بيروت - لبنان ٢٠٠٢م). ٧/ ٢٣٦.

(٢) القرطبي؛ أبو عبد الله، محمد بن أحمد الأنصاري، (ت ٦٧١ هـ) الجامع لأحكام القرآن، تحقيق أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش ط٢ (دار الكتب المصرية/ القاهرة ١٣٨٤هـ) ص ١/ ٣٩٥. وانظر: قصص الأنبياء لابن كثير؛ أبو الفداء إسماعيل بن عمر. (ت ٧٧٤هـ) تحقيق مصطفى عبدالواحد ط١ (مطبعة دار التأليف/ القاهرة ١٣٨٨هـ) ٢/ ٣.

السَّلَامُ لاَ يَرَاهُ أَحَدٌ إِلَّا أَحَبَّهُ، فَالسَّعِيدُ مَنْ أَحَبَّهُ طَبْعًا وَشَرْعًا"(١)، وجاء في تفسير التستري: "أظهر الله عليه ميراث علمه قبل العمل، فأورثه محبة في قلوب عباده، لأن من القلوب قلوبًا تثاب قبل الفعل، وتعاقب قبل الرأي، كما يجد الإنسان في نفسه فرحًا لا يعرف سببه، وغمًا لا يعرف سببه"(٢).

أما وصف هيئته الجسمية فقد أخرج البخاري عن ابن عمر قال: "وَأَمَّا مُوسَى، فَآدَمُ جَسِيمٌ سَبْطٌ كَأَنَّهُ مِنْ رِجَالِ الزُّطِّ"(٣)، ومن دلائل قوته أنه وكز القبطي فأرداه قتيلاً، وكذلك سقياه لابنتي شعيب، بعد أن رفع -منفردًا- الحجر عن فوهة البئر وكان لا يرفعها إلا جماعة من الرجال. وقوته مشوبة بالتعجل، ومن تعجله والشدة في غضبه أنه يُلقي بالصحف ﴿وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ﴾ [الأعراف: ١٥٠] عندما أخبره الرب - جل وعلا- أن القوم فتنوا بعده، وعبدوا العجل، حينها غضب وأخذ برأس أخيه ولحيته يلومه عندما ارتد بعض قومه في غيابه. ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ

(١) ابن كثير؛ أبو الفداء إسماعيل بن عمر (ت ٧٧٤ هـ) تفسير القرآن الكريم، تحقيق سامي بن محمد السلامة ط ٢ (دار طيبة للنشر والتوزيع/ الرياض ١٤٢٠هـ. ٦/ ١٩٩ - ٢٠٠.

(٢) التستري؛ أبو محمد سهل بن عبد الله بن يونس بن رفيع (ت ٢٨٣هـ) تفسير التستري، تحقيق، محمد باسل عيون السود (ط١، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية/ بيروت ١٤٢٣هـ) ص١٠٢.

(٣) البخاري؛ أبو عبد الله، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة، (ت٢٥٦هـ) صحيح البخاري تحقيق جماعة من العلماء الطبعة السلطانية، صورها محمد زهير الناصر، (دار طوق النجاة القاهرة ١٤٢٢هـ) ص٤/ ١٦٦.

قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗا قَالَ بِئۡسَمَا خَلَفۡتُمُونِي مِنۢ بَعۡدِيٓۖ أَعَجِلۡتُمۡ أَمۡرَ رَبِّكُمۡۖ وَأَلۡقَى ٱلۡأَلۡوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأۡسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيۡهِۚ قَالَ ٱبۡنَ أُمَّ إِنَّ ٱلۡقَوۡمَ ٱسۡتَضۡعَفُونِي وَكَادُواْ يَقۡتُلُونَنِي فَلَا تُشۡمِتۡ بِيَ ٱلۡأَعۡدَآءَ وَلَا تَجۡعَلۡنِي مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾﴾ [الأعراف: ١٥٠]، ومن تعجله الذي لم يصاحبه غضب أنه غادر المكان الذي عينه الرب سبحانه وتعالى للقاء المعلم الراشد الخضر عليه السلام، وذلك عندما عرف من نسيان حوتهما ورغبة فتاه بالعودة؛ فلم يغضب موسى وذكر الشوكاني أنه: "قالَ ذلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ أَيْ: قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ ذَلِكَ الَّذِي ذَكَرْتَ مِنْ فَقْدِ الْحُوتِ فِي ذَلِكَ الْمَوْضِعِ هُوَ الَّذِي كُنَّا نَطْلُبُهُ، فَإِنَّ الرَّجُلَ الَّذِي نُرِيدُهُ هُوَ هُنَالِكَ"[١].

ومن مظاهر قوته وانتصاره للحق حرقه العجل ﴿وَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِي ظَلۡتَ عَلَيۡهِ عَاكِفٗاۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِي ٱلۡيَمِّ نَسۡفًا ﴿٩٧﴾﴾ [طه: ٩٧].

ولقد رُسِمَت شخصيته الراشدة في القرآن الكريم ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسۡتَوَىٰٓ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٤﴾﴾ [القَصَص: ١٤]، "أي بعد أن تجاوز سن الثلاثين وقيل الأربعين. وقوله: ﴿ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ﴾ [يُوسُف: ٢٢] يعني بالحكم: الفهم بالدين والمعرفة."[٢] وقيل: "آتَيْناهُ

(١) الشوكاني؛ محمد بن علي بن محمد بن عبد الله اليمني (ت ١٢٥٠هـ) فتح القدير ط١ (دار ابن كثير، دار الكلم الطيب - دمشق، بيروت ١٤١٤هـ ٣/ ٣٥٣.

(٢) الطبري؛ محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري (ت ٣١٠هـ) جامع البيان عن تأويل آي القرآن؛ تحق: الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي (ط١، بالتعاون مع مركز البحوث والدراسات الإسلامية بدار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلام بيروت ٢٠٠١ م.) ١٩/ ٥٣٦.

حُكْمًا أي نبوة. وَعِلْمًا بالدين، أو علم الحكماء والعلماء وسمتهم قبل استنبائه، فلا يقول ولا يفعل ما يستجهل فيه"[١].

ومما جاء من وصفه في القرآن الكريم فضل الله عليه ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٥٣﴾﴾ [النِّسَاء: ١٥٣] هذا السلطان هو ما ثبته وكان عامل القوة في جداله مع فرعون والسحرة فأبطل زعمهم وسحرهم.

وهو كليم الله "لأنه سمع صوتًا دالاً على كلام الله بدون واسطة الملك"[٢] ﴿وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴿٦٩﴾﴾ [الأحزَاب: ٦٩] أي ذو جاهٍ ووجاهةٍ. وكذا قوله تعالى: ﴿وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [آل عِمرَان: ٤٥]؛ "لأن الناس يشتركون في وجاهة الدنيا، ولا يفوز بوجاهة الآخرة إلا الخلص كالأنبياء ومن قاربهم في الحظوة"[٣].

وثمة جانب وجداني في شخصية موسى يستحق الإضاءة؛ إنه جمال قوة العاطفة التي فطر عليها بفضل رباني، فهو يرفض المراضع وليدًا، وينتصر للذي من شيعته انتماءً وولاءً، ويتصدى لمساعدة ابنتي شعيب

(١) البيضاوي؛ ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي (ت٦٨٥هـ)؛ أنوار التنزيل وأسرار التأويل تحقيق محمد عبد الرحمن المرعشلي (ط١، دار إحياء التراث العربي/ بيروت ١٤١٨هـ) ٤/ ١٧٣.

(٢) موسوعة الفرق المنتسبة للإسلام موقع الدرر السنية على الشبكة ٢/ ٤٧٨. وانظر: ابن عطية؛ أبو محمد عبدالحق بن غالب بن عبدالرحمن بن تمام، (ت ٥٤٢ ه)، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز. تحقيق محمد أبو الأجفان محمد الزاهي (ط٢، دار الغرب الإسلامي/ بيروت ١٩٨٣م) ٤/ ٤٠١.

(٣) السمين الحلبي؛ أبو العباس، شهاب الدين، أحمد بن يوسف بن عبد الدائم (ت ٧٥٦هـ) عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ. تحقيق: محمد باسل عيون السود (ط١، دار الكتب العلمية/ بيروت ١٤١٧ هـ) ٤/ ٢٨٨.

شفقة عليهما، فسقى لهما ورفع الصخرة منفردًا، ولم يتأن أو يتردد رغم تعبه الجسدي والنفسي بعد رحلة الهروب.

ويتملكه الشوق إلى أمه وأخته ومرباه؛ فيطلب الإذن بمغادرة مدين. ثم خوفه على زوجه التي تعاني أوجاع الولادة، وصعوبة الوضع في هذا البرد القاسي القارص، مما يجعله يتعلق ببارقة أمل يراها في هذا الظلام؛ نورًا يأنس له ويبدد خوفه، ويحيي في قلبه الرجاء ﴿إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [القَصَص: ٢٩].

وأما وفاته فقد جاء في تفسير الألوسي "أن موسى عليه السلام توفي في أرض التيه قبل فتح ديار الجبارين"(١).

أم موسى

كان اسمها ميدانًا لاختلاف المفسرين والمؤرخين، فذكر الطبري أن اسمها "يحيب ابنة شمويل بن بركبا"(٢)، وذكر ابن قتيبة أن اسمها "أباحثة وفي التوراة اسمها يوخابث"(٣) ونقل القرطبي عن الثعلبي. "وقيل: لوخا بنت هاند بن لاوي بن يعقوب."(٤) وذكر ابن الأثير أن

(١) الألوسي؛ روح المعاني في تفسير القرآن العظيم. ٨/ ٢٩٥.

(٢) الطبري، تاريخ الرُّسُل والملوك ١/ ٣٨٥.

(٣) ابن قتيبة الدِّيْنوَري، أبو مُحَمَّد عَبْد اله بن مسلم. (ت ٢٧٦ هـ)، المَعَارف. تحقيق وتقديم: الدكتور ثروت عكاشة (ط٢، دار المعارف/ مصر. ١٩٦٩م) ص ٢٠.

(٤) القِنَّوجي؛ أبو الطيب محمد صديق خان بن حسن بن علي ابن لطف الله الحسيني البخاري (ت ١٣٠٧هـ)، فتح البيان في مقاصد القرآن عني بطبعهِ وقدّم له وراجعه: عَبد الله بن إبراهيم الأنصَاري (المَكتبة العصريَّة للطبَاعة والنّشْر،/ صَيدَا - بَيروت ١٩٩٢م) ١٠/ ٩٠.

اسمها "يوحانذ"[١]. وذكر الصاوي أن اسمها "لوحا بنت هاند بن لاوي"[٢].

وأوافق القول الذي قال عن اسمها: "أنها من مبهمات القرآن التي ليس في معرفتها كبير فائدة"[٣]. وقد نبع هذا الاضطراب في تحديد اسمها لأهمية دورها في قصة موسى من جهة، وتداعيات خوفها الذي لا يعدله خوف من جهة أخرى. فهي مثقلة بفطرة الأمومة لفراق وليدها قسرًا. وواقع حالهم تحت سيطرة فرعون يفرض ظلمًا وتهديدًا، مما جعل المفسرين ورواة الأخبار يطيلون الوقوف، فالحديث عنها ذكاه (أنه أوحي إليها) الذي أثار سؤالًا فلسفيًا هل يتلازم الإيحاء مع الاستنباء والتكليف بالرسالة دار جدل طويل أثقل المدونات وأنهك الباحثين وأكثرهم يرى عدم تسميتها نبي "فالوحي المسند إليها هنا وحي إلهام، لا وحي إعلام"[٤].

ويبدو لي أن قضية الإيحاء عملت على تفشي الاضطراب في تحديد اسمها.

---

(١) ابن الأثير؛ عز الدين أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني الجزري، (ت ٦٣٠هـ)، الكامل في التاريخ. تحقيق عمر عبد السلام تدمري (ط١، دار الكتاب العربي/ بيروت ١٤١٧هـ) ١ / ٩٥.

(٢) الصاوي؛ أحمد بن مُحَمَّد الصَّاوِي المالكي الخَلْوَتي (ت ١٢٤١هـ)، حاشية العلامة الصاوي على تفسير الجلالين (المكتبة الإسلامية/ القاهرة د. ت.) ٣/ ٢٠٩.

(٣) محمد مطني؛ سورة القصص دراسة تحليلية، رسالة ماجستير (المكتبة الإسلامية/ غزة ٢٠٠٣م) ١/ ٢٧٠.

(٤) محمد المكي الناصري، التيسير في أحاديث التفسير (ت ١٤١٤هـ)، دار الغرب الإسلامي/ بيروت ١٩٨٥م) ٤/ ٤٨٤.

الذي يعنينا أنها أم موسى، ومدى سيطرة الخوف عليها منذ كان بذرة في أحشائها، ومسلكها في درء الخطر عنها وعن وليدها، نستقي ذلك من نص القرآن الكريم والتدبر في آياته البينات.

أخت موسى

"وقد أبهم الله اسمها"[١] كما أبهم اسم أمها اكتفاء بنسبتها إلى أخيها موسى عليه السلام واكتفاء بذكر ما قامت به من عمل جليل تذكر به فى القرآن على مر الزمان.

وقد اضطرب المفسرون في تحديد اسْمِهَا وأكثرهم قال: "مَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ، وَافَقَ اسْمُهَا اسْمَ مَرْيَمَ أُمِّ عِيسَى عليه السلام، ذَكَرَهُ السُّهَيْلِيُّ وَالثَّعْلَبِيُّ وَذَكَرَ الْمَاوَرْدِيُّ عَنِ الضَّحَّاكِ: أَنَّ اسْمَهَا كَلْثَمَةُ وَقَالَ السُّهَيْلِيُّ: كُلْثُومُ" وذكر الثعلبي (كلثم)[٢].

هذا التوافق مع اسْمَ مَرْيَمَ أُمِّ عِيسَى عليه السلام نشأ عنه ذاك الاختلاف في اسمها. وقد عزز هذا التوافق أن جاء الخطاب في سورة مريم (يا أخت هارون)، ولعل خدمتها لنساء فرعون يسرت لها تتبع خبر أخيها الرضيع وأتاحت لها تقديم اقتراحها (هل أدلكم على قوم يكفلونه) "وكانت أخت موسى تدخل دار فرعون لخدمة نسائه، "[٣]

---

(١) القرطبي؛ الجامع لأحكام القرآن ص ١٣/ ٢٥٦.

(٢) الثعلبي؛ الكشف والبيان ص ٢٧/ ٧٠.

(٣) أبو بكر؛ عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد؛ دَرْجُ الدُّرر في تَفِسيرِ الآيِ والسُّوَر (ت٤٧١هـ) تحقيق: وَليد بِن أحمد بن صَالِح الحُسَيْن، وإياد عبد اللطيف القيسي (ط١، مجلة الحكمة/ بريطانيا ٢٠٠٨م) ٣/ ١١٩٧.

وتفصح الآيات التي تحدثت عنها [القصص ١١-١٢] اتصافها بالحكمة وبعد النظر، وحسن الحيلة في تثبيت مشاعر الاطمئنان لوالدتها، وإزاحة القلق عن فؤادها، وتحقيق الأمان لأخيها بتأمين إرضاعه، مع مهارة واقتدار على تعمية أهل القصر أنها أخته؛ لتخرج به من قصر فرعون إلى بيت والدتها. ومن مظاهر حكمتها: "أَنَّهَا كَانَتْ تمشي جانبًا وتنظر اختلاسًا تُرِي أَنَّهَا لاَ تَنْظُرُهُ، وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ، أَنَّهَا أُخْتُهُ وَأَنَّهَا تَرْقُبُهُ"[1].

امرأة فرعون

هي: "آسية بنت مزاحم بن عبيد بن الريان بن الوليد الذي كان فرعون مصر في زمن يوسف الصديق عليه السلام وقيل كانت من بني إسرائيل من سبط موسى عليه الصلاة والسلام وقيل كانت عمته حكاه السهيلي"[2].

وكانت من خيار النساء، ومن بنات الأنبياء، وكانت أما للمساكين ترحمهم وتتصدق عليهم[3]. وقد شَرُفت بذكر اسمها مرتين في مواقف إيمانية لا يؤتاها إلا المتقون. يوم أنقذت موسى من الغرق ومن القتل

---

(١) البغوي؛ أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء (ت ٥١٠هـ) معالم التنزيل في تفسير القرآن، تحقيق: عبد الرزاق المهدي (ط١، دار إحياء التراث العربي/ بيروت، ١٤٢٠هـ) ٣/ ٥٢٥.

(٢) أبو السعود العمادي؛ محمد بن محمد بن مصطفى، (ت ٩٨٢هـ) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم (دار إحياء التراث العربي/ بيروت د.ت.) ٧/ ٤.

(٣) الجمل؛ سليمان بن عمر بن منصور العجيلي، (ت ١٧٩٠هـ) حاشية الجمل على تفسير الجلالين. (دار الكتب العلمية / بيروت ٢٠١٣م) ٣ / ٣٣٧.

﴿لَا تَقْتُلُوهُ﴾ [القَصَص: ٩] والثاني أن حفظ القران دعاءً لها يتلى ويُصَلَّى به، ويشتاق كل مسلم أن يستجاب له وهو يتلوه .﴿رَبِّ ٱبْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي ٱلْجَنَّةِ﴾ [التَّحريم: ١١].

فرعون

"فِرْعَوْنُ: هُوَ لَقَبٌ لِكُلِّ مَنْ يَمْلِكُ أَرْضَ مِصْرَ بَعْدَ الْعَمَالِقَةِ"[١]، "وقال السهيلي: هو اسم لكل من ملك القبط ومصر، وهو غير منصرف للعلمية والعجمة، وقد اشتق منه باعتبار ما يلزمه فقيل: تفرعن الرجل إذا تجبر وعتا"[٢].

واسم فرعون هذا الوليد بن مصعب - قاله ابن إسحاق، وأكثر المفسرين - وقيل: أبوه مصعب بن ريان (حكاه ابن جرير)، وعن أبي النصر القشيري في التيسير أنه بلغة القبط اسم للتمساح[٣]. وذُكر أنه طاغية عصره فقد ظلم وبطش وقال: (أنا ربكم الأعلى) ورغم هذا الجبروت والتسلط على بني إسرائيل؛ كان شخصية يسكنها الخوف، ويحاول التمرد على ذلك الخوف بالبطش وظلم المستضعفين: فقد خاف من النبوءة أو الرؤية بأن مولودًا في بني إسرائيل سيقضي عليه، ويقوض ملكه. وخاف من طفل رضيع جذب لحيته فأراد قتله (حادثة الجمرة والياقوتة)، وعندما أراه موسى برهان ربه "أخذه رهب شديد وخوف عظيم"[٤]. كما خاف أن يتبع السحرة موسى (كبيركم الذي

(١) الشوكاني؛ فتح القدير للشوكاني. ٢/ ٢٦٢.
(٢) الألوسي؛ روح المعاني في تفسير القرآن الكريم. ١/ ٢٥٤.
(٣) الألوسي؛ روح المعاني في تفسير القرآن الكريم. ٥/ ١٨.
(٤) ابن كثير؛ قصص الأنبياء. ٢/ ٣٦.

علمكم السحر)، وخاف من قوة تأثير موسى فطلب من وزيره هامان أن يبني له صرحًا ليطلع إلى إله موسى، وخاف من أن يخرجه موسى من أرضه ﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾﴾ [طه: ٥٧][1].

الإسرائيلي

هو الإسرائيلي الذي خاصم القبطي فاستعان بموسى، وكان سببًا في غواية موسى مرتين في يومين متعاقبين. في اليوم الأول استنصر موسى على الرجل القبطي، فكان أن وكز موسى القبطي فقضى عليه، والمرة الثانية عندما استصرخ موسى على قبطيٍّ آخر فلامه موسى على غوايته (إنك لغوي مبين) وكان موسى قد استغفر ربه، فلما غفر له قطع على نفسه عهدًا ألا يكون ظهيرًا للمجرمين ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾﴾ [القصص: ١٧]؛ لذا وجه لومه للرجل الإسرائيلي، وكان حادًا في لومه؛ لأن هذا الإسرائيلي كان المتسبب في أن تكون وكزة موسى قاتلة؛ لذا صب موسى جام غضبه وقلقه على هذا الإسرائيلي فوجه قوله مرعدًا ﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾﴾ [القصص: ١٨] فأرعبه، وأدخل في قلبه الخوف لأن الإسرائيلي ظن أن موسى سيعاقبه وقد يقتله. ومما زاد اشتعال الرعب في قلبه أنه واع بقوة موسى وشدته، وهذا ما جعله يستدرك على موسى (أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ) في مسمع من الرجل القبطي. فتسبب بأن فضح أمر موسى، مما دفع خصمه للإسراع إلى تبليغ فرعون وملأه؛ الذي أمر بقتل موسى.

---

(١) السمرقندي؛ أبو الليث نصر بن محمد بن إبراهيم، (ت ٣٧٣هـ). بحر العلوم، تحقيق علي معوض وعادل عبد الموجود وزكريا النوتي (دار الكتب العلمية/ بيروت ٢٠١٤م) ٢/ ٥٩٨.

وقال بعضهم: "كان ذلك إبليس تشبه بالرجل الإسرائيلي، ليُظهر أمر موسى. وقال بعضهم: كان ذلك الرجل بعينه. فقال ذلك الرجل من الخوف إِنْ تُرِيدُ يعني: ما تريد إِلاَّ أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ يعني: قَتَّالًا، تقتل ظلمًا"[١].

القبطي الأول

الذي اختصم مع الإسرائيلي فوكزه موسى فقتله، فكان سببًا في خوف موسى وخشيته ربه، فاستغفر وأخلص التوبة.

أما سبب الخصومة مع الإسرائيلي التي قادت إلى قتله "أن خباز فرعون أخذ رجلاً من بني إسرائيل سخرة، فأمره بأن يحمل الحطب إلى دار فرعون (فَاسْتَغاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ) يعني: هذا الذي من شيعة موسى استغاث بموسى عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسى"[٢].

وقيل إن موسى كان يريد فك التشابك اللفظي بين الإسرائيلي والقبطي خباز فرعون؛ «فغضبَ موسى عليه السلام واشتدَّ غَضَبُه؛ لأنَّه تناوله وهو يعلمُ منزلة موسى عليه السلام من بني إسرائيل، وحِفْظَه لهم، ولا يعلمُ الناسُ إلا أنما ذلك من قِبَلِ الرضاعةِ من أمِّ موسى عليه السلام، فقال للفرعوني: خلِّ سبيله. فقال: إنما آخذه ليحملَ الحطب إلى مطبخ (أبيك). ويضيف المحقق "فقال عليك لعنة الله وعلى فرعون من أين هو أبي؟ فتنازع أحدهما صاحبه، فقال الفرعوني الطباخ لقد هممتُ أن أحمله عليه يا موسى إذ كنت عدوًّا لنا." وكان موسى عليه السلام قد أوتي

(١) السمرقندي؛ تفسير بحر العلوم، ٢/٦٠٢.

(٢) السمرقندي؛ تفسير بحر العلوم، ٢/ ٦٠١.

بسطة في الخلق وشدة في القوة والبطش ﴿فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ﴾ [القَصَص: ١٥] فقضى عليه.(١)

القبطي الثاني

هو من اختصم مع الرجل الإسرائيلي السابق ذكره، ولم أقع على سبب الخصومة؛ الذي يعنينا أن الرجل شغل عن الخصومة بالحوار المشتعل بين موسى والذي من شيعته. ولذا كانت أمامه سانحة استثمر فيها ما سمعه، فأنهى التشابك اليدوي وأسرع بما سمع إلى قصر فرعون بالمعلومة الثمينة، فكان متسببًا في أن القوم ائتمروا للاقتصاص من موسى وقتله.

الرجل القادم من أقصى المدينة
والرجل المؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه

تتداخل شخصية الرجل الذي جاء من أقصى المدينة يسعى مع الرجل المؤمن الذي يكتم إيمانه، أهما شخصية واحدة في حدثين أم هما شخصيتان مستقلتان.

كل منهما شهد مفصلاً فاعلاً في قصة موسى. وكان الخوف منهما على موسى محركًا دافعًا بتطور الحدث في القصة في انتقال أحداث القصة مكانًا كما أسهم تشكل صيغ الحوار ومنحنيات الحِجاج. وتلتقي الشخصيتان أنهما تسببا في نجاة موسى من القتل.

الشخصية الأولى الذي خاف على موسى وجاء من أقصى المدينة يسعى على رجليه، وأخبره أن القوم يأتمرون به ونصحه بأن يخرج من

(١) الثعلبي؛ الكشف والبيان عن تفسير القرآن ٢٠/ ٤١٠.

المدينة ﴿إِنَّ ٱلۡمَلَأَ يَأۡتَمِرُونَ بِكَ لِيَقۡتُلُوكَ﴾ [القصص: ٢٠] قيل إنه: "حزقيل بن صابوث القبطي"(١).

هذه الشخصية تقدم حدوث فعلها زمنًا على فعل الشخصية الثانية، فقد كانت الواقعة قبل تكليف موسى بالرسالة، وهو قد جاء ساعيًا من أقصى المدينة ولم ينص أنه من آل فرعون. وإنما بصيغة النكرة (رجل) ﴿وَجَآءَ رَجُلٞ مِّنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ يَسۡعَىٰ﴾ [القصص: ٢٠]؛ لذا فالخوف على موسى أشد ضراوة، بعد أن تيقن الرجل الناصح أن القوم يأتمرون ليقتلوا موسى قصاصًا. ثم خوف موسى الذي يدرك جيدًا مدى بطش فرعون والملأ حوله. ولأن الواقعة قبل التكليف فموسى يقع نهبًا لغريزة الخوف التي تصدر عن ضعف بشري يمس جميع البشر في مواقف أقل شراسة ودون ما حدث لموسى.

أما الرجل الذي يكتم إيمانه فقد نص القرآن الكريم أنه من آل فرعون، وقيل هو ابن عم له، وشهادته واعتراضه على قتل موسى جاء بعد تكليف موسى بالرسالة، واجه الرجل المؤمن فرعون ودخل معه في حجاج ﴿وَقَالَ رَجُلٞ مُّؤۡمِنٞ مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَكۡتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقۡتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدۡ جَآءَكُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمۡۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبٗا فَعَلَيۡهِ كَذِبُهُۥۖ وَإِن يَكُ صَادِقٗا يُصِبۡكُم بَعۡضُ ٱلَّذِي يَعِدُكُمۡۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ كَذَّابٞ ٢٨﴾ [غافر: ٢٨] واختلفوا في اسمه فمن عده هو والرجل الذي نصح موسى بالخروج شخصية واحدة أعطاه الاسم ذاته،

(١) مقاتل؛ أبو الحسن مقاتل بن سليمان بن بشير الأزدي البلخى (ت ١٥٠هـ) تفسير مقاتل بن سليمان، تحقيق: عبد الله محمود شحاته (ط١، دار إحياء التراث/ بيروت، ١٤٢٣هـ). ٢/ ٣٤٠.

أو باختلاف يسير صوتيًا أو إملائيًا[١]. وما ذكره الزمخشري أن: "اسمه: سمعان أو حبيب. وقيل: خربيل، أو حزبيل[٢]. وهو ما يثبت أنه شخصية أخرى غير الذي جاء من أقصى المدينة يسعى. وما نستدل به على اختلاف الشخصيتين أن الرجل المؤمن؛ شوهد في مجلس فرعون مفصحًا عن شجاعةِ صاحبِ كلمةِ حقٍ عند سلطان جائر، ذلك أن قوة إيمانه أذابت جليد الخوف الذي يربط آلة النطق ويعطل فصاحة الكلام، فمن ذا يستطيع الاعتراض على فرعون بعد أن توج هيبته. بمقولة (أنا ربكم الأعلى) هذا الموقف يثير تساؤلات: من أين اكتسب ذلك الرجل مقاومة الخوف؟ أذلك لأنه من آل فرعون يستند إلى ركن شديد؟ أو كونه من الإسرائيليين العاملين في بلاط فرعون؟ ذكر المفسرون أنه ابن عم فرعون[٣]، يعني من آله. "وهو حزبيل بن ميخائيل، وكان أبوه من آل فرعون، وأمه من بني إسرائيل"[٤].

إن العمال والمسخرين لتلبية سلطة فرعون والموقوفين على خدمته؛ ليس لديهم الشجاعة لمخالفته سرًا فكيف بمحاجّته علنًا؟ وفي مجلسه المحاط بمقومات قوة الطغيان وأدوات الظلم والجبروت. والأرجح أنه من آل فرعون أو من القبط المقربين. وقد كان مؤمنا يكتم إيمانه وأكسبته

---

(١) الجوزي؛ أبو الفرج عبدالرحمن بن علي بن محمد الجوزي (ت ٥٩٧ هـ). زاد المسير، تحقيق عبدالرزاق المهدي، (دار الكتاب العربي/ بيروت ط١، ١٤٢٢هـ) ٧/ ٢١٧.

(٢) الزمخشري؛ أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد جار الله، (ت ٥٣٨ هـ). الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (ط ٣، دار الكتاب العربي/ بيروت ١٤٠٧هـ) ٤/ ١٦٢.

(٣) الطبري، جامع البيان، ٢٠/ ٣١١.

(٤) السمرقندي؛ بحر العلوم، ٣/ ٢٠٤.

قوة الإيمان شجاعة تنطق بالحق، ولا تهاب لومة لائم.

كما نرجح أن الإسرائيلي هو الرجل الذي جاء من أقصى المدينة يسعى، وأعلم موسى بالخطر القادم. ولعله من العاملين في البلاط؛ فيتاح له التقاط بعض ما يدور في مجلس فرعون. فهو رجل لا يمتلك الشجاعة، بل يتلبسه الخوف على موسى؛ لذا كان الحل عنده أن يدعوه للهرب ومغادرة المدينة، فالهروب أسلوب الخائفين الذين يطلبون النجاة والسلامة. وهذا لا يصادم ما سيأتي فيما بعد من تكليف موسى بالرسالة، فموسى كان خائفًا، ولهم عليه ذنب ويخاف أن يقتلوه. وقد أسعفته رحمة ربي بالتثبيت وشد عضده بأخيه. وأما قبل التكليف فإن سلوك موسى سلوك بشري فيه ما يتمثله كل إنسان من مظاهر القوة والثبات في مواقف مذكورة كما أن له من سمات الضعف البشري كالخوف في مواقف أخرى.

الامرأتان عند ماء مدين

الامرأتان "هما ابنتا شعيب واسم الكبرى صبورا واسم الصغرى عبرا»[1] ذواتا عفة وحياء، فقد خافتا من الرعاء، وفي ﴿وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمۡرَأَتَيۡنِ تَذُودَانِۖ﴾ [القَصَص: ٢٣] تضيف دلالة (من دونهم) الابتعاد الحركي في المكان مضافًا إلى ما في الفعل (تذودان) من اضطراب حركة الفتاتين مع حركة الأغنام؛ إذ تمنعان أغنامهما من الاقتراب من الماء، مما يضفي بعدًا في عمق الخوف الذي زاد من اضطرابهما، لأن الحضور الجماعي للرعاء يشكل هيبة ترعب الفتاتين لضعفهما الأنثوي،

(١) مقاتل بن سليمان، تفسير مقاتل بن سليمان، ٣/ ٣٤١.

وقلة عددهما، فلا قوة تركنان إليها تجابه هذا الجمع من الرجال الأقوياء. وأبوهما شيخ كبير، فهما ترعيان الأغنام بدلاً عنه لكبر سنه وضعفه. جاء شرح حالهما في جوابهما على سؤال موسى ما خطبكما؟ ﴿قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القصص: ٢٣] التي أجابت إحداهما أو قد تكونان اقتسمتا الجواب: واحدة تحدثت عن السقي والأخرى وصفت حالة الأب (شيخ كبير) لتفسر تصديهما للسقي في مجتمع يوكل هذه المهمة للرجال؛ وأما النساء فيبدو أن ثقافة ذاك المجتمع تجعلهم في معزل عند ازدحام الرجال. قالتا "لا نستطيع أن نزاحم الرجال"[(١)] ومثل هذا العزل يعزز فطرة الحياء عند النساء، ومن جهة أخرى ينمي غريزة الخوف ويقويها، فتجنحان إلى الابتعاد وتذودان بغنمهما. وسياق الآيات يتحدث عن إحداهما ولا حديث عن الثانية منذ مشهد السقيا. فالأولى هي من جاءت إلى موسى (تمشي على استحياء). وهنا نلحظ خوفًا لدي الفتاة أن يساور موسى وهم أو ريبة فأبانت عن الغرض لدعوته وهو استيفاء أجر ما سقى لهما (قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا) "صرحت له بهذا لئلا يوهم كلامها ريبة، وهذا من تمام حيائها وصيانتها"[(٢)]. ويجلي نقاء المرأة وعفتها وأدبها.[(٣)] وهي من اقترحت على والدها أن يستأجره كاشفة عن صدق

(١) الطبري؛ جامع البيان (ط دار هجر) ١٨/ ٢١٢.

(٢) ابن كثير؛ قصص الأنبياء، ٢/ ١٨.

(٣) وفي أدب النساء: "نهي النسوة أن يخضعن بالقول، وترقيق الصوت، وتمطيطه، وتنغيمه، وتحسينه". معجم المناهي اللفظية، تأليف بكر بن عثمان بن يحيى بن غيهب (ت١٤٢٩هـ)، ط٣ (دار العاصمة / الرياض١٤١٧هـ) ص٣٨. وهو حكم قرآني [الأحزاب ٣٢].

فراستها وبعد نظرها، فهو القوي الأمين، وهي من ستحظى به زوجًا وتتحمل اجتماع عناء الرحلة وآلام الوضع.

وأثار المفسرون والمؤرخون تساؤلاً: أيُّ البنتين كانت زوجًا لموسى؟ وقد مس الاختلاف الجواب فجاء: "على قولين: أحدهما: الصغرى، رُوِيَ عن ابن عباس. والثاني: الكبرى، قاله مقاتل. وفي اسم التي تزوجها ثلاثة أقوال: أحدها: صفوريًا، حكاه أبو عمران الجوني. والثاني: صفورة، قاله شعيب الجبائي. الثالث: صبورًا، قاله مقاتل".[(١)] ولسنا بصدد التحقق من هذه الأقوال.

الرعاء

الرعاء جمع تكسير على صيغة فِعَال، واحده الراعي، وهم قوم من الرجال مجتمعون على ماء مدين يسقون دوابهم، ثم يسدون وجه البئر بحجر ضخم يتعاونون على حمله ورفعه لفوهة البئر محافظة على نظافته وجاء ذكرهم في قوله تعالى: ﴿قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القَصَص: ٢٣]، وهم من وصفهم القرآن أنهم أمة من الناس ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ﴾ [القَصَص: ٢٣].

الرجل الصالح أبو المرأتين

في اسمه خلاف، ولم يأت في القصة مزيد من التفاصيل حول شخصية هذا الأب، بل ساد الاختلاف عند التعريف به. وقد فصل ابن

---

(١) ابن الجوزي؛ زاد المسير ٣/ ٣٨١.

كثير ذاك الاختلاف، يقول: "وقد اختلفوا في هذا الشيخ من هو؟ فقيل هو شعيب عليه السلام. وهذا هو المشهور عند كثيرين وممن نص عليه الحسن البصري ومالك بن أنس، وجاء مصرحًا به في حديث، ولكن في إسناده نظر. وصرح طائفة بأن شعيبًا عليه السلام عاش عمرًا طويلاً بعد هلاك قومه، حتى أدركه موسى عليه السلام وتزوج بابنته. وروى ابن أبي حاتم وغيره عن الحسن البصري: أن صاحب موسى عليه السلام هذا، اسمه شعيب، وكان سيد الماء، ولكن ليس بالنبي صاحب مدين. وقيل: إنه ابن أخي شعيب، وقيل: ابن عمه، وقيل: رجل مؤمن من قوم شعيب، وقيل: رجل اسمه يثرون، هكذا هو في كتب أهل الكتاب: يثرون كاهن مدين. أي كبيرها وعالمها. وقال ابن عباس وأبو عبيدة بن عبد الله: اسمه يثرون. زاد أبو عبيدة: وهو ابن أخي شعيب. وزاد ابن عباس: صاحب مدين"[(١)].

وخلاصة القول ما ينقله ابن الجوزي: "واختلف العلماء في هذا الرجل الذي استأجر موسى على أربعة أقوال: أحدها: أنه شعيب نبي الله صلى الله عليه وسلم، وعلى هذا أكثر أهل التفسير. وفيه أثر عن النبي صلى الله عليه وسلم يدل عليه، وبه قال وهب، ومقاتل. والثاني: أنه صاحب مدين، واسمه يثربي، قاله ابن عباس. والثالث: رجل من قوم شعيب، قاله الحسن. والرابع: أنه يثرون ابن أخي شعيب، رواه عمرو بن مرة عن أبي عبيدة بن عبد الله بن مسعود، وبه قال ابن السائب"[(٢)].

---

(١) ابن كثير؛ قصص الأنبياء، ٢/ ١٨ - ١٩.

(٢) ابن الجوزي؛ زاد المسير. ٣/ ٣٨١.

والأقرب أنه من الصالحين وقد يكون من آل شعيب النبي، وليس هو النبي، وإنما توافق أسماء؛ لأن الحقبة الزمنية بعيدة بين نبي الله شعيب وموسى عليهما السلام.

نلحظ لهذا الأب صفات نبيلة، ونظرات حكيمة منها: حرصه على بناته؛ فهو يستغرب سرعة عودتهما، وسؤاله لابنته كيف حكمت على من سقى لهما أنه القوي الأمين، فهذا التدقيق في الموعد والقول يصدر عن أب لا يغفل عن بنتيه وتتبع أمورهما. وهو يلبي عرضها أن يستأجره ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾﴾ [القصص: ٢٦] قال الشيخ: هذه القوة قد رأيت حين اقتلع الصخرة، أرأيت أمانته، ما يدريك ما هي؟ قالت: مشيت قدامه فلم يحب أن يخونني في نفسي، فأمرني أن أمشي خلفه"[(١)]، هذه المشاعر الأبوية تنبض بالخوف على ابنتيه، وهو ضعيف لكبر سنه ولديه حكمة وعمق التفهم ﴿فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ ۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [القصص: ٢٥]، وهو يُطمئن موسى بالنجاة؛ لأن مدين غير خاضعة لسلطة فرعون.

وهذا الرجل تيقن أن في موسى القوة والأمانة؛ لذا عرض عليه تزويجه بعد أن آواه إليه وآمنه ﴿قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَـٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَـٰنِىَ حِجَجٍ ۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ ۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ۚ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [القصص: ٢٧] وقد أسس هذا الأب الحكيم في قصة زواج موسى لبنود في مواثيق الزواج ينتفع بهما المجتمع؛ فلا ضير أن يخطب الأب لابنته بأن

(١) الطبري؛ جامع البيان، ١٨/ ٢٢٨.

يعرضها على من يتوسم فيه التقوى، والثقة برعايتها، وهذا مسلك حسن امتد في الثقافة الشعبية واتصل إلى يومنا هذا، والأمر الآخر عدم اشتراط الترتيب في تزويج الفتيات فلا يشترط الأب تزويج الكبرى (إحدى ابنتي) ويترك لموسى حرية الاختيار وكذلك أسس الأب إمكان تقسيط الصداق.

هارون

ورد اسمه قبل ظهور شخصه على مسرح الحدث ﴿وَأَخِى هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾﴾ [القَصَص: ٣٤] هذا الطلب شاهد على خوف موسى، كما أن موسى متيقن أن مهارته الإفصاحية لا تصل إلى مناسبة التكليف بالرسالة ﴿هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى﴾ [القَصَص: ٣٤]، وإذا كان هارون أفصح من موسى لسانًا وبيانًا؛ فإن موسى أصلب عودًا، وأمضى بأسًا، وأشد قوة. وهو دليل على عدالة المولى فالأنصبة من الحظوظ متفاوتة عند البشر فهم يتكاملون للنهوض بمسؤولية الخلافة[1] ﴿إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البَقَرَة: ٣٠].

وثمة خوف آخر في طلب موسى من الرب توزير أخيه هارون ذلك الخوف الذي يستكمل صفة شخصية موسى القلقة فموسى لا يثق إلا بأخيه، ويخشى خيانة الآخرين وعدم تصديقهم له، وهو لا يأتمنهم. لأن الرسالة أمر مهيب، ومسؤوليتها شاقة، وهو أعلم بخيانة قومه لذا كان

---

(١) القاسمي؛ محمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم الحلاق (ت ١٣٣٢هـ) محاسن التأويل، تحقيق محمد باسل عيون السود (ط١، دار الكتب العلمية/ بيروت ١٤١٨هـ) ١/ ٢٨٤.

غضبه شديدًا عندما رأى تهاون أخيه مع المرتدين وسنفصل خبره فيما بعد. وكان هارون شريكًا مع موسى في الخوف من مواجهة فرعون الذي طغا، على رأي من جعل الخوف لهما معا[١] ؛ لأن فرعون مفرط في جبروته وطغيانه، فهما يخافان أن "يعجل علينا بالقتل والعقوبة، يقال: فرط عليه فلان إذا عجل بمكروه، وفرط منه أمر أي بدر وسبق، أو أن يطغى، أي يجاوز الحد في الإساءة إلينا"[٢] ﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾﴾ [طه: ٤٣-٤٦] اجتمع في هذه الآية الأمر بالذهاب، وتعليل هذا الأمر (طغيان فرعون) ومنهج مرسوم لأسلوب التبليغ (القول اللين) والهدف (لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى) ثم صرخة الخوف من موسى وأخيه مع التبرير لهذا الخوف (إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى) ويأتي التثبيت الداعم من رب العزة والجلال قَالَ لاَ تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى للرسالة والمُرْسَلَيْن (قَالَ لاَ تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى).

هامان

شخصية فاعلة مؤثرة، ذكر في القرآن الكريم ست مرات. ولهذه الشخصية مقومات مهارية متأصلة، قربته جدًا من فرعون ومن أعوانه. فهو صاحب رأي يستشار في الشأن العام لفرعون وللبلاد، ولرعاياه

---

(١) الرازي؛ أبو عبدالله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الملقب بفخرالدين (ت ٦٠٦هـ) مفاتيح الغيب (ط٣، دار إحياء التراث العربي / بيروت ١٤٢٠هـ) ٢٢/ ٥٢.

(٢) البغوي؛ معالم التنزيل في تفسير القرآن، ٣/ ٢٦٣.

المقربين والمضطهدين. ولأهمية مكانته كان له جنده الخاص فقد وردت جنودهما مضافة لضمير المثنى العائد على فرعون وهامان ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ﴿٨﴾﴾ [القصص: ٨]. وقد كان هامان شريكًا في كثير من القرارات الحاسمة والمؤثرة. فهو صاحب القرار بمنع فرعون متابعة موسى بالإيمان برسالته على أن يحتفظ بملكه في الدنيا ووعده بالجنة في الآخرة؛ لكن هامان رد فرعون عن ذلك بحجة "بينما أنت إله تُعْبَد إذ صرت عبدًا تَعْبِد، فرده عن رأيه"[(١)] ولتقدير فرعون لشخص هامان ومهارته الحرفية قصده لبناء الصرح حتى يطلع إلى إله موسى، وهذا دليل على مهارته في التخطيط والبناء. وتذكر كتب التفسير أنه أول من حول اللبِن إلى آجر (قوالب الطين). قال مقاتل: "هامان أول من طبخ الآجر وبنى به"[(٢)] وقد توفي هامان غرقًا في البحر، إذ كان مع فرعون وجنوده عندما طاردوا موسى ودخلوا بعد فلق البحر فأطبقت عليهم - بأمر الله - جحافل الأمواج فغرقوا ونجت الفئة المؤمنة.

قارون

اجتمع لقارون الجمال والمال وعذوبة الصوت وأنه من بيت النبوة؛ لكن الغرور والحسد انتهيا به إلى الخوف من أن يفوقه أحد، أو ينال خيرًا مما هو فيه، ومن ثم سلك طريقه إلى النفاق والكفر وقيل: "كان

---

(١) ابن سلام القيراواني؛ يحيى بن سلام بن أبي ثعلبة، تفسير يحيى بن سلام، تحقيق: هند شلبي (ط١، دار الكتب العلمية/ بيروت ٢٠٠٤م) ١/ ٢٦٣.

(٢) مقاتل بن سليمان، تفسير مقاتل بن سليمان، ٣/ ٧٢٣.

موسى ابن أخيه، وكان يسمى المنور لحسن صورته، وكان أقرأ بنى إسرائيل للتوراة، لكنه نافق"[١]. ﴿إِنَّ قَـٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ [القَصَص: ٧٦]. "وبَغْيه عليهم أَنَّهُ قَالَ: إِذَا كانت النبوة لموسى، وَكَانَ المذبح والقُرْبَان الَّذِي يُقرّب فِي يد هارون فما لى؟"[٢].

يتمكن الحسد من قلب النفوس المريضة التي تفتقر إلى نعمة الرضا والقناعة بما أوتيت من فضل ونعم؛ ذلك أن سطوة الشراهة غلبت عليه. فقارون في خوف مستعر أن يكون هذا الآخر قد فاقه في خير وفضل. هذا الحاسد لا يرى ما حوله من نعم يرغد بها، وإنما جل همه ألا يفوقه أحد. وما بطره واستعراض مفاتح خزنه التي ينوء بها أولو العصبة إلا دليل على غروره وحسده وخوفه. ويذكر أن موسى دعا عليه بعد افترائه على موسى في حادثة المرأة البغي فخُسِفَ به. وأنه عندما استجاب الله سبحانه لموسى وبرأه من تهمة الطمع بأموال قارون خُسِفَ بداره فقطع الشك عند المفترين على موسى كذبًا، ولم يتمكن أحد من نصرة قارون[٣] ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾﴾ [القَصَص: ٨١].

---

(١) الزمخشري؛ الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، ٣/ ٤٣٠.

(٢) الفراء؛ أبو زكريا يحيى بن زياد بن عبد الله بن منظور الديلمي (ت ٢٠٧هـ)، معاني القرآن، تحق: أحمد يوسف النجاتي ومحمد علي النجار وعبد الفتاح إسماعيل الشلبي (ط ١، الدار المصرية للتأليف والترجمة/ مصر) ٢/ ٣١٠.

(٣) عقيلة؛ محمد بن أحمد بن سعيد الحنفي المكيّ، شمس الدين (ت ١١٥٠هـ)، الزيادة والإحسان في علوم القرآن تحقيق: مجموعة باحثين في رسائل جامعية للماجستير (ط١، مركز البحوث والدراسات جامعة الشارقة/ الإمارات ١٤٢٧هـ) ٢/ ٢٣٨.

السحرة

لما كانت معجزات كل نبي تناسب ثقافة المجتمع الذي يتوجه له النبي بالدعوة؛ جاءت معجزات موسى في هذا الاتجاه، فقد كان السحر منتشرًا ومستشريًا في المجتمع القبطي. وكان فرعون يستشيرهم ويستعين بهم عند الحاجة. فهم أصحاب سلطة يرهبون بها الناس، وكانت لهم مكانة عند الملوك، ومهابة عند البسطاء[(١)].

وأما السحرة فـ"قيل: كانوا اثنين وسبعين، وقيل أربعمائة، وقيل: اثنا عشر ألفًا، وقيل: أربعة عشر ألفًا، وقال ابن المنذر: كانوا ثمانين ألفًا"[(٢)]. وسيأتي تفصيل مشاهد السحرة في فقرة شواهد ومشاهد.

السامري

اسمه موسى بن ظفر وهو منسوب إلى سامرى، وروي أن السامري كان ابن خال موسى. يقع السامري في قصة موسى موقع الشرير البغيض في أي مجتمع، فهو وافد على المجتمع الإسرائيلي، قدم من كرمان في بلاد العجم، "وقيل له السامرى نسبة إلى قبيلة كبيرة من بنى إسرائيل اسمها سامرة، وكانت صنعته الصياغة"[(٣)] وقد تشرب ثقافة قومه. الذين كانوا يعبدون البقر، فتعانق الموروث الثقافي ومهارة الصياغة في تصنيع

(١) انظر: صحيفة أخبار اليوم ٤/ أغسطس/ ٢٠١٨م

(٢) الشوكاني؛ فتح القدير، ٣/ ٤٤٠. وذكر الشوكاني في موضع آخر أنه «قيل تسعمائة ألف» (فتح القدير للشوكاني) ٢/ ٢٦٦.

(٣) الفيروزآبادى؛ مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب (ت ٨١٧هـ)، بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز. تحقيق: محمد علي النجار. (المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - لجنة إحياء التراث الإسلامي/ القاهرة ١٤١٦هـ.) ٦/ ٧٤.

العجل فخدع به القوم وأضلهم. ولا نعلم إيمانًا وسلامة عقيدة تبع موسى عندما عبر بقومه البحر أم طلبًا للنجاة، فاتخذ النفاق مسلكًا يدرأ به عن نفسه شك القوم فيه. وكان صاحب ملاحظة يلحظ الشوارد التي قد لا تقع أعين من حوله عليها؛ فبعد العبور رأى السامري، أثر فرس جبريل، "فأخذ ترابًا من أثر حافره"(١)، ستؤدي تلك القبضة إلى ارتداد فئة من القوم الناجين فقد انصرفوا إلى عبادة العجل الذي صنعه السامري.

الخضر صاحب موسى

اختلف كثير من العلماء في هوية الخضر عليه السلام أنبي هو أم ملَك؟ الأرجح أنه من الصالحين الملهمين، وممن أوتوا العلم من لدن عليم خبير. فالطبري ينقل رد أُبَي بن كعب عندما سئل عنه: "قال: نعم إني سمعت رسول الله - يقول: "بينا موسى عليه السلام في ملأ من بني إسرائيل، إذ جاءه رجل فقال: تعلم مكان أحد أعلم منك؟ قال موسى: لا، فأوحى الله إلى موسى: بَلى عبدنا الخَضِر، فسأل موسى السبيلَ إلى لقائه، فجعل الله الحوت آية، وقال له: إذا افتقدت الحوت فارجع فإنك ستلقاه، فكان موسى يتبع أثر الحوت في البحر، فقال فتى موسى لموسى: ﴿أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ﴾ [الكهف: ٦٣]، قال موسى: ﴿قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ۚ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾﴾ [الكهف: ٦٤]، فكان من شأنهما ما قصَّ الله في كتابه"(٢).

---

(١) الطبري؛ جامع البيان، ١٦/ ١٤٩.

(٢) الطبري؛ أبو جعفر بن جرير (ت ٣١٠هـ) صحيح وضعيف تاريخ الطبري، تحقيق محمد بن طاهر البرزنجي (ط ١، دار ابن كثير/ دمشق - بيروت ١٤٢٨هـ) ١/ ٣١٦ و١: ٣٦٨ - ٣٦٩.

الفعل والانفعال

بين الفعل والانفعال ترابط وشيج، فكل فعل ينتج عنه انفعال تتفاوت حدته وتختلف أدوات التعبير عنه، وفداحة الأثر الذي تسبب به. ويتصدى هذا البحث لفعل الخوف في قصة موسى في القرآن الكريم. فنستعرض نماذج من الخوف لفظًا، ونتدبر الخوف المفهوم من السياق؛ وعليه سنسرد قائمة بمعجم الخوف واشتقاقاته ومرادفاته، الواردة في قصة موسى. وما دل على درجة من درجات الخوف، أو ما يشير إليه. وكذلك نقف عند مثيرات الخوف في قصة موسى وتأثيراته، وثمة عرض لسياقات تلامس التخويف والمخوف منه والخائف. ونختم قضايا الفعل والانفعال بالوقوف عند خوف موسى ثم الخوف عليه، والبشارات التي تفعل التثبيت والاطمئنان.

الخوف اللفظي والخوف السياقي

استلزم تتبعُ مثيرات الخوف وتأثيراته في قصة موسى عنايةً خاصة لدلالة سياقات الآيات التي تخلو من مفردات في معجم الخوف. نتبين مظاهر الخوف في اتجاهين لفظي وسياقي. يتشكل الاتجاه اللفظي في ورود لفظ من معجم الخوف في نص الآيات، أما الاتجاه السياقي فيتضح بتدبر الآيات وربط القرائن في سياق الآيات بانفعالات الخوف ومثيراته وآثاره.

معجم الخوف في قصة موسى

تحفل المعاجم العربية برصيد ثري متنوع للخوف في درجاته وأوصافه وأنواع مثيراته، وتباين تأثيراته، وكل هذا يطلب في مظانه.

ولعل المخصص لابن سيده أكثرها شمولًا[١].

أولا: لفظ الخوف وما يرادفه

أكثر ألفاظ الخوف دورانًا في قصة موسى ما تشقق من الجذر (خ/ و/ ف) فقد ورد الفعل منه مثبتًا ومنفيًا، والطلبية الأمر والمنهي عنه، كما تنوع فاعله عددًا: من مفرد مخاطب إلى مثنى والجمع. وكذلك جنس الفاعل من مؤنث إلى مذكر، وجهة الفاعل حضور وغياب، ومخاطب ومتكلم. واختلفت صيغه من حيث الزمن الماضي والمضارع، وجاء المصدر منه على فَعْل (خَوْف) وعلى فِعْلة (خِيفَة). كما جاء من مشتقاته اسم الفاعل من الثلاثي المجرد (خائفًا).

كما ورد الفعل (أخاف) دالًّا على مفهوم الظن في الآية ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾﴾ [الشُّعَرَاء: ١٢].

وما دل على درجة من درجات الخوف ما جاء من الجذر (خ/ ش/ ي) وكان نصيبه من التردد أقل من الجذر (خ/ و/ ف) فقد جاء منه الفعل المضارع المنفي (لا تخشى) والفعل الماضي المسند للمتكلم (خَشِيتُ) ومن المصادر ما كان على (فَعْلة) (خَشْية) ويفرق الشيخ بن عثيمين رحمه الله بين الخوف والخشية "الفرق أن (الخشية) لا تكون إلا عن علم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْۗ﴾ [فَاطِر: ٢٨] بخلاف (الخوف): فقد يخاف الإنسان من المخوف ولا يعلم عن حاله؛ والفرق الثاني: أن (الخشية) تكون لعظم المخشيّ؛ و(الخوف) لضعف

(١) ابن سيدة؛ أبو الحسن علي بن إسماعيل (ت ٤٥٨هـ) تحقيق خليل إبراهم جفال (ط١، دار إحياء التراث العربي/ بيروت ١٤١٧هـ) ٣/ ٣٥٤ - وما بعدها.

الخائف وإن كان المخوف ليس بعظيم، كما تقول مثلاً: الجبان يخاف من الجبان يخاف أن يكون شجاعًا[(١)].

الآيات التي وردت فيها ألفاظ دالة على الخوف أو ما يدل على آثاره:

الجذر (خ/ و/ ف)

- الفعل المضارع المسند لضمير المتكلم المفرد ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾﴾ [الشُّعَرَاء: ١٢]، وكذا [الشعراء ١٤] و[القصص ٣٣، ٣٤].
- الفعل المضارع المسبوق بالنهي المسند لضمير المخاطب المفرد ﴿قَالَ خُذۡهَا وَلَا تَخَفۡۖ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلۡأُولَىٰ ﴿٢١﴾﴾ [طه: ٢١]، وكذا [طه ٦٨، ٧٧] و[النمل ١٠] و[القصص ٢٥، ٣١].
- الفعل المضارع المنهي عنه المسند لضمير المؤنث المخاطبة ﴿وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحۡزَنِيٓۖ﴾ [القَصَص: ٧].
- الفعل المضارع المنهي عنه المسند لضمير المثنى المذكر ﴿قَالَ لَا تَخَافَآۖ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾﴾ [طه: ٤٦].
- الفعل المضارع المثبت المسند لضمير جماعة المتكلمين ﴿قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفۡرُطَ عَلَيۡنَآ أَوۡ أَن يَطۡغَىٰ ﴿٤٥﴾﴾ [طه: ٤٥]
- الفعل الماضي المسند إلى ضمير المتكلم ﴿فَفَرَرۡتُ مِنكُمۡ لَمَّا خِفۡتُكُمۡ﴾ [الشُّعَرَاء: ٢١].
- الفعل الماضي المسند لضمير المؤنث المخاطبة ﴿فَإِذَا خِفۡتِ عَلَيۡهِ

(١) ابن عثيمين؛ محمد بن صالح بن محمد (ت ١٤٢١هـ) تفسير ابن العثيمين: الفاتحة والبقرة. (دار ابن الجوزي/ المملكة العربية السعودية، ١٤٢٣هـ) ٢/ ١٥٦.

فَأَلْقِيهِ فِي ٱلْيَمِّ﴾ [القَصَص: ٧]

- المصدر خيفة ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾﴾ [طه: ٦٧].
- اسم الفاعل﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ [القَصَص: ٢١].

الجذر (خ/ ش/ ي)

- الفعل الماضي المسند إلى ضمير المتكلم ﴿قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِيٓ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴿٩٤﴾﴾ [طه: ٩٤].
- الفعل الماضي المسند إلى ضمير المتكلمين ﴿وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾﴾ [الكهف: ٨٠].
- الفعل المضارع المسبوق بالنفي المسند لضمير المخاطب المفرد ﴿لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾﴾ [طه: ٧٧].
- الفعل المضارع المسند إلى ضمير الغائب المذكر ﴿لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾ [طه: ٤٤].
- المصدر خشية ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾ [البَقَرَة: ٧٤].

الجذر (ر/ هـ/ ب)

- المصدر من صيغة فَعْل (مِنَ الرَّهْبِ) ﴿وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [القَصَص: ٣٢] "قَالَ قَتَادَةُ: أَيْ: مِنَ الرُّعْبِ، إِلَى صَدْرِكَ يَذْهَبْ مَا فِي صَدْرِكَ مِنَ الرُّعْبِ، وَكَانَ قَدْ دَخَلَهُ فَزَعٌ وَفَرَقٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ، فَأَذْهَبَ اللهُ ذَلِكَ"(١).

---

(١) ابن سلام القيراواني؛ تفسير يحيى بن سلام، ٢/ ٥٩١.

- الفعل المضارع المجرد المسند لجماعة الذكور ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾﴾ [الأعراف: ١٥٤] يعني يخافون الله.
- الفعل الماضي على صيغة اسْتَفْعَلَ المسند إلى ضمير الغائب لجماعة الذكور ﴿قَالَ أَلْقُوا۟ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾﴾ [الأعراف: ١١٦].

وقال أبو القاسم الحكيم: "الخوف على ضربين: رهبة وخشية فصاحب الرهبة يلتجئ إلى الهرب إذا خاف وصاحب الخشية يلتجئ إلى الرب"(١).

الجذر (ح/ ذ/ ر)

- الفعل المضارع المسند إلى ضمير الغائب لجماعة الذكور ﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾﴾ [القَصَص: ٦].

هذا الفعل (يَحْذَرُونَ) يعبر عن المفارقة بين أمرين متضادين فإن ما يخيف فرعون ويحشد العدة والعدد لمنعه؛ يكون هو من آواه ورباه واتخذه ابنًا، فكان موسى يُسمى ابن فرعون. فخوف فرعون من النبوءة أن مولودًا من بني إسرائيل سيكون هلاكه بسببه، دفعه لاتخاذ أقسى الإجراءات؛ يجند لها الشرط والقوابل، والذباحين بشفرهم الحادة المرهفة، يتتبعون كل امرأة حاملاً، فإذا وضعت مولودًا ذكرًا بادروا

---

(١) الشافعي؛ أبو عبد الله محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن عبد المطلب بن عبد مناف المطلبي القرشي المكي (ت ٢٠٤هـ)، الرسالة. تحقيق: أحمد شاكر (ط١، مكتبه الحلبي/ القاهرة ١٩٤٠م) ص ٦٥.

بذبحه قبل أن تراه أمه. وتشاء إرادة الله أن ينجو الوليد المتنبأ به. وأكثر من ذلك أن يكون مرباه في قصر فرعون نفسه، بل ينادى (ابن فرعون) وهو موسى. وهنا تكمن المفارقة[١]. ولم أصل لمسببات الحذر عند هامان وجنوده ولعله تابع حذر فرعون وجنوده. وتبقى تفاصيل كثيرة يسكت عنها المفسرون، ونكتفي بقوله تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾ [الإسراء: ٨٥].

ثانيا: أساليب سياقية تدل على الخوف

اتكأ هذا البحث على النظر في سياق الآيات التي تحكي قصة موسى أو تشير إليها. فالسياق كيان لغوي يتضح في: "جملة العلاقات المعجمية، والصوتية، والتركيبية التي تصف النص بالالتحام أو الاتساق، أو التماسك، سواء من حيث بنيته الداخلية أم مع الموقف الذي يقال فيه، هذه العلاقات التي إن تجسدت، تحققت صفة الاتساق بينها وبين النص وهيأت النظام بينها"[٢].

ولا نكتفي بالوقوف عند الآيات التي نصت على لفظ من معجم الخوف؛ وإنما نستنطق النص مهتدين بتلك الظلال الإيحائية، مستعينين بإشارات وامضة في سياق آيات أخرى وردت سابقًا أو لاحقًا. وما يستدل عليه بالقرائن اللفظية الموحية في السياقات المختلفة والمتعددة.

---

(١) مقاتل؛ تفسير مقاتل بن سليمان، ٣/ ٣٣٦.

(٢) أبو زيد رحمون؛ الدلالات السياقية في القصص القرآني - قصة موسى أنموذجًا، (رسالة ماجستير مقدمة إلى قسم اللغة والأدب العربي في كلية الآداب واللغات - جامعة فرحات عباس، سطيف/ الجزائر في السنة الجامعية ٢٠١٠ - ٢٠١١م) ص أ (المقدمة).

نمثل لذلك بسياقين للخوف: خوف موسى والخوف على موسى.

أولا: خوف موسى

فرضت المواقف التي خاف فيها موسى وعيًا بضعفه البشري، فجاءت مواقفه وردود فعله في مقاومة الخوف متباينة، متوافقة مع طبيعة الموقف والمخوف منه. ونلاحظ أنه عندما يتملكه الغضب ويستحكم طاقاته، يستجيب لغضبه فيأتي بما يأسف عليه بعدها، فالغضب طاقة تولد قوة عنيفة قد تكون غير معتاد عليها من صدرت عنه(١) فيلجأ للاستغفار بعد محاسبة النفس. ففي يوم واقعة قتل القبطي اعتراه الخوف لفداحة الجرم غير المقصود. فلجأ للاستغفار لذنبه والدعاء، [القصص ١٦] وفي اليوم التالي عندما استصرخه رفيق الأمس طالبًا، النجدة خاف موسى من مغبة ما حدث، لذا عالج خوفه بزجر صاحبه وإن لم يمتنع عن نجدته ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ ۝١٨﴾ [القَصَص: ١٨]. وعندما علم بأن الملأ يأتمرون به استمع للنصيحة واتخذ الهرب سبيلاً لمداراة خوفه.

وفي مدين تتجلى صور خوف موسى منها: عندما سقى لابنتي شعيب ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ۝٢٤﴾ [القَصَص: ٢٤]. الخوف هنا ملازم لموسى فهو وإن ابتعد عن متناول الخطر على حياته يسكنه الخوف من المجهول، لذا فر هاربًا، غادر أرضًا يعرفها إلى متاهات يسأل الله الهداية(٢) ﴿قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن

(١) والعرب تقول "اتق غضبة الحليم".

(٢) وكذلك رجا الهداية عندما كان في طريقه إلى دياره قادمًا من مدين: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝٩ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ۝١٠﴾ [طه: ٩-١٠].

يَهْدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾﴾ [القَصَص: ٢٢] وعندما بدا له أمل النجاة، وقبل أن يركن للراحة بعد عناء النفس والبدن؛ نادته رجولته وحكمته [القصص ١٤] أن يُعين امرأتين (تذودان) ولم تكن معونته لهما السقيا فحسب؛ بل استحق ذلك جهدًا عضليًا يقوم به حشد من الرجال وكان عليه أن ينهض بذلك منفردًا، "ذُكِرَ أنه عَلَيْهِ السَّلَامُ فتح لهما عن رأس بئر كان عليها حَجَر لا يطيق رفعه إلا جماعة من الناس"(١)، بعدها نال منه التعب مداه، وتمارت مشاعره: إعياء الهروب، وقلق المجهول، وجوع يضرس به، ثم جهد عضلي يأتي على بقايا طاقة بدأت تخور وتتهاوى، فينتهي الأمر به إلى ظل احتضنه ليقيه حر الهاجرة: ﴿ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾ [القَصَص: ٢٤]. كثير من المفسرين قال في تفسير (فقير) أنه الطعام.

يتحمل الوصف (فقير) في هذا الموقف ظلال خوف لما ينته، قلق وهواجس وانتظار مجهول لا يتبينه فيستعد له، وعناء ومكابدة جوع شديد باعثه تلبية حاجة بيولوجية طبيعية لمن يتأخر طعامه، وجوع نفسي وليد الخوف والقلق. وهذا الجوع النفسي تعاني منه فئة من البشر ممن يكونون فريسة للعجز في تجاوز الأزمات. والافتقار إلى فكر حي رصين واسع الأفق، يسيطر على جحافل القلق المستشرية التي تنهش بالمرء فيتضور جوعًا على جوع. وقد تكون (فقير) طمعًا برحمة الله ورغبة في الاستزادة من الخير "رجع إلى الله بالافتقار والتضرع، فقال: إني لما عودتني من جميل إحسانك على الدوام، فقير إلى شفقتك، ونظرك إلي

(١) الطبري؛ جامع البيان، ١٨/ ٢١٢.

بعين الرعاية والكلاءة، فردني من وحشة المخالفين إلى أنس الموافقين، فرزقه الله صحبة شعيب"[١].

إن تداعيات الموقف تأرجحت به بين زلزال الخوف، وضياء الأمان الذي أشرق بمقدم إحدى الفتاتين ﴿قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ [القَصَص: ٢٥] لينال البشرى، ﴿قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [القَصَص: ٢٥]. هنا يتبدد الخوف؛ نجاة وأمن، ومعروف، ثم زواج صداقه مؤجل بما يعرف اليوم مقسط على ثمان حجج ﴿عَلَىٰ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ﴾ [القَصَص: ٢٧].

وننتقل إلى موقف آخر عندما تفاقم روعه من جسامة التكليف بالدعوة؛ فهو يستعطف المولى سبحانه أن يستوزر أخاه. فهما متكاملان: القوة والفصاحة. ومن المنطقي أن الفصحاء غير هارون كُثرٌ؛ لكنه الحب لأخيه والثقة به تعمر قلب موسى وعقله، فتثبته وتخفف عليه وطأة الخوف من هذه المسؤولية ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾ [القَصَص: ٣٥].

وبتدبر الآي في القرآن الكريم نجد أن الخوف كثيرًا ما يسكن موسى، فالتصريح بلفظ الخوف على لسانه تردد كثيرًا؛ (أخاف) [الشعراء ١٢، ١٤] و[القصص ٣٣-٣٤]، ثم (خفتكم) [الشعراء ٢١]، ووصفه (خائفًا) [القصص ٢١]، ووصف مشاعره (خيفة) [طه ٦٧]. ولم يكن خوف موسى نمطًا موحدًا في جميع سياقات القصة ففي قوله تعالى: ﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ﴾ [الشُّعَرَاء: ٢١] هذا الفرار الذي أعقب الخوف ليس صورة من الانهزام النفسي؛ بل ضرب من استشراف ما قد

(١) التستري؛ تفسير التستري، ص ١١٨.

يأتي، بناء على حسابات تجربة واعية، مدركة لعواقب موقف خاص في ظرف خاص، مع أقوام تسوق أفعالهم وسلوكهم تمثيل سلطة غاشمة. فموسى الذي تربى وليدًا في قصر فرعون حتى إنه عُرف باسم ابن فرعون، وشهد ظلم فرعون لبني إسرائيل؛ تجلت له الحقائق البينة بعد أن عرف حقيقة امتداد جذوره وانتمائه إلى بيئة أخرى خارج القصر. هذه الحقيقة كانت عاملاً في تأجيج مشاعر الولاء ونصرة المظلومين على الطغاة من الفئة الباغية وهم قوم فرعون. فهذا خوف مشوب بالحذر، المقود بالخبرة ووعي التجربة. وثمة موقف آخر يرسم معالمَ الخوف فيه تجمعُ أفعال ذات دلالة حركية تشكل رد فعل عاجز، هاله موقف تجاوز حدود الإدراك البشري. فما بين المقدرة الإلهية للرب الخالق المدبر سبحانه جل شأنه وبين المتلقي العبد المحدودة قدراته؛ نجد اختلاف تأثير الخوف وتمادي فعله، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾﴾ [النَّمل: ١٠] هذا خوف مختلف في حدة درجته وقوة بلوغ تأثيره والتلاحق السريع لردة الفعل المباغتة (وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ).

يستوقفنا توالي فعلين حركيين (ولّى) و(لَمْ يُعَقِّبْ)، الفعل الثاني متمم لحركة الفعل الأول وإن شكل مع (مُدْبِرًا) وصفًا لحال فعل الحركة (ولّى) ومما دفع بالخوف إلى بعد مداه أن الحال الأولى (مُدْبِرًا) جاءت صفة مكتفية بصيغة الوصف المشتق التي جمعت مع حركة الإدبار وجهة وجهته ثبات فعل إرادة فاعلها فهو من اتخذ قرار الإدبار بوعي، أو حدث الفعل جسديًا بدون وعي في حين جاءت الحال الثانية (لَمْ يُعَقِّبْ) جملة فعلية واصفة لحالة الفرار بصيغةٍ للفظٍ منفي تَحَمَّلَ شدة الخوف

وهلع الروع، ممتزجًا بقرار فعل تلبس لفظه النفي المتحقق في لفظ (لم). وهو ما حقق تكامل سرعة تأثير مثير الخوف (رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ) مع فعل التحرك (رد الفعل) (وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ) وقد أسماه أستاذنا عبدالعزيز الحربي (الخوف الأكبر) يقول: "وإنما نعتنا هذا الخوف بالأكبر لأنه أبلغ خوف عرض لموسى عليه السلام، ومن أبلغ صور الخوف على الإطلاق، وهي صورة إنسان يفر مما يخاف ولا يرجع"[(١)].

ونماذج أخرى لخوف موسى في سياق الآيات [الأعراف ١٤٣] [طه ٢٩ و٨٦] (القصص١٥- ١٦و٢١، ٢٢ و٢٤ و٣١]

الخوف على موسى

ثمة شخصيات عدة لها مواقف تخاف فيها على موسى لكننا نحيناها طلبًا للالتزام بحجم هذا البحث.

نختار من مواقف الخوف على موسى خوف امرأتين، فقد أثارنا وأثر فينا خوفان وامرأتان؛ خوف أمه عليه بعد أن ألقته في اليم، وخوف امرأة فرعون التي التقطته واتخذته ولدًا.

المخوف عليه واحد (موسى)، وزمن الخوف متقارب، ويمكن القول إنَّ خوفهما يلتقيان، لكن بيئة الخوف مختلفة وكذلك مثيراته وآثاره. التقاؤهما عند لحظة زمنية واحدة عانت الخوف فيها كلتا المرأتين وحدهما؛ واجهتا الخوف وزمنه والمخوف منه. واختلف بهما المكان

---

(١) الحربي؛ عبدالعزيز، الخوف في حياة موسى (د.ن./ الرياض ١٤٣٥هـ) ص ١٨.

وحيلة المقاومة للخوف. خافتا على موسى من أن يقتله فرعون. كل منهما في مكانها: أم موسى في دارها يربط الله على قلبها، فتقاوم الخوف بالإيمان، وامرأة فرعون في قصرها تشحذ دلالها ومحبة فرعون لها فتستوهبه الرضيع، فيهبه لها، فينجو، وتنجو هي من خوفها إلى حين.

خوف أم موسى

﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾﴾ [القَصَص: ١٠].

تصوير لواقعة تضج بالمشاعر الإنسانية عامة، ومشاعر الأمومة خاصة. أمٌ أعوزتها الحيلة كيف تواجه الخوف على ابنها الوليد، في ظرف قهري لا تملك أمامه مقومات المقاومة والتصدي. فهي أمام قرار تعسفي من فرعون حاكم طاغ يظلمهم ويقتل أبناءهم، ويستعبدهم تحت سلطة لا خلاص يرجى منها. إلا أن رحمة الله لم تترك الأم فقد قدرت العناية الإلهية لهذا الوليد المسؤولية الكبرى في إقرار توحيد الله وإخلاص العبودية له وحده. فحين أوحت للأم أن تلقيه في اليم، أدركتها رحمة المولى فربط على قلبها وقدر لها الإيمانَ تأنس به، ويعالج هواجسها. إيمانٌ بتصديق وعد الله وبشارته ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾﴾ [القَصَص: ٧].

يستوقفنا الفعل (أصبح) من جهتين: علام عطف إن كانت الواو عاطفة؟ وما الدلالة فيه؟

نُعنى كثيرًا بما يكشف مظهر الخوف وأثره على أم موسى، فإن

كانت الواو عاطفة فهي قد تكون معطوفة على الجملة السابقة (قالت امرأة فرعون) ويسوغ ذلك أن الخوف من امرأتين وكلتاهما خافتا على موسى، وسبب الخوف واحد خشية أن يقتله فرعون. نتساءل: هل توحدت آثار الخوف ومظهره عند المرأتين؟ وهل كانت الدوافع لديهما واحدة؟ أما إن كانت الواو استئنافية فما بعدها إخبار مستقل عن حالة الأم، وهناك من رأى أن ما بعد الواو معطوف على ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ [القَصَص: ٧] الذي نراه أنها استئنافية؛ فالنص القرآني يجعل في الانتقال إعجازًا يستوقف القارئ للتدبر والتشويق وإزاحة الملل. والسياق العام لقصة موسى فيه إثارة وتفاصيل غنية بالمواقف المثيرة للدهشة والعجب. فلا ضير ألا تتسلسل الأحداث والمواقف زمانًا ومكانًا.

وقوفنا عند الفعل (أصبح) يثير التساؤل أيضًا: أهو الفعل الناسخ بدلالته الدخول في وقت الصباح؟ أم هو بمعنى صار؟ وقد قال بالصيرورة كثير من المفسرين. إن الصيرورة في سياق الآية تفيد التحول من حال إلى حال؛ وأورد ابن كثير: "أَنَّهُ كَانَتْ دَارُهَا عَلَى حَافَّةِ النِّيلِ، فَاتَّخَذَتْ تَابُوتًا، ومهدَت فِيهِ مَهْدًا، وَجَعَلَتْ تُرْضِعُ وَلَدَهَا، فَإِذَا دَخَلَ عَلَيْهَا أَحَدٌ مِمَّنْ تَخَافُ جَعَلَتْهُ فِي ذَلِكَ التَّابُوتِ، وَسَيَّرَتْهُ فِي الْبَحْرِ، وَرَبَطَتْهُ بِحَبْلٍ عِنْدَهَا. فَلَمَّا كَانَ ذَاتَ يَوْم دَخَلَ عَلَيْهَا مَنْ تَخَافُهُ، فَذَهَبَتْ فَوَضَعَتْهُ فِي ذَلِكَ التَّابُوتِ، وَأَرْسَلَتْهُ فِي الْبَحْرِ وَذَهَلَتْ عَنْ أَنْ تَرْبِطَهُ، فَذَهَبَ مَعَ الْمَاءِ وَاحْتَمَلَهُ، حَتَّى مَرَّ بِهِ عَلَى دَارِ فِرْعَوْنَ، فَالْتَقَطَهُ الْجَوَارِي فَاحْتَمَلْنَهُ، فَذَهَبْنَ بِهِ إِلَى امْرَأَةِ فِرْعَوْنَ"(١). هذا الخبر - إن

---

(١) ابن كثير؛ تفسير ابن كثير، ٦/ ٢٢٢.

ثبتت صحته - أقرب لتفسير الصيرورة في (وأصبح) لأن صيرورة التحول تحققت في ربط الحبل وإطلاقه، فهي كانت تشعر بالأمان والاطمئنان عليه في حال ربط الحبل. أما بعد أن (ذَهَلَتْ عَنْ أَنْ تَرْبِطَهُ) فهي فريسة الذهول والنسيان الذي يتسبب في خسائر وخيمة، ويزداد الألم لكونها تدرك عواقب هذا الخطأ المريع، فليس غريبًا أن يصبح فؤادها فارغًا لأن الفؤاد مقر العقل(١).

﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾﴾ [القَصَص: ١٠] آية ختمت بالتثبت من الله وبشارة بالإيمان بعد أن اجتمع في هذه الآية الخوف الشديد الذي يجعل الهلع الإنساني بعيدًا عن سيطرة العقل، مع فقدان بصيرة حسن التصرف. (إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ) قيل إنها بعد أن ألقته في اليم أوشكت أن تصيح بالقوم لإنقاذه(٢).

ونأتي على قوله تعالى ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا﴾ [القَصَص: ١٠]

---

(١) "وقد دَلَّ القرآنُ على أن محلَّه القلبُ لا الدماغُ؛ لأن الله يقول: ﴿فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ﴾ [الحَجّ: ٤٦] ولم يقل: أَدْمِغَةٌ يَعْقِلُونَ بها. ويقول: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ [قٓ: ٣٧] ولم يَقُلْ: لمن كان له دِمَاغٌ. وفي الحديثِ الصحيحِ عن النبيِّ ﷺ: «إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب» ولم يقل: ألا وهي الدماغُ. وَجَمَعَ بعضُ العلماءِ بينَ قولِ أهلِ السنةِ وقولِ الفلاسفةِ بأن قالَ: إن أصلَ العقلِ في القلبِ كما في الكتابِ والسنةِ، إِلاّ أَنَّ نورَه يتصلُ شعاعُه بالدماغِ" الشنقيطي؛ محمد الأمين بن محمد المختار الجكني، العذب النمير من مجالس الشنقيطي (دار ابن القيم / الدمام ١٤٢٤هـ) ص ١٤٧ - ١٤٨.

(٢) مقاتل بن سليمان، تفسير مقاتل بن سليمان، ٣/ ٣٣٧.

فقد أثار تكاثف الزخم العاطفي؛ الوقوف الطويل للمفسرين وعلماء البلاغة، وتعددت أقوالهم التي انتقينا منها ما يأتي:

- أخذ كثير من المفسرين بالقول بأن فؤادها كان خاليًا من هم الدنيا إلا هم موسى وأمره.
- "أصبح فؤاد أم موسى حين ذهب ولدها في البحر فارغًا من كل شيء من شواغل الدنيا إلا من موسى، كما أنه طار عقلها، وسيطر عليها الخوف والفزع، حين سمعت بوقوعه في يد فرعون"(١).
- "أصبح فارغًا من العهد الذي عهدنا إليها، والوعد الذي وعدناها أن نردَّ عليها ابنها، فنسيت ذلك كله، حتى كادت أن تُبْدِي به لولا أن ربطنا على قلبها"(٢).
- وذكر الشوكاني في تفسيره عدة أقوال منها: "فَارِغًا مِنَ الْخَوْفِ وَالْغَمِّ لِعِلْمِها أَنَّهُ لَمْ يَغْرَقْ بِسَبَبِ مَا تَقَدَّمَ مِنَ الْوَحْيِ إِلَيْهَا. . . وَقَالَ الْكِسَائِيُّ: نَاسِيًا ذَاهِلاً. وَقَالَ الْعَلاَءُ بْنُ زِيَادٍ: نَافِرًا. وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: وَالِهًا"(٣).

خوف امرأة فرعون

ومن ذلك خوف امرأة فرعون على الوليد الذي وجدته في التابوت ﴿وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ

---

(١) وهبة بن مصطفى الزحيلي؛ التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج (ط٢، دار الفكر المعاصر - دمشق، ١٤١٨هـ) ٢٠/ ٦٦.
(٢) الطبري؛ جامع البيان، ١٨/ ١٦٩.
(٣) الشوكاني، فتح القدير، ٤/ ١٨٥.

﴿وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝٩﴾ [القَصَص: ٩] يخلو نص الآية من أي لفظ في معجم الخوف إلا أن سياقات الموقف تنضح بحالة الهلع الذي تلبس امرأة فرعون، لأنها على بينة بما يمكن أن يصيب الوليد من ظلم بطش فرعون وقسوة قراره ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝٤﴾ [القَصَص: ٤] وجاء ردها معالجًا خوفها (لا تقتلوه) "خاطبته بلفظ الجمع تعظيمًا ليساعدها فيما تريده (عسى أن ينفعنا)[١].

فالنهي في (لا تقتلوه) ليس جرأة على قرار الطاغية أو رفضًا له؛ فقد سبقت رؤيتَها موسى حالاتٌ كثيرة قُتِلَ فيها حديثو الولادة من بني إسرائيل، ولم يرد في القرآن أو في غيره من النصوص أي موقف لها مخالفٌ أو ينطق بالحجة. وإنما هو تعالق مشاعر مختلفة، امتزجت فيها الرحمة بالخوف، والرجاء بالتوجس، فما كان عليها إلا أن تُلَطِّفَ رغبتها الكامنة حين رأت النور في وجه الوليد ﴿وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ ۖ﴾ [القَصَص: ٩] هذا القول كشف عفويةَ غريزةٍ فطريةٍ جُبِلَت عليها كل أنثى، فكيف بمن حرمت نعمة الإنجاب، وقد ذكر المفسرون أنها لم تنجب"[٢]، ثم مهدت بالرجاء (عسى) لتشفع بعده حججها تسوقها في نَفَسٍ متصلٍ كمن ينتظر حكمًا مجهولاً. "والرجاء والخوف جناحان بهما يطير المقربون إلى كل مقام محمود"[٣]. ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝٩﴾ [القَصَص: ٩] خوف خالطه رجاء لذا

(١) أبو السعود؛ إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، ٧/ ٤.
(٢) الشوكاني؛ فتح القدير، ٤/ ١٨٥.
(٣) الغزالي؛ أبو حامد محمد بن محمد، إحياء علوم الدين(دار المعرفة/ بيروت) ٤/ ١٤٢.

ساقت مسوغات الرجاء في أمرين: (أَنْ يَنْفَعَنا) أَوْ (نَتَّخِذَهُ وَلَدًا)، والخوف أوقعها في هذه المفارقة. فقصر هارون يزدحم بالخدم والجواري والملأ في مجلس فرعون من الحكماء والعلماء والخاصة أقدر على نفعهم. أَوْ (نَتَّخِذَهُ وَلَدًا) "وَكَانَ فِرْعَوْنُ لاَ يُولَدُ لَهُ إِلاَّ الْبَنَاتُ، فَتَرَكَهُ"[(١)]، وقد تربى موسى في قصر فرعون فاطلع - عن قرب - على هذا الطاغوت، وشهد جبروته وظلمه لذا تنامت خبراته ومعرفته بالبيئة التي ينحدر منها وهي بنو إسرائيل وهذه مفارقة أخرى فكيف يكون ولدًا لفرعون ليكون فيما بعد عَدُوًّا وَحَزَنًا ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًاۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُواْ خَٰطِـِٔينَ ﴿٨﴾﴾ [القَصَص: ٨].

البشارات

نكتفي بسرد بعض آيات البشارات في سياقات الخوف في قصة موسى فقد أغنتنا بعض الوقفات التحليلية لهذه البشارات وأثرها في مقاومة الخوف وتطمين الخائف، وهي قبل هذا وذاك وعد من المولى لأنبيائه وعباده المتقين.

- ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾﴾ [القَصَص: ٥]
- ﴿لَا تَخَفْۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [القَصَص: ٢٥]
- ﴿قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْۖ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴿٢١﴾﴾ [طه: ٢١].

---

(١) مجاهد؛ أبو الحجاج مجاهد بن جبر (ت ١٠٤هـ) تفسير مجاهد، تحقيق: محمد عبد السلام أبو النيل (ط١، دار الفكر الإسلامي الحديثة/ مصر، ١٩٨٩م)ص٥٢٢.

- ﴿وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِيٓ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٧﴾ [القَصَص: ٧].
- ﴿لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝١٠﴾ [القَصَص: ١٠]
- ﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ ۝٣٥﴾ [القَصَص: ٣٥].
- ﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ۝٤١﴾ [طه: ٤١].
- ﴿قَالَ لَا تَخَافَآ ۖ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ۝٤٦﴾ [طه: ٤٦]
- ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ۝١٢٨﴾ [الأعرَاف: ١٢٨].
- ﴿وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا ۚ سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ ۝١٤٥﴾ [الأعرَاف: ١٤٥]
- ﴿وَٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝١٥٣﴾ [الأعرَاف: ١٥٣].
- ﴿قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ۖ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ﴾ [الأعـرَاف: ١٥٦].

نماذج مثيرات الخوف وتأثيراته

سنعرض نماذج لمثيرات الخوف وتأثيراته في نص آيات ورد فيها لفظ من معجم الخوف أو نص آية نستنبط منها المثير والتأثير:

الآية	مثيرات الخوف	تأثيرات الخوف
﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾﴾ [القَصَص: ٤]	- عَلاَ فِي الْأَرْضِ - يُذَبِّحُ أَبْنَاءهُمْ - وَيَسْتَحْيِي نِسَاءهُمْ	يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ الخائف يتمكن منه الإحساس بالذل والضعف وأقصى درجاته أن يعتاد عليه فتضعف إمكانات المقاومة والتصدي: مَن يَهُن يَسهُلِ الهَوانُ عَلَيهِ ما لِجُرحٍ بِمَيِّتٍ إِيلامُ المتنبي
﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ﴾ [القَصَص: ٧]	بطش فرعون	فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمّ
﴿وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾ [القَصَص: ٩]	القتل	الرجاء
﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ ۖ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾﴾ [القَصَص: ١١]	القص، الخوف أن يعرفوا أنها أخته أو أنها تتبع أثره	الحذر (فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ)
﴿فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾﴾ [القَصَص: ١٥]	فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ	الندم (هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ)

﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ [القَصَص: ٢١]	إعلامه أن الملأ يأتمرون به	يترقب؛ فالخائف الفار يدفعه الخوف إلى الحذر من أن يتبعه أحد؛ فينال القوم منه، لذا فهو دائم التلفت، يترقب.
﴿فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾﴾ [القَصَص: ١٨]	استصراخ الذي من شيعته	إدراك الغواية
﴿فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَا مُوسَىٰ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ﴾ [القَصَص: ١٩]	توهم الرجل أن موسى سيبطش به	الإشارة إلى قتل موسى للقبطي بالأمس
﴿يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [القَصَص: ٢٠]	إِنَّ الْمَلأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ	فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ
﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿٢٢﴾﴾ [القَصَص: ٢٢]	الهروب	الرجاء والدعاء
﴿وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القَصَص: ٢٣]	الخوف من الرعاء	تَذُودَانِ (لاَ نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاء)
﴿قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [القَصَص: ٢٩]	شدة البرد ومشقة الرحلة وفقدان الهداية للطريق وامرأته في حالة ولادة	فعل الأمر (امكثوا) يطلب من أهله المكوث ويتتبع مصدر النار

﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ [القَصَص: ٣١]	تحول العصا إلى ثعبان ضخم	وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ
﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِي هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِيٓ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾﴾ [القَصَص: ٣٣-٣٤]	الخوف من القصاص والتكذيب	رجاء موسى أن يعينه الرب بأن يرسل معه أخاه هارون
﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَـٰهَـٰمَـٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾﴾ [القَصَص: ٣٨]	خوف فرعون من الدعوة للتوحيد	الأمر ببناء صرح ليطلع إلى إله موسى
﴿قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾﴾ [طه: ٤٥]	الخوف من فرعون	التصريح بالخوف طلبًا لمعونة الرب
﴿فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾﴾ [طه: ٦٠]	خوف فرعون	التخطيط والكيد لهزيمة موسى
﴿فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾﴾ [طه: ٦٧]	خوف موسى من منظر عصى السحرة بعد أن ألقوها	نصره سبحانه جل شأنه (قُلْنَا لاَ تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الأَعْلَى) [طه ٦٨]
﴿فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَـٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾﴾ [طه: ٧٠]	خوف السحرة	سجد السحرة وأشهروا إيمانهم

﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾﴾ [طه: ٧٧]	خوف موسى ومن معه أن يدركهم فرعون وجنوده	أنجاهم الله بضرب البحر بالعصا فانشق لهم طريقًا سلكوه فنجوا
﴿قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى ﴿٩٤﴾﴾ [طه: ٩٤]	خوف هارون من غضب موسى	هارون يسترحم موسى بعد أن أخذ بلحيته ورأسه، ويعتذر بخشيته أن يتهمه موسى بشق صف بني إسرائيل،
﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [المائدة: ٢٢]	خوف قوم بني إسرائيل من دخول الأرض المقدسة بحجة أن فيها قوما جبارين	التقاعس واشتراطهم خروج القوم الجبارين والغلو في الخطاب بدعوة موسى للقتال ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [المائدة: ٢٤]
﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْاْ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّواْ قَالُواْ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾﴾ [الأعراف: ١٤٩]	خوف الذين عبدوا العجل	التسليم لموسى بخطئهم وطلب المغفرة من الله.

مثيرات الخوف

- في خطاب التسلط تطفو الغلبة للعنف اللغوي، يتحقق ذلك في موقف موسى من الإسرائيلي الذي استصرخه في المرة الأولى، واستعداه على القبطي وكان متسببًا في حادثة القتل وإن كان موسى هو الفاعل؛ لذا فإن موسى لم يتجاوز تراكمات فيض انفعالات

الضعف البشري. فهو احتسب الحادثة المخوف منها ﴿هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ [القَصَص: ١٥] الذي دس أسلحة الغواية مجتمعة لتكشف لموسى ﴿عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾﴾ [القَصَص: ١٥] هذا الإدراك المتأخر أرعب موسى فأخافه، ثم دعته فطرته الإيمانية إلى تبين سبيل النجاة بالإقرار بذنبه ﴿إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾ [القَصَص: ١٦] فطلب الأمان بالتذلل لله عند سؤال المغفرة ﴿فَٱغْفِرْ لِي﴾ [القَصَص: ١٦] وجاءت الاستجابة بالمغفرة التي حظي بها موسى مما ألزمه بعهده مع الله متذكرًا أن هذه نعمة تستوجب إيفاء حقها ﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَٱغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾﴾ [القَصَص: ١٥-١٧].

- ويتلو هذا المشهد في اليوم اللاحق ما يستكمل صورة التخويف مع اختلاف الأدوار فموسى الذي نالت منه تجربة الأمس وختمها بعهده مع الله؛ تداهمه تجربة أخرى وهو مازال يئن تحت وطأة ألم الذنب، بعد أن ازدادت نار الصراع النفسي ضراوة واشتعالًا. فهو لا يتنصل من نصرة ذاك الذي من شيعته، على قساوة مرارة الذنب الذي لم تندمل جراحه؛ فالتفت إلى المتسبب صارخًا هادرًا، معاتبًا ﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾﴾ [القَصَص: ١٨].

نستحضر المشهد بأدوات التخيل فهذا موسى مخوف منه بما حباه الله من قوة في البنيان الجسدي وما أوتي من فضل الله من بيان وعلم

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾﴾ [القَصَص: ١٤] كل هذه العوامل مع قسوة أثر تجربة الأمس ستتحكم بآلة النطق ومخارج الأصوات فالعبارة بما فيها من تعدد المؤكدات: إنك ولام التوكيد المزحلقة التي دخلت على لفظ تحمل دلالات الغواية، ومجيؤه على صيغة (فَعِيل) متشربة المبالغة معنًى، والقوة لفظًا بما اكتسبته من التشديد الناتج عن تآلف ياء صيغة فعيل مع ياء لام الكلم، فجعل النطق بهذه الكلمة صارخًا مرعبًا لاشتعال وقودها بقوة الانفعال. مما يجعل المتلقي الذي من شيعته في حالة من الهلع الإنساني مستذكرًا واقعة الأمس، متوقعًا أن يكون رد فعل موسى متهورًا يصل للقتل لذا "خافه الذي من شيعته"(١) ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾﴾ [القَصَص: ١٩].

التخويف غرض وقصد

- نقف هنا عند نصوص للآيات التي يكون التخويف آلة يستغلها المتسلط الظالم، أو صاحب القرار المُنْذِر. وقد يكون التخويف لمجرد التوجيه، أو لاستعراض قوة قاهرة تدحر المتلقي وتجبره على التسليم لها بمجد النصر، والإقرار على نفسه بذل الانهزام. وقد يكون التخويف للعظة والاعتبار، والتزام جادة الصواب والنأي عن المزالق. وقد يكون التخويف بضرب المثل بمظهر من مظاهر الخوف غير المألوف فيرتدع من يعي فيستجيب. من ذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ

(١) الطبري؛ جامع البيان، ١٨/ ١٩٥.

قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾ [البَقَرَة: ٧٤].

- يأتي التخويف لإدخال المهابة على فرعون متمثلاً في مقول موسى الآيـة ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾﴾ [الأعـرَاف: ١٠٤] "أَخْبَرَهُ بِأَنَّهُ مُرْسَلٌ مِنَ اللهِ إِلَيْهِ، وَجَعَلَ ذَلِكَ عُنْوَانًا لِكَلَامِهِ مَعَهُ، لِأَنَّ مَنْ كَانَ مُرْسَلاً مِنْ جِهَةِ مَنْ هُوَ رَبُّ الْعَالَمِينَ أَجْمَعِينَ فَهُوَ حَقِيقٌ بِالْقَبُولِ لِمَا جَاءَ بِهِ، كَمَا يَقُولُ مَنْ أَرْسَلَهُ الْمَلِكُ فِي حَاجَةٍ إِلَى رَعِيَّتِهِ: أَنَا رَسُولُ الْمَلِكِ إِلَيْكُمْ، ثُمَّ يَحْكِي مَا أُرْسِلَ بِهِ فَإِنَّ فِي ذَلِكَ مِنْ تَرْبِيَةِ الْمَهَابَةِ وَإِدْخَالِ الرَّوْعَةِ مَا لاَ يُقَادَرُ قَدْرُهُ"(١).

- ومن مظاهر التخويف ما صدر عن القوى المتسلطة التي تستهدف الفئة المستضعفة مثل قول فرعون والعياذ بالله ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾﴾ [النَّازعَات: ٢٤] كل من توقف عند هذه الآية من المفسرين هاله منطوقها. جاء في تفسير الماتريدي: "وقوله - عَزَّ وَجَلَّ - ﴿فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾﴾ [النَّازعَات: ٢٣-٢٤] ذلك اللعين قد علم أنه ليس برب السماء والأرض، ولكن قد اتخذ لقومه أصنامًا فأمر العوام منهم أن يعبدوها؛ ليقربهم ذلك إليه، لكن إذا صاروا من خاصته أذن لهم بأن يعبدوه، وأمر الخواص منهم بعبادته، فسمى نفسه: أعلى الأرباب؛ لهذا(٢).

---

(١) الشوكاني؛ فتح القدير ص ٢/ ٢٦٣

(٢) الماتريدي؛ تأويلات أهل السنة، ١٠/ ٤١٠ - ٤١٢.

- وللاتعاظ تأتي عقوبة الله سبحانه لأطغى الطغاة عظة وعبرة ﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْآخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾﴾ [النَّازعَات: ٢٥] وقف المفسرون عند هذه الآية؛ وفيما جاء عنهم القول: أخذه بعقوبة الكلمتين جميعًا: الكلمة الأولى: قوله: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القَصَص: ٣٨]، والكلمة الثانية: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾﴾ [النَّازعَات: ٢٤] ومنهم من يقول: أخذه بعقوبة ما تقدم من الإجرام وما تأخر إلى أن غرق. ومنهم من يقول: أخذه بالعقوبة في الدنيا والآخرة، فأغرقه في الدنيا، وعذب روحه بعد مماته بقوله: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾ [غَافر: ٤٦]، ويدخل في النار مع أتباعه بقوله: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾ [غَافر: ٤٦]؛ فاتصلت عقوبة الدنيا بعقوبة الآخرة"[1].

مشاهد وشواهد

تتمثل صور الخوف ومشاهده في مراحل متعددة في قصة موسى في القرآن الكريم، ولأن موسى هو الشخصية المحورية فالأحداث تمر به، وتصدر عنه، وتؤثر به، وتتأثر به. والشواهد على ذلك الخوف متعددة زمانًا ومكانًا، متلونة بتعدد شخوصها قربًا من موسى وبعدًا عنه.

ويكشف الوقوف على البعد المكاني لمراحل أحداث القصة عن تأثيره على (الخوف) وتأثره به، ومن ثم تتشكل المراحل التي ساقت أحداث القصة. ويواكب تزامن انتقال الحدث في المكان إلى التمدد في البعد الزماني، فمن طبيعة الأمور ألا يجتمع حدث بذاته صادر من فاعل

(١) الماتريدي؛ تأويلات أهل السنة، ١٠/ ٤١٠ - ٤١٢.

بذاته في زمن بذاته.

وتبقى أهمية الالتفات إلى عنصري الزمان والمكان واجبة في القصة، فلهما الشأن الفاعل في تطوير الحدث وتنويعه، وتشكيل مراحله، و"يرتبط المكان بالزمان في علاقة متبادلة من خلال تقنية الوصف الزمانية فيلتحمان"(١) ويبقى للقصص القرآني تفرده عن تقنيات القصّ السردي الإبداعي، فالغايات مختلفة والبناء الفني مختلف. والذي يهمنا في قصة موسى المشاهد والشواهد التي فعلت الخوف أو أثر الخوف على تشكل الحدث. ونشير أننا في بعض المشاهد سنحيل ذكر الأمثلة إلى فقرات سابقة أو لاحقة درءًا للتكرار والملل، مما يثقل البحث بلا فائدة وينهك القارئ دون قصد.

المشهد الأول: مولد موسى، وإلقاؤه في اليم، والتقاط أهل قصر فرعون التابوت

يحكي هذا المشهد قصة ولادته وإلقائه في اليم، فتظهر هنا مشكلة إرضاعه؛ تلك المشكلة الفاعلة المتسببة في ظهور سباع الخوف الكاسرة، تعض بأنيابها قلوب شخوص متعددة: الأم، وشريكتها الأخت، ثم من في قصر فرعون. هذه الأقطاب الثلاثة تفاوت لديها فعل الخوف؛ مثيرُه وتأثيرُه. فالأم التي عانت ما عانت منذ زرع في أحشائها ونما، إلى لحظة الولادة وما فيها من مكابدة وقساوة الألم، وما تبعها من محاولة إخفائه (واقعة التنور)، ومنع بكائه من الوصول إلى مسامع

---

(١) سهام سديرة؛ بنية الزمان والمكان في قصص الحديث النبوي، (رسالة ماجستير في جامعة قسنطينة - كلية الآداب، قسم اللغة العربية وآدابها/ الجزائر - السنة الجامعية ٢٠٠٥ - ٢٠٠٦م) ص ٣٨.

الاخرين، ثم المجازفة بإلقائه في اليم. وهنا يصل مؤشر الخوف إلى ذروة مؤشرات الشراسة ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾﴾ [القصص: ١٠]، فالخوف الذي يسلب قوى الإنسان ويشغل عقله قد يصل بالمرء إلى حافة الجنون أو الإعياء المُمْرِض، أو فقدان المقدرة على الحركة. فكيف يكون الحال والفؤاد فارغ، إنه يزيد النار تلظيًا، سببه الامتناع قسرًا عن التعبير إن تلميحًا أو تصريحًا "وللحكيم العليم في إنفاذ أمره، وجريان حكمه، وبلوغ حكمته أسرار لا يعلمها كثير من الناس. فقد كان يمكن أن يمنع حصول الخوف من أصله في موسى وفي أمه، ولكن مدبر الأمر - جل شأنه - يترك الطبائع والعوائد على ما هي عليه إذا شاء، ويجعل معها لطفًا من ألطافه، يوجهها به إلى ما ينفع صاحبها في دنياه وأخراه"[(١)].

ثم رده إلى أمه بعد وعد إلهي محملاً ببشرى ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾﴾ [القَصَص: ٧].

الخوف في هذه المرحلة متنوع في مثيراته، وفيمن تلبسهم، فهو سابق على الحدث الذي تدور آثار الخوف حوله أو بسببه وهو موسى، فالبيئة التي شهدت مولد موسى كانت متسربلة بالخوف، تعاني من ظلم فرعون لبني إسرائيل. ومشهد الولادة وما قبله محفوف بالخوف ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ﴾

(١) عبد العزيز الحربي، الخوف في حياة موسى ص ١٨ - ١٩.

[القَصَص: ٧]. يتطور الخوف ويمتد لتدخل أطراف أخرى تتحمل الخوف على موسى، ولا تحمله عن الأم، لأنها شريك يخاف ويعاني، ولا يُسقط خَوفَها عن كاهل الأم ما أفرغ قلبها، لكنها عونٌ لها في التقصي، وعامل في حل شيء من تراكمات الخوف ﴿فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾﴾ [القَصَص: ١١]، (فبصرت به عن جنب) هذا خوف حذر واعٍ بمجريات الحدث. تقتنص الأخت سانحة تقفز منها إلى بارقة أمل، لتقدم حلاًّ لمشكلة الإرضاع ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾﴾ [القَصَص: ١٢] تَدَخُّلٌ مهذب؛ فيه لين لا يفرض الاقتراح، ولا يتباهى بمعرفة. وإنما يتلطف بسؤال أصحاب الشأن بالأداة (هل) لأن (هل) تفيد أن السائل جاهل بالحكم، فهي حرف يطلب به التصديق الإيجابي بدون التصور. ثم تقربت بما يدفعهم لتحقيق مرادها وهو تلبية ما يداوي عجزهم ﴿يَكْفُلُونَهُۥ﴾ وأعقبته بتعزيز آخر يدفع الشك ويزيح الهواجس ﴿وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾﴾. أي مخلصون في ولائهم لفرعون.

أما القطب الثالث الذي نالت منه مشكلة الإرضاع فهم أصحاب الشأن في قصر فرعون قد تكون امرأة فرعون، أو الجواري خدمة القصر، أو قد يكون فرعون ذاته. فخوفهم مشوب بالحاجة إلى من يُرضِع الوليد. وفيهم امرأة فرعون التي خالط خوفها حب للوليد تمكن من قلبها لحظة رؤيته.

المشهد الثاني: تنشئته، وتربيته في القصر

شاء الرحمن أن يفسد على فرعون احتياطاته واحترازاته، ولم ينفعه ظلمه لبني إسرائيل وقتله من يولد من الذكور؛ أن يدفع عنه خوفه من

النبوءة بأن انهيار ملكه وسلطانه وقتله على يد مولود من بني إسرائيل.

﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ﴿٨﴾﴾ [القصص: ٨] "أي في كل ما يأتون وما يذرون فلا غرو في أن قتلوا لأجله ألوفًا ثم أخذوه يربونه ليكبر ويفعل بهم ما كانوا يحذرون"(١)؛ فقد جاءت الإرادة الإلهية أن يكون من خاف منه ينشأ في بيته، ويتخذه ابنًا له. "وَذَلِكَ أَنَّ موسى كَانَ يُسَمَّى ابْنُ فِرْعَوْنَ، فَكَانَ يَرْكَبُ مَرَاكِبَ فِرْعَوْنَ وَيَلْبَسُ مِثْلَ مَلَابِسِهِ"(٢).

ويأتي التحدي الإلهي لكل التوجسات الفرعونية التي لا تمنع قدرًا قدره المولى عز شأنه. فتروي كتب التفسير أن فرعون رد على رجاء امرأته ﴿وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ﴾ [القصص: ٩] "فقال فرعون: قرة عين لك فأما لي فلا" ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾ [القصص: ٩] "عسى أن ينفعك، فأما أنا فلا أريد نفعه"(٣).

هكذا كان فرعون متوجسًا، والخوف يسكنه منذ عصفت به النبوءة بتفسير حلمه أن مولودا في بني إسرائيل سيكون سببا في هلاكه وانهيار ملكه، ولكن مشيئة القوي العزيز عطلت قدراته على متابعة هواجسه التي كانت بواكيرها حين التقاط التابوت وساق الرحمن أمام عينه شواهد جعلته يقبل ما طلبته منه امرأته. فقد وهبها التابوت والرضيع، وسره أن

(١) أبو السعود، تفسير أبي السعود، ٧/ ٤.

(٢) البغوي، تفسير البغوي٣،/ ٥٢٦.

(٣) الواحدي؛ أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي (ت ٤٦٨هـ)، الوسيط في تفسير القرآن المجيد. تحقيق الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، وآخرون (ط١، دار الكتب العلمية/ بيروت ١٩٩٤م) ص ٣٠١.

ابنته الوحيدة شفيت -بإذن الله - من برصها بمسحات من لعاب الرضيع.

وفي مشهد التنشئة واقعة أخرى حركت هاجس فرعون أن هذا الصبي عدو له أنه "لما تحرك الغلام - يعني موسى عليه السلام- أرته أمه آسية. فبينما هي ترضعه وتلعب به، إذ ناولته فرعون وقالت: خذه. فلما أخذه، أخذ موسى بلحيته وهو لا يعقل. فقال فرعون: هذا عدو لي فقالت له امرأته: إنه لا يعقل"(١).

وفي جامع البيان إضافة على لسان آسيا زوج فرعون: "وَإِنَّمَا صَنَعَ هَذَا مِنْ صِبَاهُ، وَقَدْ عَلِمْتَ أَنَّهُ لَيْسَ فِي أَهْلِ مِصْرَ أَحْلَى مِنِّي. أَنَا أَضَعُ لَهُ حُلِيًّا مِنَ الْيَاقُوتِ، وَأَضَعُ لَهُ جَمْرًا، فَإِنْ أَخَذَ الْيَاقُوتَ فَهُوَ يَعْقِلُ فَاذْبَحْهُ، وَإِنْ أَخَذَ الْجَمْرَ فَإِنَّمَا هُوَ صَبِيٌّ. فَأَخْرَجَتْ لَهُ يَاقُوتَهَا وَوَضَعَتْ لَهُ طَسْتًا مِنْ جَمْرٍ، فَجَاءَ جَبْرَائِيلُ ﷺ، فَطَرَحَ فِي يَدِهِ جَمْرَةً، فَطَرَحَهَا مُوسَى فِي فِيهِ، فَأَحْرَقَتْ لِسَانَهُ، فَهُوَ الَّذِي يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ﴿وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِي ﴿٢٨﴾﴾ [طه: ٢٧-٢٨]"(٢).

والمرحلة المفصلية في هذا المشهد عندما بلغ أشده ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾﴾ [القصص: ١٤] "آتَيْناهُ حُكْمًا أي نبوة. وَعِلْمًا بالدين، أو علم الحكماء والعلماء وسمتهم قبل استنبائه، فلا يقول ولا يفعل ما يستجهل فيه"(٣). وقد عرف من حوله

---

(١) السيوطي؛ عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين(ت ٩١١هـ)، الدر المنثور(دار الفكر/ بيروت، ٢٠١١م) ٥/ ٥٠٧.

(٢) الطبري؛ جامع البيان، ١٦/ ٥٤.

(٣) البيضاوي؛ أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ٤/ ١٧٣.

هذه الحكمة فيه. تلك الحكمة التي أضاءت له سبل الحق مذ كان في قصر فرعون فأنكر طغيانه خالفهم في دينهم، وعاب ما كانوا عليه "فكانت له من بني إسرائيل شيعة يسمعون منه ويطيعونه ويجتمعون إليه، فلما استد رأيه، وعرف ما هو عليه من الحقّ، رأى فراق فرعون وقومه على ما هم عليه حقًا في دينه، فتكلم وعادى وأنكر، حتى ذكر منه، وحتى أخافوه وخافهم"[١]، وشاهدٌ آخر في هذا المشهد ذلك أنه كان يتردد زائرًا أمّه وأخته بواجب الصلة من الرضاعة، فعرف انتماءه لبني إسرائيل وأنه ليس ابنًا لفرعون فقد كانت أمّه تستاء عندما ينادى يا ابن فرعون، والشاهد الأخير واقعة: دخوله المدينة على حين غفلة من أهلها، وما توالى من أحداث انتصاره للذي من شيعته. وقتله القبطي بعد وكزه، دون إرادة هذه النتيجة؛ وإنما تدبير المولى ليبدأ مفصلاً آخر في قصته، بعد أن علم بأمر الملأ يأتمرون للاقتصاص بقتله. وقد فصلنا تلك الأحداث في فقرة الشخوص.

في هذا المشهد (مشهد الطفولة والصبا وبلوغ الأشد) انهمرت عواصف الخوف ورعوده متفاوتة بين الشدة والرخاوة، وبين الغفلة والإدراك. فعندما كان وليدًا رضيعًا لا يدرك الخوف كان هناك من يخاف عليه (لا تقتلوه). وشاهد آخر حين تصدت امرأة فرعون لحمايته من عقاب فرعون في (واقعة الجمرة والياقوتة). وأما الحادثة بعد دخول المدينة فقد استكمل حينها قوته ورشده (وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا) لذا أدرك فداحة ما حدث ونسب العمل للشيطان، لعلمه

---

(١) الطبري؛ جامع البيان، ١٨/ ١٨٤.

أن هذا العمل يُغضب الرب. فاستغفر لذنبه، وقطع على نفسه عهدًا ألا يكون ظهيرًا للمجرمين. وشاهد آخر على الخوف الذي بدأ يتنامى بضراوة في قلبه ووعيه ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾﴾ [القَصَص: ٢١] لم يكن خوفه يسكن القلب فيضعف النفس فحسب؛ أو حتى يصيبه بمرض عضوي يستسلم لعجزه وقلة حيلته، بل كان خوفه مقلقًا؛ فاعلاً في بدنه حركةً تزيده قلقًا وتوجسًا فهو دائم التلفت لا يعلم من أي الجهات يقدم الخطر. ففي اليوم الثاني كان بصحبة قلقه يترقب، لكنه واع بمغبة استصراخ الذي من شيعته، فهو بين نارين نار الأمس ونار اليوم، لذا أرسل سحائب لومه تقصف الذي من شيعته بصرخةٍ أرعبته ﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾﴾ [القَصَص: ١٨] وكانت ردة فعل الآخر خوفًا شديدًا مربكًا ﴿أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِٱلْأَمْسِۖ﴾ [القَصَص: ١٩] هذه المقولة كانت معولاً فضح موسى، وكسرت جدار الصمت عمن قتل قبطي الأمس، وتسبب بانتشار الخبر حتى وصل فرعون وملأه. وعندما جاءه الرجل يسعى من أقصى المدينة، وأبلغه بما يخطط له فرعون وملؤه، كان قد انتهى به الأمر ووصل إلى مرحلة زلزال الخوف؛ فاستوعب قيمة النصح بالهروب ولم يكن أمامه إلا قبول النصيحة دون توان أو تفكير. فالخوف فقط هو ساكنه، والدعاء هو غيث مأمنه ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهْدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾﴾ [القَصَص: ٢٢].

المشهد الثالث: خروجه من مصر إلى مدين هاربًا من فرعون وجنوده

خرج موسى فارًا، وحيدًا، في طريق لم يسلكه من قبل [القصص] لم يُعِد للرحلة زادًا وعتادًا، خائفًا مطارَدًا، لا يعرف جهة ولا

وجهة، هدف واحد أمامه الفِرار. مستقبلاً المجهول، مارًا بصحراء أنهكته جوعًا وعطشًا، وأكلت من نعليه ما قطعها، وكان وصوله لماء مدين فرجًا له أشعره بالأمان، فالماء عنوان الحياة ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الأنبياء: ٣٠] هذه المشاعر أعادت له توازنه الرجولي مما دعاه لسؤال الفتاتين (تذودان) (ما خطبكما؟) سؤالٌ كان مفتاح التغيير في مشاعره، والتحويل في مساره.

تتوالى الشواهد في هذا المشهد منها: مساعدته للفتاتين وإنجاز مهمتهما (السقيا) والشاهد الأكثر إشعاعًا أنه أوى إلى الظل مناجيًا ربه ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾ [القَصَص: ٢٤] فشدة الجوع وتعب الرحلة، والجهد المبذول في عملية السقي، كل ذلك لم يشغله عن الخير الذي أنزله الله سبحانه عليه. فالموقف شاهد على إحساسه بالأمان، وشاهد على قوة إيمانه وسلامة عقيدته، أنه يرجو من ربه المزيد. ثم تتوالى في مشاهد ما بعد الهروب ومشاق الرحلة؛ شواهدُ التحويل في مسيرة حياته: قدوم الفتاة ﴿تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ﴾ [القَصَص: ٢٥] تدعوه للقاء أبيها يستمع له ويطمئنه ﴿نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [القَصَص: ٢٥] واستئجاره وتزويجه ﴿عَلَىٰ أَن تَأْجُرَنِي﴾ [القَصَص: ٢٧] وبعد استيفاء العهد وتمامه، تُخْتَم شواهدُ هذا المشهد لينطلق موسى مصطحبًا زوجه إلى المشهد اللاحق في قصته. ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ﴾ [القَصَص: ٢٩].

المشهد الرابع: لقاء موسى بربه في الوادي المقدس، وتكليفه بالتبليغ

يحفل هذا المشهد بأحداث وشواهد مرحلة التكليف بالرسالة، وتبليغ فرعون ومن يتبعه بحق الواحد الأحد على عباده وشكر نعمته،

ولعل أبلغ الشواهد مشهد التكليم الذي حظي به موسى. ثم ذاك الحوار المكتنز بالآيات البينات العظمى، والبشارات المبهجة، (إنك من الآمنين) و(تلبية طلب موسى بتوزير أخيه) إنها بشارات متوالية تنزع عنه الخوف، وتشد عزمه وتثبت يقينه وتبهجه بالبشارات في قوله تعالى: ﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [القَصَص: ٣٥] ﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴿٤١﴾﴾ [طه: ٤١].

كان الخوف في هذه المرحلة متشطرًا وشاطرًا في آن واحد؛ رحلة قاسية. بعد تمام العهد المضروب مع والد زوجه، استأذن موسى شعيبًا في الذهاب إلى أمّه وأخته وأخيه، "فخرج بأهله وأخذ على غير الطريق مخافةً من ملوك الشام فلما وافى وادي طوى وهو بالجانب الغربيّ من الطور وُلد له وَلدٌ في ليلة مظلمة شاتية مُثلجة وكانت ليلةَ الجمعة وقد ضل الطريقَ وتفرّقت ماشيتُه ولا ماءَ عنده. وقَدَح فصَلَد زندُه. فبينما هو في ذلك إذ رأى نارًا على يسار الطريق"[١].

لازمته رياح الخوف التي هجمت عليه من جهات عديدة: لم يتيقن صحة دربه، وضاعت ماشيته ومجهول ينتظره. فالطريق غير آمن، وزوجه تواجه آلام الولادة، وحيدة بعيدة عن أهلها في ليل بارد مظلم. فالخوف يعتريه، والقلق يستولي عليه، وقلة الحيلة تغشته. إلى أن وجد نارًا يأنس بها، ويستدل بها على الطريق ﴿أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ﴿١٠﴾﴾ [طه: ١٠]؛ هذه النار كانت الشاهد الأول في مشهد الرحلة، وشَكَّلَ الظلام مفتاح الولوج إلى شرف التكليم ثم التكليف.

(١) أبو السعود؛ إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، ٦/ ٦.

الشاهد الثاني بعد أن أنس إلى تكليم ربه كانت المعجزات البينات: العصا تتحول إلى ﴿حَيَّةٌ تَسْعَىٰ﴾ ﴿تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ﴾ [القَصَص: ٣١] مشهد خوف مفرط أتبعه أن ﴿وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ [النَّمل: ١٠] ثم معجزة يده المضيئة ﴿ٱسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ﴾ [القَصَص: ٣٢].

ويأتي شاهد التكليف ليستحضر موسى خوفًا قديمًا قبع في وجدانه ولم تقلعه الأيام، أو يخلخله تغير المكان ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾﴾ [القَصَص: ٣٣]، في هذه الآية يعلل موسى مسببات خوفه أن لهم عليه ذنب وعلة أخرى (عقدة في لسانه).

ومن الشواهد التي أضاءت مشهد التكليف تلبية طلبه ﴿وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾﴾ [طه: ٢٩-٣٠]. وبيان مستحقات الرسالة: ﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾ [طه: ٤٣-٤٤] تحدد سبب التبليغ وموضوعات الرسالة ثم كيفية أدائها بقول لين وآية بينة معجزة ﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ﴾ [طه: ٤٧]. ولم تهدأ سورة الخوف؛ فهما مكلفان بلقاء فرعون الذي (طغى) ﴿قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾﴾ [طه: ٤٥]، ولا يطفئ سعير هذا الخوف إلا الطمأنة والتثبيت من الله سبحانه وتعالى ﴿قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾﴾ [طه: ٤٦].

المشهد الخامس: الدخول الأول على فرعون وعرض الرسالة

جاء مشهد اللقاء مع فرعون محملاً بأعباء ذكريات مكتنزة بالغضب

والـخـوف مـعًـا ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾﴾ [الشُّعَرَاء: ١٨].

في هذا المشهد نقف على مشاهد تجمع فرعون وموسى، وأخرى تجمع فرعون وهامان والملأ من الحكماء والأشراف. وفي المشهد الذي جمع موسى بفرعون نقف على شاهدَين: الأول الحوار والثاني عرض الآيات المعجزات. يتأجج الحوار بين الحق والباطل، ويندحر خوف موسى ويتخلف الهلع لسطوع الآيات البينات، ففي مستهل الحوار يحاول فرعون توجيه الضربة القاضية لموسى، فبعد التذكير بمنته على موسى أنه تربى عندهم يرميه بتهمة الكفر ﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾﴾ [الشُّعَرَاء: ١٩]، ولـم يتضعضع موسى الذي تَقَوَّى بعنصرين؛ الإيمان والتكليف؛ فبكل قوة يدحض عن نفسه تهمة الكفر ﴿قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٢٠﴾﴾ [الشُّعَرَاء: ٢٠]، ويشفع ذلك بحجة فراره وسـبـب قـدومـه ﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾﴾ [الشُّعَرَاء: ٢١]، هـذه الشـرارة الأولى التـي أوقـدهـا مـوسـى لإشعال خوف فرعون وإنذاره، فيستمر الحوار الجدلي بين موسى وفرعون الذي يبدأ بسؤال الماهية ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [الشُّعَرَاء: ٢٣] وتأتي إجابات موسى تحاصر فرعون وتتوالى الحجج العَقَدية الإيمانية لتنتهي من الرؤية العقلية، فندخل في مرحلة البهر والتعجيز بالكشف عن المعجزات الحسية العينية[١].

---

(١) كثر اهتمام المفسرين بهذا الحوار وطال نقاشهم الفلسفي والجدل حول هذا الحوار من ذلك تفسير الرازي، ٢٢/ ٥٥ - ٥٦ وانظر تفسير القرطبي - الجامع لأحكام القرآن ١٣،/ ٩٨، وانظر فتح القدير للشوكاني، ٤/ ١١٤.

والشاهد الثاني عرض المعجزتين أمام فرعون (العصا واليد) ﴿قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [الشُّعَرَاء: ٣١-٣٣] المعجزتان كانتا شاهدًا على خوف فرعون الذي "وثب هاربًا، واختفى تحت سريره، وهو ينتفض من الخوف، وتلطّخت بزّته، وافتضح في دعواه، واتضحت حالته، فاستغاث بموسى واستجاره، وأخذ موسى الثعبان فردّه الله عصا"[(١)].

ولما ضاق الخناق على فرعون استشار الملأ وفيهم هامان [وقد ذكرنا موقفه في فقرة الشخوص] فكان الرأي أن السحر لا يغلبه إلا سحر مثله، فوجهوا الدعوة للسحرة لمواجهة موسى، وليست كأي دعوة فالفعل (أرجه) حاصل مشورة وتبادل الرأي، وفيه إشعار بأهمية التريث وعدم تنفيذ العقوبة دفعًا لأي شبهة تسم الملأ من قوم فرعون بالعجز وضعف الحجة، وفي ذلك وصمة تسيء إليهم. وهم من يعتد بالسحرة ويفاخر بهم، فكان الرأي التمهل إلى أن يلبي السحرة الدعوة ويواجهون موسى. فالفعل (أرجه) تحمل دلالات التمهل والتأخير. ويأتي عطف الفعل (وابعث) في [الشعراء] و(أرسل) في [الأعراف] على (أرجه) لتأتي دلالته موحية أن الإرجاء له علاقة بالأرجاء فالبعث أو الإرسال كان مطلقًا مكانًا غير محدد فهو في (المدائن) كلها: ﴿قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾﴾ [الشُّعَرَاء: ٣٦-٣٧]،

(١) القشيري؛ عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك (ت ٤٦٥هـ) لطائف الإشارات، تحقيق: إبراهيم البسيوني، (ط٣، الهيئة المصرية العامة للكتاب/ مصر ٢٠٠٠م) ٣/ ١٠.

هـذا الإرجـاء والـتـحـشـد، ودقـة الاخـتـيـار ﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾﴾ [الشُّعَرَاء: ٣٧] فليس المطلوب أي ساحر بل ساحر بمواصفات خاصة مبالغة في العلم بفنون السحر (سَحَّارٍ عَلِيمٍ). يضاف إلى هذه الدقة وذاك التحشد، الإرجاء والمشورة؛ كلها مجتمعةً شواهدٌ على مبلغ الخوف والانهزام الداخلي. ففرعون رأى ما رأى وهو شاهدٌ على أن ما جاء به موسى ليس سحرًا؛ بل يسري عن نفسه ويتعلق بحبل المنى، لعل السحرة يبطلون ما جاء به موسى. لذا كان لابد من التأني وحسن الاختيار.

المشهد السادس: المشهد في مجلس فرعون ولقاء الحسم مع السحرة

أُعِدَّت العدة للقاء المحسوم في اليوم المعلوم. ذلك اللقاء الذي تنتظره جميع الأطراف؛ فرعون وقد أخفى خوفه بفعلٍ مضاد وهو التحريض على موسى واستعداء الناس عليه بتخويفهم من ضياع أرضهم ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الشُّعَرَاء: ٣٤-٣٥] ولم تكن غاية موسى إخراج القبط من ديارهم، فهدفه واضح جلي: دعوة فرعون ومن معه للإيمان بالله وتوحيده، وإيقاف كل صور الظلم الواقعة ببني إسرائيل، وإرسالهم مع موسى إلى مأمنهم.

ويبدو أن السحرة كانوا لا يثقون بفرعون لشدة خوفهم منه، فالخائف لا يأمن مصدر خوفه، ومثيره ﴿فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُواْ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [الشُّعَرَاء: ٤١-٤٢] اشترط السحرة أجرًا في حال الفوز وأجاب فرعون بالموافقة وزاد في الميثاق إغراء وغواية: حرف الجواب (نعم) الدالة على استحقاقهم،

وعدالة طلبهم والتأكيد بحرف التوكيد (إنَّ) بعد أن عطف بواو تدل على لزوم مصاحبة ما بعدها لما قبلها. وأكثر القراء لا يقف على (نعم) في هذه الآية وكذلك التي في الصافات. تفسير ذلك: "لا يوقف عليها لتعلق ما بعدها بما قبلها لاتصاله بالقول"(١). ثم (إذًا) التي أفادت مع دلالة الظرفية الزمانية دلالة استنتاجية لتأكيد الوعد القادم (لمن المقربين). وعد مسبوق بلام التوكيد، وأما من التبعيضية فهي لتأكيد إلحاقهم بالصفوة الخالصة المقربة. هذا العزم القوي من فرعون لإغراء السحرة وإغوائهم شاهد على خوفه بعد أن ثبت له بالعين الباصرة صدق موسى وإعجاز معجزاته (العصا واليد).

يأتي اللقاء الحاسم حيث اجتمع السحرة بموسى ضحًى. ولدلالة الزمن وظيفة تكمل خطة الإرجاء والتمهل ودقة الاختيار، فالهدف إشهاد الجمع الأكبر من الناس على هزيمة موسى وذلك لن يتحقق في الليل فالناس يستثقلون الخروج في الليل، وسبب آخر أن السحرة يمثل الضحى لهم عاملاً فاعلاً في إنجاح مهمتهم فسطوع الشمس على حبالهم وعصيهم المحشوة زئبقًا، واجتماع عددهم الكبير ليلقوا عصيهم معًا؛ سيكون له أثر نافذ في قوة التمويه على الشهود من العوام(٢).

ولا أهمية لإحصاء العدد؛ فالذي يعنينا تأثير الكثرة على الشُهَّاد،

---

(١) محمد عقيلة؛ الزيادة والإحسان في علوم القرآن، ٣/ ٤٣٢.

(٢) بالغ المفسرون فيه فلم يستقروا على عدد ثابت قيل: "جمع له خمسة عشر ألف ساحر" تفسير الطبري جامع البيان، ١٠/ ٣٤٥. وقيل: "عَنْ يَزِيدَ، عَنْ عِكْرِمَةَ، قَالَ: «السحرة كانوا سبعين» قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ: أَحْسِبُهُ أَنَّهُ قَالَ: أَلْفًا" ١٠،/ ٣٥٥، وهناك من زاد "كانوا بضعًا وثلاثين ألفًا." «تفسير السمرقندي بحر العلوم»، ١/ ٥٣٩.

وقوله (استرهبوهم) أوقعوا في قلوب المشاهدين الرعب حتى موسى الذي واجههم منفردًا ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ۝٦٧﴾ [طه: ٦٧] "أي أضمر خوفًا"(١).

لم يكن خوف موسى أن السحرة سيعجزونه، كانت الخيفة على القوم المجتمعين، يرقبون المشهد المخيف، وينتظرون الغلبة تنتهي لأي الطرفين. ولخوف موسى على الناس ما يبرره؛ فمشهد الكثرة العددية للسحرة، ثم إلقاء العصي والحبال جماعةً في وقت واحد يربك المُشاهد، ويفسد عليه دقة المشاهدة فيَسْهُلُ خداع بصره. وزاد من قوة تأثير السحرة أنهم: "قد كانوا خاطوا الحبال والعصي وجعلوها مموهة بالرصاص وحشوها بالزئبق حتى إذا ألقوها تحركت كأنها حيات، لأن الزئبق لا يستقر في مكان واحد، فلما طلعت عليه الشمس صارت شبيهًا، بالحيات. فنظر موسى فإذا الوادي قد امتلأ بالحيات، فدخل فيه الخوف. ونظر الناس إلى ذلك فخافوا من كثرة الحيات. فذلك قوله: وَاسْتَرْهَبُوهُمْ يعني: أفزعوهم وأخافوهم وَجاؤُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ يعني: بسحر تام"(٢).

وينتهي المشهد إلى أن الغلبة تخلص لموسى بنفاذ وعد الله سبحانه وبشاراته ﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓاْۖ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سَٰحِرٖۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ۝٦٩﴾ [طه: ٦٩].

---

(١) ابن قتيبة الدينوري؛ أبو محمد عبد الله بن مسلم (ت ٢٧٦هـ)، غريب القرآن تحقيق: سعيد اللحام. (دار الكتب العلمية مصر/ ١٣٩٨هـ)، ص ٢٣٨.
(٢) السمرقندي؛ بحر العلوم، ١/ ٥٣٩.

مشهد عظيم أدرك إعجازه السحرة المحترفون، وأيقنوا أن هذه العصا ليست من صنع بشر؛ فصدقوا موسى وأعلنوا إيمانهم وتوبتهم ﴿فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾﴾ [طه: ٧٠].

لم تكن هزيمة السحرة هي شاهد الختام، ففرعون يستفيق من هول الصدمة ليجدد التفكير بالانتقام، ويلتقط سيف السلطة، وطغيان الجبروت فينهر السحرة، ثم يبادر إرعابهم بالتهديد وإرهابهم بالوعيدْ ﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾﴾ [طه: ٧١]؛ ولكن من يدرك الحق، ويستمرئ المعرفة، يقويه الإيمان، وتشوقه جنان الرحمن. ولقد أجاد من وصفهم: "كَانَتِ السَّحَرَةُ سَبْعَةَ عَشَرَ أَلْفًا أَصْبَحُوا كُفَّارًا وَأَمْسَوْا شُهَدَاءَ"[١].

ويكون تمام ختام المشهد بشاهد المؤمنين الذين آثروا ما عند الله فهو خير وأبقى ﴿قَالُواْ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَاۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾﴾ [طه: ٧٢-٧٣].

المشهد السابع: عقوبة الفرعونيين ثم عبور البحر ونجاة موسى ومن آمن به وإغراق فرعون ومن تبعه.

بعد هزيمة السحرة وعلو كلمة الحق، واجه موسى وبنو إسرائيل مرحلة صعبة قاسية، فقد شُغِل فرعون وأعوانه بالانتقام من السحرة، وتعذيب من آمن مع موسى، وإذلالهم باستعمالهم سخرةً في الأعمال

(١) مجاهد، تفسير مجاهد؛ ص٥١٠.

الشاقة. وكان فرعون ومن معه يحاصرون قوم موسى في أرزاقهم، فيضيقون عليهم ويُحَصِّلون منهم إتاوات مفروضة قسرًا. وأقسى ما قامت به الفئة الباغية الظالمة هو العود ثانية إلى قتل ذكورهم واستحياء نسائهم. وهو الأمر الذي جعل بني إسرائيل في خوف متصل، يخشون المباغتة في ليل أو نهار.

ولما اشتد العذاب على بني إسرائيل شكوا إلى موسى فدعا على عدوهم ودعا لبني إسرائيل بالنصر ﴿قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبۡلِ أَن تَأۡتِيَنَا وَمِنۢ بَعۡدِ مَا جِئۡتَنَاۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُهۡلِكَ عَدُوَّكُمۡ وَيَسۡتَخۡلِفَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ ١٢٩﴾ [الأعراف: ١٢٩]، الشاهد في هذا المشهد أن الله سبحانه استجاب لموسى وأنزل على عدوه الرجز والعذاب ﴿وَلَقَدۡ أَخَذۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ١٣٠﴾ [الأعراف: ١٣٠]؛ ولكنهم استمروا في ضلالهم ﴿فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلۡجَرَادَ وَٱلۡقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٖ مُّفَصَّلَٰتٖ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ وَكَانُواْ قَوۡمٗا مُّجۡرِمِينَ ١٣٣﴾ [الأعراف: ١٣٣]، أثناء وقوع الرجز على فرعون ومن تبعه تبدلت الأحوال؛ فالخائف بالأمس غدا مطمئنًا، والجبار بالأمس ناله العذاب ولازمه الخوف. وتتوالى الشواهد على نصرة الحق واندحار الباطل فأتباع فرعون يستجدون موسى أن يدعو ربه برفع الرجز مقابل أن يؤمنوا ويرسلوا معه بني إسرائيل ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيۡهِمُ ٱلرِّجۡزُ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَۖ لَئِن كَشَفۡتَ عَنَّا ٱلرِّجۡزَ لَنُؤۡمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرۡسِلَنَّ مَعَكَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ١٣٤ فَلَمَّا كَشَفۡنَا عَنۡهُمُ ٱلرِّجۡزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمۡ يَنكُثُونَ ١٣٥﴾ [الأعراف: ١٣٤-١٣٥] قال الطبري: "إِذَا هُمْ يَنْقُضُونَ عُهُودَهُمُ الَّتِي عَاهَدُوا

رَبَّهُمْ وَمُوسَى، وَيُقِيمُونَ عَلَى كُفْرِهِمْ وَضَلاَلِهِمْ"(١). دفع الخوف قوم فرعون إلى عظيم الهلع والجزع مما أدى إلى تلك المقايضة التي نكثوها وانتهى بهم هذا النكث إلى الخداع والخيانة من جهة فرعون وقومه، ويرهص بمشهد نجاة موسى ومن معه، والقضاء على فرعون ومن تبعه؛ ذلك أن موسى يتلقى الأمر من ربه بأن يترك أرض فرعون ويعبر البحر بالمؤمنين ليلاً، ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾﴾ [طه: ٧٧-٧٩]، وهو ما فزع له القوم من بني إسرائيل. فهم يعرفون البحر وأهواله، فكيف يسري بهم ليلا؟ أمرٌ يصيبهم بالهلع، فهم قد آمنوا والإيمان تصديق بالعمل، وهذا نبيهم ينقل أمر الرب، فلزوم الطاعة واجب، وهم الفئة القليلة. وهذا ديدن بني إسرائيل التملص من الطاعات، وكثرة الجدل، والتحجج بأن لا طاقة لهم بفرعون وجنده. وزاد هذا الخوف ضراوة أنّ الفئة الباغية يتبعونهم. المشهد بين أمة خائفة مأمورة بالطاعة، ونبي متيقن أن ربه الله سبحانه لا يتخلى عمن اصطنعه لنفسه، وبشره بالنصر والفوز. هنا تحضر عصا موسى شاهدًا معجزًا، قويًا فاعلاً ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [الشعراء: ٦٣-٦٦]، وينقل يحيى بن سلام وصفًا خاصًا لغرق فرعون ومن معه "ذُكِرَ لَنَا أَنَّهُ لَمَّا خَرَجَ آخِرُ أَصْحَابِ مُوسَى، وَدَخَلَ آخِرُ أَصْحَابِ فِرْعَوْنَ تَغَطْمَطَ

(١) الطبري، جامع البيان، ١٠/ ٤٠٢.

الْبَحْرُ عَلَيْهِمْ، فَأَغْرَقَهُمْ"[١].

كان مشهد ضرب البحر بعصا موسى مشهدًا شع بالخوف في سياق ذكر الحدث وإن غاب لفظ الخوف أو ما يرادفه: ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾﴾ [الأعراف: ١٣٦-١٣٧] وقال تعالى: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [البَقَرَة: ٥٠] لم يكن مشهدًا معتادًا، لذا لم يكن النظر إليه يتحقق فيه الإبصار فحسب؛ بل لازم الخوف كل تفاصيل توالي أحداثه؛ فالقوم فرّوا بصحبة موسى، خائفين من القوّة الطاغية التي كانت لا تقهر. فهم من تجرع مرارة الضيم، وقسوة الظلم، ثم يأتي الفرج من حيث لم يتوقعوه. إنه موسى ذلك الصبي الذي ترعرع في قصر فرعون يعود بعد غياب ليمسح تراكمات اليأس، ويحيي الأمل في النجاة. ولكن النجاة تحملها عواصف الخوف فكيف يعبرون البحر وينجون؟

يأتي مشهد فلق البحر بعد مشهد هزيمة السحرة، واندحار فرعون وقومه أمام هؤلاء المستضعفين. فلا يملكون إلا أن يتبعوا موسى محملين بانهزامهم النفسي الذي لا ينفك يعصرهم، مرتعبين من تحول الأمور، مستمرين في المناكفة والجدل العقيم؛ "لأن بني إسرائيل قالوا لموسى: هذا فرعون قد لحقنا بالجنود وهذا البحر قد غشينا فليس لنا منفذ"[٢].

---

(١) ابن سلام، تفسير يحيى بن سلام، ٢/ ٥٠٦.

(٢) مقاتل، تفسير مقاتل بن سليمان، ٣/ ٣٤.

وبعد عبورهم يشهدون، وينظرون فرعون وقوته وأعوانه يتقدمون للحاق بهم، فتعلو مؤشرات الروع والهلع عندهم خوفًا أن يدركوهم، ولكن فجأة يطبق البحر على فرعون وقومه أمام أعينهم (وهم ينظرون). وتتلاشى قوى الجبروت وظلمه، وتطويهم الظلمات. فتختلط مشاعر المستضعفين بين الخوف وجلال المنظر غير المألوف، فقد كان من المستحيلات المستعصيات.

الشاهد في هذا الملمح النجاح في عبور البحر، ثم مشهد فرعون ومن تبعه يدخلون البحر غايتهم اللحاق بموسى ومن معه. حتى إذا دخل آخر جيش فرعون ومن معه؛ أطبقت عليهم الأمواج وابتلعهم البحر.

المشهد الثامن: ما بعد العبور

هذا مشهد تتكاثر فيه الانتكاسات والارتدادات، لذا كان التعدد متنوعًا في مفاصل هذا المشهد، ليوافق ذاك التكاثر.

نجمل تلك المفاصل في: أنه بعد النجاة وعبور البحر جاء مرورهم بقوم يعبدون الأصنام. ثم موعد موسى مع ربه واستخلاف هارون، وأخيرًا قصة السامري.

نحاول ترصد مظهر الخوف ومثيراته وآثاره في تلك المفاصل.

مضى موسى هو وأخوه هارون مع بني إسرائيل في الأرض التي هداهم إليها جبريل عليه السلام حتى ميعاد لقاء ربه الذي استخلف فيه أخاه هارون؛ ليكمل تعليمهم أصول دينهم. قال تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَـٰرُونَ ٱخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾﴾ [الأعراف: ١٤٢] أسس موسى عليه السلام خطة عمل لخليفته في بني إسرائيل: الإصلاح،

والامتناع عن متابعة المفسدين إلا أن القوم جبلوا على التوجس والقلق. فكان أن لازمتهم حالة الخوف، فهم يطلبون من موسى إلها محسوسًا صنمًا كصنم القوم الذين مروا بهم: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾ [الأعراف: ١٣٨]، ولم تقنعهم إجابة موسى، فتحينوا فرصة ذهابه لميعاد ربه وبمعونة السامري الضال صنع لهم عجلاً، بدا لهم أن له خوار. فعبده الجهلاء، وعلم موسى بسوء صنيعهم عندما كان في لقاء ربه؛ لذا تملكه الغضب فخاصم خليفته هارون وجره من رأسه، وألقى الألواح لهول ما رآه من جهل القوم باتخاذهم الضلال طريقًا. في هذا المفصل تناهب الخوف كلا من القوم وهارون والسامري وكان موسى قبلهم فريسة للخوف عند لقاء ربه وعلمه بارتدادهم، فالقوم أرعبهم موقف موسى من أخيه، والسامري حاول التملص من مسؤولية الجرم الذي ارتكبه، وهارون اعتذر لموسى بلطف وبيّن ضعف حيلته: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾﴾ [الأعراف: ١٥٠-١٥٢].

شاهِدُ هذا المفصل حالة انفعالية، استعرت فيها درجة حرارة الحوار الدائر بين موسى الغاضب وهارون. أخذ المغضوب عليه في بذل جهده للبيان والتعليل والتهدئة. لكن موسى في غضبه عبر بلغة العنف كمن

أشعلت نار الغضب كيانه، فهو (يلقي الألواح) فعل الإلقاء جاء متعديًا بالباء، ليرسم صورة الغضب فالألواح مقدسة لكن الغضب الذي تملكه غشى عليه، ثم انبرى يسقط غضبه على أخيه الذي خلفه في القوم، فأخذ يجر رأس أخيه أمامهم. موقف كان غضبه فيه قد تأجج بالخوف؛ من معصية أخيه له ﴿أَلَّا تَتَّبِعَنِۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ﴿٩٣﴾﴾ [طه: ٩٣]، وهو يخاف على عقيدة القوم أن تتضعضع، أو أن تدنس بالردة، وخاف على ثقته بأخيه الذي استوزره بأمر رباني. أما هارون فقد أظهر ضَعفًا لازمَ كبر سِنِّهِ، وحاول أن يفثأ سَورة غضب موسى بلفظ تكسوه الرحمة (ابن أم) وكون القوم المنحرفين أكثر عدة وعددًا. ويزيد من أساه ما حذره موسى من فرقة القوم: ﴿قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِيٓۖ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴿٩٤﴾﴾ [طه: ٩٤] هذه الآية تمس الخوف عند هارون؛ وبهذا قال الطبري "وتخوف هارون، إن سار بمن معه من المسلمين، أن يقول له موسى: ﴿فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴿٩٤﴾﴾ [طه: ٩٤] وكان له هائبًا مطيعًا"[(١)]، فهو شيخ كبير وهؤلاء الإسرائيليون لا يوقرون كبيرًا، وهم أصحاب نزوات يتبعون من يثيرهم ويبهرهم. ولديه خوف آخر تضمنته دلالة (خشيت) مدعومًا بعلمه أن موسى حريص على وحدة الإسرائيليين، وعدم التفريق بينهم. وأن مسبب الفرقة ذاك السامري المنافق الذي استثار القوم عندما أتم موسى ثلاثين ليلة (ليس يأتيكم موسى) واستنهض ثقافة وثنية راسخة بأن أوهمهم بما لفظته النار من الذهب المذاب إن العجل الإله، عزز قوة

(١) الطبري؛ جامع البيان، ١٦/ ١٤٥.

تأثير خداعه أمران: كونه ماهرًا في حرفته (صناعة الذهب) وما مَوَّه عليهم بأن له خوار، والأمر الآخر قرب عهدهم بما شاهدوه أثناء مرورهم بأقوام عبدة الأبقار والعجول.

أما ملابسات الخوف عند موسى فقد كان تجليها الحاد حين وقوفه في ميعاد ربه: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٤٣ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذۡ مَآ ءَاتَيۡتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ١٤٤ وَكَتَبۡنَا لَهُۥ فِي ٱلۡأَلۡوَاحِ مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡعِظَةٗ وَتَفۡصِيلٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ فَخُذۡهَا بِقُوَّةٖ وَأۡمُرۡ قَوۡمَكَ يَأۡخُذُواْ بِأَحۡسَنِهَاۚ سَأُوْرِيكُمۡ دَارَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ١٤٥﴾ [الأعراف: ١٤٣-١٤٥]. كان العلم بالميقات سابقًا على الذهاب، الأمر الذي أتاح لموسى استخلاف هارون وإعداده لهذه المهمة الشاقة. وفي هذا المشهد نلمح شواهد: تجليات التكليم الذي يدفع الحبيب إلى الاستعجال لرؤية المحبوب، فالشوق والرغبة في إرضاء المحبوب، وإطالة الكلام ما أمكن ذلك، وغيرها من مشاعر المحبة الخالصة لله كانت اللغة التي خاطب بها موسى ربه. ولعل هواجس شهوة الطمع الفطرية في النفس البشرية؛ أفضى بموسى إلى سؤال الرؤية، في هذا المشهد نلمح خوفًا مختلفًا دافعه الحب وإرضاء المحبوب كان من آثاره أن ﴿قَالَ هُمۡ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ ٨٤﴾ [طه: ٨٤]. ونلمح خوفًا مفرطًا (دك الجبل) ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٤٣﴾ [الأعراف: ١٤٣] هذا المشهد الأخير

كان شاهدًا على أشد حالات الخوف والرعب الشديد، خوف يسلب الوعي فيخر المصعوق فاقدًا وعيه، فقد خر موسى صعقًا لعظم المشهد. وبعده لما أفاق يتلقى موسى الألواح، فيها موعظة وحكمة. ونختم الشواهد بضارية النوازل بالزلزال الذي عصف بموسى عندما أخبره الرب سبحانه عن فتنة قومه وارتدادهم عن التوحيد، وأنهم عبدوا العجل ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْـَٔاخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾﴾ [الأعراف: ١٤٦-١٤٧]. ومن شواهد الخوف بعد العبور ما ظهر نتيجة غواية السامري وصنعه العجل بعد العبور رأى السامري، أثر فرس جبريل، "فأخذ ترابًا من أثر حافره"(١). وكان السامري صحب حرفة تجذب الناس، وهي صياغة الذهب، وقد أكسبته هذه المهنة قوة التأثير على الناس "وكان السامري من قوم موسى منافقًا وكان رجلًا حاذقا"(٢). ومع مهاراته في النفاق فقد كان له مكر في أساليبه عند طرح الأسئلة والاستفسارات(٣). مما يلفت السامع إلى جوانب قد لا تمر في ذهنه، وهو ما نقله المفسرون والمؤرخون. فبعد أن استخلف موسى أخاه هارون أخذ السامري يلح على القوم "ليس يأتيكم موسى،

(١) الطبري؛ جامع البيان، ١٦/ ١٤٩.
(٢) العاني؛ عبد القادر بن ملّا حويش السيد محمود آل غازي (ت ١٣٩٨هـ)، بيان المعاني (ط ١، مطبعة الترقي/ دمشق ١٩٦٥م) ١/ ٤٢٥.
(٣) الطبري؛ جامع البيان ١٠/ ٤١٨.

وما يصلحكم إلا إله تعبدونه"[١]. فأقنعهم واحتال على هارون فأوهمه أن يحرقوا ما حملوه من ذهب القبط قبل عبورهم البحر، وأثناء الحرق ألقى في النار قبضة التراب التي حملها من أثر دابة جبريل عليه السلام. وأوهم الناس أن هذه الكتلة المذابة هي العجل الإله، بعد أن جعل فيه منفذًا يدخل فيه الهواء وآخر يخرج منه فيصدر له صوت كالخوار[٢]. والمشهد الآخر ذهاب موسى للميعاد الثاني للقاء ربه بعد أن اختار سبعين رجلًا. نقف على حالة الخوف عند سؤال هذا الرهط موسى أن يريهم الرب جهرة: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ۝٥٥﴾ [البَقَرَة: ٥٥]، هذا المشهد تجاوز تأثير الخوف فيه كل المشاهد السابقة؛ فالقوم أخذت الصاعقة أرواحهم، وظل موسى عليه السلام خائفًا يتذلل عند ربه كيف يرجع إلى قومه منفردًا، وقد خرج منهم بصحبة سبعين رجلًا اختيروا بعناية. وما زال يسأل ربه ويتوسل حتى أحياهم[٣]. يمكننا أن نتخيل تأثير الخوف على قوم تأخذهم الصاعقة ليموتوا ثم يبعثوا أحياء. هذه الواقعة لا بد أنها أخافتهم جميعًا بما فيهم موسى عليه السلام. ويمتد التخويف إلى ما بعد عصر موسى؛ فقد أنذرهم الله بغضبه بأن توالت عليهم الرسل فكذبوهم وأذلوا بعضهم وتمادوا في إجرامهم وتعديهم فتسببوا في قتلهم[٤]: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ

(١) الطبري؛ جامع البيان ١٠/٤١٧.
(٢) العاني؛ بيان المعاني ١/ ٤٢٥. وانظر: الطبري؛ جامع البيان، ١/ ٦٦٩.
(٣) ابن كثير، تفسير ابن كثير، ١/١٦٧.
(٤) ابن عاشور؛ التحرير والتنوير ١/ ٥٢١.

وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ﴿٦١﴾﴾ [البقرة: ٦١] ويأتي المشهد الأخير لمرحلة ما بعد العبور؛ شاهدُهُ رحلة طلب العلم ولقاء العبد الصالح (الخضر). استغرق هذا المشهد الآيات [الكهف ٦٠- ٨٢] حكت قصة اللقاء: أسبابه، ومرتكزات الحوار الذي استنطقت حالات الخوف مثيراته وتأثيراته. نلمح في هذا اللقاء تباين درجات الخوف لدى شخوص المشهد التي أفصح عنها سياق الحوار.

أقطاب الحوار ثلاثة: موسى وفتاه ثم الخضر. فإذا أقصينا فتى موسى(١) الذي انتهى دوره عند لقاء موسى بالرجل الصالح، وقد لامس الخوف فتى موسى في موقف واحد فقط وهو نسيانه للحوت ﴿فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلۡبَحۡرِ سَرَبٗا ﴿٦١﴾﴾ [الكهف: ٦١] وعزا نسيانه إلى الشيطان [الكهف ٦١- ٦٣]، وخوفه هنا فطري طبيعي لأنه مكلف بمهمة أخل بها، وعللها بالنسيان الذي لا يخلو امرؤ من سهامه. أما قطبي الحوار موسى والخضر فمثيرات الخوف عندهما متباينة أيضًا؛ لذا جاءت آثارها متفاوتة. الخضر هو المعلم وموسى المتلقي المتعلم، والمعلم أكثر دراية بمزالق المتعلم وهي كثيرة بعضها يدركه المتعلم فيتجاوزه وبعضها يخفى عليه. من أيسر تلك المزالق ضعف الجلد وقلة الصبر(٢): ﴿قَالَ إِنَّكَ لَن

(١) وهو يوشع بن نون، وقيل هو ابن أخت موسى وسمي فتاهُ لملازمته إياه. قيل في العلم، وقيل في الخدمة. وهو خليفة موسى على قومه من بعده. الماوردي؛ أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي، النكت والعيون، تحقيق: السيد ابن عبد المقصود بن عبد الرحيم (دار الكتب العلمية/ بيروت، د.ت.) ٣/ ٣٢١.

(٢) مزالق التعلم كثيرة منها قلة الصبر وضعف التجلد وأسباب أخرى تتضافر لتضاعف تلك المزالق تعود إلى بيئة العملية التعليمية وبيئة تنشئة المتعلم والغاية من طلب العلم.

تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾﴾ [الكهف: ٦٧-٦٨]، وموقف آخر ظهر فيه خوف المعلم وكان خوفه مشوبًا بالخشية والحذر ﴿وَأَمَّا ٱلْغُلَـٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَـٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾﴾ [الكهف: ٨٠] أما المتعلم (موسى) فقد تمازجت لديه دوافع فضول المتعلم مع غريزة فطرية تأخذ بظاهر الأمور، فلما كان الظاهر له فيه أذًى على الآخرين؛ هنا تنفلت حبال الغضب من عقالها بدافع الخوف؛ فيصادم معلمه باستنكار حاد يتجاوز العهد الذي أخذه معلمه عليه ﴿قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾﴾ [الكهف: ٧٠]، فكان غضبه بدافع الخوف (خرق السفينة، وقتل الغلام). كانت رؤية موسى أن خرق السفينة سيضر بأهلها ﴿قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾﴾ [الكهف: ٧١]، وأما قتل الغلام فهو عنده نُكْرٌ ﴿لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾﴾ [الكهف: ٧٤] وأما ملاحظته على إقامة الجدار فهي ليست من تأثير الغضب أو الخوف، وإنما من حرصه على إيفاء الحقوق. فهو ومعلمه قاما بعمل يستحق الأجر؛ لكنهما لم ينالا من أهل القرية ضيافة تُكرمهما. وتجتمع هذه الملاحظة من موسى مع ما صدر منه غضبًا بدافع الخوف، لتتكامل العاصفة التي نقضت ميثاق عهده مع معلمه. ويكون مشهد لقاء موسى بالرجل الصالح شاهدًا على أن العلم: هو الغاية، وله الغلبة، وبه الاستعانة.

نهاية المطاف

ننتهي بعد الطواف بمثيرات الخوف وتأثيراته إلى:

- الخوف غريزة فطرية وضعف بشري ليس مما يُعاب عليه المرء
- للخوف صور تتفاوت عند الأفراد وتتحكم في مسارها المواقف. فقد

تجتمع عند أحد من البشر وقد يطهر بعضها أو تضعف بعض صور الخوف. لكن الحقيقة العلمية أنه لا ينجو أحد من مس الخوف حتى الأنبياء.

- أُجملت صور الخوف في الإفراط والاعتدال والتقصير.
- أشد صور الخوف المفرط ما يتنامى ويسيطر في موقف ما (الفوبيا).
- قد يكون الخوف إيجابيًا إذا ما تلفع بالحذر.
- الرسل والأنبياء بشر يعتريهم الخوف قبل التكليف، وبعد التكليف يستقوون بالبشارات والتثبيت من المولى عز وجل.
- قد يأتي التثبيت لغير الأنبياء كالصالحين أو لغرض خاص يقدره الرب سبحانه.
- نال موسى كل صور الخوف .
- زخرت اللغة العربية بمعجم لألفاظ الخوف يختص كل لفظ بموقف أو درجة حدته أو مسببات تأثره وكذلك مدى تأثير.
- ضجت قصة موسى باختلافات العلماء والمفسرين حول قضايا تدخل في سياق التوثيق التاريخي مما أشرنا إليه ولم نَفْصل القول فيه لأن هذا الاختلاف لا يدخل في اهتمام هذا البحث. من هذه القضايا الاختلاف في صحة بعض أسماء الأعلام وضبطها، أو نسبة بعض الوقائع إلى شخصيات ما، أو نسبة أقوال محددة في واقعد معينة لشخص ما مثل القول (أتريد أن تقتلني). وقد يأتي الخلط بين الشخصيات كالرجل الناصح لموسى والرجل الذي يكتم إيمانه. ويأتي الاختلاف في القوم السبعين الذين عادوا مع موسى بعد ميعاده الثاني.

- من القيم التي نستشفها من قصة موسى أهمية الانتماء العائلي.
- إن البطش والجبروت مصيره الانهيار مهما طال زمنه وشعشع لمعانه. مثاله ما انتهى إليه فرعون وهامان وقارون.
- إن تاريخ الأنبياء وقصصهم يستحق إعادة القراءة بتدبر وقد دعانا الله سبحانه لذلك في قرآن يتلى ويصلى به ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٢ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ۝٣﴾ [يوسف: ٢-٣].



المصادر والمراجع

الألوسي؛ محمد شكري البغدادي:
روح المعاني في تفسير القرآن الكريم والسبع المثاني، (دار إحياء التراث/ بيروت، ٢٠٠٧م).
البخاري؛ أبو عبد الله، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة ابن بردزبه (ت٢٥١هـ):
صحيح البخاري. تحقيق جماعة من العلماء الطبعة السلطانية، صورها محمد زهير الناصر، (دار طوق النجاة القاهرة، ١٤٢٢هـ) .
البغوي؛ أبو محمد بن الفراء البغوي الشافعي (ت ٥١٠ هـ):
معالم التنزيل في تفسير القرآن ط ١ تحقيق عبدالرزاق المهدي (دار إحياء التراث العربي/ بيروت، ١٤٢٠هـ).
البيضاوي؛ ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي (ت٦٨٥هـ):
أنوار التنزيل وأسرار التأويل تحقيق محمد عبد الرحمن المرعشلي. ط١ (دار إحياء التراث العربي/ بيروت، ١٤١٨هـ).
التستري؛ أبو محمد سهل بن عبد الله بن يونس بن رفيع (ت ٢٨٣هـ):
تفسير التستري، تحقيق، محمد باسل عيون السود ط١ (منشورات محمد علي بيضون/ دار الكتب العلمية/ بيروت، ١٤٢٣هـ).
الثعلبي؛ أبو إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم، (ت ٤٢٧هـ):
الكشف والبيان عن تفسير القرآن. تحقيق الإمام أبي محمد بن عاشور ط١ (دار إحياء التراث العربي / بيروت - لبنان، ٢٠٠٢م).
الجرجاني؛ أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد (٤٧١هـ):
دَرْجُ الدُّرر في تَفِسيرِ الآيِ والسُّوَر (ت٤٧١هـ) تحقيق: وَليد بِن أحمد بن

صَالِح الحُسَيْن، وإياد عبد اللطيف القيسي.ط١ (مجلة الحكمة / بريطانيا، ٢٠٠٨م).
الجمل؛ سليمان بن عمر بن منصور العجيلي(ت١٢٠٤هـ):
حاشية الجمل في الجلالين، ط١ (دار الكتب العلمية / بيروت، ٢٠١٣م).
الجوزي؛ أبو الفرج عبدالرحمن بن علي بن محمد الجوزي (ت ٥٩٧هـ):
زاد المسير تحقيق عبدالرزاق المهدي، (دار الكتاب العربي/ بيروت، ١٤٢٢هـ)
حبنّكة؛ عبد الرحمن حسن(ت١٤٢٥هـ):
معارج التفكر ودقائق التدبّر ط١ (دار القلم/ دمشق، ٢٠٠٢م.)
الحربي؛ عبدالعزيز:
الخوف في حياة موسى عبد العزيز الحربي (مطبعة الحميضي/ الرياض، ١٤٣٥هـ).
أبو حيّان؛ محمد بن يوسف(ت٧٤٥هـ):
البحر المحيط، دراسة وتحقيق: عادل عبد الموجود وآخرين. ط ١ (دار الكتب العلمية/ بيروت، ١٩٩٣م).
الخطيب؛ محمد الشربيني (ت٩٧٧هـ):
السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير (مطبعة بولاق/ القاهرة، ١٢٨٥هـ).
السيوطي؛ عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (ت هـ):
الدر المنثور في التفسير بالمأثور (دار الفكر/ بيروت، ٢٠١١م).
الرازي؛ أبوعبدالله فخرالدين محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الملقب (ت٦٠٦هـ):
مفاتيح الغيب. ط٣ (دار إحياء التراث العربي / بيروت، ١٤٢٠هـ).

الزحيلي؛ وهبة بن مصطفى(ت١٤٣٦هـ):
التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج. ط ٢ (دار الفكر المعاصر – دمشق، ١٤١٨هـ) .
الزمخشري؛ أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد جار الله (ت ٥٣٨هـ):
الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل ط ٣ (دار الكتاب العربي / بيروت ١٤٠٧هـ).
أبو زيد رحمون:
الدلالات السياقية في القصص القرآني – قصة موسى أنموذجًا، (رسالة ماجستير مقدمة إلى قسم اللغة والأدب العربي في كلية الآداب واللغات - جامعة فرحات عباس، سطيف/ الجزائر في السنة الجامعية ٢٠١٠-٢٠١١م).
أبو السعود العمادي؛ محمد بن محمد بن مصطفى (ت ٩٨٢هـ):
تفسير أبي السعود – إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم» (دار إحياء التراث العربي/ بيروت د.ت.).
ابن سلام القيراواني؛ يحيى بن سلام بن أبي ثعلبة (ت ٢٠٠هـ):
تفسير يحيى بن سلام، تحقيق. الدكتورة هند شلبي. ط١ (دار الكتب العلمية / بيروت، ٢٠٠٤ م).
السمرقندي، أبو الليث نصر بن محمد بن إبراهيم، (ت ٣٧٣هـ):
بحر العلوم، تحقيق علي معوض وعادل عبد الموجود وزكريا النوتي. (دار الكتب العلمية/ بيروت، ٢٠١٤م).
السمين الحلبي؛ أبو العباس، شهاب الدين، أحمد بن يوسف بن عبد الدائم (ت ٧٥٦ هـ):
عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ. تحقيق: محمد باسل عيون السود. ط١ (دار الكتب العلمية/ بيروت ١٤١٧هـ).

الشافعي؛ أبو عبد الله محمد بن إدريس (ت ٢٠٤هـ):
الرسالة، تحقيق: أحمد شاكر ط١ (مكتبه الحلبي/ ١٣٥٨هـ/ ١٩٤٠م).
الشنقيطي؛ محمد الأمين بن محمد المختار:
العذب النمير من مجالس الشنقيطي (دار ابن القيم / الدمام، ١٤٢٤هـ).
الشوكاني؛ محمد بن علي بن محمد بن عبد الله اليمني (ت ١٢٥٠هـ):
فتح القدير ط١ (دار ابن كثير، دار الكلم الطيب - دمشق، بيروت، ١٤١٤هـ).
الشيحي؛ علي بن محمد بن إبراهيم (ت ٧٤١هـ):
لباب التأويل في معاني التنزيل تصحيح: محمد علي شاهين (ط١، دار الكتب العلمية/ بيروت، ١٤١٥هـ).
شيخ موسى؛ محمد خير:
النزعة القصصية في الأدب العربي، حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية - جامعة الكويت، الرسالة ٢٤٥- الحولية ٢٦/ يونية ٢٠٠٦م.
سديرة؛ سهام:
بنية الزمان والمكان في قصص الحديث النبوي، (رسالة ماجستير في جامعة قسنطينة- كلية الآداب، قسم اللغة العربية وآدابها/ الجزائر - السنة الجامعية ٢٠٠٥- ٢٠٠٦م).
ابن سيدة؛ أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيده المرسي (ت ٤٥٨ هـ):
المخصص، تصدير: خليل إبراهم جفال ط (دار إحياء التراث العربي/ بيروت، ١٤١٧هـ)
الصاوي؛ أحمد بن مُحَمَّد الصَّاوِي المالكي الخَلْوَتي (ت ١٢٤١ هـ):
حاشية العلامة الصاوي على تفسير الجلالين (المكتبة الإسلامية/ القاهرة د. ت.)
صحيفة أخبار اليوم ٤/ أغسطس/ ٢٠١٨م

الضياء؛ أبو أحمد محمد عبد الله الأعظمي:
الكامل في الحديث الصحيح الشامل المرتب على أبواب الفقه، ط١، (دار السلام للنشر والتوزيع، /الرياض، ٢٠١٦ م)
الطبري؛ محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر (ت ٣١٠هـ):
- تاريخ الرسل والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ط٢ دار التراث / بيروت، ١٣٨٧هـ) مصورة عن طبعة دار المعارف في مصر د.ت.
- جامع البيان عن تأويل آي القرآن؛ تحق: الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي ط١ (بالتعاون مع مركز البحوث والدراسات الإسلامية بدار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلام بيروت ٢٠٠١ م).
- صحيح وضعيف تاريخ الطبري، تحقيق محمد بن طاهر البرزنجي ط ١ (دار ابن كثير/ دمشق- بيروت، ١٤٢٨هـ).
الطنطاوي؛ علي(ت١٤٢٠هـ):
مجلة الرسالة، كتاب الدين الإسلامي، العدد ٣٣٦، ١١ ديسمبر ١٩٣٩م
الميداني .
العاني؛ عبد القادر بن ملاّ حويش السيد محمود آل غازي (ت ١٣٩٨هـ):
بيان المعاني ط ١(مطبعة الترقي/ دمشق، ١٩٦٥م)
عبد الباقي؛ محمد فؤاد(ت١٣٨٨هـ):
المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم (دار الكتب المصرية/ القاهرة، ١٣٦٤هـ).
ابن عثيمين؛ محمد بن صالح بن محمد العثيمين (ت هـ):
تفسير ابن العثيمين: الفاتحة والبقرة. (دار ابن الجوزي، /المملكة العربية السعودية، هـ).
ابن عطية؛ أبو محمد عبدالحق بن غالب بن عبدالرحمن بن تمام (ت٥٤٢هـ):

المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز. تحقيق محمد أبو الأجفان محمد الزاهي ط٢ (دار الغرب الإسلامي/ بيروت، ١٩٨٣م).

عقيلة؛ محمد بن أحمد بن سعيد الحنفي المكيّ، شمس الدين (ت ١١٥٠هـ):

الزيادة والإحسان في علوم القرآن تحقيق: أصل هذا الكتاب مجموعة رسائل جامعية ماجستير لأساتذة باحثين. ط١، (مركز البحوث والدراسات جامعة الشارقة / الإمارات، هـ.)

ابن غيهب؛ بكر بن عثمان بن يحيى (ت١٤٢٩هـ):

المناهي اللفظية، ط ٣ (دار العاصمة / الرياض ١٤١٧هـ).

الفراء؛ أبو زكريا يحيى بن زياد بن عبد الله بن منظور الديلمي الفراء (ت هـ):

معاني القرآن تحق: أحمد يوسف النجاتي/ محمد علي النجار/ عبد الفتاح إسماعيل الشلبي. ط ١ (الدار المصرية للتأليف والترجمة / مصر، د.ت.) .

الفيروزآبادى؛ مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب (ت ٨١٧هـ):

بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز. تحقيق: محمد علي النجار. (المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - لجنة إحياء التراث الإسلامي / القاهرة، ١٤١٦هـ).

القاسمي؛ محمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم الحلاق (ت ١٣٣٢هـ):

تفسير محاسن التأويل، تحقيق محمد باسل عيون السود، ط١ (دار الكتب العلمية/ بيروت، ١٤١٨هـ)

ابن قتيبة الدينوري؛ أبو محمد عبد الله بن مسلم (ت ٢٧٦هـ):

- غريب القرآن تحقيق سعيد اللحام. (دار الكتب العلمية/ مصر، ١٣٩٨هـ).
- المَعَارف تحقيق وتقديم: الدكتور ثروت عكاشة. ط٢ (دار المعارف/ مصر، ١٩٦٩م).

ابن قدامة المقدسي؛ نجم الدين، أبو العباس، أحمد بن عبد الرحمن (ت ٦٨٩هـ):
مختصر منهاج القاصدين (مكتَبَةُ دَارِ البَيَانْ / دمشق، ١٣٩٨هـ) .
القرطبي؛ أبو عبد الله، محمد بن أحمد الأنصاري (ت٦٧١هـ):
الجامع لأحكام القرآن. تحقيق أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش ط٢ (دار الكتب المصرية/ القاهرة، ١٣٨٤هـ)
ابن كثير ؛ أبو الفداء إسماعيل بن عمر (ت ٧٧٤):
- قصص الأنبياء، تحقيق مصطفى عبدالواحد ط١ (مطبعة دار التأليف/ القاهرة، ١٣٨٨هـ).
- تفسير القرآن الكريم تحقيق سامي بن محمد السلامة ط ٢ (دار طيبة للنشر والتوزيع/ الرياض، ١٤٢٠هـ).
الماتريدي؛ محمد بن محمد بن محمود، أبو منصور (ت٣٣٣هـ):
تأويلات أهل السنة، تحقيق مجدي باسلوم، ط١ (دار الكتب العلمية/ بيروت، لبنان، ٢٠٠٥م)
الماوردي؛ أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي (ت ٤٥٠هـ):
النكت والعيون، تحقيق: السيد ابن عبد المقصود بن عبد الرحيم (دار الكتب العلمية/ بيروت د.ت.) .
مجاهد؛ أبو الحجاج مجاهد بن جبر (ت ١٠٤هـ):
تفسير مجاهد، تحقيق: محمد عبد السلام أبو النيل (ط١، دار الفكر الإسلامي الحديثة/ مصر، ١٩٨٩م)
مطني؛ محمد:
سورة القصص دراسة تحليلية، رسالة ماجستير (المكتبة الإسلامية / غزة ٢٠٠٣ م).

مقاتل؛ أبو الحسن مقاتل بن سليمان بن بشير الأزدي البلخى (ت ١٥٠هـ):
تفسير مقاتل بن سليمان، تحقيق: عبد الله محمود شحاته (ط١، دار إحياء التراث/ بيروت، ١٤٢٣هـ).
الناصري؛ محمد المكي:
التيسير في أحاديث التفسير (ت ١٤١٤هـ) (دار الغرب الإسلامي/ بيروت ١٩٨٥م)
الواحدي؛ أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي (ت ٤٦٨هـ):
الوسيط في تفسير القرآن المجيد. تحقيق الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، وآخرون ط١ (دار الكتب العلمية/ بيروت ١٩٩٤م).
بني يونس؛ محمد محمود:
سيكولوجية الدافعية والانفعالات. ط١ (دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة. / عمّان ٢٠٠٧).



بأمر الهوى من مُولعِ القلب هائمِه ... وحقِّ الوفا من حافظِ العهد حازِمِه
تسوقُ رياحُ الحُبِّ مني سَحابةً ... محمَّلةً مِن ماءِ بِرِّي بدائمِه
بشكري بإجلالي بفخري ببهجتي ... مدى العُمرِ تهمي في جميعِ مواسمِه
إلى شافعيِّ النحوِ في يومِ فقهِهِ ... وخالدِهِ يَومَ النزالِ وحاتمِه
تعاهَدَني في روضةِ العلمِ بذرةً ... وما زال يَسقيني بِدِيمِ غمائمِه
يراني نديًّا والندى منهُ جاءني ... وضيئًا وضوئي لمحةٌ من عزائمِه
وما أنا إلا نُزْفَةٌ من بحارِهِ ... وقَدحةُ زَندٍ من شموسِ مكارمِه
فيا ليتَ شعري كيفَ أوفيه حقَّهُ ... وأجزيهِ عن ماضي العطاءِ وقائمِه
فعذرًا أبا أوسٍ فلستُ ببالغٍ ... من الشكرِ، مهما قلتُ، كعبَ قوائمِه
فإن كان للعلمِ الحقيقِ عواصمٌ ... فإنَّكَ والرحمنِ إحدى عواصمِه
فسبحان مَن ثَنَّى بكَ الشمسَ فانجلَت ... بها من ظلامِ الجَهلِ كلُّ قواتمِه
وسمّاك إبراهيمَ إذ كنتَ أُمَّةً ... لوحدِكَ فينا أُترِعَت بنعائمِه

أبو الطيب محمد بن علي العمري
أبها، الثلاثاء ١ ذي القعدة ١٤٤٣هـ

رقم الإيداع: ١٤٤٣/١٢٥٩٣
ردمك: ٨-١٩٤١-٠٤-٦٠٣-٩٧٨